

# النُّسَاء

الرَّوَايَةُ كَامِلَةٌ  
فِي خَمْسَةِ مَجَلَّدَاتٍ



# البُؤْسَاءُ

لِسَاءِ فَرَنْسَةِ الْعَظِيمِ  
فِيكتور هيجُو

المجلد الثاني

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ  
مُنِيرُ الْعَبَّاسِي

دار العلم للملايين  
ببيروت

البُؤْسَاءُ

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩



اِقْسِمُ الشَّانِي

كُوزِيَّتْ



## الكتاب الأول

# واترلو

### ١

ما الذي تلتقيه وانت مقبل من نيفيل

في العام الماضي ( ١٨٦١ ) ، ذات صباح جميل من أيام نوار ، كان احد المسافرين - وهو الرجل الذي يروي هذه القصة - يتجه من « نيفيل » الى « لاهوب » . كان يرحل سعياً على قدميه ، سالكاً - بين صفين من الاشجار - طريقاً عريضة معبدة تتعرج فوق تلال كانت تتعاقب واحدة اثر اخرى ، فتزحفها حيناً ، وتهبط بها حيناً ، مثل امواج هائلة . كان قد اجتاز « ليلوا » و « برا - سينيور - انزاك » . لقد رأى في ناحية الغرب قبة كنيسة « برين لالو » المصنوعة من حجر الآردواز ،

والتي يشبه شكلها شكل إناء مقلوب . وكان قد خلف وراءه منذ لحظة غابة على شرف من الارض . وعند زاوية احدى الطرق الضيقة المختصرة ، الى جانب ضرب من المعتمل النخيل الحامل هذا الكلام : « باب المدينة القديم رقم ٤ » كانت حانة على واجهتها هذه اللافتة : حانة الرياح الاربعة ، ايشابو ، مقهى خصوصي .

وعلى ثمن فرسخ وراء هذه الحانة انتهى المسافر الى قعر وادي صغير حيث كان جدول يجري تحت قنطرة قائمة عند الطريق المردومة . وكانت باقية الاشجار ، المتناثرة ولكنها شديدة الخضرة ، والمائلة صفحة الوادي من احد جانبي الطريق — كانت هذه الباقية تتبدد عند الجانب الآخر في المروج ، وتنسبط في فوضى دمتة نحو « برين لالو » .

هناك ، الى اليمين ، وعلى حافة الطريق ، كان فندق " امام بابه كارة " ذات اربع عجلات ، وحزمة ضخمة من عيدان حشيشة الدينار ، ومحراث ، وركام من العواسج الجافة قرب سياج من الاشجار الشائكة ، وفي من الكلس يرسل الدخان في حفرة مربعة ، وسلم ملقاة في محاذاة سقفة عتيقة ذات مداود للثمن . كانت فتاة " صغيرة تقتلع الاعشاب الضارة من حقل كانت الربيع تعبت فيه باعلان كبير اخضر ، لعله كان خاصاً بمسرح منجول يقدم الروايات لمناسبة سوق سنوية ما . وعند زاوية الفندق ، الى جانب مستنقع صغير كان يُبحر فيه أسيتيل " من البط ، اقتحم احد الازقة المليئة بالاخاديد قلب الادغال ، فاضاع فيها نفسه . لقد اتخذ ذلك المسافر هذه السبيل .

وبعد ان خطا مئة خطوة ، مجتازاً بسور يرقى الى القرن الخامس عشر نعلوه واجهة مثلثة حادة الزاوية مشيدة بالآجر المنسقى على نحو يظهر التضاد بين اجزائه ، وجد نفسه تجاه باب كبير مبني من حجارة "مقنطرة" ، ذي كوة في اعلاه مستقيمة الاضلاع ، على طراز لويس الرابع عشر الوقور ، يحيط بها من جانبيها نقشان مدوران مستويان .

وفوق هذا الباب كانت واجهة كالحة ؛ وعلى خط عمودي مع الواجهة كان جدار يمس الباب أو يكاد ، ويدعمه بزاوية قائمة مقتضبة . وعلى المرج المنبسط امام الباب انطرحت ثلاث مجارف كبيرة مسدنة انبثقت من خلالها ، على احسن ما استطاعت ، رياحين نوار كلها . كان الباب موصداً . وكان مغلقاً بصراعين متداعيين للسقوط ، مزدانين بقارعة عتيقة صدئة .

كانت الشمس فاتنة . وكانت الافئدة ترتعش ارتعاشة نوار الرفيعة التي تبدو وكأنها ناشئة عن اعشاش الطير لا عن الريح . وكان طائر متأنق ، لعله ان يكون عاشقاً ، يتغنى ببأس في شجرة عالية . وتمهل المسافر ، وتأمل الحجر الذي الى يسار الباب ، قرب الارض ، دارساً تجويفاً كبيراً دائرياً يشبه جوف كرة . وفي تلك اللحظة فتح مصراع الباب ، وخرجت منه امرأة ريفية . وبصرت بالمسافر ، وأدركت أي شيء كان يدرس .

وقالت :

— « إن احدى قذائف المدفعية الفرنسية هي التي فعلت ذلك . »  
ثم اضافت :

— « وما تراه هناك ، في مكان أعلى ، في الباب ، قرب أحد المسامير ، هو ثقب أحدثته بندقية ضخمة من ذلك النوع المعروف بالبندق البشكنية . \* إن البندقية لم تستطع ان تخرق الحشب . »  
فقال المسافر :

— « وما اسم هذا المكان ؟ »

فالت الفلاحة :

— « هو غومون . »

ورفع المسافر رأسه . وخطا بضع خطوات ، وأنشأ ينظر من فوق الأسيجة .

---

\* نبة ال مقاطعة «البشكنس» أو «الباسك» في أسبانية .

لقد رأى عند الأفق ، من خلال الاشجار ، شبه أكمة ، ورأى فوق هذه الأكمة شيئاً بدا ، من بعيد ، وكأنه أسد .  
كان في ساحة القتال بواترلو .

## ٢

### هوغومون

هوغومون - كانت تلك هي البقعة المشؤومة ، وبدا المقاومة ، وأول عائق لقيه في واترلو حطاب أوروبا العظيم ذاك ، الذي ندعوه نابوليون . أول عقدة تعترض سبيل الفأس .  
كانت حصناً ، أما اليوم فلم تعد أكثر من مزرعة . وكانت هوغومون Hougoumont تعرف عند جامعي الفانس الاثرية والمتاجرين بها بـ « هيغومون » Hugomons . وكان قد شيد هذا المعقل الاقطاعي هوغو ، سيد سوميريل ، وهو نفسه الذي وقف الاوقاف لوظيفة القس السادسة في دير « فيليو » . ودفع المسافر الباب ، ودفر بمرفقه عربة عنيقة كانت تحت مدخل مسقوف ، وتقدم الى الفناء .

كان أول ما لفت نظره في هذه الساحة باب يرقى الى القرن السادس عشر ، بدا وكأنه قنطرة بعد ان تساقط كل شيء من حوله . إن المشهد الأثري لينشأ في كثير من الاحيان عن الحراب . وقرب القنطرة انفتح باب آخر في الجدار ذو أغلاق \* من عهد هنري الرابع يكشف عن اشجار في بستان . والى جانب هذا الباب كانت مزبلة ، ومعاول ، ومجارف ، وبضع عربات من ذوات الدولابين ، وبئر قديمة ببلاطتها وبكرتها الحديدية ، ومُهرٌ يذب ، وديك رومي ينشر ريش زركته ،  
\* جمع غلق ، وهو الحجر الذي تنلق به فجرة رأس القنطرة .

ومعبد يعلوه برج أجراس صغير ، وشجرة إيجاص منورة معرشة على جدار المعبد . ذلك هو الفناء الذي كان احتلاله مُحَلِّمٌ نابوليون . ولو قد وفق الى الاستيلاء على تلك الزاوية من الارض اذن لكان من الجائز ان تمه الدنيا كلها . إن ثمة دجاجات تنثر التراب بمناقيرها . وإنك لتسمع زججرة . ذلك كلب كبير يكشر عن أسنانه ، ويجلّ محلّ الانكليز . لقد أبلى الأنكليز بلاء حسناً هناك . إن سرايا الحرس الاربع التي قادها كوك احتفظت بمواقفها سبع ساعات في وجه جيش شتّى عليها هجوماً ضارباً .

وهو غومون ، حين نرى على مخطط هندسي ينتظم الابنية والاراضي المصورة ، عبارة عن مستطيل غير متنسق بُنيت احدى زواياه . في تلك الزاوية يقوم الباب الجنوبي ، بحماية هذا السور الذي يمين عليها في مدى البندقية الأقصر . إن لموغومون باين : الباب الجنوبي ، وهو باب الحصن ، والباب الشمالي وهو باب المزرعة . ولقد وجه نابوليون اخاء جيروم لاحتلال هوغومون . لقد سُيِّرَ عليه فرق «غويمينو» \* و « فوا » \*\* و « باشلو » \*\*\* ولقد جردت الكتلة الكبيرة من قوات « راي » \*\*\*\* ضده ، فهزمت عنده . واستنفدت قنابل كيلرمان \*\*\*\*\* على جزء السور البطوليّ ذاك . وكان قهر هوغومون

\* Guilleminot جنرال وسياسي فرنسي . ( ١٧٧٤ - ١٨٤٠ )

\*\* Foy جنرال فرنسي ( ١٧٧٥ - ١٨٢٥ ) غطى انسحاب الجيش من اسبانية ، وشارك في معركة واترلو وجرح فيها .

\*\*\* Bachelu قائد فرنسي من نواد نابوليون الذين شاركوا في هذه المعركة ايضاً .

\*\*\*\* Rellé مارشال فرنسي ( ١٧٧٥ - ١٨٦٠ ) أبلى بلاء حسناً في واترلو اكبه مجداً عظيماً .

\*\*\*\*\* Francois - Etienne Kellermann قائد فرسان فرنسي ( ١٧٧٠ - ١٨٢٥ ) توشح بالجد في معركة ماراثون ثم في معركة لوتزن وواترلو .

من الشمال اكثر مما يطيقه لواء « بودوين » ؛ ولم توفق فرقة « سوا » الى غير تدميرها من الجنوب . لقد عجزت عن الاسنيلا عليها .  
وانما تقوم ابنية المزرعة على الجانب الجنوبي من الفناء . ان جزءاً صغيراً من الباب الشمالي الجنوبي ، وقد حطمه الفرنسيون ، ليتدلى متأرجحاً من السور . انه مؤلف من اربعة الواح خشبية مسمرة على عارضتين ، حيث يستطيع المرء ان يبين ندوب \* الهجوم .  
والباب الشمالي ، الذي استولى عليه الفرنسيون ، والذي اضيفت اليه قطعة جديدة تعويضاً عن المصراع المتدلي من السور ينهض نصف منفتح عند ادني الفناء . لقد فصل على شكل مربع في جدار اسفله حجري وأغلاء آجري ، يحيط بالفناء من ناحية الشمال . إنه جدار كارتوي \*\* بسيط ، كذلك الذي نجده في جميع المزارع الصغيرة ، يتألف من مصراعين ضخمين مصنوعين من الواح غلاظ . ووراء ذلك تنبسط المروج . لقد كان النزاع على هذا المدخل ضارباً . وطوال فترة غير قصيرة كان في إمكان المرء ان يرى ، على قائمة الباب ، بصات الايدي الدامية على اختلافها . فهناك كان بودوين قد صرع .

إن عاصفة الصراع لا تزال في هذا الفناء ؛ وان المول لا يزال مشهوداً هناك . إن الدمار الناشئ عن القتال لم تحجر في تلك البقعة . هذا يحيا ، وهذا يموت ؛ لكن ذلك كان بالأمس . إن الجدران لتحتضر ، وإن الحجارة لتتناقض ، وإن التلثم لتصبح . ان الحفر جراحات . وان الاشجار ، وقد انحنى وارتعشت ، تبدو وكأنها تبذل جهودها لكي تفر .

هذا الفناء كان ، في عام ١٨١٥ ، في حال خير من حاله اليوم .

\* الندبة : اثر الجرح اذا لم يرتفع عن الجلد . وجها تدب . وجع الجمع ندوب .  
\*\* نبة ال الكارة وهي عربية الوسق ذات الدولايين ، او ذات الاربعة دواليب .



كانت الابنية التي دُكِّت منذ ذلك الحين بشكل "استحكامات ، وزوايا ، وزوايا مثلك .

كان الانكليز متحصنين هناك خلف المتاريس ؛ ووفق الفرنسيون الى اختراق هذه المتاريس ، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بموقعهم الجديد . والى جانب المعبد ، ينهض جناح من الحصن - الاثر الوحيد الباقي من قصر هوغومون الاقطاعي - على نحو منقضى ، بل ان المرء ليستطيع القول انه ينهض مبهوراً مجرداً من احشائه . لقد اتخذ من الحصن برجاً مركزياً للمقاومة ، واتخذ من المعبد معقلاً خفياً ذا منافذ لاطلاق النار من البنادق . لقد عمل القوم على ان يُغني بعضهم بعضاً . لقد صرع الفرنسيون بنيوان البنادق تنصب عليهم من كل ناحية ، من وراء الاسوار ، من سطوح اهرام الخنطة ، من اغوار الأقبية ، من خلال كل نافذة ، من خلال كل منفذ من منافذ الهواء ، من خلال كل فرجة بين الحجارة ، فحملوا حزم الحطب واحرقوا الاسوار والرجال : لقد اجابوا على نيران البنادق والمدافع بنيوان الحريق .

وفي وسع المرء ان يلمح في الجناح الحرب ، من خلال النوافذ المتضبة بالحديد ، الغرف المهتمة من بناء رئيسي مشيد بالآجر ؛ وكان الحرس الانكليزي يكمن للفرنسيين في هذه الغرف . إن السلم اللولبية المصدوعة من الاساس الى السطح تبدو مثل داخل صدقة مكسورة . ولتلك السلم منبسطان . وكان الانكليز ، وقد حوصروا في السلم ، واحتشدوا فوق درجاتها العليا ، قد ازالوا الدرجات الدنيا . وكانت هذه صفائح عراضاً من حجر ازرق تزي الآن مركومة بين القُرَاص . إن اثنتي عشرة درجة لا تزال عالقة بالسور ، ولقد نُقِشت على أولها صرة خطاف ثلاثي الشعب . وهذه الدرجات التي لا سبيل الى بلوغها مكيئة في مغارزها ؛ وكل ما بقي يشبه فكاً أذرد . \* ان ثمة

• الأورد : من ذهب استانه كاه .

شجرتين هرميتين ؛ احدهما ميتة ، والاخرى جرمجة الساق ولا تورق الا في نيسان . ومنذ سنة ١٨٥٠ شرعت تنمو عبر السلم .

ووقعت مذبح في المعبد . إن الجزء الداخلي ، وقد استعاد سكينته ، لغريب حقاً . فلم يحتفل فيه بقداس منذ تلك الجزيرة . ومع ذلك فلا يزال المذبح قائماً - إنه مذبح من خشب غليظ مُسند الى جدار من حجر لم تعالجه يد الصناعة . اربعة جدران مِيْضَة بماء الكلس ؛ باب مواجه للمذبح ؛ نافذتان صغيرتان مقطرتان ؛ وعلى الباب مثال للمصوب خشبيّ ضخم ، وفوق مثال المصوب فتحة مربعة سدّت بجزمة من التين ؛ وعلى الارض في احدى الزوايا إطار نافذة مزجج قد تكسر كله : كذلك هي هذه الكنيسة . وقرب المذبح عُلقَ مثال خشبيّ للقديسة آنّ يرجع عهده الى القرن الخامس عشر . اما رأس يسوع الطفل فكانت قد اطاحت به طلقة بندقية . لقد هيمن الفرنسيون ، لحظةً ، على المعبد ثم أخرجوا منه ، فأضرموا النار فيه . وملأت ألسنة اللهب هذه الحربة المتداعية فأمت اتوناً . لقد اشتعل باب المعبد ، واشتعل ارضيته ، ولكن المسيح الخشبيّ لم يشتعل . لقد التهمت النار قدميه اللتين لا نرى منها بعدُ غير بقية مودّة ، ثم وقفت عند هذا الحد . معجزة - كذلك يقول اهل المنطقة . أما يسوع الطفل ، الذي اقتطع رأسه ، فلم يُجالفه الحظ بقدر ما حالف المسيح .

إن الجدران مغطاة بالنقوش . فأمام قدمي المسيح نقرأ هذا الاسم : هينكينيز Henquinez . ثم نقرأ هذه الاسماء : الكونت دو ريو مايور . المركيز والمركيزة دو آلامغرو ( هابانا ) Conde de Rio Maior . Marques y Marquesa de Almagro ( Habana ) وهناك اسماء فرنسية ملحقة بعلامات تعجب ، إشارة الغضب . لقد بُيِّض الجدار بماء الكلس عام ١٨٤٩ . كانت الامم تهنّ بعضها بعضاً على صفحته .

وعند باب هذا المعبد بالذات التفتت جنة بمسكة ييدها فأماً .

كانت هي جنة الملازم الثاني ليفروس .

وحين يغادر المرء المعبد يرى الى يساره بئراً . إن في هذا الفناء بئرين . وقد تتساءل : لم لا يوجد دلو وبكرة لهذه البئر ؟ لأن احداً ما عاد يستقي الماء منها الان . ولكن لم لا يستقون الماء منها ؟ لأنها مملأى بالمياكل العظيمة .

أما آخر من منح الماء من هذه البئر فكان غيلوم فان كيلسوم . كان ريفياً يعيش في هروغومون ، وكان بستانياً هناك . وفي ١٨ حزيران ، ١٨١٥ ، فرت أسرته ، واختبأت في الغابات .

وآوت الغابة المحيطة بدير « فيليير » هذه الاسرة البائسة المشتتة عدة أيام وعدة ليالٍ . وحتى اليوم يستطيع المرء ان يتبين بعض الآثار ، من مثل جذوع الاشجار الهرمة المحترقة ، التي تعين مستقر هؤلاء المشردين البائسين ، المرتعدي الاوصال ، في أعماق الأجمة .

وظل غيلوم فان كيلسوم في هروغومون « لكي يحرس الحصن » ، واختبأ في أحد الاقبية . وعثر عليه الانكليز هناك . فانتزعوه من محبته . وبوابل من الضربات سددت اليه بعرض السيف اكراه الجند هذا الرجل المروع على ان يخدمهم . كانوا عطاشاً ، فجاءهم غيلوم هذا بالماء . وإنما استقى الماء لهم من هذه البئر . وشرب كثير منهم آخر جرعاتهم . وكان لا بد لهذه البئر ، حيث شربت جبهة من القتلى ، من ان تقوت هي ايضاً .

وبعد انتهاء المعركة قضت الحاجة بالتعجيل في دفن الجثث . ولت الموت أسلوبه في تنقيص النصر على المنتصرين ، فهو يُمنع المجد بالطاعون . والטיפوس ملحق من ملحقات النصر . وهذه البئر كانت عميقة ، فجعلها القوم قبراً . لقد ألقى فيها ثلاثمائة قتيل . ولعل ذلك كان باكثر مما ينبغي من السرعة . هل كانوا كلهم امواتاً ؟ الاسطورة تقول لا . والذي يبدو انه في الليلة التي تلت دفنهم سمعت اصوات واهنة تتطلق من البئر

مستغثة .

والبئر معزولة في وسط الفناء . وانما تحيط بها من جهات ثلاث جدران ثلاثة سُتِد نصف كل منها من حجر ونصفه الآخر من آجر ، وتفتت مثل حجاب واقٍ من الهواء ( بارافان ) ، مشبهةً برجاً صغيراً مربعاً . اما الجهة الرابعة فكانت مفتوحة . ومن تلك الجهة كان الناس ينعون الماء . والجدار الخلفي شبه كوة لا شكل لها ، ولعلها ثقب ناشئ عن احدى القذائف . ولهذا البرج سقف لم يبق منه غير العوارض الخشبية الضخمة . والحديد الذي يدعم الجدار الايمن على شكل صليب . وتحتي فوق البئر ، قنصل العين في بناء اسطواني آجري صق غلاه اكوام من الظلمات . وحول البئر كلها تختفي الاجزاء الدنيا من الجدران خلف القتراص .

وليس يوجد امام هذه البئر تلك الصفيحة العريضة من الحجر الازرق التي 'نصطنع' كحاجز واقٍ في جميع آبار بلجيكة . لقد استعاض عن الحجر الازرق بعارضة تستند اليها خمس قطع او ست قطع خشبية مشوّهة ، كثيرة العقد متصلة ، تشبه عظاماً ضخمة . لم يبق ثمة لا دلو ، ولا سلة ، ولا بكرة . ولكن الحوض الحجري الخاص بالمياه الفائضة لا يزال هناك . إن ماء المطر ليجتمع في هذا الحوض ، وبين الفينة والفينة يقدُ اليه من الغابة المجاورة طائرٌ ما ، فيشرب ، ويتخذ سبيله في الجو .

ان بيتاً واحداً بين هذه الحرائب ، هو بيت صاحب المزرعة ، لا يزال أهلاً بالسكان . وباب هذا البيت يفتح على الفناء . والى جانب صفيحة جملة قوطية خاصة بموضع المفتاح من القفل كانت فوق هذا الباب حفنة من حديد مائلة الى امام 'قصد بها الى ان تكون حلية' على شكل ورق البرسيم . وفي اللحظة التي امسك فيها الملازم الماتوفري « وبلدا » بهذه الحفنة ليجد ملجأ في المزرعة قطع يده جندي فرنسي بضربة فأس .

وكان البستاني السابق ، فان كيلوم ، الذي توفي منذ عهد طويل ،  
جدة الأسرة التي تحتل هذا البيت . إن امرأة ذات شعر أشيب تقول  
لك : « لقد كنتُ هناك » . كان عمري ثلاث سنوات . لقد خافت اخي ؛  
وهي اكبر مني سناً ، وصرخت . وانتقلوا بنا الى الغابات . لقد كنت  
بين ذراعي امي . لقد الصقوا آذانهم بالارض لكي يصفوا . اما انا ،  
فقلدت المدفع ورحلت اقول : « بووم ! بووم ! » .

إن احد ابواب الفناء ، ذاك الذي يقوم الى اليسار ، يفتح كما  
ذكرنا من قبل على البستان .

والبستان فطيع . إنه ذو اقسام ثلاثة ، بل ان استطاعة المرء ان  
يقول إنه ذو فصول ثلاثة . فالقسم الاول حديقة ، والقسم الثاني  
هو البستان ، والقسم الثالث غابة . وهذه الاقسام الثلاثة سور  
مشترك ؛ فالى جانب المدخل تقوم ابنية الحصن والمزرعة ، والى اليسار  
سياج ، والى اليمين جدار ، والى الورا جدار ، والجدار الايمن آجري ،  
اما الجدار الخلفي فججري . وانما يدخل المرء الى الحديقة اولاً . انها  
منحدرة ، نمت فيها شجرات عنب الذئب ؛ وغطتها النباتات البرية ،  
وتنتهي بسطيحة فضة من حجر منحوت ، اعمدة درابزونها مزدوجة  
الشخانة . كانت حديقة جديرة بسيد عظيم ، 'نسقت على الطراز الفرنسي  
الاول الذي سبق طراز عصرنا ، ولكنها اليوم خراب وعوسج . ان  
ركائزها المربعة والمستطيلة تعلوها كُرّات تبدو وكأنها قذائف مدفعية  
حجرية . وفي امكاننا ان نحصى ثلاثة واربعين عموداً من اعمدة الدرابزون  
لا تزال في مواضعها . اما ساورها فنطرح على العشب . وهي كلها  
تقريباً تتكشف عن خدوش من اثر نيران البنادق . إن عمود الدرابزون  
المحطم ليظل منتصباً مثل رجل مكسورة .

وفي هذه الحديقة التي هي اشد انخفاضاً من البستان اضطر ستة من  
رجال فرقة المشاة الفرنسية الخفيفة الاولى كانوا قد دخلوا الى هناك

وتعذر عليهم الفرار بعد ان وقعوا في الشرك كما تقع الدببة في وجرتها - اضطر هؤلاء الرجال الستة الى ان يخوضوا المعركة ضد مريتين هانوفريتين \* كانت احدهما مسلحة بالكاربينات \* \* واصطف الهانوفريون على طول اعمدة الدرايزون هذه ، وانشأوا يطلقون النار من أعلى . واجابه المشاة الفرنسيون من ادنى ، وكانوا ستة مقابل اثنين ، وكانوا باسليين لا يقبهم غير شجرات غنب الذئب ، فاحتاجوا الى ربع ساعة لكي يموتوا .

وتصعد بضع خطوات ، ومن الحديقة تنتقل الى البستان الحقيقي . هناك ، في هذه الامتار القليلة المربعة ، صرع الف وخمسة رجل في اقل من ساعة . ان الجدار ليبدا مستعداً لاستئناف القتال . وإثر المرامي \*\*\* الثانية والثلاثين التي فتحتها الانكليز على مرتفعات متفاوتة من من ذلك الجدار لا تزال هناك . والى جانب المرمى السادس عشر يقوم قبران انكليزيان من الصوان . وليس ثمة من مرآة إلا في الجدار الجنوبي ؛ لقد جاء المجوم الرئيسي من هناك . وهذا الجدار محجوب من الخارج بسياج كبير من الاشجار الشائكة . ووصل الفرنسيون ، معتقدين انهم لن يجدوا في طريقهم غير السياج . فعبروه ، فوجدوا هذا الجدار يمتد بهم ، فهو عقبة وهو كين ، ووجدوا الحرس الانكليزي خلفه ، واذا بالمرامي الثانية والثلاثين تصب عليهم نارها دفعة واحدة - عاصفة من القنابل والرصاص . وتحطمت فرقة « سوا » هناك . لقد بدأت وترلو على هذا النحو .

ومع ذلك فقد تم الاستيلاء على البستان . ولم يكن عند الفرنسيين

---

\* نية ال هانوفر بالباية . وكانت في ذلك العهد مملكة مستقلة ، ثم غدت مقاطعة بروسية بعد الحرب النموية البروسية ( سنة ١٨٦٦ ) .

\* \* الكارين carbine ضرب من البنادق القصيرة الخفيفة .

\*\*\* جمع مرمي ، ويقصد به هنا تلك الكوة التي تفتح في جدار الحصن لكي تطلق منها القذائف .

سلام للنسور ، فسلقوا الجدار بأظافرهم . لقد حاربوا ، متلاصقي  
الاجساد ، تحت الاشجار . ولقد 'نقع' هذا العشب كله بالدماء .  
وهناك 'محيق' فوج من افواج ناسو \* ، عدته سبعة رجل محققاً  
خاطفاً . وفي الخارج ، 'نلم' السور الذي 'سدت' ضده وحدتا كيلومان  
المدفعيتان ، من أثر القذائف .

وهذا البستان سريع الاستجابة ، شئت غيره من البساتين ، لشهر  
نوار . ان له براعه الذهبية واقاحيه الصغيرة . إن العشب هناك عالي ؛  
وخيل المحرات 'ترعى' . وان حبال السنينب \*\* التي تجف عليها  
الملابس الداخلية لتجف المسافات الفاصلة ما بين الاشجار ، مكرهة  
المارة على ان يجنوا رؤوسهم . انك تسير فوق تلك الارض المهمة ،  
فتسبح قدمك في أجعار المناجد \*\*\* وفي وسط العشب تلاحظ جذع  
شجرة مقتلع الجذور ، منطرحاً على الارض ، ولكنه لا يزال  
يخضو ضر . لقد أسند المايحور بلا كان ظهره الى هذا الجذع وهو يلفظ  
أنفاسه الأخيرة . وتحت شجرة كبيرة مجاورة سقط الجنرال الالماني ،  
دوبلا ، وهو من امرة فرنسية فرّت عند إلغاء براءة نانت \*\*\*\* والى  
جانباها تماماً تنحني شجرة تفاح هرمة مريضة 'ضمدت' بعصابة من التبن  
والصلصال . وجميع شجرات التفاح تقريباً تنساقط على الارض تحت ثقل

---

\* Nazeau دولة المانية ألحقت ببروسية بعد الحرب النسوية البروسية عام ١٨٦٦ .

\*\* السيب من الفرس شعر الذنب والثاوية .

\*\*\* جمع خلد من غير لفظه ، وهو الفأر الاعمى الذي يمشي تحت الارض وليس  
له عينان ولا أذنان .

\*\*\*\* Edit de Nantes هي البراة التي اسدها الملك هنري الرابع ، عام ١٥٩٨  
ومنح فيها البروتستانت حق ممارسة شعائرهم الدينية ، ولكن الملك لويس الرابع عشر  
ألغاهما سنة ١٦٨٥ ، وقد أدى هذا الانعام الى هجرة عدد كبير من البروتستانت  
الى خارج الاراضي الفرنسية .

الشيخوخة . وليس ثمة واحدة لا تتكشف عن اثر من كُرّة مدفع او طلقة  
بندقية . إن هياكل الاشجار الميتة العظيمة لتكثر في هذا البستان . وإن  
الغربان لتطير على الاغصان . ووراء هذا البستان غابة ملاء بالبفسج .  
مصرع بودوين ؛ إصابة « فوا » بجرح ؛ الحريق ؛ المجزرة ؛ المذبحة ؛  
جدول يتكون من دم انكليزي ، ومن دم ألماني ، ومن دم فرنسي  
امتزجت في غضب عارم ؛ بشر مليئة بالجثث ؛ تحطيم سرية ناسو وسرية  
بروتزويك ؛ مصرع دوبلا ؛ مصرع بلاكان ؛ إصابة الحرس الانكليزي  
بالنشوة الجسماني ؛ هلاك عشرين فوجاً فرنسياً من أصل اربعين فوجاً  
من قوات « راي » ؛ ثلاثة آلاف رجل قتلوا بمحذ السيف ، في طلل  
هوغومون هذا وحده ، وأنخنوا بالجراح ، وذبحوا ، وصرعوا برصاص  
البنادق ، وأحرقوا بالنيران ... وكل ذلك لكي يستطيع ريفي أن  
يقول ، اليوم ، لأحد السياح : « سيدي ، أعطني ثلاثة فرنكات ،  
إذا أحببت ، أشرح لك مسألة واترلو ! »

### ٣

١٨ حزيران ، ١٨١٥

فلنرجع الى الوراء ، فذلك حق من حقوق القاص ، ولنضع أنفسنا  
في عام ١٨١٥ ، قبيل تلك الحقبة التي استهلّت بها القصة التي روينها  
في القسم الاول من هذا الكتاب .

لو ان المطر لم يطل ليل ١٧ - ١٨ حزيران سنة ١٨١٥ إذن لكان  
مستقبل اوروبة قد تغير . إن بضع قطرات من الماء اكثر أو أقل  
جنحت بنابوليون الى السقوط . فلكني تكون واترلو خاتمة اوستوليتر لم  
تكن العناية الالهية في حاجة الى غير قليل من المطر ، فاذا بسحابه



تجتاز السماء في غير أوانها تكفي لانهايار عالم .  
إن معركة واترلو - وهذا ما أعطى بلوخر \* فرصة الوصول -- لم يكن في الامكان أن 'تستهل' قبل الساعة الحادية عشرة والنصف . لماذا ؟ لان الارض كانت ندية دمتة . وكان من الضروري انتظارها حتى تثبتَ بعض الشيء لكي تستطيع المدفعية ان تعمل .

كان نابوليون ضابط مدفعية ، وهو لم ينس ذلك قط . وانما كانت أساس هذا القائد التقدير المعجز هو ذلك الرجل الذي قال في التقرير الذي رفعه الى حكومة الادارة حول ابي قبر\*\* : « هذه الكرة من كرات مدافعنا قتلت ستة رجال . » كانت كل خططه الحربية موضوعة للقذائف . وكان تركيز المدفعية على نقطة ما ، هو مفتاح النصر عنده . كان يعامل استراتيجية القائد العدو معاملته لقلعة تشرف على مدينة ، فهو يهاجمها بالمدافع . كان يُطر النقطة الضعيفة بالقنابل ، وكانت 'يحكم' عقدة المعركة ويحلها بالمدافع . كانت ثمة 'حسن رماية في عبقرية . إن تحطيم القوات المجمعة في مربعات ، وسحق الكتائب ، وقطع الخطوط ، وتفتيت الحشود وبعثرتها - كل ذلك كان نابوليون يتوصل الى تحقيقه بان يضرب ، ويضرب ، ويضرب من غير انقطاع ، وكان يعهد في اداءه هذا الواجب الى قذيفة المدفع . طريقة رهيبة استطاعت ، وقد أُرذفت بالعبقرية ، ان تجعل من جبار ملاكمة الحرب هذا ، الكالغ الوجه ، رجلاً لا سبيل الى قبره طوال خمسة عشر عاماً .

وفي الثامن عشر من حزيران ، عام ١٨١٥ ، اعتمد على مدفعيته

---

\* Blücher جنرال بروسي ( ١٧٤٢ - ١٨١٩ ) لمع نجمة خلال حملة فرنسا ( ١٨١٤ ) . هزمه نابوليون في لينبي ( ١٨١٥ ) ولكنه وفق الى ان يبعد و لينتقون في واترلو وبذلك رجّح كفته في المعركة ، وكان ميزانها حتى ذلك الحين متأرجحاً بين نابوليون وولنتون .

• • المعركة التي انتصر فيها نابوليون على المايك عام ( ١٧٩٩ ) اثناء الحملة الفرنسية على مصر .

أكثر وأكثر لأنه كان يتبع بالتفوق العددي من هذه الناحية . كان  
وليفتون لا يملك غير مئة وتسعة وخمسين مدفعاً ؛ أما نابوليون فكان  
يملك مئتين وأربعين .

ولو قد كانت الأرض جافة ، ولو قد تمكنت المدفعية من أن  
تتحرك ، إذن لكان في إمكان القتال أن يبدأ في الساعة السادسة صباحاً ،  
وإذن لكانت المعركة قد 'كسبت واختُصت في الساعة الثانية ، قبل  
ساعتين من ترجيح البروسيين كفة الميزان .

إلى أي مدى تقع مسؤولية الانهزام في هذه المعركة على عاتق نابوليون ؟  
أينبغي أن يُعزى غرق السفينة إلى الربان ؟

هل كان المخطط نابوليون الماديّ الواضح مصحوباً آنذاك بالمخططات  
ذهنيّة ما ؟ هل استطاعت العشرون السنة التي قضاها في ميدان القتال أن  
تبليّ النصل كما أبليت الغمد ، وتوهن الروح كما أوهنت الجسد ؟ هل  
أحسن القائد البارع بطيف الجندي المشرح يُطلع رأسه في ذات نفسه  
على نحو مغضب ؟ وبكلمة ، هل كانت تلك العبقرية ، كما اعتقد كثير  
من المؤرخين ، تزج تحت وطأة الحشوف ؟ هل أخذ بأسباب الغبط لكي  
يخفي ضعفه عن نفسه ؟ هل بدأ يترنح ، ذاهلاً ، في وجه عاصفة  
مفاجئة ؟ هل أمسى غافلاً - وهو خطأ جسيم يرتكبه جنرال - عن  
الخطر الذي يتهده ؟ وفي هذه الطبقة من عظماء الرجال أولي الشأن  
الذين نستطيع أن ندعوم عمالقة القتال ، هل ثمة من تصاب العبقرية فيها  
بقصر البصر ؟ إن الشيخوخة لا سلطان لها على عباقرة المثل الأعلى .  
فلأن يتقدم المرء في السنّ يعني ، بالنسبة إلى أضراب دانتي وميكال أنجلو ،  
أن يزداد عظمة . فهل يعني تقدّم المرء في السنّ ، بالنسبة إلى أضراب  
هنبيل ونابوليون ، أن يتخلف في ميدان العظمة ؟ أكان نابوليون قد  
فقد حسن النصر المباشر ؟ هل قد أمسى عاجزاً عن أن يتبين التهلكة  
منذ اليوم ، وعن أن يتكهّن بموقع الشّرّك منذ اليوم ، وعن أن

يرى شفا الهاوية المنهار؟ أكان قد فَقَدَ القدرة على استرواح الكوارث؟  
 أكان نابوليون - وهو الذي عرف في ما مضى جميع مسالك النصر ،  
 والذي كان يوميء اليها ، من أعلى عربته المومضة ، بأصبع ذات  
 سلطان - قد أصيب بذهول كالح حمل على ان يسوق ركب كتائبه  
 الصاخبة الى الهاوية ؟ هل استبدَّ به ، في السادسة والاربعين ، خبلٌ  
 رفيع ؟ أكان سائقُ القَدَرِ الجبارُ هذا قد أمسى مجرد متهور هائل ؟  
 لسنا نظن ذلك .

لقد كانت الحطة التي رسمها للمعركة ، باعتراف الجميع ، رائعة من  
 الروائع . أن يزحف مباشرة الى قلب الخط الحليف ، ويحرق العدو ،  
 وبشطره شطرين ، فيدفع الشطر البريطاني الى « هال » \* ، ويدفع الشطر  
 البروسي الى « تونفر » \* ، ويجعل وليغتون وبلوخر شقيين ، وينتزع  
 « مون سان جان » ، ويستولي على بروكسل ، ويلقى بالألماني في  
 الراين ، ويقذف بالانكليزي الى البحر . كل ذلك كان ، عند نابوليون ،  
 منظوياً في هذه المعركة . اما ما ينشأ عن هذا ففي ميسور كل امرئ  
 أن يراه .

وليس من ريب في اننا لا نعتزم أن نقدم ، هنا ، تاريخ وائرلو .  
 إن المشاهد التي أدت الى نشوء المأساة التي نرويها تتصل بهذه المعركة ،  
 ولكن هذا التأريخ للمعركة ليس موضوعنا . والى هذا فقد روي ذلك  
 التاريخ ، وعلى نحو أستاذي بارع . رواء نابوليون مثلاً وجهة نظر ،  
 وروته جمهرة من المؤرخين \* مثلاً وجهة نظر أخرى . اما نحن فسنترك  
 المؤرخين يتنازعون . نحن لسنا غير شاهد من بعيد ؛ غير عاير يتخذ سبيله في  
 السهل ؛ غير طالب منحدر فوق هذه الارض المعجونة باللحم البشري ،

\* « هال » و « تونفر » من اعمال بلجيكة .

\* م والتر سكوت ، لامارنين ، فولابيل ، شارلا ، كنبه ، تير [ هذه الحاشية  
 منقولة عن الاصل الفرنسي . ]

ولعلنا ان نخذع عن نفسنا فنحسب المظاهر حقائق . وليس من حقنا ان  
 أن نقاوم ، باسم العلم ، مجموعة من الحقائق لا ريب في ان فيها شيئاً  
 من الوهم . وليس عندنا لا الخبرة العسكرية ولا المقدرة الاستراتيجية التي  
 تميز لنا ان نفترض مذهباً منسق الاجزاء . والذي نراه ان سلسلة من  
 المصادفات هيئت في واترلو على قائدي الجيشين . وحين يكون الكلام  
 على القَدَر ، هذا المتهم الخفي ، نحكم مثل الشعب ، ذلك القاضي  
 الساذج .

Σ

A

ليس على اولئك الذين يرغبون في ان يتصوروا ، بوضوح ، معركة  
 واترلو إلا ان يطرحوا على الارض ، في اذهانهم ، حرف A مرسوماً  
 بصورته الكبرى \* فالقائمة اليسرى من الـ A هي الطريق من نيفيل<sup>١</sup> ،  
 والقائمة اليمنى هي الطريق من جيناب<sup>٢</sup> ، والقاطعة الموصلة ما بين قائمتي الـ A هي  
 الطريق الفائرة من اوين الى برين لالو . وقمة الـ A هي « مون سان جان » ؛  
 إن ولينغتون هناك . والنقطة السفلى من الذراع اليسرى هي هوغومون ؛  
 إن « راي » هناك مع جيروم نابوليون . اما النقطة السفلى من الذراع اليمنى  
 فهي « لا بيل » آلبانس ؛ ان نابوليون هناك . وتحت النقطة التي تلقي  
 فيها قاطعة الـ A بالقائمة اليمنى وتحترقها - تحت هذه النقطة بقليل تقع  
 « لا هاي سانت » . في حين ان منتصف هذه القاطعة هو على وجه  
 الضبط ، النقطة التي قبلت فيها كلمة المعركة الاخيرة . وهناك وضع  
 الأسد ، الرمز للإيرادي<sup>٣</sup> لبطولة الحرس الامبراطوري السامية .

\* اي majuscule كما يعبر الفرنسيون .

والمثلث الذي تشتمل عليه قمة الـ ٨ ، بين القائمتين والقاطعة ، هو  
"نجد" « مون سان جان » . كان الصراع على هذا النجد هو كل  
المعركة .

وانتشر جناحا الجيشين الى بين الطريقين من جناب ومن نيفيل  
والى يسارهما . فاذا بـ « ديولون » \* يواجه « بيكتون » \*\* ، واذا  
بـ « راي » ، يواجه « هيل » \*\* .

وخلف رأس الـ ٨ ، خلف "نجد" « مون سان جان » ، تقع غابة سوا" في .

أما فيما يتصل بالسهل نفسه فينبغي ان نتخيل رقعة من الارض  
واسعة متوجة وكل رشي يشرف على التي الذي يليه ، وجميع هذه  
التوجات تصعد نحو « مون سان جان » ، وتنتهي قمة الى الغابة .

والجيشان العدوان في ساحة القتال اشبه ما يكونان بمصارعين . إن  
اذرعها موثقة . وان احدهما يحاول ان يطرح الآخر ارضاً . إنهما  
يتشبهان بكل شيء . فالدغل نقطة ارتكاز ، وزاوية الجدار متراس ؛  
لأن الموقع السيء التحصين اذا استندت اليه كتيبة ما ، زلت بها القدم .  
إن انخفاضاً في السهل ، وحركة من حركات التربة ، وان زقافاً معترضاً  
ملائماً ، وإن غابة من الغابات ، وشعباً من الشعاب قد ثبتت عقب  
هذا العملاق الذي ندعوه جيشاً ، وتنجيه من السقوط . ومن يغادر  
الميدان فذاك هو المهزوم . ومن هنا كان حتماً على القائد المسؤول ان  
يفحص اصفر باقة من العشب ، وان يُنعم النظر في اكثر التلوات  
ضالة .

وكان كل من القائدين قد درس ، في عناية ، سهل « مون سان  
جان » الذي ندعوه اليوم سهل واترلو . وكانا وليفتنونا ، بحكمة

---

\* Drouet d'Erlon مارشال فرنسة ( ١٧٦٥ - ١٨٤٤ ) وقد ابلى بلاء حساناً في

مركة واترلو .

\*\* Picton و Hill من القادة الانكليز الذين شاركوا في مركة واترلو .

متبصرة ، قد درس هذا السهل في السنة المنصرمة ، بوصفه موقعاً يمكن ان تدور فيه رحى معركة عظيمة . وعلى هذه الارض ، ومن اجل هذه المبارزة كان ولينغتون في الجانب الافضل ، وكاث نابوليون في الجانب الاسوأ . كان الجيش الانكليزي في الجزء الاعلى من الارض ، وكان الجيش الفرنسي في الجزء الادنى منها .

وانه ليكاد يكون سطحياً ان نرمم هنا رسماً تخطيطياً صورة نابوليون بمتطابق صهوة جواده ، والمنظار في يده ، فوق راية روستوم ، فجرَ اليوم الثامن عشر من عام ١٨١٥ . قبل ان نوميء اليه كان الناس كلهم قد رأوه . إن هذا الوجه الجانبي الهاديء تحت القبعة الصغيرة الخاصة بمدرسة بريئة \* ، وهذا الثوب العسكري الاخضر ، وجانب المدالية الابيض الذي يحجب النجوم على صدره ، والمعطف الرمادي الذي يحجب الكتفين \*\* ، وزاوية العصاة الحربية الحمراء تحت الصدرة ، والبنتلون الجلدي ، والحواد الابيض بسرجه المخملي الارجواني المزدانة زواياه بحروف N \*\*\* متوجة وبنور ، وحذاء الفرسان العالي الساق فوق جورب من حرير ، والمهازين الفضيّين ، وسيف مارانفو \*\*\*\* - إن هذه الصورة الكاملة للقيصر (الأخير لتعيش في الخيلات كلها ، يصنف لها نصف العالم ، وينظر اليها نصفه الآخر في عبوس .

لقد فُهرت هذه الصورة ، دهرأ طويلاً ، بالضياء ، ولقد راث عليها قنامٌ تقليدي "يُلمّ بمعظم الابطال ، ويحجب الحقيقة دائماً الى حين

\* Brienne - le - Château بلدة فرنسية كان فيها ، خلال القرن الثامن عشر ، مدرسة حربية درس فيها نابوليون .

\*\* الكتابة كلمة اصطفتاها لتؤدي معنى épaulette وهي ، هنا ، ما يكون على كتف الجندي من زينة .

\*\*\* هو كما لا يخفى الحرف الاول من اسم نابوليون بالرسم اللاتيني .

\*\*\*\* Marengo قرية ايطالية جرت فيها معركة شهيرة اتصر فيها نابوليون على

القوات النموية ( ١٤ حزيران ١٨٠٠ )

قد بطول وقد يقصر . أما اليوم ، فالتاريخ مشرق وكامل .  
 إن ضوء التاريخ هذا لا يرحم . إن له هذه الخاصة الغريبة الإلهية  
 وهي : أنه مهما يكن مشرقاً ساطعاً ، بل لأنه على وجه الدقة مشرق  
 ساطع ، يلقي ظلّاً حيث نرى الشعاع تماماً . إنه يجعل من الرجل  
 الواحد طيفين مختلفين ، فيهاجم أحدهما الآخر ويقتص منه ، وتتصارع  
 ظلمة الطاغية مع بهاء القائد العسكري . ومن هنا ينشأ مقياس أصح  
 لأعطاء الحكم الأخير حول قيمة الشعوب . فبابل المنتهكة تضع من  
 قدر الاسكندر ؛ ورومة المثقلة بالآغلال تضع من قدر قيصر ؛  
 وبيت المقدس الذبيحة تضع من قدر تيطوس . إن الطغيان يتبع الطاغية .  
 ومن تعاسة المرء أن يختلف وراءه ظلمة لها شكله هو .

## ٥

### «الشيء المظلم» في المعارك

إن الناس جميعاً يعرفون وجه هذه المعركة الأولى ؛ يعرفون البداية  
 المسيرة ، الغامضة ، المترددة ، المهددة لكل من الجيشين ، وإن يكن  
 تهديدهما للانكليز أشد من تهديدهما للفرنسيين .  
 كان المطر قد هطل طوال الليل ؛ وكان قد جعل الأرض دُمثة  
 لينة . كانت المياه مجتمعة هنا وهناك في تجاويف السهل وكأنها في  
 أحواض ؛ وفي بعض المواطن غرقت الدواب حتى المفاور . وكانت  
 السيور المطوّقة بطون الحيل تقطر وحلاً سائلاً . ولو لا الخنطة والجوادار  
 اللذان نشرتهما جبهة من العربات المتحركة ، فملاً أثلام الأرض وأقاما  
 مهاداً تحت الدواب ، اذن لكنت كل حركة ، وبخاصة في الأودية  
 الواقعة نحو بايلوت ، أمراً متعذراً .

وابتدا القتال في ساعة متأخرة . كان من عادة نابوليون ، كما شرحنا ، أن يمك بكامل مدفعيته في يده وكأنها مسدس ، مصوباً النيران الى هذه النقطة من المعركة حيناً ، والى تلك النقطة حيناً . وكان قد رغب في الانتظار حتى تتمكن مدفعية الميدان من ان تجري وتعدو في حرية . ولكي يتم ذلك كان يتعين على الشمس ان تبرز وتجبف التربة . ولكن الشمس لم تبرز . إنه الآن في ساحة غير ساحة اوسترليتز . وحين أطلقت النار من المدفع الاول نظر القائد الانكليزي ، كولفيل ، الى ساعته ، ولاحظ انها كانت الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين .

وافتتحت المعركة بهجوم ضار ، ولعله ان يكون اشده ضراوة بما كان الامبراطور يود ، شته الجناح الفرنسي الايسر على هوغومون . وفي الوقت نفسه هاجم نابوليون الوسط ملقياً لواء « كيوت » على « لا هاي سانت » ، وزحف « في » ، بالجناح الفرنسي الايمن على الجناح الانكليزي الايسر المستند الى بايلوت .

وكان في الهجوم على هوغومون شيء من الخداعة . لقد رمى الى استدراج ولينغتون الى هناك وحمله على الانحراف نحو الشمال - تلك كانت الحطة . ولقد كان خليفاً بتلك الحطة ان تنجح لو لم تثبت سرايا الحرس البريطاني الاربع ، والبلجيكيون الشجعان من فرقة « بيرونشية » في مراكزهم ثباتاً عنيداً ، وبذلك وفروا على ولينغتون حشد قواته في تلك النقطة ، ومكنوه من أن يكتفي بمدتهم باربع سرايا اضافية من الحرس وبفوج من افواج برونزويك ليس غير .

أما هجوم الجناح الفرنسي الايمن على بايلوت فكان مقصوداً به ان يسهق الجناح الانكليزي الايسر ، ويقطع طريق بروكل ، ويصد البروسيين عن سيلهم اذا ما أقبلوا ، ويستولي على « مون سان جان » ، وان يرد ولينغتون كرة أخرى الى هوغومون ، ومن هناك الى برين لالو ، ومن هناك الى « هال » . لم يكن ثمة ما هو أوضح من ذلك .



وباستثناء بعض الاحداث الثانوية ، تكلم هذا الهجوم بالنجاح . لقد انتزعت بابلوت ؛ ولقد احتلت « لا هاي سانت » .

وهنا مسألة ينبغي ان ننصّ عليها . كان بين المشاة الانكليز ، وبخاصة في فوج كمت ، عدد كبير من المجندين الجدد . ولقد تكتف هؤلاء الجنود الفتيان أمام رجالتنا الرهبة عن بطولة . ذلك ان قلة غمرتهم حملتهم على ان يسلكوا في القتال مسلّكاً باسلاً . ولقد أدوا خدمة ممتازة ، على الخصوص ، بوصفهم مناوشين . والجندي حين يكون مناوشاً يُترك وشأنه الى حد ما ، ويصبح اذا جاز التعبير قائد نفسه . لقد أظهر هؤلاء المجندون الجدد شيئاً من الابتداع والجيشان الفرنسيين . لقد تكتف هؤلاء الرجالة الاغرار عن حماسة . وأغضب ذلك ولينغتون . وبعد الاستيلاء على « لا هاي سانت » تارجحت المعركة .

إن في ذلك اليوم ، من الظهر حتى الساعة الرابعة ، فترة غامضة . فتنصف هذه المعركة يكاد يكون غير واضح ، وهو يشارك القتال في إظلامه . كانت الشمس تخرج الى الغروب ، وكان في ميسورك أن تلمح تقلقاً واسعاً في هذا الضباب الكثيف ؛ وسراباً باعثاً على الدّوار ، وادوات حربية تكاد تكون غير معروفة اليوم ، و « القلابق » \* المتوهجة ، والجيوب الجلدية المنعدلة المتصلة بمناطق السيوف ، والحبال المتصالية ، والصناديق المثقلة بالقتات ، والملابس العسكرية الخاصة بقوات الفرسان الحفيفة ، والاحذية الحمراء العالية الساق ذوات الألف كثية ، والقلائس الثقيلة المكللة بالاهداب الحزونية الشكل ، ورجالة برونزويك الذين يكادون ان يكونوا سوداً ، بمتزجين برّجالة انكلترة القرمزيين ؛ والجنود الانكليز وعلى اردانهم وسائد دائرية كبيرة بيضاء بدلاً من الكتافات ، والفرسان المانوفرين بقلانسهم الجلدية المستطيلة ذات العصائب النحاسية والأعراف

\* جمع تلق ، وهو لباس الرأس التركي المعروف . وقد وردت الكلمة هكذا

في الاصل الفرنسي colbacks

المصنوعة من السيب الاحمر ، والاسكتلنديين برُكبيهم العارية ، وارديتهم ذات المربعات ، وساقيات \* رماة قنابلنا العريضة البيضاء ؛ لوحات فنية ، لا خطوط استراتيجية ، فهي في حاجة الى سلفاتور روزا \* \* الى غرييوقال \* \* \*

ان مقداراً ما من العاصفة ليمتزج دائماً بالمعارك الحربية *Quid obscurum* و *quid divinum* \* \* \* وكل مؤرخ يرسم الملامح التي تروق له في هذا المرج والمرج . ومهما تكن تدابير القادة العسكريين من اجل الفوز فان لتصادم الحشود الملحة رداتٍ لا سبيل الى احصائها . فعند القتال تتداخل خططنا القائدين احدهما في الاخرى ، وتنشوء احدهما بالآخرى . إن هذه النقطة من ميدان القتال تلتهم عدداً من المحاربين اعظم من ذلك الذي تلتهم تلك النقطة ، كما تتشرب التربة الماء على نحو اسرع او ابطأ تبعاً لطاقتها الاسفنجية . فانت مضطراً الى ان تصبّ هناك مقداراً من الجنود أكبر مما ترغب فيه . نفقاتٌ لم تكن متوقعة . ان خطّ القتال ليموج ويتلوى كالخط ؛ وان سيولاً من الدم لتجري على نحو غير منطقي ؛ وان جبهات الجيوش لتتراوح ؛ وان السرايا الخائضة الميدان او المنسحبة منه لتحدث رؤوساً وخلقجاناً ؛ كل هذه المهالك تتذبذب ، واحدة في وجه الاخرى ، على نحو موصول . فحيث كانت الرّجالة ، تُقبل المدفعية ؛ وحيث كانت المدفعية ، تندفع الخيالة ؛ وما الافواج المقاتلة غير دخان . لقد كان شيء ما ، هناك . يُبحث عنه ؛ لقد ولى .

---

\* السابقة كلمة وضماها لها يعرف بـ « الطاق » او لغافة الساق ( guêtre )

\* \* \* *Salvator Rosa* رسام من نابولي ، وتلاش ، وشاعر ، وموسيقي ( ١٦١٥ - ١٦٧٣ ) وقد اشتهر برسم المعارك والمواقع الحربية .

\* \* \* *Gribeauval* جنرال مدغمي فرنسي ( ١٧١٥ - ١٧٨٩ ) ابتكر طرازاً من المدافع تفوقت بفضل المدفعية الفرنسية على مدفعات سائر الجيوش الاوروبية في مطلع عهد الثورة .

\* \* \* \* \* تعبير لاتيني معناه : شيء مظلم ، شيء الأسى .

إن فجرات الغابة تنتقل من مكان الى مكان ، وان التفضات القاتمة لتتقدم وتراجع ، وان ضرباً من ربح القبور ليندفع الى امام ، ويرند الى وراء ، وينفخ ويبدد هذه الجموع الفاجعة . ما القتال الذي تتلاحم فيه الاجساد ؟ انه ذبذبة . ان الحطة الرياضية الجامدة لتروي قصة دقيقة واحدة لا قصة يوم كامل . وتصوير معركة ما ، يحتاج الى اولئك الرسامين الجبابرة الذين تنطوي ريشتهم على هوى \* إن وامبرانت \*\* خير من فان در مولن \*\*\* . ان فان در مولن ، الدقيق عند الظهر ، يكذب في الساعة الثالثة . الهندسة تحدد ؛ والأعصار وحده هو الصادق . وهذا ما يعطي فولار \*\*\*\* الحق في ان يناقض بوليبيوس \*\*\*\*\* وينبغي أن نضيف أن ثمة دائماً لحظة معينة تحطّ فيها المعركة الى ضرب من المباراة ، وتوزع الى تجزئة نفسها ، وتوزع الى تفاصيل تتصل - اذا استعروا تعبير نابوليون نفسه - « بسيرة الافواج » ، اكثر مما تتصل بتاريخ الجيش . « واضح ان للمؤرخ ، في هذه الحال ، الحق في الاختصار . إنه لا يستطيع ان يضع يده على غير خطوط الصراع الرئيسية . ولم يقيض قط لأياً راوية ، مهما يكن حيّ الضير ، ان يحدد على نحو مطلق شكل هذه السحابة الرهيبة التي ندعوها معركة . وهذا ، الذي يصح في جميع الاصطدامات الكبيرة المسلحة ، ينطبق

---

\* الهول ( chaos ) اختلاط عناصر المادة في اوائل الكون .

\* \* Rembrandt الرسام الهولندي المشهور ( ١٦٠٦ - ١٦٦٩ )

\* \* \* Van Der Meulen رسام من الفلاندر ( ١٦٣٤ - ١٦٩٠ ) ، رسم المعارك

التي وقعت خلال عهد الملك لويس الرابع عشر .

\*\*\*\* Jean - Charles Folard خبير فرنسي في شؤون الحرب ( ١٦٦٩ - ١٧٥٢ ) وله كتاب

علق فيه على تاريخ بوليبيوس الذي يشير اليه المؤلف ، وهو بعنوان تعليقات على بوليبيوس  
Polybe Commentaires sur

\*\*\*\* Polybe « مؤرخ اغريقي ( توفي حوال سنة ١٢٥ ق. م ) ويعتبر كتابه « التاريخ »

الذي يقع في اربعين مجلداً من ذخائر التراث القديم الكبرى .

على واترلو بمخاضة .  
وايأ ما كان ، فعند الأصيل ، في لحظة ما ، تحدت المعركة .

## ٦

### الساعة الرابعة بعد الظهر

حوالى الساعة الرابعة كان وضع الجيش الانكليزي حرجاً . كان  
البرنس اوف اورانج يقود القلب ، وكان « هيل » يقود الجناح الايمن ، وكان  
« بيكتون » يقود الجناح الايسر . وصاح البرنس اوف اورانج ،  
في بأس وجراءة ، مخاطباً القوات الهولندية البلجيكية : « فاستو !  
بروتزويك ! لا تراجعوا قط ! » كان « هيل » قد ارتد ، وقد استبد  
به الاعياء ، متوكئاً على قوات ولينغتون . وكان « بيكتون » قد قضى  
نحبه . ففي اللحظة التي انتزع فيها الانكليز الراية رقم ١٠٥ من الفرنسيين  
قتل الفرنسيون الجنرال بيكتون بقذيفة اخترقت رأسه . وبالنسبة الى  
ولينغتون كانت للمعركة نقطتا ارتكاز : هوغومون و « لاهاي سانت » .  
كانت هوغومون لا تزال صامدة ، ولكنها تخرق . وكانت « لاهاي  
سانت » قد سقطت . ومن الفوج الألماني الذي دافع عنها ، لم يبق  
على قيد الحياة غير اثنين واربعين رجلاً ؛ كان جميع الضباط ، ما خلا  
خسة ، قد قتلوا أو أسروا . لقد دُبح ثلاثة آلاف مقاتل في مخزن  
الجبوب ذاك . وكان رقيب في الحرس الانكليزي ، مصارع انكلترة الاول  
الذي اشتهر عند رفاقه بالرجل الذي لا 'يجرح' ، قد قتل بيد طبيب فرنسي  
ضليل الجسم . كان « بيرينغ » قد زحزح عن موقعه ، وكان « آلتن »  
قد ضرب بجدة السيف .  
كانت رايات كثيرة قد فقدت ، احداها خاصة بفرقة « آلتن » ،

والاخرى خاصة بفوج « لونبورغ » \* وكان يحملها أمير من أسرة « دو بون » . ولم يبقَ احدٌ من الاسكتلنديين الرماديين . وكانت خيالة بونسوني الثقيلة قد مُزقت إرباً إرباً . ولما انسحب هؤلاء الفرسان للشجمان في وجه رماحة « برو » ، وداعوي « ترافير » . ومن خيلهم الألف والمئتين لم ينجُ غير سبعة . ومن ثلاثة عقداة طرَح عقيدان اثنان ارضاً ، فأما هاملتون فكان جريحاً ، وأما « مائر » فكان صريعاً . وكان بونسوني قد سقط ، بعد ان مزقته سبع طعنات من احد الرماح . كان « غوردون » ميتاً ، وكان « مارش » ميتاً . لقد حطمت فرقان اثنان ، هما الفرقة الخامسة ، والفرقة السادسة .

واذ استسلمت هوغومون ، وانفجرت « لا هاي سانت » لم يبقَ ثمة غير عقدة واحدة ، القلب . كانت هذه العقدة لا تزال صامدة ، وكان لينفنون يدعمها بالامداد . لقد استدعى « هيل » الى هناك ، وكلف في « ميرب براين » ، واستدعى « شاميه » وكان في « برين لالو » . كان قلب الجيش الانكليزي ، المقر بعض الشيء ، الكثيف جداً ، المحكم جداً ، يحتل موقعاً منيعاً . لقد احتل « نجتد » « مون سان جان » وقد قامت القرية وراءه ، وقام المنحدر أمامه ، وكان شديد التحدّر آنذاك . وفي المؤخرة ، كان يتكئ على هذا البيت الحجري الحصين ، الذي كان وقتئذ من ممتلكات الدولة في نيفيل والذي كان يميز ملتقى الطرق : بناء يرقى الى القرن السادس عشر ، وطيد الى درجة جعلت قذائف المدافع تنبوء عنه من غير ان تصيبه بأذى . وحوالى النجد كله كان الانكليز قد شذبوا الأسبجة هنا وهناك ، جاعلين قوَجاً بين الزعرور ، متحيين لم مدفع بين غصنين ، محدثين في الادغال كوى ينترسون خلفها . كانت مدفعيتهم في المكمن الواقع تحت الأجمة . وكان هذا العمل الغادر المباح ، من غير شك ، في الحرب التي تجيز

\* Lunebourg مدينة بروسية في هانوفر .

نصب الأشرار ، متقناً الى درجة جعلت هاكو \* الذي وجهه الامبراطور في الساعة التاسعة صباحاً لكي يستكشف مدفعية العدو لا يرى منها شيئاً ، فانقلب الى نابوليون ليقول له إنه لم يكن ثمة عائق غير المتراخين الذين يعترضان طريقي « نيفيل » و « جيناب » . وانما جرى ذلك في الايام التي تبلغ فيها سنابل القمح ارتفاعاً حسناً . فعند حافة النجد جثم فوج من لواء « كمت » ، هو الفوج الخامس والتسعون المسلح بالكاريينات ، وسط القمح العالي .

واذ تمتع قلب الجيش الانكليزي الهولندي بهذه الحماية وهذا السناد فقد كان في موقع منيع .

وكان الخطر على هذا الموقع يتمثل في غابة سوانثي التي كانت ملاصقة آنذاك لساحة القتال ، والتي كان يشطرها مستنقعا غرونندال وبوانسفور . فلم يكن في وسع الجيش ان يتراجع هناك من غير ان يتشتت شمله وبُنيى بالهزيمة . كانت الكتابات جديرة بأن تتفتخ في الحال ، وكانت المدفعية خليفة بأن تضع في المستنقعات . كان التراجع ، في رأي كثير من أهل الصناعة الحربية - يخالفهم في ذلك آخرون ، من غير شك - يعني الهزيمة التي لا تقي ولا تذر .

وأمدد ولينغتون هذا القلب بلواء من ألوية « شاسيه » جيء به من الجناح الايمن ، وآخر من ألوية « وينك » جيء به من الجناح الايسر بالاضافة الى فصل كلينتون . ودعم قواته الانكليزية ، وسرايا « هالكيت » ، ولواء « ميتشل » ، وحرس « مايتلند » برجلة « برونزوبك » ، ومجندي « ناسو » ، وهاتوفرني « كيلمانسيغ » ، وألمان « أومبيدا » . كان الجناح الايمن ، كما يقول شارلا \*\* ، قد أميل الى ما وراء القلب .

\* Haxo جنرال ومهندس عسكري فرنسي ( ١٧٧٤ - ١٨٣٨ )

\*\* Charraz كولونيل فرنسي ( ١٨١٠ - ١٨٦٥ ) وضع عام ١٨٥٧ كتاباً هاماً عن معركة واترلو .

وُفُتَتْ وحدةٌ مدفعية هائلة باكياس رمل حيث يقوم اليوم ما بدعى  
بـ « متحف واترلو » . وكان عند واينغتون بالإضافة الى هذا ، وفي  
منخفض من الارض ، حرس « سومرست » الحياطة ، وعدتهم الف  
وأربعمئة . وكان هؤلاء يؤلفون النصف الآخر من سلاح الفرسان  
الانكليزي ذاك ذي الشهرة البعيدة التي يستحقها أحسن استحقاق . لقد  
قضى على بونسونبي ، ولكن سومرست كان لا يزال هناك .

وكانت الوحدة المدفعية ، الجدير بها لو أُنْتُت ان تكون متراًساً  
تقريباً ، مُعدّة خلف جدار حديقة شديد الانخفاض . وقد  
عُطِيت على عَجَل باكياس الرمل ، وبمنخفض من الارض كبير .  
ولكن هذا العمل لم يتم . انهم لم يجدوا متسعاً من الوقت لتسيجه .  
كان واينغتون قلقاً ولكنه ثبت الجنان ، وكان بمنطياً صهوة جواده .  
وقد ظل هناك طوال النهار ، محتفظاً بالوضع نفسه ، امام مطحنة  
« مون سان جان » القديمة التي لا تزال قائمة ، ونحت شجرة دردار  
اشتراها منذ ذلك الحين رجل انكليزي ، من المولعين بتخريب الآثار  
القديمة ، بميتي فرنك ، وقطعها وذهب بها . كان واينغتون باسلاً على  
نحو خال من الشعور . لقد انهرت القذائف انهار المطر . وكانت  
غوردون ، الضابط العامل في خدمته ، قد صُرع اللحظة الى جانبه .  
وأراه اللورد « هيل » قنبلة صغيرة منفجرة وقال : « ماهي تعليماتك ، ايها  
اللورد ، وما الاوامر التي تركها لنا اذا ما مسحت لنفسك بان تقتل ؟ »  
فاجابه واينغتون : « أن تفسجوا على منوالي . » وقال له « كلينتون ،  
في ايجاز : « اصعدوا هنا حتى الرجل الاخير . » كان واضحاً ان  
كفة الفرنسيين آخذة في الرجحان ، فصاح واينغتون برفاقه القداماء في

تالافيرا \* وفيتوريا \*\* وسالامانكة \*\*\* : « ايها الغلمان ! يجب ان لا تهزم ! فكموا بانكلترة العجوز ! » .

وحوالى الساعة الرابعة ترنح الخط الانكليزي الى الورا . وفجأة لم يُرَ على ذروة النجد غير جنود المدفعية ومطلقى النار بتواتر ، اما الباقون فقد اختفوا . كانت كتائب الجند قد تفهقرت في وجه قتابل الفرنسيين وقذائفهم ، وارتدت الى واد لا يزال يقطعه الى اليوم بمرّ الابقار في مزرعة « مون سان جان » . وحدثت حركة تراجعية ، فقد كانت جبهة القتال الانكليزية تنهار . ورجع ولينغتون القهقري .

صاح نابوليون :

« لقد بدأت الهزيمة ! »

## ٧

### نابوليون طلق المحيا

ولم يكن الامبراطور ، برغم مرضه وتضايقه فوق صهوة جواده من ألم محليّ ، طلق المحيا في يوم من الايام باكثر مما كان في ذلك النهار . فمنذ الصباح وأسارير وجهه الغامضة تفتّر عن ابتسامة . ان تلك النفس العميقة المقتنعة بالرخام اضاءت من غير تبصّر في الثامن عشر من حزيران ، ١٨١٥ . وإن الرجل الذي كان كالحلج الوجه في أوستوليتز ، كان جدلان

---

\* Talavera مدينة اسبانية انتصر فيها ولينغتون على الفرنسيين عام ١٨٠٩

\*\* Vittoria مدينة اسبانية ايضاً انتصر فيها ولينغتون على القوات الفرنسية في ٢١

حزيران عام ١٨١٣

\*\*\* Salamanca مدينة اسبانية انتصر فيها ولينغتون ايضاً على القوات الفرنسية ،

سنة ١٨١٢



في واترلو . إن اكبر الرجال الذين اختارهم الله للعظام يتكشّفون عن هذه المتناقضات . ولكن مباحثنا بظلمها القتام . فالابتسامة الكاملة لله وحده .

« بضحك قيصر ، ويبيكي بومبيوس » Ridet Caesar , Pompeius flebit ذلك ما قاله رجال الفرقة المعروفة بفرقة الـ « فولميناتريكس » \* إن بومبيوس ما كان ينبغي له هذه المرة ان يبكي ، ولكن من الثابت ان قيصر قد ضحك .

منذ الليلة البارحة ، وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، بينما كان يروود - على صهوة جواده ، في قلب العاصفة ونحت المطر ، وإلى جانبه برتران - تلك الكتبان المجاورة لـ « روسوم » وقد أهجه ان يرى خط النيران الانكليزية الطويل يضيء الأفق من « فريشمون » الى « برين لالو » - منذ تلك الليلة ، بدا له ان القدر الذي عين له هو موعداً في يوم معلوم فوق ساحة واترلو هذه ، قد أقبل في الموعد المضروب . لقد اوقف جواده ، وظلّ فترة من الوقت جامداً لا يتحرك ، يراقب البرق ويصغي الى الرعد . وقد سمع هذا القدري ينطق في غمرة الظلام بهذه العبارة الخفية : « نحن متفقان » . لقد مُدّع نابوليون . إنها ما عادا ، بعد ، متفقين .

لم تكن عيناه قد أغمضتا دقيقة واحدة . لقد حملت اليه كل لحظة من لحظات تلك الليلة بهجة جديدة . وكان قد طاف بخط الحرس الامامي كله ، ووقف هنا وهناك ليتحدث الى الفرسان المكلفين بالحراسة . وعند الساعة الثانية والنصف ، قرب غابة هوغوموث ، سمع وقع خطى كتبية تسير . وسُيِّل اليه لحظة ان ولينغتون ينكص على عقبيه . وقال : « إنه حوس المؤخرة الانكليزي يشرع في الرحيل . سوف أسر الستة آلاف انكليزي الذين وصلوا الان الى اوستاند » . وتحدث في غير ما تحفظ .

لقد استعاد توقّد الذهن ذاك الذي أبداه يوم هبط البرّ في أول آذار ، حين لفت نظر المارشال الكبير الى فلاح خليج جوان المتحمس ، صائحاً : « حسنّاً ، برتران \* ، ها قد عثرنا على المدّة من أول الطريق ! » وفي ليل ١٧ حزيران تدرّ على ولينغتون ، فقال : « هذا الانكليزي الضئيل الجسم في حاجة الى ان يتلقّى درساً ! » وتضاعف المطر . وقصف الردف فبا كان الامبراطور يتكلم .

وفي الساعة الثالثة والنصف صباحاً تبدّد وهمّ من أوهامه . فقد أعله بعض الضباط الذي وجّهوا للاستكشاف أن العدو ما كان يأتي بأي حركة . إن شيئاً ما ، لم يتحرك ؛ وإن نارا من نيران المعسكر لم تطفأ . كان الجيش الانكليزي قائماً . وكان الصمت العميق يخيم على الارض . لم يكن ثمة ضجة ما ، إلا في السماء . وعند الساعة الرابعة جاءه الكشافون بأحد الفلاحين . وكان هذا الفلاح قد عمل دليلاً مرشداً لأحد ألوية الحيلة الانكليزية ، لعله لواء فيفيان في طريقه الى التمرکز في قرية أوهين ، في أقصى اليسار . وعند الساعة الخامسة أبلغه هاربات بلجيكيان من الجندية انهما فارقا مرييتيهما اللحظة ، وان الجيش الانكليزي كان يتوقع نشوب المعركة .

وصاح نابوليون :

« فليهنأوا بذلك ! إني لأفضل ان أقطعهم إرباً إرباً على ان أردّم على أعقابهم . »

وفي الصباح ، ترجّل في الوحل ، عند المنحدر الواقع على زاوية الطريق من بلانسنوا ، واستقدم من مزرعة « روسوم » طاولة مطبخ وكرسياً ريفياً ، وجلس ، متخذاً من حزمة من التبن بساطاً ، ونشر

---

\* Bertrand جنرال فرنسي ( ١٧٧٣ - ١٨٤٤ ) ، وقد اشتهر باخلاسه لنابوليون اخلاصاً عظيماً تجلّى في أنه لحق به الى جزيرة ألبا والى سانت هيلانة ، ومن هناك تفكّر وفاته سنة ١٨٤٠ .

على الطاولة خريطة ميدان القتال قائلًا : « سولت » \* : « رقعة  
شطرنج جيدة ! »

وبسبب من مطر الليل لم تصل قوافل المؤن ، التي ساخت عجلاتها  
في الطرق التدية ، مع انبلاج الفجر . ولم تكن عين الجند قد اغتضت ،  
وكانوا مبتلين لم يذوقوا شيئاً من طعام . وبرغم هذا كله هتف نابوليون  
جذلاً قائلًا : « في » : « سوف نكسب المعركة تسعين في المئة . »  
وعند الساعة الثامنة حمل الفطور الى الامبراطور . كان قد دعا عدداً  
من الجنرالات الى تناول الطعام معه . وفيما هم يفطرون روى بعضهم  
ان ولينفتون كان في الليلة قبل البارحة يشهد حفلة راقصة في بروكسل  
اقامتها دوقة ريتشموند . فقال سولت ، وهو رجل حرب شرس ذو  
وجه كويج رئيس اساقفة : « الحفلة الراقصة سوف تقام لليوم ! »  
وكان الامبراطور قد مازح « في » الذي قال : « لن يكون ولينفتون  
من البساطة بحيث ينتظر جلاتكم . » ذلك كانت دأبه عادة . يقول  
فلوري دو شابلون : « كان مولعاً بالمزاح . » ويقول غوردغو :  
« كانت البشاشة المداعبة أساس شخصيته . » ويقول بنجمان كونستان :  
« كان خصب الفكاهة ، وكانت فكاهته غريبة ، مضحكة اكثر منها  
طويلة . » ومثل هذه الروح البهجة حين تكون لعلاق من العاقلة  
تستحق ان يؤكد عليها . كان يدعو رماة القنابل ( grenadiers ) العاملين  
في جيشه « المتذمرين » ( Les Grognerds ) ؛ وكان يقرص آذانهم ،  
وبشد بشواربهم . « إن الامبراطور ما كان يعمل شيئاً غير خداعنا  
والمكربنا . » تلك هي كلمة واحد منهم . وخلال الرحلة الحثية من  
جزيرة ألبا الى فرنسة ، في اليوم السابع والعشرين من شباط ، وفي  
عرض البحر ، التقى « زيفير » المركب الشراعي الحربي الفرنسي  
بال « اينكونستان » المركب الشراعي الحربي الذي كان نابوليون يختبئاً  
Soulé مارشال فرنسة ( ١٧٦٩ - ١٨٥١ ) وقد لمع لجمه في اوستلير ولي اسبابية .

فيه . فسأل رجاله رجالاً هذا المركب الأخير عن انباء نابوليون ، الامبراطور ، الذي كان لا يزال يزين قبعته حتى هذه اللحظة بتلك الشارة المستديرة البيضاء والارجوانية المرشوشة بالنحل التي اصطنعها في جزيرة ألبا ؛ فما كان منه إلا ان تناول بوق الكلام ، وهو يضحك ، واجاب بنفسه : « الامبراطور في حال جيدة . » ، إن من يضحك بهذه الطريقة يكون على دالة مع الأحداث . ولقد عرف نابوليون عدداً من نوبات الضحك هذه أثناء فطوره في واتزلو . وبعد الفطور استجمع افكاره طوال ربع ساعة . ثم إن جنرالين قعدا على حزمة التبغ ، وفي يد كل منهما قلم ، وعلى ركبته ورقة ، وأنشأ الامبراطور يجلي مواقع الجنود استعداداً للقتال .

وفي الساعة التاسعة ، لحظة انتشار الجيش الفرنسي ( وقد نُظِّم في صفوف خمسة وصدور اليه الأمر بالحركة .. فالجند صفان ، والمدفعية بين اللواءين ، والموسيقى في الطليعة تقدم الأكرام العسكري بقرع الطبول ونفخ الابواق ) جباراً ، متوامياً ، مبهتجاً ، مجراً من الحُوْذ والسيوف والحراپ عند الافق ، في تلك اللحظة صاح الامبراطور طرباً ، معبداً كلمته مرتين :

« رائع ! رائع ! »

وبين الساعة التاسعة والساعة العاشرة والنصف كان الجيش كله ، وهو في ما يبدو مستغرباً صعب التصديق ، قد اتخذ مواقفه ، مصطفاً في صفوف ستة ، مشكلاً - اذا اصطنعنا تعبير الامبراطور نفسه - « صورة ستة من حرف v » . وبعد لحظات من تكوين جبهة المعركة ، وفي غمرة من ذلك الصمت العميق الذي يسبق القتال كما يسبق العاصفة ، رأى الامبراطور الى وحدات المدفعية الثلاث ذات القذائف التي تزن كل منها اثني عشر رطلاً - رأى اليها تتحرك ، وكانت قد فُصلت نزولاً عند إرادته من فيالتي « ديرون » و « راي » و « لوبو » لكي تسهل

القتال بالمهجوم على « مون سان جان » عند متلقى طريقي « نيفيل »  
و « جيناب » ، فربّت على كتف هاكسو قائلاً :

« ها هي ذي اربع وعشرون فتاة حسناء ، أيها الجنرال ! »

واذ كان واثقاً من النصر ، فقد ابتسم مشجعاً سرية التحصينات  
من الفيلق الأول لدن مرت امامه ، وكان قد عهد اليها في ان تقيم  
المناريس في « مون سان جان » حالما يتم الاستيلاء على القرية . ولم  
يعكّر هذه الطمأنينة كلها غير كلمة تنضح بالرحمة المتفطرسة ، فما لبث  
رأى اولئك الاسكتلنديين الرماديين الرائعين يجتشدون الى يساره ، على  
جياهم البهية ، في بقعة يقوم فيها اليوم ضريح ضخم ، حتى قال :

« يا للخسارة ! »

ثم امتطى صهوة جواده ، وانطلق مخلّفاً ووسوم وراه ، واختار  
لمراقبة المعركة رابية معشوشبة ضيقة ، الى بين الطريق من جيناب الى  
بروكسل ، كانت هي محطته الثانية خلال المعركة . اما محطته الثالثة ،  
تلك التي اتخذها لنفسه في الساعة السابعة مساءً ، بين « لا بيل » آليانس ،  
و « لا هاي سانت » فقطيعة . إنها أكمة مرتفعة لا تزال قائمة الى اليوم ،  
وكان الحرس قد احتشد خلفها في منخفض من السهل . وحول هذه  
الأكمة ارتدت القذائف فوق الطريق المعبدة حتى كادت تصيب نابوليون .  
كان صغير القنابل والكُرات فوق رأسه ، شأنه في « برين » . ولقد  
التقط بعضهم حيث انتصبت قوائم جواده تقريباً ، عدداً من القنابل  
المسحوقة ، ونصال السيوف البالية ، والقذائف المشوهة التي اكلمها  
الصدأ . ومنذ بضع سنوات أخرجت من بطن الثرى ، هناك ، قنبلة  
يبلغ وزنها ستين رطلاً ، وكانت لا تزال مشحونة ، وقد كُسِر  
قتيلها على مستواها . وفي هذه اللحظة الاخيرة بالذات قال الامبراطور  
لدليله ، لاكوست ، وهو قلائح حقود ، مروّع ، مشدود الى سرج

فارس من الفرسان ، كان يستدير كما انفجرت قنبلة ويحاول ان يختبئ خلف نابوليون : « أيها الابله ، هذا شيء معيب . انك تعرض نفسك للموت برصاصة تصيبك في ظهرك ! » ولقد وجد كاتب هذه السطور هو نفسه في منحدر تلك الالكمة السريع التفتت ، بعد ان قلب التراب ، بقايا قنبلة انحلت بفعل الصدا الذي تراكم عليها طوال ست واربعين سنة ، كما وجد بعض كسر الحديد التي تحطمت بين اصابعه مثل اغصان الدبوغ \* .

إن تموجات السهول المنحدرة على وجوه مختلفة حيث التقى نابوليون ووليفنتون لم تكن كما كانت في الثامن عشر من حزيران ١٨١٥ . هذا شيء لا يجله احد . ذلك أنهم بأخذهم من ذلك الميدان المشؤوم ما يضعون به نصباً له غيروا شكله الحقيقي . فاذا التاريخ ، وقد شوش ، لا يعرف نفسه بعد ، في ذلك المكان . لقد ارادوا تمجيد فوشه . ولقد صاح وليفنتون حين رأى الى واترلو بعد سنتين : « لقد غيروا ميدان معوكتي ! » فحيث ينهض اليوم ذلك الهرم من التراب الذي يعلوه الاسد ، كانت فتة تحدر نحو طريق نيفيل تحدرأ بسهل سلوكه ، على حين كان تحدرها ، فوق طريق جيناب وعراً جداً . واليوم لا يزال في الامكان ان يقاس ارتفاع هذا المنحدر بعلو أكتفي المدفنين الكبيرين اللذين يطوقان الطريق من جيناب الى بروكسل : القبر الانكليزي الى اليسار ، والقبر الألماني الى اليمين . وليس قمة قبر فرنسي . فالسهل كله قبر لفرنسة . وبفضل آلاف وآلاف من أحمال التربة التي استعملت في التلة البالغ ارتفاعها مئة وخمسين قدماً ، ومحيطها نصف ميل ، أمسى الوصول الى تجند و مون سان جان ، ميسوراً في انحدار رقيق . ذلك انه كان ، يوم المعركة ، وبخاصة من ناحية « لاهاي سانت » ، وعراً صعب المرتقى . والحق ان ذلك الجرف كان متهدراً الى درجة

« الدبوغ شرب من الشجر يشخرج من أغصانه صبع قرمزي وهو يشتمل في الدبغة .

جعلت المدفعية الانكليزية لا ترى المزرعة التي تحتها في قعر الوادي ،  
مركز الصراع . وفي ١٨ حزيران ، ١٨١٥ ، كان المطر قد زاد هذا  
المنحدر وعرة ، وكان الوحل قد جعل ارتقاؤه اكثر صعوبة . إنه لم  
يعد مضيئاً وحسب ، ولكن أقدام الرجال كانت تسيخ في الطين فعلاً .  
وعلى طول ذروة التجد امتدّ شبه خندق ما كان في ميسور المراقب  
البعيد ان يتبينه .

اي شيء كان ذلك الخندق ؟ سوف نجيب عن هذا السؤال . إن  
« برين لالو » قرية من قرى بلجيكة ؛ وإن « أوهين » قرية أخرى .  
وهاتان القريتان ، وكلتاها محبوبة بانعطاف الارض ، متصلتان بطريق  
يبلغ طولها نحواً من فرسخ ونصف وتخترق سهلاً غير مستوٍ ، فهي كثيراً  
ما تدفن نفسها في التلال مثل ثلم من الأتلام ، وذلك ما  
كان يجعل من هذه الطريق مميلاً ، في بعض المواطن . وفي عام  
١٨١٥ اخترقت هذه الطريق ، شأنها اليوم ، قمة « نجند » مون سان جان ،  
بين الطريقين من جيناب ومن نيفيل . بيد أنها اليوم على مستوى السهل ،  
في حين أنها كانت آنذاك طريقاً غائرة . لقد أزيل منحدرها لأقامة  
الأكمة التذكارية . وإنما كانت تلك الطريق ، ولا تزال ، خندقاً ، في  
القسم الاعظم من امتدادها . خندقاً يبلغ عمقه في بعض المواطن اثني  
عشر قدماً ، ويشند تحدّر جوانبه الى حد يجعلها تنهار ههنا وههناك ،  
وبخاصة في الشتاء ، تحت الامطار . ولقد وقعت هناك عدة حوادث  
اصطدام . فقد كانت الطريق من الضيق ، عند مدخل « برين لالو »  
بحيث سحقت احدى العربات عابراً سبيل ، على ما يؤخذ من صليب  
حجري قائم قرب المقبرة مدون عليه اسم الميت : « ميسو برنار »

دوبري ، تاجر من بروكسل ، وتاريخ الحادث ، شباط ١٦٣٧ \*  
 وكانت من العمق ، عند نجد « مون سان جان » بحيث 'سحق' هناك  
 عابر سبيل آخر ، ماتيو نيكيس ، عام ١٧٨٣ ، بسبب من انهيار أحد  
 جانبيها ، على ما يؤخذ من صليب حجري ثانٍ . لقد ذهب استصلاح  
 الارض برأس هذا الصليب ، ولكن قاعدته المنكوسة لا تزال ترى عند  
 الجانب المنحدر الى يسار الطريق بين « لا هاي سانت » ومزرعة « مون  
 سان جان » .

وفي يوم المعركة ، كانت هذه الطريق الفائرة التي لا يسمّ شيء عن  
 وجودها ، والمحيطه بذروة « مون سان جان » - خندق في قمة  
 المنحدر ، أثر من آثار مرور العربات مخفية في الارض - نقول في يوم  
 المعركة كانت هذه الطريق غير منظورة ، يعني فظيعة .

---

وانما يجري الكلام المتفرش على الحجر هكذا :

له البالغ الرحمة البالغ العظمة

هنا 'سحق'

بسوء الحظ

تحت عجالات إحدى العربات

مسيو برنار

دوبري ، تاجر

من بروكسل ( كلمة غير مقروءة )

شباط سنة ١٦٣٧



## الامبراطور يوجه سؤالاً

### الى الدليل لا كوست

واذن . ففي صباح واترلو كان نابليون مسروراً .

وكان على صواب . فقد كانت الحطة التي وضعها للمركة خطة رائعة حقاً .

حتى اذا استهلّت المركة لم يكن في تقلباتها الشديدة الاختلاف ، وفي صمود هوغومون ، وعناد « لاهاي سانت » ، ومصرع « بودوين » ، وإقصاء « فوا » عن الميدان ، بعد ان امسى عاجزاً عن القتال ، والسور غير المرتقب الذي تحطم عليه لواء « سوا » ، وطيش « غويمينو » المشؤوم وقد نفدت قنابله ونفذ باروده ، وغوص المدفعية في الوحل ، والخمسة عشر مدفعاً غير المحفورة التي اوقع بها « اوكسبريدج » في طريق غائرة ، والاثر الضئيل الذي احدثته القنابل الساقطة داخل الخطوط الانكليزية اذ كانت تدفن نفسها في التربة المنقوعة بالمطر فلا توفق الى اكثر من إحداث براكين من الوحل بحيث تحوّل الانفجار الى رشاش ، وعدم جدوى الهجوم المضلل الذي شنه « بيريه » على « برين لولو » ، والقضاء على سلاح الفرسان هذا ، المؤلف من خمس عشرة كوكبة قضاء شبه كامل ، وعدم انتعاج الجناح الانكليزي الابين إلا قليلاً ، وعدم اصابة الجناح الابسر باكثر من اذى ضئيل ، وغلطة « في » الغريبة التي تتمثل في حشده الفصائل الاربع التي يتألف منها الفيالق الاول بدلاً من ان ينشرها ويباعد ما بينها ، وعمق الصفوف السبعة والعشرين وجبهة المتي رجل التي قيدمت على هذا النحو طعماً للقذائف ، والفجوات

الرابعة التي احدثتها القنابل في هذه الحشود ، وانقطاع الاتصال بين كتائب الجيش المهاجمة ، والمدفعية المتحرفة التي 'كشفت جناحها فجأة' ، ووقوع 'بورجوا' و 'دوتزيلو' و 'دوريت' في الشرك ، ورد 'كيبو' على عقبه ، واصابة الملازم الاول ، 'فيو' ، ذلك الجبار المنبثق من مدرسة البوليتكنيك ، بجرح في اللحظة التي كان يحطم خلالها ، بضربات فأس ، باب 'لاهاي سانت' ، تحت النار المنصبة من المتراس الانكليزي الذي يسد منعطف الطريق من جيناب الى بروكل ، ووقوع فصل 'ماركوتيه' بين حجرى الرجالة والحياة ، وتضريب 'بست' و 'باك' ، النار اليه ، من على مدى الذراع في حقل القمح ، وتضريب 'بونوني' اعناق رجاله بجذ السيف ، وتسمير وحدته المدفعية المؤلفة من سبعة مدافع ، وصمود أمير ساكس - وايار \* في 'فريشمون' و 'سموهين' واحتفاظه بهما على الرغم من الكونت ديرلون ، وانتزاع راية الفوج الخامس بعد المئة ، وراية الفوج الخامس والاربعين ، وهذا الفارس البروسي الاسود الذي جاء به كشافة الكتيبة المتنقلة المؤلفة من ثلاثمائة قناص يضربون في المنطقة الواقعة ما بين 'وافر' و 'بلانسنوا' ، والاشياء المقلقة التي قالها هذا الفارس ، وتأخر 'غروشي' ، والالف والحسنة رجل الذين 'قتلوا في بستان هوغومون في اقل من ساعة' ، والالف والثمانئة رجل الذين صرعوا في فترة اشد قصراً حول 'لاهاي سانت' - لم يكن في هذه الاحداث العاصفة كلها ، التي مرت مثل معائب المعركة امام نابوليون ، ما كدّر محياه ، او عكّر انطباعه اليقين الامبراطوري عليه . فقد تعود نابوليون ان يمدق الى الحرب تحديقاً . انه ما كان 'يجري جمع التفاصيل الموجبة رقماً رقماً . فلم تكن الارقام لتهمة الا\* اذا اعطت هذا الحاصل : النصر . وعلى الرغم من ان طلائع المعركة كانت سبينة فلم يزعبه ذلك ، وكيف يزعبه وهو

\* ارشيدونية سابقة في المائة الوسطى .

الذي اعتقد انه سيد النهاية ومالكها ؟ كان يعرف كيف ينتظر ، معتبراً نفسه في عصبة من الطواريء ، معاملاً القدر كما يعامل الندّ الندّ . لقد بدا وكأنه يقول لهذا القدر : « انت لن تجرؤ . »  
 وحين اختلط نور النهار بظلام الليل استشعر نابوليون انه مصون في الحير ، متجاوزاً عنه في الشر . كانت له او كان يعتقد ان له - مرافقة على الاحداث ، بل مشاركة فيها تعديل الفكرة القائلة بالعصبة من الجروح ، عند القدماء .

واباً ما كان ، فحين يكون وراء المرء « بيريزينا » \* و « لايبسيك » \*\* و « فونتينيلو » \*\*\* يبدو وكأن من الجائر ان يشك في واترلو . ان اكفهراراً خفياً قد شرع يظهر في اعماق السماء . ولحظة ارتدّ ولينغتون اخذت نابوليون هزة الطرب . لقد رأى « نجّد » مون سان جان ، يعمرى فجأة ، ورأى جبهة الجيش الانكليزي تحتفي . واجتمع شمل هذا الجيش كرة أخرى ولكنه ظلّ متوارياً . ونهض الامبراطور في ركابه نصف نهضة . لقد اخترق وميض النصر عينيه . لقد حصر ولينغتون في غابة سواني\* وحطمت قواته - تلك كانت الهزيمة الحاسمة نزلها فرسة بانكلترة . ذلك كان الانتقام لـ « كريبي » \*\*\*\*

---

\* Béréina نهر في روسية البيضاء اشتهر بعبور الجيش الفرنسي له من ٢٦ - ٢٩ تشرين الثاني عام ١٨١٢ .

\*\* المدينة الالمانية المروعة وقد نشبت فيها معركة بين الفرنسيين والحلفاء ( معركة اليم ) اضطر نابوليون على ائتما الى الجلاء من المانية ( سنة ١٨١٣ )

\*\*\* اشارة الى « معاهدة فونتينيلو » التي سوت ، في ١١ نيسان ١٨١٤ ، بعد استقالة نابوليون الاول ، وضع الامبراطور ووضع أسرته .

\*\*\*\* Crécy - en - Ponthieu بلدة في شمال فرنسا جرت فيها موقعة بين الفرنسيين بقيادة نيلب دو فالوا والانكليز بقيادة ادورد الثالث سنة ١٣٤٦ وكان النصر فيها حليف الانكليز .

و « برانييه » \* ، و « مالبلاكيه » \*\* و « رامبي » \*\*\* كان بطل  
مارانغو يحو عار « آزينكور » . \*\*\*\*

وانشأ الامبراطور يتأمل هذا التطور القطيع الذي طرأ على الموقف ،  
وأجال منظاره المرة الاخيرة فوق كل نقطة من ساحة القتال . ونظر  
اليه حرسه - وكانوا واقفين خلفه وسلاحهم على أرجلهم - في ضرب من  
العبادة . كان يفكر . كان يدرس السفوح ، ويلاحظ المنحدرات ،  
وينفحص الغابة الصغيرة ، وحقل الجاودار المربع ، والمجاز الضيق . لقد  
بدا وكأنه 'يحصي كل دغل من الادغال . ونظر فترة من الزمن الى  
المتاريس الانكليزية القائمة على الطريقين ، وكانا ركائمين ضخمين من  
الاشجار ، احدهما على طريق جيناب ، فوق « لا هاي سانت » ،  
وهو مسلح بمدفعين كانا وحدهما - بين المدفعية الانكليزية كلها - اللذين  
يريان قمر ساحة القتال ، والآخر على طريق نيفيل حيث التمت حراب  
لواء « ساسيه » الهولندية . ولاحظ قرب ذلك المتراس كنيسة القديس  
نقولا العتيقة ، المدهونة باللون الابيض ، والقائمة عند زاوية الطريق  
المختصرة المتجهة نحو « برين لالو » . وانحنى وهمس في اذن الدليل ،  
لاكوست . واوماً الدليل برأيه ايماءة نفي ، اغلب الظن انها كانت خادعة .  
ونحن الامبراطور وفكر .

---

\* حيث انتصر ادورد الشهير بالامير الاسود ( وهو ابن ادورد الثالث ) على  
ملك فرنسا جان الثاني الملقب بالثجاع ، سنة ١٣٥٦ وأمره .  
\*\* Malplaquet في أقصى الشمال الفرنسي حيث هزم الانكليز الفرنسيين في ١١  
ايلول سنة ١٧٠٩ .

\*\*\* Ramillies - Offus من اعمال بليكة حيث انتصر ماربورو على مارشال  
فرنسا فيلروا عام ١٧٠٦ .  
\*\*\*\* Azincourt في منطقة ال « با دو كاليه » شمالي فرنسا حيث هزم الانكليز  
بقيادة هنري الخامس القوات الفرنسية وعلى رأسها دوق اورليان ( ٢٥ تشرين الاول  
عام ١٤١٥ ) .

كان وليغتون قد انقلب على عقبه . ولم يبقَ غير إنجاز هذا الارتداد بضربة ماحقة .

وفجأة التفت نابوليون ، ووجهه ، على جناح السرعة ، رسولاً الى باريس ليعلن ان المعركة قد كُسبت .

كان نابوليون واحداً من اولئك العباقرة الذين تصدر عنهم الرعود . وكان قد وجد صاعقه .

وأصدر أمره الى دارعي « ميلهو » \* بالاستيلاء على نجد « مون سان جان » .

## ٩

### ما لم يكن متوقعاً

كانوا ثلاثة آلاف وخمسة رجل . ولقد شكلوا جبهة تبلغ نصف ميل . كانوا رجالاً عمالقة على صهوات جياد ذات جسوم هائلة . وكانت تنتظمهم ست\* وعشرون كوكبة\* ، ومن ورائهم فصيل « لوفيفر دينوويت »\*\* وهم مئة وستة من رجال الدرك المختارين ، وقناصة الحرس وعدتهم ألف ومئة وسبعة وتسعون رجلاً ، وفرمان الحرس الرماحة وعدتهم ثمانمائة وثمانون . كانوا يلبسون الخوذ من غير سبيب ، والدروع المصنوعة من الحديد المطروق ، وقد شدوا مسدسات الفرسان في غلاظتها الجلدية الى مقدم السرج ، وتسلموا بالسيوف الطويلة المقنوسة .

---

\* Mülhaud جنرال فرنسي اشتهر ببرأته البطولية على رأس قواته الدارعة .  
( ١٧٦٨ - ١٨٣٣ )

\*\* Lefebvre - Desmouettes جنرال فرنسي ( ١٧٧٣ - ١٨٢٢ ) ابدى في واترلو بلاه حقاً ، ثم هاجر الى اميركة بعد عودة آل بوربون الى العرش .

وفي الصباح ، كانوا موضع إعجاب الجيش كله عندما أقبلوا في كثافة عند الساعة التاسعة ، وقد ضجعت الابواق وأُنشد جنود الموسيقى كلهم : « فلنسير على سلامة الامبراطورية » \* ، وسارت إحدى وحداتهم المدفعية الى جانبهم ، والأخرى في وسطهم ، واندفعوا في صفين بين طريق جيناب و « فريشون » ، واخذوا مواقعهم في ذلك الخط الثاني الجبار الذي أقامه نابوليون في كثير من الحكمة ، والذي كان له - وقد واكبه في أقصى يساره دارعو كيلرمان وفي أقصى يمينه دارعو ميلهو - جناحان من حديد اذا جاز التعبير .

وحمل اليهم ضابط الارتباط برنار أمر الامبراطور . وشهر « في » سيفه ووضع نفسه على رأسهم . وشرعت كتائب الفرسان الهائلة تتحرك . وعند ذلك رثي مشهد مروّع .

لقد اندفعت هذه الحيازة كلها ، مشهورة السيوف ، خفاقة الرابات ، صادحة الابواق ، في حركة واحدة وكأن أفرادها رجل واحد وقد شكّل كل فصيل صفاً - وفي مثل دقة آلة برونزية هادمة تشق ثلثة في جدار - وهبطت كثيب « لا بيل » آليانس ، وغطت في ذلك العمق الهائل الذي سبق لكثير من الرجال ان سقطوا فيه ، واختفت في الدخان ، ثم نهضت من هذه الدجّة ، وبرزت كرة ثانية عند الجانب الآخر ، وهي لا تزال كثيفة متلازمة ، مصعّدة بأقصى الحب ، وسط سحابة من قدائف المدفعية انبعجت فوقها في مرتقى تجنّد « مون سانت جان » الموحد الخفيف . لقد برزت كالحة ، مهددة ، نبته الجناث . وخلال الفترات الفاصلة ما بين انطلاق النيران الجماعي من البنادق وانطلاقها من المدافع ، كان في ميسور المرء أن يسمع صدى هذا الوطأ الجبار .

---

\* Veillons au salut de l'Empire أغنية وطنية كانت من أولى أغنيات الثورة الفرنسية . والواقع ان « الامبراطورية » هنا تعني « الدولة » . وقد 'خدع' كثيرون بتنوان هذه الأغنية فسبوا من انشيد عهد الامبراطورية الاولى .

واد كانا فصليين فقد شكلا صفين . كان فصيل « وانيه » الى اليمين ، وفصيل « دولور » الى اليسار . ومن بعيد ، كان يجيئ الى الناظر انها افعوانان فولاذيان هائلان يتمددان نحو فتحة النجد . لقد اخترق ذلك المعركة وكأنه اعجوبة من الاعاجيب .

ان شيئاً مثل هذا لم تشاهده العيون منذ استيلاء سلاح الفرسان الثقيل على متاريس ال « موسكوبا » . \* إن مورا \*\* لم يكن هناك . ولكن كان هناك « في » . لقد بدا وكأن هذا الحشد قد امسى غولاً ، وكأنما كانت له نفس واحدة ليس غير . لقد تموجت كل كوكبة ، وانتفخت مثل حلقة الأخطبوط . كان ممكناً ان يروا من خلال الدخان الكثيف ، اذ كان يمزقاً ههنا وهناك . انها فوضى من الحوذ والصيغات والسيوف ، ووثب خيل خاضع بين المدافع ونغمات الابواق - تجلبة فظيعة منظمة . وفوق ذلك كله ، كانت الدروع ، وكانت اشبه بجراشف أفعى هديرية ذات سبعة رؤوس .

هذه الاخبار تبدو وكأنما اخبار عصر آخر . ولا ريب في ان شيئاً مثل هذا المشهد قد برز في الملاحم الأورفية القديمة التي تحدثت عن الرجال الحيل ، عن اولئك المحبولين الاقدمين الذين كانوا يتصورون انهم قد مسخوا جياداً ، عن اولئك الجبابرة ذوي الوجوه البشرية ، والصدور الثيبية بصدور الحيل ، الذين تسور خبيهم الالوب \*\*\* ، الخفين ، الرفيعين ، المعصومين عن الجراح ، والذين هم آلهة وبهائم في

---

\* نهر في روسيا الوسطى جرت عنده معركة دامية بين الفرنسيين والروس عام ١٨١٢ ، وكان النصر فيها حليف الفرنسيين .

\*\* Murat صهر نابليون ، وكان جنرالاً لامعاً من قادة سلاح الفرسان . وقد ابلى بلاء حسناً في معركة الاهرام وفي معركة ال « موسكوبا » التي يشير اليها المؤلف ( ١٧٦٧ - ١٨١٥ )

\*\*\* جبل في بلاد الاغريق القديمة يقع بين مقدونيا واسبانيا وكانت الاساطير ترمي انه مقر الآلهة .

آن معاً .

إنها لمصادفة عديدة عجيبة . كان قد استقبل هذه الكوكبات الست والعشرين ستة وعشرون فوجاً . وخلف قنة النجد ووراء حجاب من المدفعية المقنعة كان الرجال الانكليز يشكون ثلاثة عشر مربعات ، في كل مربع فوجان ، وعلى خطين - في الاول سبعة مربعات ، وفي الثاني ستة - واعقاب البنادق الى الاكتاف ، والعيون على « قمحات » البنادق - فهم ينتظرون هادئين ، صامتين ، غير متحركين . لم يكن في ميسورهم ان يروا الدارعين ، ولم يكن في ميسور الدارعين ان يروهم . لقد اصفوا الى ارتفاع هذا المد من الرجال . لقد سمعوا صدى الثلاثة الآلاف جواد ، المتعاطف شيئاً بعد شيء ، ووقع حوافرها التناوبي المتسق ، في حُجب كامل ، وجلبة الدروع ، وقعقة السيوف ، وشبه هدير ضارٍ . وران الصمت الخفيف لحظة . وفجأة بدأ فوق القنة صف طويل من الاذرع المرفوعة التي تهز السيوف ، بنحوها وابواقها ورباتها ، وثلاثة آلاف وجه ذي شارب اشيب تهف : « بحسي الامبراطور ! » لقد تفجرت هذه الحياة كلها فوق النجد ، فكان ذلك شبه باستهلال زلزلة .

وفجأة - ذلك شيء فاجع - الى يسار الانكليز ، والى يميننا ، ارتدت طليعة الدارعين في جلبة مهتاجة مروعة . ذلك بأن هؤلاء الدارعين ما كادوا يبلغون أوج القنة ، مطلقى الاعنة لحيلهم ، وقد عصفت بهم الحاسة البالغة ، واتخذوا سيلهم نحو القضاء على المربعات والمدافع ، حتى رأوا ان بينهم وبين الانكليز حفرة ، بل قبراً . تلك كانت طريق « أوهين » الفائرة .

كانت لحظة مخيفة . كان الوادي هناك ، فاغراً فاه ، على نحو غير متوقع ، تحت حوافر الخيل تقريباً ، وقد بلغ عمقه قامتين بين منحدره المزدوج . ودفع الصف الثاني الصف الأول ، ودفع الصف الثالث



الصف الثاني . وسبّبت \* الحيل ، وارتدت الى وراء ، وانقلبت على أردافها ، وزلقت بقوائمها كلها في الهواء ، طارحة فرسانها مكذّسة بإيام على الارض . لم يكن ثمة وسيلة الى الانسحاب . ولم تكن الكتيبة كلها غير قذيفة . إن القوة المكتسبة لسحق الانكليز قد سحقت الفرنسيين . وما كان في ميسور الوادي المتحجر القلب ان يذعن إلا بعد ان امتلأ ؛ لقد تدرج الفرسان والجياد فيه على نحو فوضوي ، ساحقاً احدهما الآخر ، وقد تمازجت لحومهم في تلك الهوة الرهيبة . وحين طفق هذا القبر بالرجال الأحياء مشى الباقون فوقهم واجتازوا بالمكان . لقد سقط ثلث لواء د دوبوا ، تقريباً في هذه الهوة .

ومن هنا بدأ نابوليون يخسر المعركة .

ان ثمة رواية محلية ، مغالى فيها من غير شك ، تذهب الى القول بأن ألفي فرس وألفاً وخمسة رجل دُفِنوا في طريق اوهين الغائرة . ومن المحتمل ان يكون هذا الرقم شاملاً سائر تلك الجثث التي طُرحت في هذا الوادي خلال اليوم الذي تلا المعركة .

وينبغي ان ننصّ بالمناسبة على أن لواء د دوبوا ، هذا الذي امتسح على هذا النجو المشؤوم هو الذي حمل ، قبل ذلك بساعة ، حملةً عنيفة على العدو ، فانتزع راية فوج لونبورغ .

وكان نابوليون ، قبل ان يصدر أمره الى دارعي « ميلهو » بالهجوم ، قد درس طبيعة الارض ، ولكنه لم يستطع ان يرى هذه الطريق الغائرة التي لم تحدث ولو مجرد نفّضن على سطح التجد . ومع ذلك فقد أفتت نظره تلك الكنيسة الصغيرة البيضاء المتصلة بطريق نيفيل ، فوجّه سؤالاً الى الدليل لاكوست ؛ وانما فعل ذلك في أغلب الظن بعد أن تراءى له ان ثمة عقبة ما . وكان الدليل قد أجاب بقوله لا . ولعل في ميسور المرء ان يقول ان الكارثة التي حلت بنابوليون إنما انبثقت من هزة

\* شبا الجواد يشبو : قام على وجليه .

رأس هذا الفلاح .

وكان لا بدّ من وقوع كوارث اخرى .

أكان من الممكن ان يكسب نابوليون هذه المعركة ؟ نحن نجب بقولنا لا . لماذا ؟ بسبب من وليفتون ؟ بسبب من بلوخر ؟ لا . بسبب من الله .

فلان يفتصر نابوليون في واترلو شيء لم يكن في قانون القوت التاسع عشر . كانت سلسلة جديدة من الحقائق على وشك الوقوع ، سلسلة لم يكن لنابوليون اياما مكان فيها . وكانت نية الاحداث السببة قد تجلت منذ زمن طويل .

لقد حان سقوط هذا الرجل الهائل .

ان وطأة هذا الرجل المفرطة على المصير الانساني قد أخلت بالتوازن ، فقد كان هذا الفرد يساوي ، وحده ، المجموع الكوني . وهذا الفوض من كامل الحيوية البشرية المركّز في رأس واحد ، وهذه الدنيا الممتطية دماغ رجل واحد ، خلق بها ان يصبح شؤماً على الحضارة اذا استمر . لقد آن للعدالة العليا النزعة ان تتدبر الامر . واغلب الظن ان المبادي والعناصر التي تقوم عليها الجاذبيات القياسية في النظام الاخلاقي وفي النظام المادي جميعاً ، قد بدأت تتدمر . فالدماء التي يتصاعد منها البخار ، والمدافن المزدهمة بسكانها ، والامهات السافحات الدمع ، كل اولئك محامون مخيفون . ان ثمة ، حين تشكو الارض ضيقاً شديداً ، انثارت خفية تنبعث من الاماق ، فتسبعها السماء .

لقد شكى نابوليون الى اللانهاية ، وكان سقوطه امراً مقرراً .

لقد أغضب الله .

إن واترلو ليست معركة على الاطلاق . إنها تغيير جبهة الكون .

## نجد « مون سان جان »

وفي الوقت نفسه كانت المدفعية قد اكتشفت .  
لقد أطلق ستون مدفعاً واطلقت المربعات الثلاثة عشر نيرانها على  
الدارعين مرعدة مومضة . وأدّى دولار ، الجنرال الشجاع ، التحية  
العسكرية للمدفعية الانكليزية .

وفي مرة بالغة اتخذت المدفعية الانكليزية المنتقلة كلها موقفاً لها في  
المربعات . ولم يجد الدارعون متسعاً من الوقت يأخذون فيه نفساً .  
لقد قضت كارثة الطريق الفائرة على عدد كبير منهم ولكنها لم تقت في  
عضدهم . لقد كانوا رجالاً كلما نقص عددهم كبرت قلوبهم .  
إن كتيبة « وايتيه » وحدها هي التي أصابتها النكبة . أما كتيبة  
دولور التي كان « في » قد حملها على الانحراف نحو اليسار ، وكأنا  
أشعره قلبه بوجود الشرك ، فقد وصلت كاملة .

وانتفض الدارعون على المربعات الانكليزية .  
الحيل تلامس بطونها الارض ، والأعنة مطلقه ، والسيوف بين  
الاسنان ، والمسدسات في الأيدي - كذلك بدأ الهجوم .  
إن ثمة لحظات في المعركة تقتي النفس أثناءها الرجل حتى ليتحول  
الجندي الى تمثال ، وحتى ليصبح لجه كله صواناً . لقد أبت الافواج  
الانكليزية ، وقد هوجمت في يأس ، ان تترد خطوه واحدة الى وراء .  
وكان ذلك فظيلاً .

لقد هوجمت جوانب المربعات الانكليزية كلها في آنٍ معاً . لقد  
احاطت بها عاصفة من جنون . وظلت هذه الرجال الباردة ثبته الجنان .  
فأما الصف الاول ، وكان راكماً على ركبته على الارض ، فاستقبل

الدارعين على رؤوس الحراب ، واما الصف الثاني فأطلق عليهم النار من بنادقه . وخلف الصف الثاني شحن المدفيعات مدافعهم ، وانفجرت طبيعة المربع ، لكي تقسح المجال لانطلاق القذائف المحمومة ، ثم انفجرت كرة اخرى . وكان جواب الدارين أن انقضوا على الرجالة في قوة ماحقة . لقد سببت جيادهم الضخام ، وتخطت الصفوف في خطى واسعة ، ووثبت فوق الحراب ، ثم سقطت - جبارة - وسط هذه الجدران الحية الاربعة . وحدثت القذائف فجوات في صفوف الدارين ، وحدث الدارعون ثلثاً في المربعات . لقد اختفت صفوف من الجند بعد أن سحقت اجسادها تحت سنابك الخيل . ولقد غيبت الحراب في بطون هؤلاء السناطرة \* ، ومن هنا تلك الجراح الشائنة التي يغلب على الظن أن احداً لم يشهد ضرباً لها من قبل . وانكسرت المربعات على نفسها ، وقد قرضتها هذه الحياة المجنونة ، من غير ان تتحرك او تتردد . كانت تلك معيناً من القذائف لا ينضب ، فهي تفجرتها ابدأ وسط العدو المهاجم . كان مشهداً رهيباً . إن هذه المربعات لم تعد أفواجاً من الجند ؛ لقد أمست فوهات براكين . وهؤلاء الدارعون لم يعودوا خيالة ؛ لقد أمسوا إعصاراً . كان كل مربع بركاناً تهاجمه سحابة . ولقد اضطرت اللحم والصواعق .

وقضي قضاءً شبه كامل ، من الصدمة الاولى ، على المربع الذي في اقصى اليمين ، وهو اكثر المربعات تعرضاً للخطر ، بوصفه قائماً في الميدان الطلق . وكان مؤلفاً من رجال السرية الخامسة والسبعين الجبلين الاسكتلنديين . وفيما كانت عملية الاستئصال دائرة كان النافخ بزمارة القربة ، قاعداً في الوسط فوق احد الطبول ، وقد غفل غفلة هيبة عن كل ما حوله ، خافضاً عينه الكشبة المملأ بظلال الغابات والبحيرات ،

---

\* Centaurs جمع « سنتر » ، وهو في الميثولوجيا غولوك وهي نصفه إنسان ونصفه الآخر فرس .

وكان واضعاً مزماره الاسكتلندي \* تحت ذراعه ، عازفاً أنغام الجبل .  
لقد مات هؤلاء الاسكتلنديون وهم يفكرون بـ « بن لوثيان » ، كما  
مات الاغريق وهم يذكرون « آرغوس » . ثم إن سيف أحد  
الدارعين هوى على المزمار وعلى الذراع التي تحمله فقطع الاغنية بأثر  
قتل المعني .

وتعين على الدارعين وقد غدا عددهم ضئيلاً نسبياً ، بعد كارثة الوادي ،  
ان يواجهوا كامل الجيش الانكليزي تقريباً . ولكنهم ضاعفوا انفسهم ،  
فاذا بكل رجل يُعَدِّلُ عشرة . ومع ذلك فقد ارتدت بعض الافواج  
الهاثورة الى الوراء . ورأى ولينغتون ذلك وتذكر خياله . ولو ان  
نابوليون تذكر ، في تلك اللحظة نفسها ، رجاله إذن لكسب المعركة .  
لقد كان هذا السهو هو غلظته الكبيرة المشؤومة .

وفجأة وجد الدارعون المهاجمون انهم مهاجمون . لقد انقضت  
الحيلة الانكليزية على ظهورهم . كانت المربعات امامهم ، وكان سومرست  
وراءهم . سومرست يجرسه الفرسان البالغ عددهم ألفاً واربعمئة . وكان  
الى يمين سومرست « دورنبرغ » ، بخياله الالمان الخفاف ، السلاح والى  
يساره « تريب » على رأس حاملي الكارينات البلجيكيين . واضطر  
الدارعون ، وقد هوجوا من الجبهة ومن الجناح ، ومن أمام ومن  
وراء ، وبواسطة الرجال والخيالة معاً ، اضطروا الى ان يديروا وجوههم  
الى الجهات جميعاً . وما ضرهم ؟ كانوا إعصاراً . وغدت بطولتهم بمنعة  
على الرصف .

والى هذا ، فقد كانت خلفهم تلك المدفعية المرعدة ابدأ . وكانت  
ذلك كله ضرورياً لكي 'يجرح امثال هؤلاء الرجال في الظهر . إن أحد

---

\* وهو مؤلف من كيس الهواء مصنوع من جلد مزيت ومغطى ببشاش من صوف تتصل  
بفوهة انبوبة ينفخ بواسطتها المازف فيمتلي الكيس هواء ، ويتصل به مزمار ذو  
ثقوب مختلفة لتوقيع الانغام .

دروعهم ، وقد ثقبته عند صفيحة الكتف اليسرى طلقة مدس ، محفوظة في مجموعة متحف واترلو .

ان امثال هؤلاء الفرنسيين لا يبارحهم غير امثال هؤلاء الانكليز .  
انه لم يعد نزاعاً . لقد أمسى ظلاماً ، هيجاناً ، فورة نفوس وبطولات توقع الدوار في الرأس ، وإعصاراً من يريق السيوف . وفي لحظة ، لم يبق من فرسان الحرس الألف والاربعمئة غير ثمانية . وخرّ « فولر » وهو ملازمهم الاول صريعاً . واندفع « في » ، مع الرماحة وقناصة « لوفيفر دينويت » . واحتل الفرنسيون نجد « مون سان جان » ، ثم فقدوه ، ثم عاودوا احتلاله . وترك الدارعون الحياطة لكي ينقلبوا الى الرجالة ، والاصح ان نقول ان هذه الجبهة الرهيبة كلها اضطرت من غير ان يُفقد ايّ من الفريقين الفريق الآخر . وواصلت المربعات صمودها . لقد « سنّ » اثنا عشر هجوماً . وقتلت اربعة جياد تحت « في » . وانطرح نصف الدارعين على ارض النجد . ودام هذا الصراع ساعتين . و«زعزع الجيش الانكليزي على نحو راعب . ولا ريب في ان الدارعين كان خليقاً بهم ، لو لم توهن من عزائمهم تلك الصدمة الاولى التي اصابتهم اثر كاذبة الطريق الفائزة ، ان بسحقوا الوسط ، وقرروا النصر . واذهلت هذه الحياطة الرائعة « كلينتون » الذي سبق ان رأى « تالافيرا » \* و « باداغوز » \*\* . وأعجب ولينغتون بها على الرغم من انه كان ثلاثة ارباع منهزم ، إعجاباً بطولياً ، وقال في صوت خفيض :

- « باهر ! »

وافنى الدارعون سبعة مربعات من ثلاثة عشر ، وانزعوا أو ستمروا ستين مدفعاً ، واستولوا على ستّ من ربات الافواج الانكليزية ، حملها

\* مدينة اسبانية اتعر فيها ولينغتون على الفرنسيين ، عام ١٨٠٩

\*\* مدينة اسبانية استولى عليها الفرنسيون ، بقيادة الجنرال سوك ، عام ١٨١١

ثلاثة دارعين وثلاثة قناصين من الحرس الى الامبراطور ، امام مزرعة  
« لا بيل » آليانس » .

كان وضع « ولينغتون » يزداد سوءاً . لقد كانت هذه المعركة المعجبة  
أشبه شيء ببارزة بين جريحين مغيبين يفقد كل منهما دمه كله ، ومع  
ذلك فهو يواصل الكفاح والمقاومة . ايّ الفريقين سوف يسقط على  
الارض قبل الآخر ؟

واستمر الصراع من اجل النجد .

الى ايّ مدى تقدّم الدارعون ؟ ليس في ميسور احد ان يجيب .  
ولكن شيئاً واحداً لا يعتريه الريب : ففي اليوم الذي تلا المعركة  
وجد دارع وجواده ميتين تحت هيكل قبان العشب المجفف في « مون  
سان جان » عند ملتقى طرق « نيفيل » ، و « جيناب » ، و « لا  
هولب » ، و « بروكسل » . وكان هذا الفارس قد اخترق الخطوط  
الانكليزية . وإن واحداً من الرجال الذين انتشلوا هذه الجثة لا يزال  
يحيا في « مون سان جان » . إنه يدعى دوهاز . ولقد كان آنذاك في  
الثامنة عشرة من عمره .

واستشعر ولينغتون انه هزم . كانت الازمة وشيكة .

ولم يوفق الدارعون ، بمعنى ان الوسط لم يُسحق . كان كل من  
الفريقين مجتلّ النجد ، ولم يكن ايّ منهما مجتلّ ، وفي الحق انه ظلّ  
في المحل الاول في أيدي الانكليز . كان ولينغتون يملك القرية والسهل  
الذي يتوجها . وكان « ني » لا يملك غير القنّة والمتحدر . لقد بدا  
كلّ من الفريقين راسخ الجذور في هذه التربة الفاجعة .

ولكن إضعاف الانكليز بدا « عضالاً » . كان الترف الذي اصاب هذا  
الجيش فظيلاً . فقد طلب « كبت » ، في الجناح الايسر ، ان يُنجّد  
بعض الامداد . فاجابه ولينغتون : « مستحيل » ، يجب ان غوت فوق  
الارض التي تحتلها الآن ! » ، وفي اللحظة نفسها تقريباً - مصادفة

فريدة تصور الحسرة الفادحة التي حلت بالجيشين جميعاً - ارسل «ني» الى نابوليون طالباً ان يمدّه بقوة من الرجالة ، فصاح نابوليون : « رجالة ! ومن اين ينتظر مني أن اجيشهم ؟ اريد مني ان اخلفهم له ؟ » .

وعلى اية حال ، فقد كان الجيش الانكليزي هو الاشدّ مرضاً . ذلك بان الهجمات الضارية التي شنتها هذه الكتائب ذات الدروع الحديدية والصدور الفولاذية كانت قد سحقّت الرجالة سحقاً . كان في وجود نفر قليل من الجند حول راية من الرايات اشارة الى موقع سرية من سرايا الجيش . وامست الافواج الآن تحت إمرة رؤساء (كابتين) او ملازمين اولين . لقد «حطم» فصل «آلتن» ، وكان قد اصابه ضرر كبير في «لاهاي سانت» ، «تخطيطاً» يكاد يكون كاملاً . وغطى البلجيكيون البواسل الذين انتظمهم لواء «فان كلوز» سهل الجاودار على طول طريق نيفيل . ولم يبق غير القليل القليل من رماة القنابل الهولنديين اولئك ، الذين انضموا الى صفوفنا عام ١٨١١ ، في اسبانية ، وقاتلوا ضد ولينغتون ، والذين انضموا عام ١٨١٥ الى صفوف الانكليز وقاتلوا ضد نابوليون . كانت الحسرة في الضباط بالغة . كان اللورد اوكسبريدج ، الذي دفن رجله في اليوم التالي ، قد اصيب بكسر في الركبة . واذا كان صراع الدارعين هذا قد ادى ، عند الجانب الفرنسي ، الى ان يصبح «دولور» ، و «ليرنييه» ، و «كولبير» ، و «ذنوب» ، و «ترافير» ، و «بلانكار» عاجزين عن القتال ، فمن الجانب الانكليزي «جرح» «آلتن» ، و «جرح» «بيرون» ، و «قتل» «ديلانسي» ، و «قتل» «فان ميرلن» ، و «صرع» «أومبتيدا» ، واصيبت هيئة اركان حرب ولينغتون كلها باعظم الحسرة ، وقالت انكلترة النقيب الاسوأ في هذا التوازن الدامي . كانت السرية الثانية من سرايا الحرس المشاة قد فقدت خمسة «عقداء» ، واربعة رؤساء ، وثلاث رايات . وكان الفوج



الاول من فرقة الرجال الثلاثين قد فقد اربعة وعشرين ضابطاً ومئة  
واثنى عشر جندياً . وكان اربعة وعشرون من ضباط القوات الاسكتلندية  
الجبليّة قد 'جرحوا' ، وغاية عشر ضابطاً قد 'قتلوا' ، واربعمئة وخمسون  
جندياً قد ذبحوا . وكانت خيالة كومبرلاند المانوفرية ، وهي سرية كاملة  
على رأسها 'الزعيم هاكه' ، الذي حوكم فيها بعد 'عزل' ، قد انقلبت  
على اعقابها قبل بدء القتال ، وولت هاربة في غابة 'سوانسي' ، ناشرة  
الذعر حتى بروكسل . ولم تكد الكارئات ، وشاحنات الذخيرة الحربية ،  
وناقلات الامتعة ، وعربات الاسعاف الملائى بالجرحى ، لم تكد هذه  
كلها ترى الفرنسيين يتقدمون ، ويقربون من الغابة ، حتى ولت على  
جناح السرعة . وصاح المولنديون ، وقد انقضّت عليهم سيوف الفرسان  
الفرنسيين : « الى القتال ! » . ومن « فيرت كوكو » الى  
« غرونديل » ، وعلى مسافة فرسخين تقريباً في اتجاه بروكسل ، غصت  
الطرق ، وفقاً لشهادة شهود لا يزالون احياء ، بالفارين من الجند .  
وكان هذا الذعر من الشدة بحيث بلغ البرنس دو كوندية \* في « مالين »  
ولويس الثامن عشر في « غان » . وباستثناء الاحتياطي الضئيل  
المرتب صفوفاً متتابعة خلف المستشفى المقام في مزوعة « مون سان جان »  
ولواءي « فيفيان » و « فانديلور » المواكبين للجناح الابر ، لم يبق  
عند لينغتون شيء من الخيالة . وكان عدد من المدافع ملقى على  
الارض مفكك الاجزاء . تلك حقائق يعترف بها سيبورن . ويذهب  
برينغل ، مبالغاً في الكارثة ، الى حد القول ان الجيش الانكليزي  
المولندي لم يسلم منه غير اربعة وثلاثين الف رجل . واحتفظ الدوق  
الحديدي \*\* بجهوده ، ولكن شفّته كانتا شاحبتين . وظن المفوض

\* من امراء اسرة بوربون الفرنسية المالكة ، وكان قد هاجر من فرنسا عام ١٧٩٢  
وشكل في كوبلنتز وعلى ضفاف الراين الجيش الموسوم بجيش دو كوندية .  
\*\* الدوق الحديدي Iron Duke هو اللقب الذي 'خلع' على وليغتون لقوته الجسدية  
ولادته التي لا تلين .

النموي ، فينان ، والمفوض الاسباني ، آلافا ، اللذان شهدا المعركة الى جانب هيئة الاركان الانكازية ، ان الدوق هالك لا محالة . وعند الساعة الخامسة سحب ولينغتون ساعته ، وسمع يغمغم بهذه الكلمات الكالحة : « بلوخو ، او الليل ! » .

وفي هذه اللحظة تقريباً التمع صف من الحراب بعيد فوق الربى القائمة وراء فريشون .

تلك هي نقطة التحول في هذه المأساة العملاقة .

## ١١

### دليل ردي لثابوليون

### ودليل جيد لبولوف

كلنا نعرف غاظة ثابوليون الموجهة ؛ كان يرجو أن يصل غروشي\*\*\* ، فوصل بلوخو ؛ الموت بدلاً من الحياة .

إن للقدور مثل هذه الانحرافات . ففما كان ثابوليون ينتظر ان يتربع على عرش العالم ، اذا به يلحق جزيرة القديسة هيلانة .

لو ان داعي البقر الصغير الذي أرشد بولوف ، ساعد بلوخو الأمين ، نصحه بأن ينطلق من الغابة التي فرق فريشون بدلاً من الغابة التي تحت

---

\* Bulow جنرال بروسي ( ١٧٥٥ - ١٨١٦ ) شارك مشاركة فعالة في معركة ليبغ وواترلو .

\*\* Grouchy مارشال فرنسي ( ١٧٦٦ - ١٨٤٧ ) ، وقد عهد اليه عشية وواترلو بمطاردة البروسيين المهزومين في ليني ، ولكنه تركهم ينجون بانفسهم ويتحطون بالانكلز ، على حين ظل هو بعيداً عن ميدان المعركة . وقد أنتب على تردده هذا الذي يعمده الفرنسيون إجرامياً تقريباً .

بلانسوا اذن لكان من الجائز أن يتغير شكل القرن التاسع عشر .  
كان خليقاً بنابوليون ، في هذه الحال ، ان يكسب المعركة . ذلك  
بأن ايا طريق غير الطريق الممتدة تحت بلانسوا كانت خليقة بأن تقود  
الجيش البروسي الى واد تعجز المدفعية عن اجتيازه ، وإذن لما وصل بولوف .  
ولو قد تأخر ساعة - بذلك يصرّح الجنرال البروسي موفلنج - لما  
وجد بولوفر وليفتون صامداً . « كان الحلفاء قد خسروا المعركة » .  
كان وصول بولوف قد حان ، كما رأينا . وكان قد تأخر كثيراً .  
لقد عسكر في الفضاء الطلق في « ديون لو مون » ، وانطلق عند  
الضحى . ولكن الطرق كانت غير سالكة ، وكان فصيله يغموص في  
الوحل . لقد ساخت المدافع في التلّس حتى مراكز دواليبها . وإلى  
ذلك ، فقد تعيّن عليه أن يعبر « ديل » \* على جسر « فافر »  
الضيق . وكان الفرنسيون قد أضرموا النار في الشارع المؤدي الى الجسر .  
واذ لم يكن في ميسور عربات المؤن وناقلات المدافع أن تمرّ بين صفين  
من البيوت المحترقة فقد اضطرّ الى الانتظار حتى «تُحمد النيران . كانت  
النهار قد انصف قبل ان يصل بولوف الى « شابل سان لامبير » .  
ولو قد بدأ القتال قبل ساعتين اثنتين اذن لانتهى في الساعة الرابعة ،  
وإذن لبلغ بولوفر الميدان وقد كسب نابوليون المعركة . هكذا هي  
هذه المصادقات الهائلة التي «حفظت النسبة ما بينها الى لا نهاية لا نستطيع  
ان ندرّكها .

فمنذ الظهيرة كان الامبراطور قد لمح بمنظاره الحربي قبل أيّ من رجاله  
جميعاً عند أقصى الاقن شيئاً ستمرّ انتباهه . وكان قد قال : « لاني ارى  
هناك سحابة تبدو لي جيوشاً . » ثم سأل دوق دالماسية \*\* : « سولت ،

\* La Dyle نهر في بلجيكة .

\*\* هو اللب الذي عرف به « سولت » بعد معاهدة « تلسيت » التي وقعت  
عام ١٨٠٧ بين نابوليون ، وألكسندر الاول امبراطور روسيا ، وبروسية .

ماذا ترى نحو شاييل سان لامبير ؟ ، وادار المارشال منظاره في ذلك الاتجاه ، واجاب : « خمسة آلاف رجل ، او ستة آلاف رجل ، يا مولاي . إنه غروشي من غير ريب . » وفي غضون هذا ، ظلّ ذلك الشيء جامداً وسط الضباب الكثيف . وفحصت مناظير اركان الحرب كلهم تلك « السحابة » التي اشار اليها الامبراطور . وقال بعضهم : « إنها كتائب تقف متمهلة . » وقال معظمهم : « إنها اشجار . » والحقّ ان السحابة كانت جامدة لا تتحرك . وعهد الامبراطور الى فصل « دومون » المؤلف من خيالة خفيفة في استكشاف هذه النقطة الغامضة .

في الواقع ان بولوف لم يتحرك . كانت طليعة قواته ضعيفة جداً ، ولم تكن قادرة على شيء .. لقد تعيّن عليه ان ينتظر جمّاع جيشه ، ولقد أمرَ بأن يركّز قواته قبل ان يتقدّم الى خط القتال . ولكن في الساعة الخامسة ، أصدر بلوخر أمره الى بولوف - وقد رأى الى الخطر يتهدّد ولينغتون - بأن يشنّ الهجوم ، ونطق بهذه الكلمة الرائعة :

« يجب ان نعطي الجيش الانكليزي فرصة للتنفس . » وما هي الا برهة قصيرة حتى انتشرت فصائل « لوستين » ، و « هيلر » ، و « هاكه » ، و « رايسيل » ، أمام فيلق « لوبو » ، وانطلقت خيالة الامير وليم البروسي من غابة باريس ، وكانت النار تأكل بلدة بلانسنوا ، وشرعت قذائف المدافع البروسية تتساقط كالطر حتى بين صفوف الحرس الاحتياطي خلف نابوليون .

والبقية معروفة : غارة الجيش الثالث ، ونشوش المعركة ، وإرصاد ستة وثلاثين مدفعاً على نحو مفاجيء ، وبجيء بيرش الاول مع بولوف ، وخيالة زايغن يقودها بلوخر بنفسه ، وارتياد الفرنسيين الى الوراء ، وطرْد « ماركونيه » من « نيجد أوهين » ، وإخراج « دوروت » من « بايلوت » ، ونكوص « دوتزبلو » و « كييو » ، والمهجوم على قوات « لوبو » هجوماً جانبياً ، ومفاجأة كتابتنا المحطبة بمركة جديدة عند هبوط الليل ، وانتقال الخط الانكليزي كله من الدفاع الى الهجوم وزحفه الى الامام ، والفجوة الهائلة التي حدثت في الجيش الفرنسي ، وتعاون المدفعية الانكليزية والمدفعية البروسية ، والافناء ، والكارثة التي حلت بمقدمة الجيش ، والكارثة التي حلت بالجناح ، ودخول الحرس خط القتال وسط هذا الانهيار الفظيع .

واذ استشعروا انهم ذاهبون لملاقاة الموت فقد صاحوا : « فليحي الامبراطور ! » وليس في التاريخ شيء يهز المشاعر اكثر من حشجة الموت هذه المتفجرة في هتافات .

كانت السماء محجوبة بالغيوم طوال النهار . وفجأة ، وفي هذه اللحظة بالذات - كانت الساعة الثامنة مساء - انقضت الغيوم عند الافق ، ومن خلال شجرات الدردار القائمة على طريق نيفيل تدفق ضياء الشمس المحتضرة الأحمر الكالج . كانت هذه الشمس قد اشرقت ، صباحاً ، على اوستوليتز . وفي هذا الجهد الأخير ، كان كل فوج من أفواج الحرس يقوده جنرال . كان هناك « فرييان » ، و « ومبشيل » ، « درويجه » ، و « هارليه » ، و « ماليه » ، و « بوربه دو مورفان » . وحين

برزت قبعات رماة القنايل من الحرس - تلك القبعات الطويلة ذات الصفائح  
الفسرية - منسقة ، مصطفة ، رابطة الجأش ، وسط دخان ذلك الصراع ،  
استشعر العدو الاحترام لفرسة . لقد حسب انه رأى عشرين انتصاراً  
تدخل ميدان القتال ، منشورة الاجنحة ، فاذا باولئك الذين كانوا  
غالبين يحسبون انفسهم مغلوبين ، فينقلبوا على أعقابهم . ولكن وليستغفروا  
صاح : « انهضوا ، أيها الحرس ، وسددوا النار اليهم ! » ونهضت  
سرية الحرس الأنكليزية الحمراء ، الجائفة خلف الاسيجة ، وصبت وابلاً  
من القنايل على الراية المثلثة الالوان الحافقة حول سورنا . واندفعوا  
جميعاً الى امام ، وبدأت الهجرة الكبرى . واستشعر الحرس الامبراطوري  
ان الجيش يتقهقر من حولهم في الظلام ، كما استشعروا زلزلة الانهزام  
المائلة . لقد سمعوا « الفواو ! الفواو ! » التي حلت محل « فليحي  
الامبراطور ! » ومع هروب الجند من ورائهم ، استمروا في اندفاعهم  
الى امام ، تحققهم المدافع اكثر فاكثراً ، وبتلقفهم الموت أسرع  
فأسرع عند كل خطوة . لم يكن ثمة لا مترددون ، ولا جناء . كان  
التفر في هذه الفرقة بضاهي الجنرال بطولة . إن رجلاً واحداً من أفرادها  
لم ينكص أمام الانتصار .

وتعرض « ني » يائساً ، متحققاً بكامل عظمة الموت المرتضى ،  
تختلف المخاطر في هذه العاصفة . لقد قتل جواده الخامس من تحته . لقد  
صاح والعرق يقطر منه ، والنار في عينيه ، والزبد على شفتيه ، وقد  
فكت ازرار ستونه العسكرية ، وقطعت احدى كتافيه على نحو جزئي  
بضربة سيف من أحد الحرس الفرسان ، واختوت قنبلة صفيحة التي  
تمثل نسرأ كبيراً ، وسال الدم منه ، وثلوت جسده بالوحل ، واتشح  
بالبهاء ، ولوحت يده بسيف مكسور : « تعالوا وانظروا كيف يموت  
ماوشال من ماوشالات فونسة في ساحة المعركة ! » ولكن على غير  
طائل . إنه لم يمت . وعصفت به القسوة والغيظ . وطرح على « درويبه

ديزلون ، هذا السؤال : « ماذا ! ألسن تبذل جهدك لكي تموت ؟ »  
 وصاح وسط هذه الرجالة كلها التي تسحق حفنة من الجند : « أليس ثمة شيء ،  
 إذن ، من اجلي ؟ أوه ! اني أعني لو ان جميع هذه القذائف الانكليزية  
 قد دُفنت في جسدي ! » يا لك من رجل بالئ ! لقد ادُخِرتَ للقنابل  
 الفرنسية !

## ١٣

### النكبة

كان الانهزام من وراء الحرس فاجعاً .  
 لقد انكفأ الجيش 'فجأة' ، ومن الجهات جميعاً في آن معاً ، من  
 هوغومون ، من « لا هاي سانت » ، من بايلوت ، من بلانسنوا .  
 وأُتبع صيحة « خيانة ! » بصيحة « الفوار » الفوار ! ، إن الجيش  
 المنحلّ أشبه شيء بالثلج الذي يذوب . فكل شيء يلتوي ، ويتصدع ،  
 وبفضض ، وبطفو ، ويندحرج ، ويسقط ، ويتصادم ، ويسرع ،  
 ويفوص . ويستعير « ني » جواداً ، ويثب عليه ، من غير قبعة ،  
 او ربطة عنق ، او سيف ، وينطلق الى طريق بروكسل ممكلاً  
 بالانكليز والفرنسيين على السواء . انه يحاول الابقاء على الجيش . انه  
 يدعوم الى العودة ؛ إنه يعتفهم ؛ إنه يصارع الهزيمة . ويفرّ الجند منه  
 صائحين : « فليحي المارشال في ! » ونحيي سريتنا « دوروت ،  
 وتروحان ، مذعورين ، تتقاذفها سيوف الفرسان الالمان ونيران ألوية  
 « كبت » ، و « بست » ، و « باك » ، و « رابلانت » . والحق  
 ان الهزيمة اسوأ المعارك . فالاصدقاء يذبح بعضهم بعضاً لكي يفترّوا ،  
 وكتائب الحيلة وافواج المشاة يسحق بعضها بعضاً ويثنت بعضها بعضاً ،

زَبَدُ المعركة الضخم . إن الفيضان ليحرف « لوبو » من ناحية ، و « ربي » من ناحية أخرى . وعبثاً يحاول نابوليون أن يُقيم بالبقية الباقية من حرسه سدوداً . عبثاً يقذف بكوكبة فرسانه الاحتياطية في جهد أخير . ويتقهقر « كيبوت » في وجه « فيفيان » ، و « كيلرمان » في وجه « فاندولور » ، و « لوبو » في وجه « بولاو » ، و « موران » في وجه « بيرش » ، و « دومسون » و « سورفيك » في وجه الامير غليوم البروسي . ويجترّ « غويو » الذي قاد خيالة الامبراطور تحقيقاً للمهمة التي عهد اليه بها ، تحت منابك الحبل الانكليزية . ويسرع نابوليون الى الجنود المدبرين ، ويخطب فيهم ، ويحضهم ، ويهددهم ، ويتوسل اليهم . وتظلّ جميع تلك الافواه التي هفت في الصباح « فليحي الامبراطور » فارغة مشدوهة . إن جنوده لا يكادون يعرفونه . وإن الخيالة البروسية ، التي أقبلت اللحظة ، لتندفع الى امام ، وتلقي بنفسها على العدو ، وتعمل سيوفها ، وتقطع ، وتحتزّ ، وتقتل ، وتبيد . إن الدوابّ المقرونة لثب ، وإن المدافع لتعنى بنفسها ، وإن جنود القطار ليجلّون الحبل من العربات ويمتطون متونها هاربين ؛ وإن العربات لتطرح على الارض وقد انتصبت عجلاتها الاربع في الهواء ، فهي تعترض الطريق ، وهي تشارك في المذبحة . إن الجنود لينسحقون ، وإنهم ليُداسون . إنهم يمشون على الاحياء وعلى الاموات . إن الأذرع لمبتورة . وإن جبهة توقع الدوار في الرأس لتسلّ الطرق ، والازقة ، والجسور ، والسهول ، والتلال ، والادوية ، والغابات ، التي غصّت بهذا الفرار يقوم به اربعون الف رجل . لقد أُلقيت الصيحات ، وأُلقي اليأس ، وأُلقيت الاكياس والبنادق في الجاودار : مجازٌ مُشقّ بمجد السيف . لم يعد ثمة رفاق ، ولم يعد ثمة ضباط ، ولم يعد ثمة جنرالات ، هلعٌ لا سبيل الى وصفه . كان « زايتم » يُعمل السيف في جسم فرسة من غير ما عناه . وكان الأسود قد أصبحوا مجامير \* . كذلك كان هذا الفرار .

\* جمع يحمور . والبسمور دابة تشبه العنز .



وفي جيناب بُذل جهدٌ للعودة ، لتكوين جبهة ، للمقاومة . وجمع « لوبو » شمل ثلاثئة رجل . وكان مدخل القرية قد سُدّ بالمنايرس . ولكن ما ان انطلقت اول مجموعة من القذائف البروسية حتى عاودوا الفرار جميعاً ، وأسرَ « لوبو » . إن آثار تلك القذائف لا تزال تبدو اليوم على جدار مثلث جانبي عتيق من خربة قائمة الى يمين الطريق ، على مسيرة بضع دقائق من مدخل جيناب . وانقض البروسيون على جيناب ، وقد عصف بهم الغيظ من غير شك لهذا الفتح الذي تمّ لهم . وكان التعقب رهيباً . فقد اصدر بلوخر امره بالابادة . وكان « روجيه » قدوةً سيئة في هذا المضمار حين هدّد بالموت كل رامي قنابل فرنسي يسوق اليه أسيراً بروسياً . ولكن بلوخر فاق روجيه . فقد القي القبض على « دوهيزم » ، جنرال الحرس القتيان ، عند باب فندق في جيناب ، فلم سيفه الى فارس من « فرسان الموت » ، فما كان من هذا الفارس إلا ان اخذ السيف وقتل الأسير . لقد أكمل النصر بذبح المغلوبين . فلنعاقب ، ما دمنا نحن التاريخ : لقد تسربل بلوخر بالعار . وكانت هذه الوحشية ذروة الكارثة . واجتازت فلور المنهزمين البائسة « جيناب » ، واجتازت « كاتر برا » ، واجتازت « غوزيلي » ، واجتازت « فران » ، واجتازت « شارلوا » ، واجتازت « توين » ، ولم تقف إلا عند الحدود . وأسفاه ! ومن الذي كان يفرّ الآن على هذا النحو ؟ الجيش العظيم .

هذا الجنون ، هذا الهول ، هذا الانهيار الذي اصاب أممي شجاعة 'قدّر لها ان 'تدهش التاريخ ، أيمكن ان يكون هذا كله من غير سبب ؟ لا . ان ظلّ يد ميني هائلة ليخيم على واترلو . إنه يوم القدر . لقد هيمنت قوة فوق الانسان على ذلك اليوم . ومن هنا ، فقدادت الرشد بالذعر . ومن هنا استسلام هذه النفوس الكبيرة كلها . لقد سقط اولئك الذين فتحوا اوروبة على الارض ، بعد ان لم يجدوا شيئاً اضافياً

يقولونه او يعملونه ، مستشعرين وجوداً رهيباً في الظلام . *Hoc erat in factis* \* في ذلك اليوم ، تغير مستقبل الجنس البشري . إن واترلو هي مفصل الباب الذي دار عليه القرن التاسع عشر . فقد كان زوال الرجل العظيم ضرورياً للجيء القرن العظيم . ولقد تولى القيام بهذه المهمة كائنٌ ما ، لا يُناقش في ارادته . وهكذا يُفصح 'ذعر' الابطال عن نفسه . إن في معركة واترلو اكثر من سعادة ، إن فيها شهاباً . لقد مرت الرب من فوقها .

وفيما الليل يهبط على ساحة قرب جيناب\* أوقف « برنار » و « برتران » ، بعد ان امسكا بذيل معطفه ، رجلاً شكساً ذاهلاً كالحج الوجه كان التيار قد استاقه حتى تلك النقطة ، ثم ترتجل وأمر زمام فرسه تحت ذراعه ورجع ادراجه وحيداً شارد النظرات نحو واترلو . كان هو نابوليون ، وكان يحاول المعجوم كرة اخرى : عملاق يسير ، وهو قائم ، في غمرة هذا الحلم المنهار .

## ١٤

### المربع الأخير

كانت بضعة مربعات من الحرس قد صمدت حتى الليل ، غير متحركة وسط تيار الانهزام ، فكأنها الصخور وسط المياه الجارية . لقد دنا الليل ، ودنا الموت ايضاً ، ولكنها انتظرت هذا الظلام المزدوج ، واستسلمت غير متزعزعة لعناقه . كانت كل سرية ، وقد انعزلت عن سائر السرايا ، وانقطع كل اتصال لها بالجيش ، الذي كان ينهار في

---

\* تعبير لاتيني من كلام هوراس منناه : « ذلك ما كنت ارجو فيه » . وهو يذكر حين يتحدث عن أمنية يكون في تحقيقها استجابة لجميع الرغبات .

الجهات جميعاً - كانت كل سرية تموت وحدها . لقد اتخذت تلك السرايا مواقع لهذا الصراع النهائي : بعضها فوق روائي روسوم وبعضها في سهل « مون سان جان » . وهناك ، حشرت هذه المربعات الكالحة مهجورة ، مغلوبة ، فظيعة - على نحو رهيب . كانت « أولم » \* و « واغرام » \*\* و « جينا » \*\*\* و « فريدلاندا » \*\*\*\* تموت فيها .

وعند الفسق ، حوالى الساعة التاسعة مساءً ، وعلى سفح نجدر « مون سان جان » لم يبق غير مربع واحد . في هذا الوادي المشؤوم ، وعند قصر ذلك المنحدر الذي تسلفه الدارعون والذي ازدحمت فيه الآن الحشود الانكليزية ، وتحت النيران المركزة التي صوبتها مدفعية العدو المنتصرة ، وتحت عاصفة رهيبة من القذائف ، واصل هذا المربع القتال . كان يقوده ضابط مغمور يدعى كامبرون . وعند كل طلقة ، كان هذا المربع يتناقص ولكنه يرد على النار . كان يرد على قذيفة المدفع برصاص البندقية ، مضيقاً جدرانها الأربعة على نحو موصول . ومن بعيد ، كان الجنود الفارون يسمعون وسط الظلام - وقد وقفوا لحظة لاهئين - هذا الرعد الكثيب يتضائل .

وحين أمسى ذلك الفيلق مجرد حفنة من الرجال ليس غير ، حين أمسى رايثهم مجرد خرقه ليس غير ، حين أمسى بنادقهم ، وقد

Ulm مدينة من مدن ووتنبرغ ، الدولة الألمانية القديمة ، وتقع على الدانوب واشتهرت بالمركة التي دارت فيها ( ٢٠ تشرين الاول ١٨٠٥ ) بين النموسيين والفرنسيين وانتهت بهزيمة القوات النموسية ، يقودها الجنرال « ماك » Mack في وجه نابوليون .

\*\* Wagram قرية في النمسا ، قرب فيينا ، حيث انتصر نابوليون انتصاراً باهراً على الارشيدوق شارل ، في ٦ تموز ١٨٠٩ .

\*\*\* Jena مدينة ألمانية انتصر فيها نابوليون على البروسيين ( ١٤ تشرين الاول ١٨٠٦ )  
\*\*\*\* Friedland إحدى مدن بروسية الشرقية ، وقد انتصر فيها نابوليون على الروس ( ١٤ حزيران ١٧٠٨ ) وعلى اثر هذه المركة عقدت معاهدة تسببت الشهيرة .

أعوزتها الذخيرة ، مجرد عصيّ ليس غير ، حين امسى وكام الاموات اكبر من مجموع الأحياء ، دبّ في نفوس الفاتحين ضربٌ من الذعر المقدس حول هؤلاء الشهداء العظام ، واعتصمت المدفعية الانكليزية - وقد وقتت لتأخذ نفساً - بجبل الصمت . كان ذلك نوعاً من الاستراحة . ذلك بان هؤلاء المقاتلين وجدوا حولهم شبه جماعة من الاشباح ، وخيالات الرجال الداكنة على صهوات الحيل ، وصورة المدافع الجانيية السوداء ، والسجاء البيضاء وقد تبدت من خلال الدواليب وعربات المدافع . لقد تقدم نحوهم رأس المنية الهائل الذي يلحمه الابطال دائماً وسط دخان المعركة ، وحدّق اليهم . لقد سمعوا في ظلمة الفسق شحن المدافع بالقذائف ؛ وطوقت القنائل المشعّة رؤوسهم وكأنها عيون الانوار في الليل ، وواكبت المدفعية الانكليزية جميع القضايا المزوّدة رؤوسها بفتائل لاطلاق النار من المدافع ، وفجأه انبرى جنرال انكليزي تأثر بتلك البطولة ، فأمسك بلحظة الموت المتدلية فوق رؤوس هؤلاء الرجال ، وكان هذا الجنرال هو د كولفيل « عند بعضهم و » ميتلاند ، عند بعضهم الآخر - وصاح مخاطباً اياهم : « ايها الفرنسيون البواسل ، استسلموا ! » فأجابه كامبرون : « خراء ! »

## ١٥

### كامبرون

إن الاحترام للقاريء الفرنسي يقضي بأن لا نكرر على مسعاه كلمة قد تكون اروع ما نطق به فرنسيّ مدى الدهر . فمن المحظور علينا ان نتخلى عن الاسلوب الرفيع في التاريخ . ولكننا ، على مسؤوليتنا ، ننتهك حرمة هذا الحظر .

واذن ، فقد كان بين هؤلاء العالفة جبار ، إنه كامبرون .  
واي شيء اعظم من ان تقول تلك الكلمة ، ثم تموت بعد ذلك !  
لأنّ تقبلك الموت يعدل الموت . وليس الخطأ على هذا الرجل اذا كان  
قد هُتمر وسط عاصفة من القذائف .

ان الرجل الذي كسب معركة واتلوا ليس نابوليون المنقلب على  
عقبه ، وليس ولينغتون المنكفي في الساعة الرابعة ، اليأس في الساعة  
الخامسة . وليس بلوخر الذي لم يقاتل قط . إن الرجل الذي كسب  
معركة واتلوا هو كامبرون ..

فلأن تبصّر مثل هذه الكلمة في وجه الصاعقة التي تقتلك يعني النصر .  
ولأن تردّ على الكارثة بهذا الجواب ؛ أن تقول هذا للقدّر ؛ ان  
يقدم هذه القاعدة لأسد المستقبل ؛ أن تصفع بهذه الاجابة مطر  
الليلة الباردة ، وجدار هوغومون الحائث ، وطريق أوهرين  
الغائر ، وتأخر غروشي ، ووصول بلوخر ؛ ان تكون ساخراً  
امام عتبة القبر ؛ أن تسلك وكأنك تريد ان تظل واقفاً بعد ان  
يتحتم عليك السقوط على الارض ؛ ان تفرق بمقطعين اثنين التحالف  
الاوروبي ؛ أن تقدم الى الملوك هذه المراحض التي عرفها القياصرة من  
قبل ؛ ان تجعل آخر الكلمات أولها بان تضم اليها مجد فرنسا ؛ ان  
تختم واتلوا ، في سفاهة ، بثلاثة المرفع \* ؛ ان تكمل ليونيداس \*\*  
بـ « رابليه » \*\*\* ؛ ان تلخص هذا النصر بكلمة عليا لا يمكن ان

\* هو آخر أيام الكارفال عند الطوائف الغربية .

\*\* ليونيداس الاول ملك اسبارطة من ٤٩٠ - ٤٨٠ ق . م وهو بطل فجاج ال  
« تيرمويل » في تالية وقد دافع عنها ضد الفرس وليس معه غير ثلاثة رجل . واذ  
لم يستطع ملك الفرس ان يصدق ان في ميسور هذه الحفنة من الرجال ان تصده  
عن سبيله بحث الى ليونيداس برسالة يقول فيها : « اتي سلاحك ا » فكتب الاسبارطي  
في ادنى الرسالة : « تعال وخذه ا »

\*\*\* Rabelais الاديب الفرنسي الانساني الشهير ( ١٤٩٤ - ١٥٥٣ ) ولم يكن  
يحيد حرجاً في ان يضمن كتاباته بعض الالفاظ البذيئة .

تُلفظ ؛ ان تحصر الميدان وتحتفظ بالتاريخ ؛ أن تكون الضحكة الى جانبك بعد هذه المجزرة كلها - أن تفعل ذلك كله شيء عظيم فائق كل حد .

إنها إهانة للصاعقة . وفي ذلك ما يسمو الى مرتبة العظمة الاشيلية . ان كلمة كامبرون هذه لتختلف أثراً كأثر الانقاص . انها انكسار قلبٍ بالسخرية ؛ انها طِفاح الحشرة الذي ينفجر . من الذي تغلب ؟ وليفتن ؟ لا . فلولاً بلوخر لملك . بلوخر ؟ لا . فلو لم يبدأ وليفتن لما كان في مي-ور بلوخر ان يُنهي . إن كامبرون هذا ، إن عابر اللحظة الاخيرة هذا ، إن هذا الجندي المغمور ، إن صفيح الحرب هذا المتناهي في الصغر ليحس بان ثمة كذبة في كارثة - شيء مرير على نحو مزدوج - وفي اللحظة التي كان ينفجر خلالها من الفيض 'تقدّم' اليه هذه السخرية اللاذعة : الحياة ! فكيف يستطيع ان يملك نفسه ؟ لأنهم كلهم هناك ، ملوك اوروبة جميعاً ، والجنرالات السعداء ، والجوبتيرات \* المرعدون . إن معهم مئة الف من الجنود المنتصرين ، وان خلف المئة الف ، مليوناً . إن مدافعهم ، وقد أشعلت فتائلها ، لتفجر أفواها . لقد داسوا 'الحرس الامبراطوري' ، و 'الجيش العظيم' باقدامهم . لقد سحقوا نابوليون ، ولم يبقَ غير كامبرون وحده . لم يبق احد غير حشرة الارض هذه لكي تنجس . ولسوف ينجس . ثم إنه يبحث عن كلمة كما يبحث المرء عن سيف . ويُزبد فيه ، فيكون هذا الزبد هو الكلمة . فأمام هذا النصر الاعجوبي الهزبل ، امام هذا النصر الذي لا منتصرين فيه ، يتصدّر هذا الرجل اليأس . انه يقاسي ضخامته ، ولكنه يستجلي عديميته ، فلا يزيد على ان يبصق عليه . واذا كانت يروح تحت ثقل الارقام والقوة المادية ، يعثر في روحه على تعبير - الفاظ .

\* جمع جوبتير ، او المشتري ، وهو في الميثولوجيا الرومانية أبو الآلهة وسديم ؛ ويقابله « زيوس » عند الاغريق .

ونكرّر ما قلناه من قبل : إن قول ذلك ، إن عمل ذلك ، إن العنور على ذلك ، يجعل كامبرون هو المنتصر .

لقد نفذت روح الايام العظيمة الى هذا الرجل المغمور ، عند تلك اللحظة المشؤومة . ويجد كامبرون كلمة واترلو ، كما يجد روجيه دو ليل \* المارسييز ، بألهام علوي . ان ومضة من الصاعقة الالهية لتنتقل ، فتمر من فوق هذين الرجلين فيرتعدان ، فأما احدهما فينشد النشيد الأسمى ، وأما الآخر فيطلق الصيحة الفظيعة . وهذه الكلمة ذات السخرية الجبارة ، لا يقذف بها كامبرون في وجه اوروبة وحسب ، باسم الامبراطورية ، فجدير بهذا ان يكون قليلاً . إنه يقذف بها في وجه الماضي ، باسم الثورة . وتوسع تلك الكلمة ، ويكتشف الناس ، في كامبرون ، روح المرافقة القديمة . لقد بدت وكأنها خطاب لدانتون ، او زارة لكليير . \*\*

وردّأ على كلمة كامبرون هذه أجاب الصوت الانكليزي : « النار ! » والتهب المدافع ، وارتجفت التلة ، ومن جميع الافواه النحاسية انطلق قيء من القذائف نهائي ، مروّع . والنف دخان عريض باهت البياض على ضوء القمر الطالع ، وحين تبدّد الدخان لم يبق ثمة شيء . لقد أبيدت تلك البقية الخفيفة ؛ لقد لقي الحرس حتفهم . كانت جدران المتراس الحميّ الاربعة قد انهارت ، فما يكاد المرء يتبين هنأ وهنأك اختلاجة بين الجثث . وهكذا قضت الفياق الفرنسية ، وهي اكبر من الفياق الرومانية ، نخبها ، في « مون سان جان » ، فوق ارض متقوعة بالمطر والدم ، في حقول القمح القائمة ، حيث يمرّ اليوم عند الساعة الرابعة

---

\* Roger de l'alé وهو الذي وضع ، عام ١٧٩٢ ، نشيد فرنة الوطني ، المارسييز :

Marcellaise

\*\* Kléber جنرال فرنسي ( ١٧٠٣ - ١٨٠٠ ) تولى قيادة الحملة الفرنسية على مصر بعد

عودة بوتلبرت . وقد قتل بيد احد المماليك .

صباحاً ، جوزيف الذي يقود عربة البريد من نيفيل ، صافراً مبتهجاً  
وهو يُلهب حصانه بالسوط .

١٦

## كم بارة في الليرة؟

إن معركة واترلو لغز . إنها مغلقة<sup>١</sup> دون أفهام الذين كسبوها والذين  
خسروها على السواء . لقد كانت في نظر نابوليون ، ذعراً \* ولم يكن  
بلوخر ليرى فيها غير نار . أما ولينغتون فليس يفهم منها شيئاً . أنظر  
الى التقارير . إن البيانات الرسمية لمضطربة ، وإن الشروح لغامضة .  
الاولى تتلجلج ، والاخرى تتلغم . لقد جزأ جوميني معركة واترلو  
أدواراً اربعة . وقسمها موفلنغ الى ثلاث من دورات الحظ . أما شاراً  
فكان هو وحده - برغم اختلافنا معه في الرأي ، في بعض النقاط -  
الذي ادرك بثاقب نظره الملامح المميّزة لكارثة العبقرية الانسانية تلك  
في صراعها مع القدر الالهي . على حين ان سائر المؤرخين يعيهم  
البهاء ، فهم يتلمسون طريقهم في ذلك الظلام . إنه في الحق يومٌ ساطعٌ  
كالبرق ، يومٌ سقوط الملكية العسكرية الذي جبرّ وراه - ويا لدهشة  
الملوك ! - الممالك جميعاً ؛ يومٌ انهيار القوة ، وانهزام الحرب .  
وفي هذا الحدث ، الحامل طابع الضرورة فوق البشرية ، لم يكن  
دور الانسان شيئاً مذكوراً .

---

\* « لقد اختُتِمت معركة ، وأكمل يوم ، وأسلحت مقاييس فاسدة ، وضمنت  
للد اتمارات أعظم - ولكن كل ذلك ضاع في لحظة من الذعر . »

( نابوليون ؛ آمالي سانت هيلانة . )

[ هذه الحاشية منقولة عن الاصل الفرنسي ]



أبؤدي انتزاع واترلو من ولينغتون ومن بلوخر الى انتزاع شيء من انكلترة والمانيه ؟ لا . إن أياً من انكلترة المجيدة أو المانيه الجليسة ليست هي المقصودة في مشكلة واترلو . ومن نعم السماء أن الشعوب لا تتأثر بمحظوظ السيف الفاجعة . فلا المانيه ، ولا انكلترة ، ولا فرنسة حُبت في غمد . ففي هذه الحقة التي كانت واترلو فيها حليل سيوف ليس غير ، كانت المانيه ترهو ، فوق بلوخر ، بـ « غوته » ، وكانت انكلترة ترهو ، فوق ولينغتون ، بـ « بايرون » . إن نهضة فكرية واسعة لتميذ عصرنا ، وإن لانكلترة وألمانيه نصيباً رائعاً في هذا الفجر . إنها عظيستان لأنهما تفكران . وإن المستوى الذي يرفعان الحضارة اليه جوهري فيها . إنه ينبثق من ذاتيهما ، لا من حادثة بعينها . إن التقدم الذي حققناه في القرن التاسع عشر لا ينبع من واترلو . فالشعوب المتبريرة وحدها هي التي تنعم بنمو مفاجيء بعد إحرازها نصراً ما . إنه صَلفُ السيول الزائل وقد نفختها العاصفة . أما الشعوب المتبدنة ، وبخاصة في زماننا هذا ، فلا يرفع من قدرها أو يحطّ منه حسن طالع قائد عسكري أو سوء طالع . إن ثقلها النوعي في الجنس البشري لينشأ عن شيء أكثر من الحرب . إن شرفها - والحمد لله - وكرامتها ، وضياءها ، وعبريتها ، ليست أرقاماً يستطيع الابطال والفاخون - أولئك المقامرون - أن يقدفوا بها في بانصيب المعارك . وكثيراً ما تكون المعركة الخاسرة تقدماً محمّلاً . مقدار أقل من المجد ، يقابله مقدار أكثر من الحرية . إن الطبل ليصت ، وإن العقل ليتكلم . تلك هي اللعبة التي يربح فيها الفريق الخاسر . فلنتحدث إذن عن واترلو ، في برود ، من الجانبين . فلنرجع ما للحظة الى اللحظة ، ولنرجع ما لله الى الله . ما هي واترلو ؟ نصر ؟ لا . إنها بانصيب .

بانصيب وبجته اوروبة ، ودفعته فرنسة .

ولم يكن كثيراً أن يقام تمثال اسد هناك .

وواترلو ، فوق هذا ، أعجب موقعة في التاريخ . نابوليون ووليفنتون :  
لأنها ليسا عدوتين ، إنما نقيضان . فلم يُقيم الله في يوم من الأيام - وهو  
المولع بالمتناقضات - مغامرة أكثر روعة ، والتقاء أشد خروجاً على نسق  
العادة . فمن جانب ، كانت الدقة ، والتبصر ، والهندسة ، والفطنة ،  
والتقهر المضمون ، والاحتياطي المقتصد فيه ، ورباطة الجأش العنيدة ،  
وطريقة تبنة الجنان ، واستراتيجية تقوم على الاستفادة من الأرض ، وفن  
حربي يهدف الى اقامة الموازنة بين الافواج ، ومجزرة 'نساق الى خط  
القتال ، وحرب تدار والساعة في اليد ، وعدم ترك شيء - على نحو  
إرادي - للمصادفة ، وشجاعة كلاسيكية قديمة ، والضبط المطلق .  
ومن جانب آخر ، كان الحدس ، والالهام ، والاعجوبة العسكرية ،  
والفريزة فوق البشرية ، واللعة الملتبة ، وشيء خفي يحدق كالنسر ،  
ويصق كالصاعقة ، وفن مدهش في اندفاع ينضج بالاحتقار ، وجميع  
اعاجيب النفس البعيدة الغور ، والألفة مع القدر ، ودعوة النهر والسهل  
والغابة والكثيب ، بل إكراهها بمعنى من المعاني ، على الخضوع ،  
وذهاب الطاغية الى حد فرض طغيانه على ميدان المعركة ، والايمان  
بطالع مقرون الى العلم الاستراتيجي فهو يزيد ، ولكنه يكدره . كان  
وليفنتون « باريم » \* الحرب ، وكان نابوليون « ميكال آنجهما » \*\* ،  
وهذه المرة غلب الحساب العبقري .

كان كل من الفريقين ينتظر شخصاً ما . وكان الخاسب الدقيق هو  
الذي نجح . نابوليون انتظر غروشي ، فلم يجيء . ووليفنتون انتظر  
بلوخر ، وقد جاء .

إن وليفنتون هو الحرب الكلاسيكية تنتقم . وكان نابوليون ، وهو  
في فجره ، قد التقاها في ايطالية ، وهزمها بسمو . لقد فرّت البومة

\* B.F.Barème رياضي شهير وضع جدول حسابات خاضرة للاستعمال ، عرف باسمه .  
\*\* ميكال آنج ، المبغري الايطالي الشهير ، وكان رساماً ، ونقاشاً ، وممباراً وشاعراً في آن معاً .

المعجز من وجه، العقاب الشاب . ان الفنّ الحربي القديم لم يُصعق  
فحسب ، ولكنه أهين إهانة قاتلة . من كان هذا الكورسيكيّ ذو السنة  
والعشرين ربيعاً ؟ ما معنى هذا الجاهل الباهر الذي كان كل شيء ضده ،  
ولا شيء معه ، والذي لم يكن عنده مؤن ، ولا ذخائر ، ولا مدافع ،  
ولا احذية ، والذي كان من غير شيء تقريباً فليس معه غير حفنة من  
الرجال يواجه بها الحشود الغفيرة ، ومع ذلك فقد هجم على اوروبا  
المتحالفة وكسب ، على نحو غير معقول ، انتصارات كانت مستحيلة ؟  
من اين اقبل هذا المجنون الصاعق الذي يُوفق من غير ان يأخذ نفساً  
تقريباً ، وفي يده مجموعة المقاتلين نفسها ، الى ان يسحق جيوش  
امبراطور المانية الحجة ، واحداً إثر واحد ، منكساً د بوليو \*  
على د آلفينزي ، \*\* ، د وورمرس ، \*\*\* على د بوليو ،  
د ميلاس ، \*\*\*\* على د وورمرس ، د و د ماك ، \*\*\*\*\* على  
د ميلاس ، ؟ من هذا الوافد الجديد على دنيا الحرب بوقاحة كوقاحة  
الكواكب ؟ لقد اصدرت المدرسة الحربية الاكاديمية حرّماً ضده فبأهي  
تولي فراراً . ومن هنا تلك الكراهية الحقود التي ابداءها نظام الحرب  
القديم نحو الجديد ، والحسام الصحيح نحو السيف المتألق ، ورقة  
الشرنج نحو العبقريّة . وفي ١٨ حزيران سنة ١٨١٥ كانت لهذه الكراهية

---

\* Beaulieu جنرال نموي ( ١٧٢٥ - ١٨١٩ ) اشترك في حرب السنوات  
السيخ ، وهزمه بوناپرت في ايطالية .

\*\* Alvinzy جنرال نموي ( ١٧٣٥ - ١٨١٠ ) هزمه بوناپرت في آر كولا  
عام ١٧٩٦ وفي ريفولي عام ١٧٩٧ .

\*\*\* Wurmsr جنرال نموي ( ١٧٢٤ - ١٧٩٧ ) هزمه بوناپرت في كاستيلليون من  
اعمال ايطالية .

\*\*\*\* Melas جنرال نموي ( ١٧٢٩ - ١٨٠٦ ) هزم في ماراثو .

\*\*\*\*\* Mack جنرال نموي ( ١٧٥٢ - ١٨٢٨ ) وقد حاصره نابليون في « أولم »  
فاستسلم هو وجنوده الثلاثون ألفاً من غير قتال .

الكلمة الاخيرة ، ونحت « لودي » \* و « مونتييلو » \*\*  
 و « موتينيوت » \*\*\* و « مانتو » \*\*\*\* و « ماراغزو »  
 و « آر كولا » \*\*\*\*\* كتبت : واتولو . انتصار العادي ، وإنه  
 لعذب في نفوس الاكثريات . وارتضى القدر هذه السخرية . ففي ساعة  
 سقوطه وجد نابوليون نفسه امام « وورمر » كرة اخرى ، ولكن  
 « وورمر » كان غضّ العود هذه المرة .

والحق انه لم يكن محتاجاً الى أكثر من تبييض شعر ولينغتون لكي  
 يرى « وورمر » رأي العين .

إن واتولو معركة من الطراز الاول كسيها قائد من الطراز الثاني.  
 وإن ما ينبغي ان نعجب به في معركة واتولو هو انكلترة ، هو  
 الصلابة الانكليزية ، هو العزم الانكليزي ، هو الدم الانكليزي . إن  
 الشيء الرفيع الذي كان لانكلترة هناك - وأرجو ان لا يسومها ذلك -  
 هو ذاتها . إنه لم يكن قائدها ، ولكن جيشها .

لقد وجهت ولينغتون ، في عقوق عجيب ، رسالة الى اللورد باورست ،  
 صرح فيها بأن جيشه ، ذلك الجيش الذي قاتل في ١٨ حزيران ١٨١٥ ،  
 كان « جيشاً بغيضاً » . فما رأي هذا المجتمع الداكن من العظام  
 الدفينة تحت اخاديد واتولو ، في ذلك ؟  
 لقد كانت انكلترة متواضعة ، أكثر مما ينبغي ، إزاء ولينغتون .

\* Lodi مدينة في ايطالية انتصر فيها بوناپرت على النمسيين عام ١٧٩٦

\*\* Montebello قرية ايطالية هزم فيها النمسيون مرتين ، الاولى على يد القائد لان Lannes سنة ١٨٠٠ والثانية على يد الجنرال فوري Forey عام ١٨٥٩ وأما يشير المؤلف الى الهزيمة الاولى.

\*\*\* Montenotte قرية في ايطالية ، انتصر فيها بوناپرت على قوات بوليو النمسية عام ١٧٩٦

\*\*\*\* Mantoue مدينة ايطالية حصينة استولى عليها بوناپرت عام ١٧٩٧

\*\*\*\*\* Arcola من اعمال ايطالية ، حيث هزم بوناپرت النمسيين وأظهر بلاء شخصية  
 فائقة ( ١٧ تشرين الثاني سنة ١٧٩٦ ) .

والواقع ان في تعظيم ولينغتون الى هذا الحد انتقاصاً من قدر انكلترة . فليس ولينغتون غير بطل مثل سائر الأبطال . ولكن هذه القوات الاسكتلندية الرمادية ، هؤلاء الحرس الفرسان ، هذه السرايا التي قادها « ميتلاند » و « ميتشيل » ، وهؤلاء الرجال الذين قادهم « باك » و « كبيت » ، وهذه الحيلة التي على رأسها « بونسوني » و « سومرست » ، وهؤلاء الاسكتلنديون الجلبون العازفون على مزاميرهم نحت وابسل القذائف ، وافواج « رايلانت » هذه ، وهؤلاء المهندزون الجدد الذين ما يكادون يعرفون كيف يطلقون النار من البندقية ، والذين صمدوا في وجه افواج « إيسلنغ » \* و « ريفولي » \*\* ولكن ذلك كله هو العظيم حقاً . لقد كان ولينغتون عنيداً ، وتلك موهبته ، ونحن لا ننقص من قدرها . بيد أن اصفر جندي من جنوده الرجال او من جنوده الحيلة تكشف عن صلابة لا تقل عن صلابته . كان الجندي الحديدي يعدل « الدوق الحديدي » . \*\*\* اما نحن ، فكلّ تعجبنا ينصبّ على الجندي الانكليزي ، والجنش الانكليزي ، والشعب الانكليزي . واذا لم يكن بدّ من إقامة نُصْب لذكرى انتصار ، فإن انكلترة هي التي تستحق هذا النصب . ولقد كان نصبُ واترلو خليقاً بأن يكون اقرب الى تمثيل الواقع لو رفع الى الفهم مثالَ أمة ، لا وجهَ رجُل . ولكن انكلترة العظيمة هذه سوف تغضب لما سنقوله هنا . إنها لا تزال تحتفظ ، بعد عام ١٦٨٨ \*\*\*\* ، وهو عامها ، وبعد عام ١٧٨٩ \*\*\*\*\*

- 
- \* Ealing قرية غنوية ، اتمرت فيها الفرنسيون على النمويين سنة ١٨٠٩ .
  - \*\* Rivoli قرية ايطالية هزم فيها بونايرت النمويين سنة ١٧٩٧ .
  - \*\*\* يقصد ولينغتون .
  - \*\*\*\* هو العام الذي ثار فيه الشعب الانكليزي على الملك جيس الثاني ، وخلفه . وتعرف هذه الثورة بالثورة المجيدة . وقد كان من نتائجها اصدار البرلمان « بيان الحقوق » المشهور .
  - \*\*\*\*\* عام الثورة الفرنسية .

وهو عامنا ، بالوم الاقطاعي . لأنها تؤمن بالحق الموروث ، وبنظام المراتب . وهذا الشعب ، الذي لا يفوقه احد قوةً ومجداً ، يعتز بنفسه كدولة لا كشعب . والانكليز يغالون في ذلك الى درجة تجعلهم يخضعون ، بوصفهم شعباً ، خضوعاً إرادياً ، ويرثون عليهم لورداً من اللوردات . فأما العامل فهم يميزون ازدراءه ، وأما الجندي فهم يميزون جلده بالسياط . وغن نذكر أنه في معركة إنكرمان\* \* انتقد جندي ، برتبة رقيب ، الجيش كله ، في ما يبدو ، ومع ذلك فلم يكن في ميسور اللورد راغلان\*\* ان ينوّه باسمه ، لأن المرتبة العسكرية الانكليزية لا تسمح بأن يشاد في التقارير باسم أيما بطل لما يصل الى مرتبة الضباط .

إن ما يعجبنا فوق كل شيء ، في واقعة مثل واترلو ، براعة الحظ الاعجوبة . هطول المطر ليلاً ، جدار هوغومون ، طريق أوهرين الفائرة ، صمم غروشي عن صوت المدفع ، دليل نابوليون الذي يجذبه ، ودليل بولوف الذي يديه سواء السبيل - كل هذا الطوفان قد سبق على نحو رائع عجب .

وعلى الجملة - ولنقل ذلك - فإن واترلو مذبحة أكثر منها معركة . فبين جميع المعارك العظمى كانت واترلو هي صاحبة أقصر جبهة بالنسبة الى عدد الجند الذين خاضوا غمرة القتال . فجبهة نابوليون ثلاثة ارباع الفرسخ ، وجبهة ولينغتون نصف فرسخ\*\*\* واثنان وسبعون ألف مقاتل في كل من الجبهتين . ومن هذه الكثافة انبثقت الهزيمة . لقد أجري إحصاء أثبتت على ضوءه هذه النسبة : - الحاسر في

---

\* Inkermann إحدى مدن القرم ، حيث هزم الفرنسيون والانكليز القوات الروسية في معركة ضارية . ( ٥ تشرين الثاني ١٨٥٤ )

\*\* Raglan جنرال انكليزي ( ١٧٨٨ - ١٨٥٥ ) وقد قاد الجيش الانكليزي في

حرب القرم ، ومات بالكوليرا في حصار سياستوبول .

\*\*\* اوميلان وميل ونصف .

الرجال : في أوسترليتز ، الفرنسيون ، أربعة عشر بالمئة ؛ الروس ، ثلاثون بالمئة ؛ النمسيون ، أربعة وأربعون بالمئة . في واغرام ، الفرنسيون ، ثلاثة عشر بالمئة ، النمسيون ، أربعة عشر بالمئة . في الموسكوبا ، الفرنسيون ، سبعة وثلاثون بالمئة ، الروس ، أربعة وأربعون بالمئة . في بوترين \* ، الفرنسيون ، ثلاثة عشر بالمئة ، الروس والبروسيون ، أربعة عشر بالمئة . في واترلو ، الفرنسيون ، ستة وخمسون بالمئة ، الحلفاء ، واحد وثلاثون بالمئة . المعدل الوسطي في واترلو ، واحد وأربعون بالمئة . مئة وأربعة وأربعون ألف مقاتل ، ستون ألف قتيل .

ويرى على ساحة واترلو اليوم ذلك الهدوء الذي هو ملك الأرض ، دعامه الانسان المعصومة عن التأثر . إنها تشبه ايما سهل آخر .

يبد ان ضرباً من الضباب الوهمي ينبعث منه في الليل ، ولو ان مسافراً اجتاز به ، لو انه نظر ، لو انه اصفى ، لو انه حلم مثلي فرجيل في سهول فيليبى \*\* المشؤومة ، إذن لاستبدت به هلوسة الكارثة . ان يوم ١٨ حزيران القطيع ليشمل له من جديد . وتتلأشى نلة النصب الاصطناعية ، وينبثد هذا الاسد ، كائناً ما كان ، ويستعيد ميدان القتال حقيقته ، وتتموج صفوف الرجالة في السهل ، ويعبر الافق خببٌ ضارٍ ، ويرى الحالم الذاهل وميض السيوف ، وبريق الحراب ، وانفجار القنابل ، وغازجُ الرعود الفظيع ، ويسمع ، مثل حشرة في أعماق قبر ، ضجة « المعركة الطئيف » الغامضة . هذه الظلال هي رماة القنابل ، هذه البوارق هي الدارعون ، هذا الهيكل العظيم هو نابوليون ، هذا الهيكل العظيم هو ولينتون . كل هذا وهمي ، ومع ذلك فهو يتصادم ويصطرع . وتندو الالودية ارجوانية ، وترتجف الاشجار ،

\* Buzzen مدينة المانية اشتهر فيها نابوليون على البروسيين والروس عام ١٨١٣ .

\*\* في مقدونية ، على مقربة من البحر ، حيث هزمت قوات انطونيوس واوكتافيوس قوات بروتوس وكاسيوس عام ٤٢ ق.م .

ويعصف الفوران حتى بالسحب ؛ وفي الظلمة ، تبدو جميع هذه الروابي الوحشية - « مون سان جان » ، و « هوغومون » و « فريشون » و « بابلوت » ، و « بلانسوا » ، وكأنها متوجة على نحو مضطرب بعواصف من الاشباح يقني بعضها بعضاً .

## ١٧

### أينبغي لنا أن نستحسن واترلو ؟

إن ثمة مدرسة متحررة تتمتع باحترام كبير لا تبغض واترلو على الإطلاق . إننا لسنا من هؤلاء . فواترلو ليست ، عندنا ، غير موعد الحرية المشدود . ولأن ينطلق نسر كهذا من بيضة كهذه لهو من غير ريب شيء غير متوقع .

ان واترلو - اذا وضعنا انفسنا في أعلى 'قنن المسألة - هي عمداً انتصاراً مضاداً للثورة . إنها اوروبية ضد فرنسة . إنها بطرسبرج ، وبرلين ، وفيينا ضد باريس . إنها « الوضع الراهن » *Statu quo* ضد المبادرة . انها ١٤ غوز ١٧٨٩ يُهاجم من خلال ٢٠ آذار ١٨١٥\* . انها العدة التي أعدتها الممالك ضد الانتفاضة الفرنسية الجائعة . يجب ان يُباد ، آخر الامر ، هذا الشعب العريض الآخذ بأسباب الثورة منذ ستة وعشرين عاماً - هكذا كان الحلم . انها تضامن دوقات بروتيك ، ودوقات ناستو ، وآل رومانوف ، وآل هوهنزولرن ، وآل هبسبورغ مع آل بوربون . ان واترلو لتودف وراءها الحقّ الالهي . صحيح أن الامبراطورية ، وقد كانت ديكتاتورية ، أكرهت الملكية ، بالرجع

---

\* هو اليوم الذي دخل فيه نابوليون باريس اثر عودته من منفاء بجزيرة الب .



الطبيعي للأشياء ، على ان تكون متحررة ؛ وأن نظاماً دستورياً قد انبثق - على نحو غير مباشر - عن واترلو ، بما أثار اعظم الاسف عند الفاتحين . والحق ان الثورة لا يمكن ان تُقهر ، وانما بسبب من كونها الهبة المنشأ ومحتومة على نحو مطلق تعاود الظهور من غير انقطاع ؛ لقد ظهرت - قبل واترلو - في بونايرت يحطم العروش العنيفة ، وظهرت - بعد واترلو - في لويس الثامن عشر يمنع الدستور ويخضع له . لقد اقام بونايرت سائق عربة على عرش نابولي ، واقام جندياً برتبة رقيب على عرش السويد ، مصطنعاً اللامساواة لأظهار المساواة . ولقد وقع لويس الثامن عشر ، بدووه ، في سان أووين ، على اعلان حقوق الانسان . أتريد ان تدرك ما الثورة ؟ سمها تقدماً . أتريد أن تدرك ما هو التقدم ؟ سمها الغد . ان الغد يقوم بعمله على نحو لا يقاوم وهو يقوم به منذ اليوم . وهو يبلغ غايته ، أبداً ، بوسائل غير متوقعة . انه يستعمل ولينغتون لكي يصنع « فوا » \* الذي لم يكن غير جندي ، غير خطيب . وبسقط « فوا » في هوغومون ، ولكنه ينهض كرة أخرى على منبر الخطابة . وهكذا يمضي التقدم الى أمام . وليس من وسيلة تخطيء عند هذا العامل . انه يكتف وفقاً لعمله الالهي من غير ان يحار أو يقلق ، الرجل الذي اجناز الالب بخطى عراض ، ومريض الـ « بير ايليزيه » العجوز الطيب المترنح . انه يفيد من المصاب بداء مفاصل الارجل كما يفيد من الفاتح في - الخارج ، ومن المصاب بداء مفاصل الأرجل في الداخل . ان واترلو ، بأعاقبتها تقويض العروش الاوروبية بجد السيف ، لم يكن لها من نتيجة غير مواصلة العمل الثوري من طريق أخرى . أما وقد انتهت مهمة ارباب السيوف ، فقد جاء دور المفكرين . ان العصر الذي رغبت واترلو في ان توفقه قد استأنف سيره وتابع طريقه . لقد قهرت الحرية هذا النصر المشؤوم .

\* Foy جنرال فرنسي غطى انحاب الجيش من اسبانية ١٨١٤ وجرح في واترلو ( ١٧٧٥ - ١٨٢٥ )

وجمّاع القول الذي لا ريب فيه ان ذلك الذي انتصر في واترلو ؛ ذلك الذي ابتسم من وراء ولينغتون ؛ ذلك الذي حمل اليه عصي مارشالات أوروبا كلها وفيها ، كما قيل ، عصا مارشال فرنسا ؛ ذلك الذي كرم ، في ابتهاج ، عربات التراب الملأى بالعظام لاقامة رايبة الاسد ؛ ذلك الذي خطّ ، مظفراً ، فوق قاعدة التمثال تلك هذا التاريخ : ١٨ حزيران ، ١٨١٥ ؛ ذلك الذي شجع بلوخر على ان يعمل السيف في رؤوس الجند الفارين ؛ ذلك الذي اطلّ على فرنسا ، من قمة نجد و مون سان جان ، ، وكأنه يطل على فرنسا ، لم يكن غير الثورة المضادة . إن الثورة المضادة هي التي غفمت بهذه الكلمة المردولة : التجزئة . حتى إذا وصلت الى باريس ، رأّت فوهة البركان عن كسب . لقد استشعرت ان هذا الرماد يحرق قدميها ، فغيرت رأيا . لقد انقلبت على عقيها وهي تتلعم بدستور .

إن علينا ان لا نرى في واترلو إلا ما هو في واترلو . إنها خلوة من الحرية المقصودة او المتعمدة . ذلك ان الثورة المضادة كانت متحجرة على نحو لا ارادي ، كما كان نابوليون ، بسبب من ظاهرة مقابلة ، ثورياً على نحو غير ارادي . في ١٨ حزيران ١٨١٥ أسقط روبسبير ، وكان بمثابة صهوة جواده ، عن السرج .

## ١٨

### نكسة الحق الألهي

انتهت الديكتاتورية ، وانهار النظام الاوروبي كله . لقد غرقت الامبراطورية في ظلمة تشبه تلك التي غرق فيها العالم الروماني المختصر . ولقد نهضت كرة اخرى من الهاوية كما نهضت ابام البوابرة . مع فاروق وحيد هو ان بربرية عام ١٨١٥ ، التي ينبغي ان تدعى باسمها

الخاص ، الثورة المضادة ، كانت قصيرة النفس ، فما لبثت ان استبد بها  
اللاهت ، ونسيت ما ارادت قوله . والواقع ان الامبراطورية - ويجب ان  
نعترف بذلك - قد بُكي عليها ، وان الاعين التي بكيت عليها كانت  
باسلة . واذا كانت المجد في الحمام الذي جعل صولجاناً ، فقد كانت  
الامبراطورية هي المجد نفسه . لقد نشرت فوق الارض كل الضياء الذي  
يستطيع الطغيان ان يمنحه - ضياء قائم . بل فلنذهب الى حد القول :  
ضياء مظلم . واذا قيس بالنهار الحقيقي كان ليلاً . ولقد كان لزوال  
الليل هذا مثلُ اثر الكسوف .

ورجع لويس الثامن عشر الى باريس . ومحا الرقصُ حلقات  
حلقات في ٨ تموز \* حماسة العشرين من اذار . لقد غدا الكورسيكي \*\*  
نقيض البيارني \*\*\* وامست راية قبة التويلاري بيضاء . وارتقى المنفى  
العرش . واتخذت منضدة هارتويل الصنوبرية مكانها امام الاربعة المزدانة  
بزنايق لويس الرابع عشر . وتحدث الناس عن « بوفين » \*\*\*\*  
و « فونتونوي » \*\*\*\*\* وكانما وقعنا امس ، بعد ان آلت الشيوخوخة  
باوستوليتز . وتأخى المذبح والعرش في جلال . وتوطد في فرسة وفي  
القارة شكل من اشكال المجتمع التي لا يكاد الشك يتطرق الى انها  
تمتعت باعظم قسط من الامن في القرن التاسع عشر . واصطنعت اوروبة

\* يوم سقوط نابوليون واعادة اسرة بوربون الى العرش في شخص لويس الثامن  
عشر ، سنة ١٨١٥ .

\*\* أي تابوليون بونابرت.

\*\*\* Béarnais نسبة الى الـ Béarn وهي مقاطعة فرنسية قديمة في نافار قدر لها  
بواسطة هنري الرابع ان توحده فرنة عام ١٦٠٧ والبيارني هو هنري الرابع رأس  
اسرة بوربون .

\*\*\*\* Bouvines في الشمال الفرنسي حيث هزم فليب اوغت الامبراطور أوتون  
الرابع الجرمانى ، سنة ١٢١٤ .

\*\*\*\*\* Fontenoy من اعمال بلجيكة حيث هزم البارشال دوساكس الانكليز  
والهولنديين في ١١ نوار سنة ١٧٤٥ .

شعار القبعة الابيض . وغدا تربستايون \* شهيراً . وظهر رمز *non pluribus impar* كرة اخرى في اشعة واجهة ثكنات الـ «كي دورسيه» . فحينئذ كان من قبل حرس امبراطوري ، كان بيت احمر . وكان قوس كاروسيل ، وقد أثقل بالانتصارات المكسوبة على نحو اخرق ، وأمسى غريباً في هذا العهد الجديد ، وأخذ في اغلب الظن بعض الحجل من مارانغو وآركولا — قد انسلّ من المسألة بتمثال دوق آنغوليم . وكانت جبانة « لا مادلين » ؛ وهي مقبرة عام ٩٣ العمومية ، مغطاة بالرخام واليشب \*\* ، اذ كان رفات لويس السادس عشر وماري انطوانيت في ذلك الثرى . وفي خندق الـ «فينسين» برز من التربة نصب من انصبه المدافن يبعد الى الذاكرة ان دوق آنغولين \*\*\* مات في الشهر نفسه الذي توج خلاله نابوليون . والواقع ان البابا بيوس السابع ، الذي قام بمهمة التكريس هذه ، قبيل وفاته ، قد بارك السقوط في سكون ، كما بارك الصعود . وفي شونبرون كان خيال صغير في الرابعة من عمره ، وكان من الشغب ان ينادى ملك رومة . وانما تمت هذه الاشياء كلها ، وعاد هؤلاء الملوك الى عروشهم ، ووضع سيد اوروبه في قفص ، وامسى النظام *Régime* القديم هو النظام الجديد ، وغتير كل ظلام الارض وكل ضياء الارض مكانها ، لانه في اصيل يوم من ايام الصيف قال احد الرعاة لرجل بروسي في غابة : « مرّ من هنا لا من هناك ! » .

كان عام ١٨١٥ هذا ضرباً من نيسان مظلم . لقد اتخذت الحقائق

---

\* Trestallion احد زعماء المصابات الملكية ، وقد عاث لساداً في ضواحي

« نيم » و « اوّيس » .

\*\* اليشب : حجر كريم يشبه الزبرجد لكنه اصفى منه .

\*\*\* Duc d'Enghien (١٧٧٢ - ١٨٠٤) ابن لويس هنري جوزيف ، أمير

كونديه ، وقد امر نابوليون به فاقيد الى باريس وقتل رعباً بالراسم في فينسين .

العتيقة السقية السامة ، أشكالاً جديدة . فتروج الكذب ثورة ١٧٨٩ ؛ وتقتنع الحق الإلهي بدستور ؛ وأضحت التلغيفات دستورية ؛ واصطنعت الاحقاد ، والحرافات ، والمواربات ، بفضل المادة ١٤ المشدودة الى القلب ، طلاء من الحرية . ثعابين تبدل جلودها .

كان نابوليون قد عظم الانسان وصغره في آن معاً : ففي ظل هذا العهد الماديّ الغنيم تلقى المثل الأعلى ( Idéal ) اسم الايدولوجية ( Idéologie ) الغريب . وانما لقلّة نبصر خطيرة ان يعمل رجل عظيم على تحويل المستقبل الى هزأة . ومع ذلك ، فان الشعوب - هذا الغداء الذي يلتهمه المدفع ، والذي هو مولع اعظم الورع بالمدفعي - راحت تبحث عنه . أين هو ؟ ماذا يعمل ؟ وقال زائر لأحد مشوّهي مارانغو وواترلو : « لقد مات نابوليون . » فصاح الجندي : « هو قد مات ! أوافق أنت من ذلك ؟ » لقد تحدت الحيات هذا الرجل المهزوم . كان قلب أوروبية ، بعد واترلو ، مظلماً ولقد ظل شيء هائل فارغاً ، فترة طويلة ، بعد زوال نابوليون .

وطرح الملوك انفسهم في هذا الفراغ . وأفادت أوروبية العجوز من ذلك لكي تتخذ شكلاً جديداً . لقد عقدت محالفة مقدسة . ( Sainte Alliance ) \* وكانت ساحة واترلو المشؤومة قد قالت مقدماً « بيل آليانس » ( Belle Alliance ) \*\*

وفي حضرة أوروبية هذه العتيقة المجددة ، وتجاهها ، أخذت في الظهور ملامح فرنسا جديدة . لقد برز المستقبل الذي كان موضع سخوة

---

\* هي المحالفة التي عقدت عام ١٨١٥ بين روسيا والنمسا وبروسيا لمواجهة النزعات التحررية والقومية في إيطاليا وألمانيا .

\*\* حيث كان نابوليون على رأس قواته في واترلو . راجع تفصيل مواقع الجند أثناء هذه المعركة في الفصل الرابع من هذا الكتاب الاول ، وعنوانه ( أ ) . والتجاور اللفظي واضح بين اسم هذا الموقع La Belle Alliance واسم تلك المحالفة La Sainte Alliance

الامبراطور . وكان على جبينه هذا النجم . الحرية . وتلفتت نحوه عيون الاجيال الناشئة الملتهبة . ومن عجب ان الناس أولعوا في آن واحد بهذا المستقبل ، الحرية ، وبهذا الماضي ، نابوليون . كانت الهزيمة قد عظمت المغلوب . وبدا نابوليون ، وقد سقط ، أسمى من نابوليون وفي يده مقاليد السلطة . وعصف الذعر بأولئك الذين انتصروا . وفرضت انكسار الحراسة عليه بواسطة هودسون لور \* على حين رافقه فرسة من خلال « مونشينو » . وأمست ذراعه المتصالبان قلقاً للعروش . ودعا الكسندر \* أرقى . وإنما نشأ هذا الذعر من مقدار الثورة التي انطوى عليها صدره . وهذا هو تفسير النزعة التحررية البونابولية وعذرها . لقد زلزل هذا الشبح العالم العتيق . ولقد حكم الملوك ، في تضابق ، وصخرة « القديسة هيلانة » تلوح لهم في الافق .

وفما كان نابوليون يعالج سكرات الموت في لونغورود كان الستون الف رجل الذين صُرعوا في ساحة واترلو يُنتنون في هدوء ، وقد انتشر شيء من سلامهم في العالم . ومنهم صنع مؤتمر فيينا معاهدات ١٨١٥ ، ودعت اوروبه ذلك « العودة الى الاصل » .

تلك هي واترلو .

ولكن ما ضرر الانهيار ؟ إن هذه العاصفة كلها ، هذه السحابة كلها ، هذه الحرب ، ثم هذا السلم ، وهذا الظلام كله لا تقلق لحظة واحدة ضياء تلك العين التي لا حدة لها ، والتي تتساوى أمامها أحقر الحشرات الواثة من طليعة عشب الى طليعة عشب بالنسر المخلق من برج الى برج في كاتدرائية نوتر دام .

---

\* Hudson Lowe جنرال انكليزي ( ١٧٦٩ - ١٨٤٤ ) عمل سجاناً لنابوليون في « سانت هيلانة » وكان قاسياً غير انساني .

\*\* هو الكسندر الاول قيصر روسيا وخم نابوليون الدود ، وقد تول الحكم من عام ١٨٠١ - ١٨٢٥

## ساحة المعركة ليلاً

لنعدّ ، فتلك ضرورة من ضرورات هذا الكتاب ، الى ساحة القتال المشؤومة .

في ليل ١٨ حزيران ١٨١٥ كان القمر بدرآ . وهذا الضياء ساعد بلوخر على القيام بمطارده الضارية ، وكشف عن آثار الفارين ، وأسلم هذه الحشود البائسة الى الفرسان البروسيين الظمأى الى الدماء ، ومدّ يد المساعدة الى المهزرة . إن الليل ليقدّم أحياناً مثل هذا العوث الفاجع الى النكبات .

وحين أطلقت آخر قذيفة من قذائف المدفع ظل سهل د مون سان جان ، خاوياً .

واحتل الانكليز معسكر الفرنسيين ؛ فلقد جرى العرف بأن يؤكّد النصر بالنوم في سرير المهزوم . وأقاموا معسكرهم الطلق حول روستوم . أما البروسيون ، المتعقبون القلول المنهزمة مطلقى العنان ، فقد اندفعوا الى أمام . وقصد ولينفتون الى قرية واترلو لينشيء تقريره ويقدمه الى اللورد باثورست .

وإذا كان قولهم *Sic vos non vobis* \* قد انطبق في يوم من الايام انطباقاً كاملاً فليس من ريب في أن انطبائه ذاك كان على قرية واترلو هذه . إن واترلو لم تفعل شيئاً ، ولقد ظلت على بُعد نصف فرسخ من القتال . لقد 'قذفت' « مون سان جان » بالمدافع ، وأحرقت هوغومون ، وأحرقت باييلوت ، وأحرقت بلانسوا ، وانتزعت د لاهي سانت ،

---

\* من كلام فيرجيل ، باللاتينية ، ومعناه : « وهكذا تعمل انت وعملك ليس لك » . وقد ذهب مثلاً يصور حالة من يحظى بتبويض أو بشرف هو من حق غيره .

إثر غارة عنيفة ، وشهدت « لا بيل آليانس » التقاء الفاتحين . ومع ذلك فنحن ما نكاد نعرف هذه الاسماء . لقد استبدت واترلو ، التي لم تسهم في المعركة ايّ إسهام ، بالشرف كله .

نحن لسنا من أولئك الذين يجدون الحرب ، وحين تسنح الفرصة ننص على حقائقها . إن للحرب مجالات مروعة لم نخفها قط . ولكن لها ايضاً ، كما ينبغي ان نعترف ، بعض البشاعات . ومن ادعى تلك البشاعات الى الدهش تعرية الموتى ، بعد النصر ، تعرية عاجلة . إن اليوم الذي يلي معركة ما ، ييزغ فجره دائماً على جثث غارية .

من الذي يفعل ذلك ؟ من الذي يدنس النصر على هذا النحو ؟ ما تلك اليد البشعة الحقة التي تنزلق الى جيب النصر ؟ من هم أولئك النشالون الذين يقضون مرادهم ، في جراحة ، إثر المجد ؟ إن بعض الفلاسفة ، وفولتير واحد من هؤلاء ، ليؤكدون أنهم على وجه الضبط أولئك الذين أحرزوا النصر . انهم هم أنفسهم - وفقاً لقول هؤلاء الفلاسفة - فليس ثمة أيما تبديل . إن أولئك الواقفين على أرجلهم هم الذين يسلبون أولئك المنظرين أرضاً . إن بطل النهار هو خفتاش الليل . وعلى أية حال ، فإن للرجل الحق في ان ينهب ، بعض الشيء ، جثة كان هو صانعها .

أما نحن فلسنا نعتقد ذلك . إن جني الغار وسرقة الخداه من رجل ميت يبدوان لنا شيئاً مستجيلاً صدوره عن يد واحدة .

هناك أمر واحد لا ريب فيه ، وهو أنه بعد الفاتحين يفد اللصوص . ولكن فلنضع الجندي ، وبخاصة الجندي المعاصر ، بعيداً عن هذه التهمة .

لكل جيش ذبل ، وههنا ينبغي ان يمحصر الاهتمام . خفافيش نصف كل منها قاطع طريق ونصفه الآخر متذلل دنيء ، وجميع ضروب الطير الليلية التي يلدها هذا الفسق الذي ندعوه الحرب ، ولا بسو بذلات عسكرية لم يشتركوا في القتال قط ، ومرضى زائفون ، ومُرجح مخيفون ، ورجال



مريبون يملكون محلات تباع الاطعمة والاشربة للجنود ويندفعون مع زوجاتهم في بعض الاحيان على عربات صغيرة لكي يسرقوا ما يبيعون ، وشعاذون يقدمون انفسهم كادلاء الى الضباط ، وخدم عاكر ، وسالبو جنود - كل هؤلاء كانوا يتبعون الجيوش الزاحقة في الايام الحالية - فنحن لا نتحدث عن العصر الحاضر - الى درجة تجعلهم يُدعون في اللغة الفنية « الجند المتخلفين » . وما من جيش أو شعب كان مسؤولاً عن هؤلاء الخلوقات . لقد تكلموا الايطالية ولفوا بالألمان ؛ وتكلموا الفرنسية ولفوا بالانكليز . وإنما بيد واحد من هؤلاء الجبناء ، وهو « متخلف » اسباني كان يتكلم الفرنسية ، قتل المركيز دو فيرفاك غدراً - وقد تُخدع برطانت « البيكاردي »\* التي لا تفهم وظنه واحداً من جنودنا - وُسلبَ في ساحة المعركة نفسها خلال الليلة التي عقت انتصار « سيريزول »\*\* ومن سلب الجند نأ سالبو الجنود . ولقد أحدثت الحكمة البغيضة : هس على عدوك هذا الجذام الذي لا يقوى على شفائه غير نظام قاسٍ . إن ثمة «شهرات خادعة» . فنحن لا ندرى دائماً لماذا يتسرع بعض الجنرالات ، برغم انهم كانوا عظاماً ، بشعبية كبيرة . فقد «فتن» جنود « تورين »\*\*\* به لانه كان يجيز السلب والنهب ؛ والاذن باقتواف الشر جزء من كرم النفس ؛ ولقد كان تورين كريماً الى درجة أباح معها إضرام النار في « البالاتينات » وإعمال السيف في رؤوس أهلها . وإنما يلحق بالجيوش عدد من « سالبو الجند » يقل أو يكثر تبعاً لقسوة القائد

---

\* نسبة الى بيكارديا ، وهي مقاطعة فرنسية قديمة في أقصى الشمال ، وعاصمتها آميان .

\*\* Cériseles قرية ايطالية ، حيث هزم الفرنسيون القوات الاسبانية والامبراطورية

عام ١٥٤٤ .

\*\*\* Turenne مارشال فرنسا ( ١٦١١ - ١٦٧٥ ) ، وقد اشتهر بفتحته للازاس

خلال شتاء ١٦٧٥ .

العام أو لئنه . فلم يكن له « هوش » \* و « مارسو » \*\*  
جند متخفون ، ولم يكن عند ولينغتون - ونحن نقرّ له بذلك في  
سرور - غير عدد قليل منهم .

وعلى أية حال ، ففي ليل الثامن عشر من حزيران سلب الجند .  
كان ولينغتون قاسياً ، وكان قد أصدر أمره بأن يُقتل أيما رجل يلقى  
عليه القبض متلبساً بذلك الصنيع . ولكن السلب داه يعمر استنصاه . فقد  
كان سالبو الجند يسرقون في إحدى زوايا الميدان ، فيما كانوا يُقتلون  
رمياً بالرصاص في زاوية أخرى .

كان القمر « مشووماً » فوق هذا السهل .

فعوالى منتصف الليل كان رجل يطوف بطريق أوهين الغائرة ، أو  
يدبّ عليها ، على الاصح . كان مظهره يدل على انه واحد من هؤلاء  
الذين وصفناهم اللحظة ، ليس بانكليزي ولا فرنسي ، وليس بفلاح ولا  
جندي . كان غولاً أكثر منه انساناً ، جذبه رائحة الجثث ، وقد  
حسب السرقة نصراً ، فاقبل ليسلب واتزلو . كان يرتدي جلباباً هو ،  
جزئياً ، برنس عسكري ، وكان قلقاً وجريئاً ، وكان يتقدم الى امام  
ويتلفت الى وراء . من كان هذا الرجل ؟ لعل الليل عرف أعماله أكثر  
ما عرفها النهار . ولم يكن عنده جراب ، ولكن كانت له جيوب  
واسعة من غير شك تحت برنسه . وبين القينة والقينة كان يتمهل ،  
ويتأمل السهل من حوله وكأنما كان يريد ان يستيقن من ان احداً لا  
يراقبه . ثم انحنى فجأة ، وهزّ فوق الارض شيئاً صامتاً لا حراك به ،  
وبعد ذلك نهض وانسلّ هارباً . لقد كان في انزلاقه ، وفي ملاعبه ،  
وفي أيامه انه السريعة الخفية ما جعله يبدو مثل أشباح الفسق تلك التي

---

\* Hoche جنرال فرنسي ( ١٧٦٨ - ١٧٩٧ ) وكان من اعظم وجوه  
الثورة وأكرمها .

\*\* Marceau جنرال فرنسي ( ١٧٦٩ - ١٧٩٦ )

تألف الخرائب ، والتي كانت الاساطير النورمندية القديمة تدعوها  
« الرماح » .

ان بعض الطيور الليلية المدعوة « طوال الساق » تحدث مثل هذه  
الظلال السود في المستنقعات .

ولو قد قدر لعين ان تحترق ، في انتباه ، هذا الضباب كله اذت  
لأت على مسافة ما ، عربة صغيرة من عربات بانمي الاطعمة والاشربة  
للجند ، وقد وقفت وكأنها محتبئة خلف البيت الحرب القائم على طريق  
نيفيل عند زاوية الطريق من « مون سان جان » الى « برين لالو » .  
واذن لأت ان تلك العربة مغطاة بالصفاف المطلي بالقطران ، وانها  
مقرونة الى فرس حقيرة جائعة تقضم القراص من خلال شكينها . وفي  
هذه العربة كان ضرب من امرأة جالسا على بعض صناديق الامتعة  
وبعض الصرر . ولعله كانت ثمة صلة ما ، بين هذه العربة وذلك الرجل  
الطائف بالمكان .

كان الليل صافياً . ولم تكن ثمة سحابة واحدة عند سميت الرأس .  
وعلام يستولي المهم على القمر اذا كانت الارض حمراء ؟ انه ليحتفظ  
ببياضه . كذلك هي لا مبالاة السماء . وفي المروج كانت الاغصان  
التي كسرتها قذائف المدافع ولكنها لم تسقط بعد ان امسك بها اللحاء ،  
فتأيل في رفق مع رياح الليل . وحركت نسمته ، تكاد تكون نفساً ،  
ذلك الدغل . وكان في العشب ارتعاشات بدأت وكأنها مفارقة الارواح  
للاجساد .

وكان ميسرداً ان يُسمع وطء العسس الطائنين بالمعسكر الانكليزي ،  
سماعاً غامضاً ، في المدى البعيد .

وواصلت النيران التهام « هوغومون » و « لاهاي سانت » محدثة  
شعلتين ضخمتين ، احدهما في الشرق ، والاخرى في الغرب ، وقد  
اتصل بها ، مثل عقد من الباقوت الاحمر منفرد ، في طرفيه الاقصيين

بأفوتتان جريبتان ، شريط نيران المعسكرات الانكليزية القائمة في الهواء  
الطلق ، والممتدة في نصف دائرة هائلة فوق كتيبان الافق .

لقد تكلمنا على كارثة طريق اوهين . وان القلب ليكاد يغور ذعراً  
لمجرد التفكير في مثل ذلك الموت الذي ألم بهذا العدد كله من الرجال  
الشجعان .

واذا كان ثمة شيء مروّع ، واذا كان ثمة حقيقة تفوق الاحلام فهي  
هذه : ان تعيش ، ان ترى الشمس ، ان تقلك القوة الرجولية كلها ،  
ان تقلك الصحة والبهجة ، ان تضعك في بسالة ، ان تندفع نحو مجد  
يدعوك اليه متألقاً باهراً ، ان تحس في صدرك برنة تنفس ، وبقلب  
يخفق ، وبإرادة تعقل ، ان تتكلم ، ان تفكر ، ان ترجو ، ان تحب ،  
ان تكون لك امّ ، ان تكون لك زوجة ، ان يكون لك اولاد ،  
ان تنعم بأشعة الشمس ، ثم تستشعر فجأة ، في لحظة ، في اقل من  
دقيقة ، انك تنهار في هوة ، ونسقط ، وتندحرج ، وتسحق ، وتسحق ،  
وترى سنابل القمح ، والازهار ، والاوراق ، والاغصان ، وتعجز عن  
ان تلمسك بشيء ، وتحس بان حسامك عديم الجدوى ، وان الرجال  
تحتك ، والحيل فوقك ، وان تنتفض ابتغاء المقاومة ولكن عبثاً ، وقد  
كسرت عظامك برفسة ما في الظلام ، وان تستشعر عقب قدم تجعل  
عينيك ثبأن من بحجريهما ، وان تهش نعال الحيل الحديدية وفي اسنانك  
غيظ شديد ، وان تخنق ، وتعوي ، وتتلوى ، وان تكون تحت هذا  
كاه وتقول لنفسك : لقد كنت رجلاً حياً منذ لحظة لبس غير .

هناك ، حيث حشرت هذه الكارثة المحزنة ، كان كل شيء صامتاً  
الآن . كان خندق الطريق الفائرة مليئاً بالافراس وبالفرسان وقد  
كدّسوا على نحو مبهم معقد . تشابك فظيع . ولم يبق ثمة منحدر ؛  
فقد جعلته الجثث على مستوى واحد مع السهل وارتفعت الى ضفتي  
الطريق مثل مكياال قديم للشعير ، حسن الامتلاء ، مستوي السطح .

حشد من الموتى في القسم الاعلى ، ونهر من الدم في القسم الاسفل -  
كذلك كانت هذه الطريق ليل الثامن عشر من حزيران ، عام ١٨١٥ .  
وجرى الدم حتى الى طريق نيفيل ، واندفق من هناك في بركة واسعة  
امام حطام الاشجار الذي يعترض الطريق ، في نقطة لا تزال تشاهد  
الى اليوم . وإنما ألمت الكارثة بالدارعين ، كما نذكر ، عند النقطة المقابلة ،  
في اتجاه الطريق المقبلة من جيناب . وتناسبت كثافة ركام الجثث مع  
عمق الطريق الفائرة . وحوالى الوسط ، في النقطة التي غدت عندها أقل  
عمقاً ، هناك حيث مرّ فصيل دولور ، أصبحت طبقة الموتى أرق .  
في هذا الاتجاه ، مضى ذلك الطائف الليلي الذي حدثنا القاري عنه  
منذ لحظة . لقد راح بنقّب وسط هذا القبر المهال ؛ واجال بصره في  
ما حوله . لقد استعرض الجند الأموات استعراضاً بشعاً الى حد لا  
يوصف ؛ ومضى وقدماء تفوصان في الدم .

وفجأة كفّ عن المسير .

فعلى بضع خطى امامه ، في الطريق الفائرة ، وفي النقطة التي انتهى  
عندها ركام الموتى ، بدت من تحت هذا الحشد من الرجال والحيل يد  
مفتوحة اضاءها القمر بشعاعه .

وكان في احدى اصابع هذه اليد شيء يلتمع . كان خائفاً ذهبياً .  
وانحنى الرجل ، وظل منحنياً لحظة . حتى اذا نهض كرة اخرى لم  
يبق ثمة خاتم في تلك اليد .

والحق انه لم ينهض بالمعنى الدقيق . لقد ظلّ في حال شاردة بجفلة ،  
مولباً ظهره وركام الموتى ، دارساً الافق ، راكعاً على ركبتيه ، وقد  
استند مقدّم جسمه كله على سبابتيه الائتني ، وارفع رأسه ارتفاعاً  
جزئياً يكسّنه من اختلاس النظر فوق حافة الطريق الفائرة ليس غير .  
إن ارجل ابن آوى الاربع تلامن افعالاً بعينها .  
حتى اذا تخير سبيله استوى واقفاً .

وفي تلك اللحظة سرت في جسمه اختلاجة . لقد احسّ ان يداً كانت تمسك به من خلاف .

واستدار . كانت اليد المفتوحة ، التي أطبقت ، منشئبة بذيل برنسه . ولو قد احسّ رجل فاضل بمثل ذلك اذن لاستبدت به الروع . اما هذا الرجل فشرع يضعك .  
وقال :

— « اوه ، انه الميت ليس غير . انا أوتر رؤية الشبح على رؤية الدركي » .

وعلى اية حال فقد تراخت اليد وخلت سبيله . إن القوة تنفذ وشيكاً في القبر .  
واضاف المطوف بالليل :

— « آه ها ! أياكون هذا الميت حياً ؟ دعنا نرى » .  
وانحنى كرة اخرى ، وبحث في ركام الاجساد ، مزبلاً كل ما كان يعترضه . وقبض على اليد ، وامسك بالذراع ، وخلّص الرأس ، وسحب الجسد . وما هي الا لحظات حتى راح يجير في ظلمة الطريق الفائرة رجلاً فاقد الروح ، او على الاقل ، فاقد الحس . كان داوِعاً ، وكان ضابطاً ، بل كان ضابطاً ذا رتبة ما . وكانت كثافة ذهبية ضخمة تبرؤ من تحت درعه ، ولكنه لم يعد يعتمر بخوذة . كانت ضربة سيف ضاربة قد شوهت وجهه ، فليس يُرى فيه غير الدم . وفي ما عدا ذلك ، لم يبدو ان أياً من اوصاله قد كسرت . وقد شاء حسن الطالع — اذا كان من الممكن اصطناع هذا التعبير هنا — ان تقوّس الجثث من فوقه على نحو أنجاه من السحق . كانت عيناه مغمضتين .  
وكان معلقاً على درعه صليب « جوقة الشرف » الفضي .  
وزع المطوف بالليل هذا الصليب فاخفى في هوة من تلك الهوى التي كانت تحت برنسه .

وبعد ذلك نلّس جيب الضابط الخاص بالساعة ، فمثر فيه على ساعة ،  
فأخرجها . ثم بحث في صدرته فألقى محفظة دراهم فنشلها .  
حتى اذا انتهى الى هذه المرحلة من القوث الذي كان يقدمه الى هذا  
الرجل المحتضر ، فتح الضابط عينيه .  
وقال في صوت واهن :

- « شكراً » .

كانت خشونة حركات الرجل الذي يلمسه بيديه ، وبرودة الليل ،  
وتنفس الهواء النقي في حرية ، قد ايقظته من سباته .  
ولم 'يجب المطوّف بشيء' . لقد رفع رأسه . وكان في ميسوره ان  
يسمع وقع اقدام في السهل ، لعله ان يكون وقع قدمي حارس ليلى  
يقرب منه .

وغنم الضابط ، اذ كانت لا تزال في صوته حشرجة :

- « من الذي كسب المعركة ؟ »

فاجابه المطوّف :

- « الانكليز » .

واضاف الضابط :

- « ابحث في جيوبي . سوف تجد فيها محفظة دراهم وساعة .

خذهما » .

كان ذلك قد اتمّ من قبل .

وتظاهر المطوّف بتنفيذ الطلب ، ثم قال :

- « ليس هناك شيء » .

فاردف الضابط :

- « لقد مرقوها مني . أنا آسف . ولولا ذلك لكاتنا لك » .

وامسى وطء الحارس الليلى واضحاً اكثر فاكتر .

وقال المطوّف ، آتياً بمحركة كحركة من ينبغي الانصراف :

- « ها قد اقبلوا » .
- ورفع الضابط نفسه ، في ألم ، معتمداً على احدى ذراعيه ، وامسك به .
- « لقد انقذت حياتي . فمن انت ؟ »
- فأجابه الطائف الليلي في سرعة ، وفي همس :
- « لقد كنت مثلك في الجيش الفرنسي . ينبغي ان اذهب . اذا قبضوا عليّ فسوف يقتلونني رمياً بالرصاص . لقد انقذت حياتك ، فتدبر امرك الآن بنفسك » .
- « ما ربتك ؟ » .
- « رقيب » .
- « وما اسمك ؟ »
- « تيناردييه » .
- فقال الضابط :
- « انا لن انسى هذا الاسم ابداً . وانت اذكر اسمي . انا أدعى بونيموي » .



## الكتاب الثاني

# الدارعة «أوريون»

١

رقم ٢٤٦٠١ يصبح رقم ٩٤٣٠

كانت السلطة قد ألقت القبض على جان فالجان ، كرة اخرى .  
ولسوف 'نعدّر' لمورونا بالتفاصيل المؤلمة مرآ سريعا ، مجتزئين بان  
ننقل ههنا نبذتين ليس غير بما نشرته صحف ذلك العصر بعد الاحداث  
الغريبة التي وقعت في مونتروي سور مير .  
وهاتان المقالتان موجزتان بعض الشيء . وبحسن بالقاري ان يذكر  
ان « صحيفة المحاكم » *Gazette des Tribunaux* لم تكن قد ظهرت في ذلك  
العهد .

ونحن ننسخ المقالة الأولى عن صحيفة « الراية البيضاء » . إنها تحمل  
تأريخ الخامس والعشرين من تموز سنة ١٨٢٣ :

« كانت إحدى مقاطعات الدردو كاليه » ، منذ قريب ، مسرح  
حادثة نادرة حقاً . ذلك بأن رجلاً غريباً عن المنطقة يُعرف بـ « مسيو  
مادلين » ، كان قد أحيا منذ بضع سنوات ، وبفضل بعض الطرائق  
المستعدة ، صناعة محلية قديمة ، هي صناعة الحُرز الكهرتي والزجاج  
الاسود . وعاد ذلك عليه بثروة كما عاد بثروة أيضاً على المنطقة نفسها .  
واعترافاً بخدماته عُين عمدة . ولكن الشرطة اكتشفت ان مسيو مادلين  
لم يكن غير محكوم عليه بالاشغال الشاقة هارب من العدالة ، وكان قد  
أدين سنة ١٧٩٦ بتهمة السرقة ، ويدعى جان فالجان . ولقد أُعيد جان  
فالجان هذا الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . ويبدو انه قد  
« وفق » ، قبل اعتقاله ، الى ان يسحب من مصرف لافيت مبلغاً يزيد  
على نصف مليون كان قد اودعه هناك وكان قد كسبه ، في ما يقال ،  
من صناعته تلك ، على نحو شرعي جداً . ومنذ عودته الى سجن الاشغال  
الشاقة في طولون لم يمتد اجد الى المكان الذي خبأ فيه جان فالجان  
هذه الثروة . »

اما المقالة الثانية ، وهي اكثر اسهاباً ، فنترعة من عدد « الجورنال  
دو باري » الصادر في التاريخ نفسه :

« لقد سبق محكوم سابق بالاشغال الشاقة الى محكمة الجنايات في  
« فار » ، منذ فترة قصيرة ، في ظروف جدية بان تلفت النظر ، فقد كان  
هذا الانيم قد وفق الى الافلات من نقطة الشرطة فقير اسمه ونجح في  
حمل المسؤولين على تعيينه عمدة لاحدى مدننا الشالية الصغيرة . واقد  
انشأ في هذه المدينة صناعة زاهرة ، ولكن امره انكشف في النهاية والقي

القبض عليه بفضل نشاط السلطات العامة الذي لا يعرف التعب . وكانت له خلية هي احدى المومسات ، لم تحتل الصدمة فماتت لحظة اعتقاله . والواقع ان هذا الشرير ، الذي مُنح قوة جسدية هرقية ، وجد سيلاً الى الفرار ، ولكن الشرطة ما لبثت ان الفت القبض عليه ، بعد ثلاثة ايام او اربعة ايام من هربه ، في باريس نفسها لحظة كان يمتطي متن احدى تلك العربات الصغيرة التي تجوز المسافة ما بين العاصمة وقرية مونفيرماي ( سين - ايه - واز ) . ويقال بانه أفاد من هذه الايام الثلاثة او الاربعة التي قضاها مطلق السراح ليسحب مبلغاً ضخماً كان قد أودعه أحد مصرفينا الرئيسيين . ويقدر هذا المبلغ بستمئة الف او سبعمئة الف فرنك . ويذهب فرار الاتهام الى انه قد خبأه في موضع لا يعرفه احد غيره ، ولما تسكن السلطة من العنور على ذلك المال حتى الآن . وعلى اية حال ، فان المدعو جان فالجان قد مثل امام محكمة جنابات «قار» لسرقة ارتكبها في الطريق العام ، والسلاح في يده ، منذ ثمان سنوات تقريباً ، ضد واحد من اولئك الاطفال الطاهرين الذين وصفهم بطريك فيرني بايات خالدة يقول فيها :

« ... المحبلين من سافوي كل عام ،

والذين غمر يدهم في مهارة

تلك الفترات الطويلة المختلفة بالسقام . »

ولم يحاول قاطع الطريق هذا ان يدافع عن نفسه . ولقد اثبت مثل التاج القدير البليغ ان اشخاصاً آخرين شاركوا في السرقة ، وان جان فالجان عضو في عصابة من عصابات السرقة في الجنوب . وهكذا أعلن جان فالجان مذنباً وصدر الحكم عليه بعقوبة الموت . ورفض هذا المجرم ان يستأنف الحكم لدى الحاكم العليا ، ولكن الملك ، برأفته التي لا تنضب ، تنازل فخفض عقوبته الى الاشغال الشاقة مدى الحياة . وفي الحال ، سبق جان فالجان الى سبعين طولون .

ولن ننسى ان جان فالجان كانت له في مونتروي سور مير بعض العادات الدينية . وقد اعتبرت بعض الصحف ، وفيها صحيفة « الدستور » ، Le Constitutionnel ، هذا التخفيف نصراً للحزب الاكليركي .

وتغير رقم جان فالجان في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .  
اتم صا ر يدعى ٩٤٣٠

ونقل هنا ، لكي لا نعود الى ذلك كرة اخرى ، ان ازدهار مونتروي سور مير زال بزوال مسيو مادلين . لقد وقع كل ما كانت قد تنبأ بوقوعه في ليلة الحمى والتردد تلك ، فما ان ولى هو حتى ولت الروح . فبعد سقوطه تمّ في مونتروي سور مير ذلك التوزيع الاناني لما يتبقى حين يسقط الرجال العظام ، ذلك التجزيء المشؤوم للمؤسسات المزدهرة الذي يجري كل يوم ، على نحو خفي ، في المجتمع البشري والذي لم يلاحظه التاريخ غير مرة واحدة ، لانه لما تمّ بعد موت الاسكندر . فالجزرالات يتوجون انفسهم ملوكاً ، ويجتلّ مقدّمو العمال محلّ رجال الصناعة . ونشأت منافسات تمور بالحد . واغلقت مصانع مسيو مادلين الرحبة ، وتركت الابنية للخراب ، وتشتت شمل العمال . لقد غادر بعضهم المنطقة وغادر بعضهم الصناعة . ومن ذلك الحين أنتج كل شيء على نطاق صغير بدلاً من ان يُنتج على نطاق كبير ، وابتغاء الربح لا ابتغاء الخير . لم يكن ثمة مركز ، فالمنافسة في كل مكان والضعفنة كذلك . كانت مسيو مادلين يمين على كل شيء ، ويوجه كل شيء . فلم يكده يسقط حتى فاضل كل امرئ من اجل ذاته . لقد حلت روح الصراع محل روح النظام ، والمخوضه محل المودة ، والبغضاء المتبادلة محل رغبة المؤسس في خير المجموع . لقد تشابكت الحيوط التي نسجها مسيو مادلين وتقطعت . وغدت الطرائق زائفة ، والنتاج دوناً . لقد قتلت الثقة ، وتناقص الزبائن ، وقلت الصفقات ، وانخفضت الاجور ، وتبطّل العمال ، واقبل الافلاس . وعندئذ لم يبق شيء للفقراء . لقد احمى كل شيء .

وحتى الدولة لاحظت ان شخصاً قد سرق ، في ناحية ما . ففي أقل من اربع سنوات انقضت على قرار محكمة الجنايات بأن مسيو مادلين هو جان فالجان نفسه ، لمصلحة سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، تضاعفت نفقات جباية الضرائب في مقاطعة مونتروي سور مير . وقد أشار مسيو فيليو الى هذه الحقيقة ، من على منبر المجلس ، في شهر شباط ، عام ١٨٢٧ .

## ٢

### حيث نقرأ يتين من الشعر لعلهما من عمل الشيطان

وقبل ان نمضي الى أبعد بحسن بنا ان نروي ، في شيء من التفصيل ، حادثة فريدة وقعت في الفترة نفسها تقريباً ، في مونفيرماي ، ولعلها ان لا تخلو من توافق مع بعض أحداث السلطات العامة .

إن في منطقة مونفيرماي خرافة عتيقة جداً يزيد عليها غرابة ونفاذة أن وجود خرافة شعبية في جوار باريس امثله شيء بشجرة من شجرات الصبر \* في سيبريا . ونحن لسنا من اولئك الذين يحترمون ايما شيء لجرّد انه نادر . والى القاريء اذن خرافة مونفيرماي هذه : لمنهم يعتقدون ، هناك ، أن الشيطان قد اختار الغابة ، منذ الزمان الاقدم ، مكاناً

---

\* ضرب من الزنبقيات يكون على هيئة بقول أو أنجم أو شجيرات كثيرة العصار ، خضرة ذات ازهار منتصبه متراصة ، يزرعها اهل الهند الغربية سياجاً للارض وتصنع من اليافه حبال أو اقشة خشنة . ويقصد المؤلف الى القول ان انتشار الخرافة الشعبية في جوار مدينة مثل باريس مستغرب كوجود شجر الصبر في اصقاع باردة مثل سيبريا ، لان الصبر من نباتات البلاد الحارة .

يجيء فيه كنوزه . وتؤكد نسوة المنطقة الصالحات انه ليس من النادر ان يلتقي المرء ، عند غروب الشمس ، في المناطق المنعزلة من الغابة ، رجلاً أسود ، يشبه سائق عربية أو خطاباً ، ينتعل حذاء خشبياً ، ويرتدي بنطلوناً وقميصاً من كتان خشن ، ويميز بأن له على رأسه ، بدلاً من القلنسوة أو القبعة ، قرنين هائلين ، وهذا ما يجعل تعرفه شيئاً يسيراً حقاً . وهذا الرجل مشغول ابدأ في حفر الحُفَر . وهناك ثلاثة مواقف يمكنك أن تتخذها حين تلقاه .

الاول ان تقرب من الرجل وتتحدث معه . وعندئذ تدرك ان هذا الرجل ليس غير فلاح ، وأنه يبدو أسود بسبب من الغسق ، وأنه لا يحفر أبداً حفرة ولكنه يجمع العشب لبقراته ليس غير ، وان ما يُظن أن قرنين على رأسه ليسا غير مذراة زبل يحملها على ظهره ، وقد بدت أسنانها ، بفضل الفن الذي يصطنعه الليل في رسم المناظر البعيدة ، وكأنها ثابتة من رأسه . وتقلب الى بيتك وتقضي نحبك في خلال اسبوع . والثاني ان تراقبه ، وتنتظر حتى يحفر حفرة ، ويعاود ردها ، ويمضي لسيبه . وعندئذ تعدو في سرعة بالغة الى الحُفَر وتقبها من جديد وتخرج الكنز ، الذي دفنه الرجل الاسود هناك من غير ريب . وفي هذه الحال تتخطفك المنية في خلال شهر . والثالث ان لا تتحدث الى الرجل الاسود على الاطلاق ، وان لا تنظر اليه على الاطلاق ، وان تطلق ساقبك للريح بأسرع ما تستطيع . وفي هذه الحال تموت في خلال العام .

واذ كانت لهذه المواقف جميعاً سيئاتها ، فان الموقف الثاني - الذي ينطوي على الاقل على بعض الحسنات من بينها انه يملكك كنزاً ولو مدة شهر واحد فحسب - هو عادةً الموقف الاكثر شيوعاً . ومن هنا ، فان أولي العزم من الرجال ، الذين لا يفوتون فرصة صالحة ، كثيراً ما نبشوا ، كما يؤكد الناس ، تلك الحُفَر التي شقها الرجل الاسود ، وحاولوا ان يسرقوا الشيطان . ويبدو ان هذا الصنيع ليس راجحاً

جداً - على الأقل اذا كان لنا ان نؤمن بالتقاليد ونؤمن بخاتمة بيتين من الشعر الملقن باللغة اللاتينية البربرية خلتها لنا في هذا الموضوع راهب نورمندي حيث كان يتعاطى السحر الى حد ما ، واسمه تريفون . وتريفون هذا مدفون في دير «سان جورج دو بوشرفيل» قرب رومان ، ويتولد من ضريحه بعض ضفادع الجبل .

واذن فان الباحث عن الكنز يبذل جهوداً ضخمة ، لأن تلك الحفرة ممتعة جداً في العادة . إنه يعرق ؛ إنه يحفر ؛ إنه يعمل الليل بطوله لان هذا الصنيع يُبائس في ساعات الليل ؛ إنه يبلل قميصه ؛ إنه يستنفد شحمته ؛ انه يثلم معوله ؛ وعندما ينتهي آخر الامر الى قعر الحفرة ، عندما يضع يده على «الكنز» ، ماذا يجد ؟ ما هو كنز الشيطان هذا ؟ إنه فلس - وفي بعض الاحيان ريال - أو حجر ، أو هيكل عظمي ، أو جثة دامية ، وأحياناً شح مطوي أربع طيات مثل ورقة في محفظة ، وأحياناً لا شيء . وذلك ما يُعلنه ، في ما يبدو ، بيتا تريفون ، لقليلي التبصر الفضوليين :

*Fodit , et in fossa thesauros condit opaca,*

*As , nummos , lapides , cadaver , simulacra , nihilque . \**

والذي يبدو ان الباحث عن الكنز ، في عصرنا هذا ، يجد بالإضافة الى ذلك ، قرن بارود مع 'كرات' أحياناً ، ومجموعة عتيقة من ورق اللعب الاسمر الشحيم كان واضحاً ان الشياطين لعبوا بها ، أحياناً أخرى . ولا يشير تريفون ايما إشارة الى هاتين اللقيتين الاخيرتين ، لانه عاش في القرن الثاني عشر ، وليس يبدو ان الشيطان كان من الذكاء بحيث يخترع البارود قبل روجر بايكون \*\* وورق اللعب قبل شارل السادس .

والى هذا ، فأما امرئ . يلعب بهذا الورق بخسر ، من غير ريب ،

\* وقد ضل المؤلف منها ، كما هو واضح ، في الفقرة السابقة .

\*\* Bacon راهب الكليزي (١٢١٤-١٢٩٢) وكان من اعظم علماء القرون الوسطى .

كل ما يملك . اما البارود الذي في الوعاء فمن خصائصه أنه يفجر بندقيتك في وجهك .

والآن ، وبعد فترة قصيرة انقضت على اعتقاد السلطات ان المحكوم بالاشغال الشاقة المطلق السراح ، جان فالجان ، كان يطوف - خلال فراره الذي دام بضعة ايام - في مونفيرماي ، لوحظ في تلك القرية نفسها أن معبد طرقي عجوزاً يدعى بولاتروويل صار له د ولوع ، بالغابة . وزعم الناس في ذلك الجوار انهم يعرفون ان بولاتروويل قضى شطراً من حياته في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . كان خاضعاً لمراقبة الشرطة ، واذ لم يجد عملاً في مكان ما ، استخدمته الحكومة براتب منقوص كمعبد للطريق الضيقة بين د غاني ، و د لاني ، .

وكان بولاتروويل هذا رجلاً ينظر اليه اهل المنطقة سزراً . كانت يوقر الناس اكثر مما ينبغي ، ويتواضع لهم اكثر مما ينبغي ، وكانت يسارع الى نزع قلنسوته لكل انسان . كان يرتجف دائماً ويتسم دائماً في حضرة رجال الدرك ، ولعله كان على صلة سرية بعصابات القصوص ، كما تقول الشائعات ، فهو يُتهم بأنه يكمن في زوايا الغابة حين يهبط الليل . ولم يكن ثمة ما هو في مصلحته غير كونه سكيراً .  
واليك ما لاحظته اهل المنطقة :

منذ فترة غير بعيدة ، ترك بولاتروويل ، في ساعة مبكرة ، عمله القائم على تقطيع الحجارة وصيانة الطريق ، ومضى الى الغابة حاملاً معوله . وكان الناس يلقونه ، حوالى المساء ، في اقصى بقاع الغابة الجرداء ، وفي اشد الآجام إجماشاً ، وقد بدت عليه سيما رجل يبعث عن شيء ، واحياناً سيما رجل يحفر حفراً . وحسبته الندوة الصالحات ، اول الامر ، يلازيبوت \* ، ثم عرفن انه بولاتروويل ، ولم يذهبن ذلك اطمئناناً ، على الاطلاق . وبدأ وكأن التفاء الناس للعَرَضِي له بولاتروويل ، كان يُقلقه إقلاقاً كثيراً . كان واضحاً انه كان يحاول

\* اسم شيطان ، ويمتد رئيساً للارواح الشريرة في الكتاب المقدس .



ان يجتبيء ، وان في ما يعمل له لغزاً .

وقالت اشاعات القرية : « من الواضح ان الشيطان قد ظهر ، وان بولاتروويل قد رآه ، فهو يبحث عن كثره . والحق انه هو الرجل المؤهل لسرقة الشيطان » . واذاف الفولتيريون \* قائلين : « أيقبض بولاتروويل على الشيطان أم يقبض الشيطان على بولاتروويل ؟ » واكثرت النسوة العجائز من رسم اشارة الصليب على انفسهن .

وايأ ما كان ، فان زيارات بولاتروويل الى الغابة ما لبثت ان انقطعت ، واستأنف الرجل عمله المعتاد فوق قارعة الطريق . وشرع الناس يتحدثون عن شيء آخر .

يبدأن نفرأ قليلاً احتفظوا بفضولهم ، ذاهبين الى ان المسألة قد تكون منطقية لا على كنوز الخرافة الاسطورية بل على اشيء نصيبها من الجدة والوجود المادي اكبر من نصيب اوراق الشيطان النقدية ، والى ان معبد الطرق قد اكتشف السر ، من غير ريب نصف اكتشاف . وكان اكثرهم « انشغال بال » رجلاًن هما معلم القرية ، وصاحب الفندق تيناردييه الذي كان صديق الجميع ، والذي ما كان يجد غضاضة في ان ينشئ علاقة ودية حتى مع بولاتروويل نفسه .

وقال تيناردييه :

« ولقد كان في سجن الحكموم عليهم بالانشغال الشاقة ؟ إيه ، يا الهي !

ان احداً لا يعرف من هناك ، ومن سيكون هناك » .

وذات مساء لاحظ معلم القرية ان السلطات في المهود القديمة كان خليقاً بها ان لا تهمل التحقيق حول الغاية التي من اجلها ذهب بولاتروويل الى الغابة ، وان بولاتروويل هذا ، لو سلف به الدهر قليلاً ، اذن لا كثره على ان يتكلم ، واذن لعُذِّب عذاباً شديداً اذا اقتضت الحاجة ذلك ، واث بولاتروويل ما كان ليعتصم بالصمت لو أدخلت مسألة المياه في

\* نسبة الى فولتير الفيلسوف الفرنسي الشهير . ويقصد بالفولتيريين : الساخرون .

استجوابه ، مثلاً .

وقال تيناردييه :

« فلندخل مسألة الحر في ذلك الاستجواب . »

وهكذا دَعَوَا معبد الطرق العجوز الى سهرة وألحَا عليه في الشراب . وشرب بولاتروويل كثيراً ، ولكنه تكلم قليلاً . لقد أحسن الجمع ، في فن بارع ونسبة أستاذية ؛ ما بين ظمأ رجل 'مُسرف في الشراب' ، ورسالة قاضٍ . ومع ذلك ، فبإعادة التجربة مراراً ، وبالربط ما بين العبارات الغامضة التي نددت منه وعصرها استنتج تيناردييه ومعلم القرية ما يلي :

ذات صباح ، بينما كان بولاتروويل منطلقاً مع الفجر لأداء عمله ، أخذه الدهش اذ رأى في إحدى زوايا الغابة ، تحت دغل من الادغال ، مسحة ومعولاً ، مخبأين كما قد يقول المرء هناك . بيد أنه ظنهما مسحة الأب « سيكس فور » ، حمال الماء ، ومعوله فلم يفكر فيهما بعد . ولكنه عاد فرأى في مساء اليوم نفسه ، من غير أن يُرى ، اذ كانت مخبئاً خلف شجرة ضخمة ، « شخصاً ليس من أبناء تلك المنطقة على الاطلاق » ، ولكنه هو ، بولاتروويل يعرفه معرفة جيدة ، « او كما ترجها تيناردييه » وفيلاً قديماً من رفاق السجن اغلص بالهكوم عليهم بالاشغال الشاقة » - رأى شخصاً ينعطف من الطريق العام نحو الجزء الأشد كثافة من الغابة . ورفض بولاتروويل ، في عناد ، ان يذكر اسم الرجل الغريب . وكان هذا الشخص يحمل رزمة ، شيئاً مربعاً مثل صندوق كبير أو وعاءٍ امتعة صغير . ومدهش بولاتروويل ، وعلى اية حال ، فقد انقضت سبع دقائق او ثمان دقائق قبل ان يخطر له ان ينقب « الشخص » . ولكن الاوان كان قد فات . كان الشخص قد انتهى الى الأجمة ، وكان الليل قد هبط ، ولم يوفق بولاتروويل الى ادراكه . وهكذا عقد التبة على ان يراقب حواشي الغابة . « كانت

الليلة مقمرة ، وبعد ساعتين او ثلاث ساعات رأى بولاتروويل هذا الشخص ينبثق كرة اخرى من الغابة ، غير حامل هذه المرة صندوق الامتعة الصغير ذاك ، ولكن معولاً ومسحاة . وتركه بولاتروويل يمر ولم يخطر له ان يعترض سبيله قط ، لانه قال في ذات نفسه ان لذلك الشخص من القوة ثلاثة اضعاف ما له هو ، وانه مسلح بمعدل ، وانه سوف يقتله في اغلب الظن اذا ما عرفه ، واذا ادرك الغريب ان امره قد انكشف . يا لها عاطفة جياشة تندفق في صدري رقيقين قديمين التقيا على غير موعد ! ولكن المعول والمسحاة كانا شعاعاً من النور في نظر بولاتروويل . فسارع الى الادغال ، عند منبج الصباح ، ولكنه لم يجد لا المعول ولا المسحاة . ومن هنا استنتج ان هذا الشخص حفر ، حين دخل الغابة ، حفرة بمعوله ، ودفن الصندوق في تلك الحفرة ، ثم عاود ردمها بمسحاته . واذا كان الصندوق اصغر من ان يحتوي على جثة ، فلا بد انه ينطوي على مال . ومن هنا بحثه المتواصل . وراد بولاتروويل الغابة كلها ، وسبر غورها ، وبحث فيها بكل دقة ، ونقب الارض حيثما بدت له مقفولة منذ قريب . ولكن على غير طائل .

انه لم يعثر على شيء . ولم يعد احد يفكر بذلك ، في مونفيرماي . ولكن بعض النسوة الثرارات الصالحات ظلمن يقطن : وكونوا على ثقة من ان معبد طريق غانبي لم يحدث كل هذه الضجة للاشياء . لقد كان الشيطان هناك ، من غير ريب .

وفيه يظهر ان سلسلة الطوق الحديدي لا بد ان تكون  
قد خضعت لعمل إعدادي ما لكي تنكسر  
على هذا النحو بضربة مطرقة

وفي اواخر تشرين الاول ، من العام نفسه ، ١٨٢٣ ، رأى سكان  
طولون السفينة أوريون تعود الى مرفأهم ، بسبب العواصف الشديدة  
وابتناء إصلاح بعض الحلل الذي أصابها ، وكانت تلك السفينة - التي  
استخدمت بعد في برست مركباً للتدريب - تؤلف آنذاك جزءاً من  
اسطول البحر الابيض المتوسط .

والواقع ان هذه السفينة ، برغم ما ألمّ بها من 'كساح نتيحة' لخاشنة  
البحر لها ، أثارت هزةً من الفضول والاهتمام عند دخولها المرسى .  
وكانت ترفع علماً لست ادري ما هو على التحقيق ، ولكنه أهلها  
لترحيب نظامي يتألف من إحدى عشرة طلفة ، ردّت عليها واحدة  
واحدة ، فاذا المجموع اثنتان وعشرون طلفة . ولقد قدّر المقدرون  
ان العالم المتمدن ، في كل رجا من ارجاء الكرة الارضية ، يطلق كل  
اربع وعشرين ساعة ، مئة وخمسين الف طلفة مدفع غير مجدية تُهدر  
على التبعيات والجماملات الملكية والعسكرية ، وتبادل الصخب الملائف ،  
وايماءات اللياقة ، وشكليات المرافىء والحصون ، ويزوغ الشمس وغروبها  
الذين تحييهما كل يوم جميع القلاع والسفن الحربية ، وفتح الموانىء  
واغلاقها ، الخ ... الخ ... فاذا كان ثمن الطلفة الواحدة ستة فرنكات بلغت  
نفقات ذلك تسعمئة الف فرنك يومياً ، او ثلاثمئة مليون فرنك سنوياً  
تذهب دخائناً . وليس ذلك غير بندي واحد . وفي الوقت نفسه يموت

الفقراء جوعاً .

وكانت سنة ١٨٢٣ هي السنة التي دعاها عصر عودة آل بوربون الى الحكم « عهد الحرب الاسبانية » .

وانتظمت تلك الحرب عدة حوادث في واحدة ، وعدداً غير يسير من الفرائد . كانت قضية عائلية كبرى من قضايا آل بوربون ؛ كان الفرع الفرنسي يساعد ويحمي فرع مدريد ، يعني انه كان يقوم بالواجب المفروض على الأرشد ؛ ولقد عدنا عودة ظاهرة الى تقاليدنا الوطنية ، بمزوجة بالعبودية والحضوع لوزارات الشمال ؛ وكان دوق آنغوليم ، الذي خلعت عليه الصحف التحيرية لقب « بطل آندوجار » ، يقيم ، في مملكته مظفر يتناقض بعض الشيء مع نزعة السلمية ، الارهاب القديم الواقعي الى ابعاد الحدود الذي فرضه « المكتب المقدس » ، المعادي لأرهاب الاحرار الوهمي ؛ وبُعثت جماعة الاسراويل \*\* ، وبالأذعر الارامل ذوات الصداق ، تحت اسم الـ *descamisados* \*\*\* ؛ ووضع الملكيون المراقيل في طريق التقدم الذي نعتوه بالفوضوية ، واعترضت نظريات ٨٩ \*\*\* على نحو خشن ، وهي تتخذ سبيلها المقوّض ؛ وطاف أمرٌ أوروبي بالوقوف ، موجه الى الفكرة الفرنسية الخاصة بالثورة ، حول الكرة الأرضية ؛ وإلى جانب ابن فرنسة ، الجنرال الأعظم ، انضوى البرنس دو كاربنان ، الذي أمسى في مساء بعد شارل آلير \*\*\*\* ، تحت لواء صليبية الملوك هذه ضد

\* Saint - office ويقصد به ديوان التفتيش . وقد اطلق هذا الاسم في الاصل على ديوان التفتيش الذي اقيم في رومة ، وهو الذي حكم على غاليليو بالموت .

\*\* Sans - culottes وهو القبا الذي خله الارستوقراطيون حوال عام ١٧٩٢ ، على رجال الثورة الذين استمضوا عن السروال القصير (الكولوت ) بالبنطلون .

\*\*\* تعبير اسباني معناه « الذين لا قمصان لهم » . وقد اطلق على جماعة من الثائرين الاسبان . والكلمة كما ترى عربية الاصل تتألف من اداة النفي ( des ) وكلمة « قيس » على صورة معرفة . \*\*\*\* يقصد النظريات التي قالت بها الثورة ( ١٧٨٩ )

\*\*\*\*\* Charles - Albert ( ١٧٩٨ - ١٨٤٩ ) امير من اسرة Carignan ، وهي فرع من اسرة سافوا ، تولى عرش سردينية عام ١٨٣١ واتخذ لومباردية من ريفه النسويين ، ثم هزمه النسويون ، عام ١٨٤٩ ، وتنازل عن العرش لابنه عمانويل الثاني .

الشعوب بوصفه متطوعاً يحمل كتافتي رامي قتابل مصنوعتين من صوف أحمر ؛ واستأنف جنود الامبراطورية خوص المارك ، ولكنهم كانوا بعد ثمانى سنوات من الراحة قد شاخوا واكتأبوا وطوقوا قيعاتهم بالعصابة البيضاء ؛ ورُفرف العلم المثلث الالوان في الديار الاجنبية بأيدي حفنة من الفرنسيين البواسل ، كما رُفرف العلم الابيض \* في كوبلنتز \*\* قبل ثلاثين عاماً ؛ واختلط الرهبان بجنودنا ؛ وقهرت روح الحرية والتجدد برووس الحراب ؛ وأذلت المباديء بطلقات المدافع ؛ ونقضت فرسة بسلاحها ما كانت قد فعلته برووها . والى هذا ، فقد كان زعماء العدو قد باعوا أنفسهم ، وكانت قواتهم متوددة ، وكانت المدن مُحاصره بالملايين من الفرنكات ؛ ولم يكن ثمة أخطار عسكرية ، ومع ذلك فقد كانت الانفجارات ممكنة ، شأن كل منجم يُقتنم ويُجتل على حين غرة . ولم يُسفع غير قليل من الدم ، ولكن قليلاً من الشرف قد كُتب . وسربل العارقة قليلة ، ولكن المجد لم يكن من نصيب أحد . هكذا كانت هذه الحرب التي شنها امراء تحذروا من لويس الرابع عشر ، وقادها جنرالات انشقوا من نابوليون . لقد كانت ذات مصير نعم ، فهي لا تُدعى حرباً كبيرة ، ولا تدعى سياسة كبيرة . وكانت بعض أحداث الحرب جدية . فالاستيلاء على تروكاديرو ، كان بالإضافة الى غيره من الاحداث ، عملاً عسكرياً موفقاً . ولكننا نكرر القول ان ابراق تلك الحرب ، اذا نُظر اليها جملة ، كانت تطلق صوتاً منصداً ، وان هيئتها العامة كانت مربية ، وان التاريخ يقرّ نفرة فرنسا من الاعتراف بابوتها لهذا النصر الزائف . ولقد بدا واضحاً ان

---

\* هو العلم الملوكي ، أما العلم المثلث الالوان فهو علم الثورة كما لا يخفى .

\*\* Coblantz مدينة المانية تجمع فيها عام ١٧٩٢ النبلاء المهاجرون وانشأوا ما يسمون

بجيش كونديه l'armée de Condé

بعض الضباط الاسبان المكلفين بالمقاومة استسلموا بأكثر مما ينبغي من اليسر ، وأن فكرة الرشوة انبعثت من فضل تفكير بالنصر . وتراءى وكان الجنرالات هم الذين كُسبوا ، لا المارك ؛ وان الجندي المنتصر قد رجع ذليلاً مهيناً . كانت حرباً متضائلة حقاً ، في ميسورك ان قرأ عبارة « بنك فونسة » على طيات رايتها .

وقطب جنود حرب عام ١٨٠٨ ، الذين انهارت سرقطة تحت اقدامهم ذلك الانهيار المائل ، لاستسلام الحصون على هذا النحو السهل عام ١٨٢٣ ، وتحسروا على بالافوكس\* . إن مزاج فرنسة هو الذي يجعلها تؤثر ان تجد أمامها رجلاً مثل « روستوبشين »\*\* لا رجلاً مثل « باليتسيروس »\*\*\*

ومن جهة نظر أشد خطورة أيضاً - وجهة نظر يحسن بنا أن نؤكددها - أثارت هذه الحرب ، التي حطمت روح فرنسة العسكرية ، سخط الروح الديمقراطية . كانت مشروع إخضاع . ففي هذه الحملة ، كان هدف الجندي الفرنسي ، ابن الديمقراطية ، أن يفوز بنير يُنقل به أعناق الآخرين . تناقض مخيف . لقد وجدت فرنسة لكي توظف روح الشعوب ، لا لكي تخنقها . فند عام ١٧٩٢ لم تكن جميع ثورات اوروبا مثبته غير الثورة الفرنسية ؛ كانت الحربية تشع من كل رجلاً من ارجاء فرنسة . تلك حقيقة ساطعة سطوع الشمس في رابعة النهار . وأسمى هو الذي لا يراها ! إن بوناپرت هو الذي قالها .

وإذن فقد كانت حرب عام ١٨٢٣ - وهي اعتداء على الاممة الاسبانية النجيبة - اعتداء على الثورة الفرنسية في الوقت نفسه . كانت

\* Palafox دوق سرقطة ( ١٧٨٠ - ١٨٤٧ ) وقد دافع دفاعاً باسلاً عن سرقطة عام ١٨٠٩ .

\*\* Rostopchine رجل دولة روسي ( ١٧٦٣ - ١٨٢٦ ) كان حاكم موسكو عام ١٨١٢ وقد أمر باحراق المدينة عند دخول الفرنسيين اليها .

\*\*\* Ballesteros جنرال اسباني ( ١٧٧٠ - ١٨٣٢ )

فرنسة هي التي اقترنت صنيع العنف الهائل هذا ، ولكن مكرهة .  
لانه ، باستثناء حروب التحرير ، تعمل الجيوش كل ما عمله من طريق  
الاكراه . إن كلمتي الطاعة العمياء لتشيران الى ذلك . والحق ان  
الجيش رائعة عجيبة من روائع التألف ، حيث تكون القوة ثمرة مجموع  
هائل من الضعف . وهكذا نستطيع ان نقرر الحرب التي تشنها الانسانية  
ضد الانسانية على الرغم من الانسانية .

وقبلا يتصل بآل يوربون ، كانت الحرب وبالأعلى عليهم . لقد اعتبروها  
نجاحاً . انهم لم يروا قط اي خطر يكمن في محاولة قتل فكرة بأمر  
عسكري . لقد زلّوا ، بذاجتهم ، الى حد جعلهم يُدخلون الى  
كيانهم ، وكأنه عنصر قوة ، ذلك الوهن الهائل الناشئ عن ارتكاب  
جريمة . لقد تسربت روح التردد ونصب الأثراك الى سياستهم . إن  
بذرة عام ١٨٣٠ \* كانت كامنة في عام ١٨٢٣ . فقد غدت الحملة  
الاسبانية ، في مجالسهم ، حجة لاتخاذ اجراءات العنف ، ولجك المؤامرات  
تدعياً للحق الالهي . وفرنسة ، وقد وفقت الى اعادة الملك المستبد  
الى اسبانية ، خليفة بأن لا تعجز عن اعادة الملكية المطلقة الى ديارها  
هي . لقد وقّعوا في هذه الغلظة الرهيبة وهي أنهم توهموا أن خضوع  
الجندي يعني موافقة الامة . وهذا الوم يهدم العروش . يجب ان لا  
ينام المرء ، لا في ظل شجرة من شجرات الاوباس\*\* ، ولا في ظل  
جيش من الجيوش .

ولكن فلنعد الى السفينة « اوربون » .

في اثناء العمليات التي قام بها جيش الامير القائد الأعلى ، كانت  
اسطول بحري يطوف في مياه البحر الابيض المتوسط . ولقد سبق

---

\* هو العام الذي نشبت فيه الثورة ضد الملك شارل العاشر ، فخلع عن العرش  
وحلّ محله لويس فيليب .

\*\* شجرة تنمو في الهند وهي ذات عصير سام .



منا القول إن السفينة ، أوريون ، كانت جزءاً من هذا الاسطول ،  
وان تلاطم الامواج أكرهها على العودة الى مرفأ طولون .

إن في وجود سفينة حربية في مرفأ ما شيئاً خفياً يجذب الجماهير ويثير  
فضولهم . ومرد ذلك الى انها ضخمة ، والجماهير تحب كل ما هو ضخم .

والحق ان الدارعة مظهر من مظاهر الصراع بين العبقريّة الانسانية  
دقوى الطبيعة .

إن الدارعة لتتألف من اشد المواد ثقلاً ، ومن اكثرها خفة في  
وقت معاً ، لان عليها ان تقاوم ، في الوقت نفسه ، اشكال المادّة  
الثلاثة : الجامد ، والسائل ، والمائع . ان لها احد عشر غلّباً حديدياً  
لتنشبت بالصخر في اعماق البحر ، واجنحة وقروناً تزيد على عدد اجنحة  
الفراشة وقرونها لكي تلتقط النسيم في السحب . وان نفسها لينطلق من  
خلال مدافعها المئة والعشرين وكأنه ينطلق من ابواب ضخام ، ويردّ في  
زهو على الصاعقة . ويناضل الاوقيانوس لكي يضلّها في تشابه امواجه  
المروّج ، ولكن للدارعة بوصلتها ، التي هي روحها ، فهي ترشدها  
أبدأ وتدها ابدأ على الشمال . وفي الليالي الظلام تحل فوانيسها محلّ  
النجوم . وهكذا فأنها تكافح الريح بالجبال والنسيج القني ، وتكافح  
الماء بالخشب ، وتكافح الصخر بالحديد والنحاس والرصاص ، وتكافح  
الظلام بالزور ، وتكافح لانهاية البحر بأبرة .

وليس علينا لكي نكون فكرة عن هذه الابعاد الهائلة كلها التي  
يكون مجموعها دارعة من الدوارع إلا ان نمرّ تحت مصنع من مصانع  
السفن المسقفة ذات الادوار الستة ، في مرفأ بورت ، أو مرفأ طولون .  
إن السفن الجاري انشاؤها تترى هناك تحت صناديق زجاجية ، إذا جاز  
التعبير . فهذه العارضة الخشبية الهائلة هي عارضة الصاري ، وهذا العمود  
الخشبي الضخم ، المنطرح على الارض والممتد الى ابعد من مدى البصر

هو الصاري الرئيسي ، ولو قد اعتبره من جذره القائم في القعر الى رأسه الضارب في السحاب اذن لظهر لك ان ارتفاعه يبلغ ستين قامة ، وان محيطه عند قاعدته يبلغ ثلاثة اقدام . ويرتفع الصاري الرئيسي الانكليزي مئتين وسبعة عشر قدماً فوق خط العوَم . ولقد كانت اساطيل اجدادنا تستعمل الجبال ، اما اساطيلنا فتستعمل السلاسل . والواقع ان لفّة السلاسل الخاصة بدارعة ذات مئة مدفع تبلغ اربعة اقدام طولاً ، وعشرين قدماً عرضاً ، وثمانية اقدام عمقاً . ومن اجل انشاء مثل هذه الدارعة ، ما مقدار الحطب الذي نحتاج اليه ؟ ثلاثة آلاف متر مكعب . إنها غابة تطفو على وجه الماء .

ومع ذلك فينبغي ان نذكر جيداً اننا لا نتحدث هنا الا عن السفينة الحربية كما كانت منذ اربعين سنة ، عن السفينة الشراعية البسيطة ، ذلك بان البغار - وكان آنذاك في طفولته - قد اضاف منذ ذلك الحين ، عجائب جديدة الى هذه المعجزة التي ندعوها البارجة الحربية . ففي ايّامنا هذه مثلاً ، نجد ان البارجة المختلطة ذات المروحة جهازاً آلياً يدهش نسوة قطعة من قماش قطني تبلغ مساحة سطحها ثلاثة آلاف متر مربع ، ومولد بخاري قوته الفان وخمسة حصان .

ومن غير ان نتحدث عن هذه العجائب الجديدة ، نستطيع ان نقول ان سفينة لا كريستوف كولومبوس ، و « رويتر » ، العتيقة هي رائدة من روائع الانسان الكبري . إن قوتها لا تنضب شأن انفاص الانهابة . إنها تختزن الريح في شراعها ، وانما لراسخة وسط اختلاط الامواج المائل . إنها تطفو وتيسر .

ولكن ثمة لحظات تحطم فيها العاصفة عارضة الصاري البالغ طولها ستين قدماً كما تحطم القشة ، وتلوي فيها الريح ذلك الصاري البالغ

---

« Ruyter » اميرال هولندي ( ١٦٠٧ - ١٦٧٦ ) جرت بينه وبين الاميرال الفرنسي دوكين Duquesne موقعة شهيرة ، في سيراكيوس ، وقد مات على اثرها .

طوله اربعمئة قدم كما تلوى القصة ، وتتفل فيها تلك المرساة التي  
تزن أطناناً في شدة الامواج كما ينفل شص الصياد بين فكي سمكة  
من سمك الكراكي ، وتطلق فيها تلك المدافع الجبارة زجرات نائمة غير  
مجدية تنذف بها العاصفة الى الفراغ والى الليل ، وتفرق فيها كل تلك  
القوة وكل تلك الجلالة في قوة اعظم وجلالة اسمى .

وكما أبرزت قوة هائلة لتنتهي الى ضعف هائل تقف عقول الرجال  
متأمل . ومن هنا يجنشد اولئك الفضوليون في المرايا - من غير ان  
يعلموا هم انفسهم لماذا على وجه الدقة - حول ادوات الحرب والملاحاة  
الرائعة هذه .

واذن ، فكل يوم ، من الصباح حتى المساء ، كانت ارضة مرفأ  
طولون تغطى بمجد من العاطلين والمضيعين اوقاتهم - كما يقولون في  
باريس - وليس لهم من عمل غير النظر الى « اوريون » .

وكانت « اوريون » سفينة مريضة منذ عهد بعيد . ففي رحلتها  
السابقة كانت طبقات كثيفة من الحار قد تراكت على قعرها الى درجة  
جعلتها تفقد نصف سرعتها . وكانت قد وضعت في العام الماضي ، في  
حوض الترميم الجاف كي تكشط طبقات الحار عنها ، ثم انطلقت نحو  
البحر من جديد . ولكن هذا الكشط كان قد آذى مثبتات قعرها .

وعند خط عرض جزائر الباليار كانت ألواحها قد وهنت وانفجرت .  
واذ لم يكن تغليف قاع السفينة الخارجي بالنحاس معروفاً آنذاك ، فقد  
اخذت المياه تتسرب اليها ، واصابتها على نحو مفاجيء ضربة عنيفة من  
الاعتدال الفلكي نزع أفواس جانبها الأيسر واحدى كوى مدافعها  
وعطبت حامل جبل الصاري الامامي . وبعد ان مُنيت « اوريون »  
بهذا الاذى كله ، أعيدت الى طولون .

وأقيمت مرسأتها قرب دار الصناعة . كانت ملسحة ، وكانوا يصلحونها .  
ولم يكن هيكل السفينة قد أودى من المينة ، ولكن بضعة ألواح

كانت قد نزلت هنا وهناك ، وفقاً للعادة ، لتمكين الهواء من الدخول الى هيكليها .

وذات صباح شهد الحشد الذي كان يجتمع اليها حدثاً .

كان الملاحون منهمكين في شدّ الاشرعة الى الصواري . واذا بنحفير الصواري - المكلف بتناول الزاوية العليا من شراع الصاري الأعظم القائم في مينة السفينة - يفقد توازنه . وراه القوم يترنج ، وأطلقت الحشود المتجمعة فوق رصيف دار الصناعة صيحة ، ورجع رأس الرجل جسده ، وانقلبت حول عارضة الصاري ، وقد انبسط يده نحو الاعماق . وفيما هو يهوي تعلقت بالمرقاة الزائفة باحدى يديه ، اولاً ، ثم بيده الاخرى ، وظل متديلاً على هذا النحو . وكان البحر ينبسط تحته على حق يوقع الدوار في الرأس . واثارت صدمة سقوطه حركة عنيفة في المرقاة الزائفة كحركة الاراجيس . وتأرجح الرجل ، بقطعة الجبل هذه ، ذات البين وذات الشال ، مثل حجر مقلع .

وكان الاندفاع الى نجده ينطوي على مجازفة مروعة . ولم يجرؤ احد من الملاحين -- وكانوا كلهم من صيادي الشاطيء الداخلين حديثاً في خدمة الاسطول - على القيام بهذه المحاولة . وفي غضون ذلك كان خبير الصواري المسكين قد خارت قواه . لم يكن في ميسور المرء ان يلحظ حشرجه واضعة على اساور وجهه ، ولكن انهيار قواه المتعظم كان 'يلحظ في حركات اوصاله جميعاً . وتوترت ذراعاه في التواءات رهيبة . ولم تؤدّ كل محاولة قام بها للصعود من جديد إلا الى امعان المرقاة الزائفة في التأرجح . ولم يصرخ قط خشية ان يفقد قوته . وكان القوم كلهم يرتقبون الدقيقة التي 'يقفل فيها الجبل' ، وفي بعض اللحظات أشاحوا جميعاً بوجوههم لكي لا يروا اليه وهو يهوي . إن ثمة لحظات تكون فيها قطعة الجبل ، وللعنا الطوية ، وغصن للشجرة هي الحياة نفسها ،

وإنه لشيء رهيب ان يرى المرء الى كائن حيّ ينفصل عنها ويسقط مثل  
ثمرة بانة .

وفجأة بَصُرَ القوم رجلاً ينسلق حبال الدارعة بخفة سنور بري .  
وكان هذا الرجل يرتدي ثوباً أحمر ؛ كان محكوماً عليه بالاشتغال الشاقة .  
وكان يمشى بقلنسوة خضراء ؛ كان محكوماً عليه بالاشتغال الشاقة  
مدى الحياة . حتى اذا انتهى الى سطح أعلى الصاري أطارت الريح  
قلنسوته ، وكشفت عن رأس أشيب كله . إنه لم يكن شاباً .

والواقع ان احد المحكوم عليهم بالاشتغال الشاقة المكثفين بالقيام  
فوق ظهر تلك الدارعة بمهمة من مهام السجن كان قد هرع ، منذ  
اللحظة الاولى ، الى ضابط الحراسة . وفي غمرة اضطراب النوبة وترددهم ،  
حين كان جميع الملاحين يرتعدون وينكصون على اعقابهم ، سأل الضابط  
ان يأذن له بالمغامرة بحياته لكي ينقذ خفيّر الصواري . واذا اوماً الضابط  
له ايماءة ايجابية ، كسر بضربة مطرقة السلسلة التي تطوق مفصل عقب رجله .  
ثم تناول حبلًا ، ووثب الى حبال الصاري . ولم يلاحظ احد ، في  
تلك اللحظة ، بأية سهولة كسرت السلسلة . لأنهم لم يتذكروا ذلك إلا  
في ما بعد .

وفي طريقة عين انتهى الى عارضة الصاري . وتعمل بضع ثوان ، وبدأ  
وكانه يقيسها بنظرة منه . وتراءت هذه الثواني التي كانت الريح خلالها  
توزجج خفيّر الصواري ذات اليبين وذات اليسار عند حبل من الحبال -  
وكانها اجيال في أعين المشاهدين . واخيراً ، رفع المحكوم عليه بالأعدام  
عينيه نحو السماء ، وخطا خطوة الى أمام . واخذ الحشد نفساً طويلاً .  
لقد رأوه يجتاز عارضة الصاري راكضاً . حتى اذا انتهى الى اقصاها  
عقد هناك احد طرفي الحبل الذي كان قد جاء به ، وترك طرفه  
الآخر يتدلى على مداه ، ثم راح يحيط ويداه منشيتان بذلك الحبل .

وعندئذ استبدت بالقوم موجة من الذعر فجعلوا عن الوصف . لقد رأوا رجلين اثنين ، بدلاً من رجل واحد ، يتدليان فوق البجة .

كان في ميسور المرء ان يقول إنها عنكبوت تنقض على ذبابة ، لولا ان العنكبوت هنا كانت تحمل الحياة لا الموت . ومتمرت عشرة آلاف عين على هذين الرجلين . فلا صيحة ، ولا كلمة . لقد غصن الانفعال نفسه جميع الجباه . وجلس كل امرئ أنفاسه ، وكأنما كان يخشى ان يمدّ الرّيح التي كانت توزجج الرجلين البالعين بأقل النفثات .

بيد أن المحكوم عليه بالاشتغال الشاقة وفتق ، آخر الامر ، الى ان يشق طريقه نحو الملاح . وكان ذلك في الوقت المناسب ، فلو انه تأخر دقيقة إضافية إذن لكان الرجل قد هوى الى اعماق البحر يائساً ناضب القوى . وشده المحكوم عليه بالاشتغال الشاقة شداً محكماً الى الجبل ، وكان يتشبث به بأحدى يديه ، ويعمل بالآخرى . وأخيراً ، رأي يعاود للصعود الى عارضة الصاري ويسحب الملاح خلفه . وأسنده هناك ، لحظة ، لكي يمكنه من استعادة قواه ، ثم رفعه بين ذراعيه ، وحمله فيما هو يجتاز عارضة الصاري الى العارضة التي تصل ما بين الصاري الكبير والصاري الصغير ، ومن هناك الى سطح اعلى الصاري حيث تركه بين ايدي رفاقه .

في تلك اللحظة صفق الحشد ؛ وبكى رقباء سجن الاشغال الشاقة الشيوخ ، وتعاقت النسوة فوق ارضية الميناء ، ومجمعت جميع الاصوات تصيح بضرب من الحماسة المكبوحه في رفق :  
- « هذا الرجل يجب ان يُفقر له ! »

أما هو فقد جعل من واجبه أن يعاود المبوط ، في الحال ، ويستأنف عمله . ولكي يصل على نحو أسرع أنشأ ينزلق على الجبل ، وراح يعدو على عارضة منخفضة من عوارض الصاري . وتبعته الميوت كلها . وانقضت لحظة استبدت الذعر خلالها بالشاهدين جيعاً . وسواء

أكان ذلك لأحاسسه بالتعب ، أم لأن الدوار عصف برأسه ، فقد اعتقد  
للقوم أنهم رأوه يتردد ويترنح . وفجأة أطلق الحشد صيحة "مدوية" :  
كان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة قد سقط في البحر .

وكان السقوط مهلكاً . فقد كانت البارجة " الجزيرة " *L'Algésiras*  
راسيةً قرب الـ " أوربون " ، ولقد غاص السجين البائس بين البارجتين .  
وخشيَ القوم ان يفرق تحت واحدة منها . ووثب اربعة رجال ، في  
وقت معاً ، الى مركب . وشجعهم القوم ، وغلب القلق ، كرة  
اخرى ، على النفوس جميعاً . ولم يكن الرجل قد ارتفع الى سطح  
الماء ، من جديد . كان قد اختفى في البحر من غير ان يفضن صفحة  
الماء ، فكأنه إنما سقط في برميل زيت . وسبروا غور المكان ، وغاصوا  
الى الأعماق . ولكن على غير طائل . وواصلوا البحث الى ان هبط  
الليل . ولكنهم لم يعثروا حتى على الجثة .

وفي صباح اليوم التالي نشرت " صحيفة طولون " الاسطر التالية :  
" ١٧ تشرين الثاني ، ١٨٢٣ - أمس فجا كان أحد المحكوم عليهم  
بالاشغال الشاقة العاملين على ظهر الـ " أوربون " عائداً الى عمله بعد ان  
انقذ حياة احد الملاحين ، سقط في البحر ففرق . ولم يُعثَر على جثته  
قط . ويُفتَرض أنه علقَ تحت الاوتاد الفارزة في الماء عند مقدم دار  
للصناعة . كان هذا الرجل مسجلاً تحت رقم ٩٤٣٠ ، وكان يدعى  
جان فالجان . "





## الكتاب الثالث

الوفاء بالعهد المقطوع للراحلة



## مسألة المياه في مونفيرماي

تقع مونفيرماي بين « ليفري » و « شيل » على المنحدر الجنوبي من ذلك التجد العالي الذي يفصل الـ « أورك » عن الـ « مارن » .  
لأنها اليوم بلدة كبيرة تزدان طوال العام بدارات ( فيلات ) من جبس ، وفي يوم الاحد ، بمواطنين تطفو على وجوههم نضرة التمتع .  
أما عام ١٨٢٣ فلم يكن في مونفيرماي لا هذه الكثرة من البيوت البيضاء ، ولا هذه الكثرة من المواطنين الناعمين . أنها لم تكن غير قرية في الغابات . والواقع أنك كنت تجد فيها هنا وهناك منتزهات من القرن

الماضي تمتاز بظهرها الضخم ، وشرفاتها ذات الحديد الملوحي ، وبذلك  
النوافذ الطويلة التي كانت ألواحها الزجاجية الصغيرة تبدي على يياض  
مصاريعها الموصدة جميع ضروب الاخضرار المختلفة . ولكن مونفيرماي  
ظلت برغم ذلك كله قرية . ان تجار المنسوجات المتقاعدين والقرويين  
الهواة لم يكونوا قد اكتشفوها بعد . كانت بقعة آمنة فاتنة ، ولم تكن  
تقع على الطريق الى بلد ما . كان اهلها يجيئون ، بشن نجس ، تلك  
الحياة الريفية البالغة الحصب ، والبالغة البُسر . ولكن المياه كانت نادرة  
هناك بسبب من ارتفاع التجد .

كان يتعين عليهم ان يمتازوا مسافة غير قصيرة التماساً للماء . فأما  
اقصى القرية المجاور لـ « غاني » فكان يستمد مائه من الغدران الرائعة  
التي كانت هناك في الغابات ، وأما اقصى القرية الآخر الذي يحيط  
بالكنيسة والمجاور لـ « شيل » فلم يكن يجد مياه الشفة الا في ينبوع  
صغير ، عند منتصف المنحدر ، قرب الطريق الى « شيل » ، على  
مسيرة ربع ساعة من مونفيرماي تقريباً .

واذن فقد كان الحصول على الماء مسألة جدية يتعين على كل أسرة  
ان تواجهها . فكانت البيوت الكبيرة ، بيوت الارستوقراطيين ، وفي  
جلتها فندق تيناردييه ، تدفع رُبع « سو » ، ثناً لكل دلو من الماء  
الى رجل ساذج اتخذ من تزويد الناس بالماء مهنة له ، وكان يكسب من  
ذلك الصنيع نحواً من ثمانية « سو » في اليوم . ولكن هذا الرجل  
لم يكن يشتغل إلا إلى الساعة السابعة مساءً في الصيف ، وإلى الساعة  
الخامسة مساءً في الشتاء . فاذا هبط الليل ، وأوصدت نوافذ الادوار  
الاولى ، تحتم على كل من أعوزته الماء أن يلتمسه بنفسه ، او يستغني عنه .  
ذلك كان الهول الذي احتملته تلك الخلوقة المسكينة التي نرجو ان  
لا يكون القاري قد نسيها - كوزيت الصغيرة . ونحن نذكر ان  
كوزيت كانت ذات فائدة لتيناردييه وزوجته من ناحيتين . كانا ينتزعان

الأجر من الأم ، والعمل من الطفلة . وأنه حين اقلعت الأم نهائياً عن الدفع - وقد رأينا سبب ذلك في الفصول السابقة - احتفظ تيناردييه وزوجته بكوزيت . لقد حلت عندهما محل خادمة . وبوصفها ذاك ، تعين عليها ان تركض مي جلب الماء حين يحتاجان اليه . وهكذا فإن الطفلة الصغيرة التي كان يروّعا دائماً مجرد التفكير في الذهاب الى الينبوع تحت جناح الظلام ، كانت تبذل غاية عنايتها لكي لا يعوز الماء البيت على الاطلاق .

وكان عيد الميلاد من عام ١٨٢٣ مشرقاً على نحو خاص في مونفيرماي . كان الشطر الأول من الشتاء معتدلاً ؛ ولم تكن تلك المنطقة قد عرفت بعد لا الجليد ولا الثلج . وكان بعض المشعوذين الوافدين من باريس قد استصدروا من العمدة اذنًا يحيز لهم أن يضربوا خيامهم في شارع القرية الرئيسي . وكانت جماعة من الباعة المتجولين قد اقامت ، بفضل الاذن نفسه ، حوانيتها الخشبية الصغيرة في الساحة المنبسطة امام الكنيسة ، وحتى في «زقاق بولانجيه» حيث يقوم مطعم تيناردييه الحفير ، كما قد يذكر القاري . وهكذا غصت الفنادق والحانات بالزبائن ، واتخذت هذه البقعة المأدبة مظهرًا صاحبًا بهيجاً . وينبغي ان نقول ايضاً لكي نكون مؤرخين املاء ، انه كان بين الغرائب المعروضة في تلك الساحة معرض حيوانات يضم مهرجين مخيفين يرتدون اسمالاً بالية ، وليس يدري احد من ابن اقبوا ، فهم يعرضون ، سنة ١٨٢٣ ، على فلاح مونفيرماي واحداً من تلك العقبان البرازيلية الرائعة التي لم يملك متحفنا الوطني نظيراً لها إلا في عام ١٨٤٥ ، والتي تشبه عيونها شارات مستديرة ، كالتي ترين قبعات الجنود ، مثلثة الالوان . ويدعو علماء التاريخ الطبيعي هذا الطائر Caracara Polyborus في ما اعتقد . انه من رتبة Apicidae وفصيلة العقبان . وقصد بعض الجنود البونابرتيين العجائز ، الطيبين ، المتقاعدون في القرية ، لرؤية هذا الطائر في خشوع . وزعم المشعوذون ان تلك الشارة

المستديرة ظاهرة فريدة صنعها الله خصيصاً لمعرضهم الحيواني .

في ليلة الميلاد تلك كان بضعة رجال ، بعضهم سائقو عربات وبعضهم باعة متجولون في الارياض ، جالسين الى الطاولات يعاقرون الحمر حول اربع شموع او خمس شموع في القاعة السفلى من فندق تيناردييه . وكانت هذه القاعة تشبه قاعات الحانات جميعاً : طاولات ، وآنية من قصدير ، وزجاجات ، وشاربون ، ومدخنون . قليل من النور ، وكثير من الضجة . ومع ذلك ، فقد كان تاريخ عام ١٨٢٣ يتجلى في ذينك الشبثين القائمين على احدى الطاولات ، وكانا آنذاك زبناً سائماً بين الطبقات الوسطى ، وهما منظر سحري ، ومصباح من صفيح متوج . كانت تيناردييه الزوجة تراقب الحساء الذي كان يطهى أمام نار مشرقة لاهبة . وكان تيناردييه الزوج يحسني الشراب مع ضيوفه ، ويتحدث في السياسة .

والى جانب المناقشات السياسية التي كان موضوعها الرئيسيان الحرب الاسبانية ودوق آنفوليم \* كان في ميسور المرء ان يسمع ، في غمرة الضجة ، ملاحظات محلية معترضة من مثل هذه :

« وهناك في ناحية « ناتير » و « سووين » كان موسم الكرمة خصباً . فحيث توقع القوم عشرة براميل فازوا باثني عشر . لقد استخرجوا مقادير كبيرة من العصير من تحت المكبس . »

« ولكن اليس من الضروري ان ينضج العنب ؟ »

« اوه ، في تلك الدبار ليس من الضروري ان يُقطف العنب ناضجاً . ان الكرمة لتغدو بدينة مع الربيع . »

« اذن فهي خير هزيلة ؟ »

« ان ثمة خموراً كثيرة هي اشدّ هزالاً من الحمر التي نعرفها هنا .

يتعين على المرء ان يجني العنب وهو بعدُ أخضر . الخ ... »

وقد يصيح أحد الطحانين قائلاً :

---

\* كان هذا الدوق هو قائد القوات الفرنسية في الحرب الاسبانية .

- هل نحن مسؤولون عما في الاكياس ؟ إننا نجد ركاماً من البذور الصغيرة هناك ، ولكننا لا نستطيع ان نتلى بالتقاطها ، وإننا لنخطر طبعاً الى ان ندعها تمرّ بين حجري الرعى . هناك زؤان ؛ هناك شجرة ؛ هناك حبة البركة ؛ هناك جلبان ؛ هناك بؤر القنب ؛ هناك ذيل الثعلب ، وجمهرة من التفابات الاخرى ، هذا اذا لم نذكر الحصى التي تكثر في بعض اصناف القمح ، وبخاصة قمح بروتانسي . أنا لا أحب ان اطحن القمح البروتاني ، أكثر مما يجب النجار ان ينشر العوارض التي تنطوي على ماسير . يكفي ان تفكر بالتواب القذر الذي يضيفه ذلك كله الى المحصول . وبعد ذلك يشكو الناس رداءة الطحين . إنهم مخطئون . فلسنا نحن المسؤولين عن الطحين .

وفي مكان وسط بين نافذتين ، جلس حصّاد الى إحدى الطاولات مع مزارع كان يساومه على عمل يقوم به في الموسم التالي ، وأنشأ يقول :

- « لا ضرر البتة في ان يصيب الندى الاعشاب . إنه يمجّز على نحو أفضل . إن الندى شيء حسن ، يا سيدي . ولكن سيان ، فهذا العشب ، عشبك ، نضر العود ، وإن قطعه لعسير جداً . إنه شديد الاخضرار ، وهو ينحني تحت المنجل . » الخ

وكانت كوزيت في مكانها المألوف ، جالسة على عارضة طاولة المطبخ ، قرب الموقد . كانت ترتدي خرقاً ممزقة ، وكانت قدمها العاريتان تتعللان حذاء خشبياً ، وكانت تزرد على ضوء النار بجوارب صوفية لبنتي تيناردييه الصغيرتين . كانت هرة صغيرة تلعب تحت الكراسي . وفي غرفة مجاورة كان صرتان طفلان ناضران يثرثران ويضحكان على نحو مسروع .

كانتا ايبونين وآزبيلما .

وفي زاوية الموقد كان سوط يتدلى من احد الماسير . وبين الفينة والفينة كان صوت طفل بالغ الصغر ، ينبعث من مكان

ما من المنزل ، فيطغى على ضجة الحانة . ذلك كان غلاماً صغيراً رزقه السيدة تينارديه في شتاء ماضٍ - « من غير ان تدري كيف » ، كذلك كانت تقول ، « إنه غرة الجو البارد » ، ولم يكن عمره ليزيد على ثلاث سنوات . كانت الام قد ارضعته ، ولكنها لم تحبه . حتى اذا غدت صبيحات الطفل الجائعة اقوى من ان 'تحتمل كان تينارديه يقول : « إن ابنك يصيح فلماذا لا تذهبين وترين ما يريد ؟ » فتجيبه الام : « أفٍ ! لقد ضجرت منه ! » وبواصل الطفل التحدول صباحه وسط الظلام .

## ٢ رسمان يكتملان

إذا لم تَرَ تينارديه وزوجته في هذا الكتاب إلا من ناحية جانبية . ولقد آن لنا أن ندور حول هذين الزوجين ونرى اليها من الجهات جميعاً .

كان تينارديه قد بلغ التحسن منذ قريب ، وكانت السيدة تينارديه قد بلغت الاربعين ، وهي بمثابة التحسن عند المرأة . وهكذا فقد كان ثمة توازن في العمر بين الزوج والزوجة .

ولعل القراء قد احتفظوا ، منذ ظهورها الاول ، ببعض الذكرى لتينارديه هذه ، الضخمة ، الشقراء ، الحمراء ، البدينة ، اللحية ، المربعة ، الجلسية ، النشيطة . كانت كما قلنا سابقاً من ذلك العرق من النسوة الوحشيات الهائلات اللواتي ينعطفن كالقوس في الاسواق الدورية وقد تدلت قطع البلاط من شعرهن . كانت تقوم بجميع الاعمال المنزلية : تنظيف الغرف ، وغسل الملابس ، والطبخ ، وأي شيء يحلو لها ، وتضيح وتضخب . وكانت كوزيت هي خادمتها الوحيدة ؛ فأرة في



خدمة فيل . كان كل شيء يرتجف لجرس صوتها : زجاج النوافذ و  
والاثاث ، والناس . وكان وجهها العريض ، الذي يعلوه النمش ، اشبه شيء  
بالمراغة . وكانت لها لحية . كانت المثل الاعلى لصبي الجزائر مرتدياً ملابس  
نسائية . وكانت تُقسم في فخامة ، وتمتدّ بقدرتها على ان تكسر الجوزة  
بجمع كفها . وبصرف النظر عن الروايات التي قرأتها والتي تعطيك في  
بعض الاحيان لمحة عجيبة عن المرأة المتكافئة الكامنة تحت العلاء \* فان  
ايّاً من الناس لم يخطر له ذات يوم ان يقول عنها : هذه امرأة . كانت  
تتأريه هذه اشبه شيء بالنتاج الحاصل من تلقيع امرأة وقحة مربية  
بياعة ممك . اذا سمعتها تتحدث قلت : « هذا دركي » . واذا رأيتها تشرب  
قلت : « هذا سائق عربة » . واذا بصرت بها تلمس كوزيت قلت : « هذا  
هو الجلاد » . وفي اوقات الراحة كانت احدى الاسنان تبرز من فمها .  
اما تيناردييه الزوج فكان رجلاً ضئيل الجسم ، هزيلًا ، ساجبًا ، ذا  
زوايا ، عظيمًا ، ضعيف البنية يبدو وكأنه مريض برغم ان صحته ممتازة ،  
ومن هنا كان يبدأ مكرهه وخبثه . كان يتسم ، بحكم العادة ، من باب  
الاحتراس ، وكان يحاول ان يكون لطيفاً مع الناس جميعاً ، حتى مع  
الشعاذ الذي كان يضنّ عليه بربع « سو » . كانت له نظرة غس ، وسيا  
أدب . وكان يشبه رسوم الراهب دوليل \*\* شهباً كثيراً . وكان يدخن غليوناً  
الحمر مع سائقي العربات . ولم يره احد سكران قط . وكان يدخن غليوناً  
ضخماً . وكان يرتدي قميصاً ، وتحت ذلك القميص سترة عتيقة سوداء . وكان  
يدّعي فهم الادب والفلسفة المادية . وكانت ثمة اسماء يكثر من ترديدها  
تأييداً لاي شيء قد يقول : فولتير ، رينال \*\*\* بارني \*\*\*\* ، واخيراً وهو

\* السلا : اثني القول .

\*\* l'Abbé Delille شاعر فرنسي ( ١٧٣٨ - ١٨١٣ ) ترجم آثار فيرجيل وميلتون .

\*\*\* Raynal مؤرخ وفيلسوف فرنسي ( ١٧١٣ - ١٧٩٦ ) وضع كتاباً عن غزو

الاوروبيين للهند شجب فيه الاستعمار وحمل على رجال الدين .

\*\*\*\* Parny شاعر فرنسي ( ١٧٥٣ - ١٨١٤ ) اشتهر بقصائده الغزلية الاليفة .

شيء عجيب ، القديس اوغطين \* . وكان يؤكد ان له « نظاماً » . وعلى الجملة ، فقد كان غشاشاً كبيراً ، فيلسوفاً في الحداد . وهذا الضرب من الناس موجود . ونحن نذكر انه ادعى خوض غمار الحرب ؛ وكان يروي في شيء من الابهة انه في واترلو - وكان رقيباً في سلاح ما خفيف يحمل الرقم اربعة او الرقم تسعة - استطاع وحده ، في وجه كوكبة من « فرسان الموت » ، ان يغطي بجسده وينقذ وسط وابل من القذائف « جنرالاً أصيب بجراح خطيرة » ، ومن هنا تلك اللقطة الملتبهة التي على جداره ، واسم ' فندقه الذي كان يعرف في ذلك الاقليم بـ « فندق رقيب ( مرجان ) واترلو » . كان متحرراً ، وكلاسيكياً ، وبونابرتياً . ولقد اكتتب في انشاء « شان دازيل » . ولقد قيل في القرية انه دوس ذات يوم لكي يصبح كاهناً .

اما نحن فنتفقد انه لم يدرس ، في هولندة ، الا ما يمكنه من ان يصبح صاحب فندق . والواقع ان هذا النذل ذا الطراز المركب ، كان ، وفقاً لكل احتمال ، فلنكيكياً من « ليل » في الفلاندر ، وفرنسياً في باريس ، وبلجيكيكياً في بروكسل ، فهو مستعد للانزواء تحت الرابية التي يجسد في ظلها النفع . اما شجاعته في واترلو فنحن نعرفها . وهو كما قد رأينا ، يبالغ بها بعض الشيء . كان تقلب احوال الدهر ، والمواربة ، والمقامرة هي عنصر وجوده . إن الضمير الممزق يستتبع الحياة المتفتحة . ولا ريب في ان تبنادويه كان خلال فترة ١٥ حزيران ١٨١٥ العاصفة ، ينسب الى تلك الطبقة من المطوفين بالليل ، السارقين جيوب الجند ، التي نحدثنا عنها . فهو يرود البلاد ، يبيع هنا ، ويسرق هناك ، ويترحل على طراز عالي - رجل وامرأة ، واولاد - في عجلة عرجاء ، على آثار الجيوش الزاحفة ، تسوقه غريزة نجعله يلتحق دائماً بالجيش الظافر . حتى اذا انتهت هذه الحملة ، واصبح ، كما قال ، صاحب « ثروة » انشأ مطعماً حقيراً في مونفيرماي .

\* احد آباء الكنيسة اللاتينية المشهورين ( ٣٥٤ - ٤٣٠ )

ولكن هذه ، الثروة ، المؤلفة من صُرر مال وساعات وخواتم ذهبية و صلبان فضية ، والتي جمعت إبان الحصاد في الأتلام المزروعة بالجلث ، لم تشكل حاصلًا ضخمًا ، ولم تعمّر طويلاً عند هذا الطائف الليلي الذي امسى صاحب فندق .

وكانت لتيناردييه خشونة الابعاء تلك التي لا توصف ، والتي تذكّر المرء - حين تُقرن بقسم - بالثكنة العسكرية ، وتذكره - حين تقرن بإشارة الصليب - بالمدرسة الاكليريكية . كان محدثاً بارعاً ، وكان مولعاً بأن يجسبه الناس عالماً ؛ ومع ذلك ، فقد لاحظ معلم المدرسة أنه كان يخطئ في اللفظ . كان بعدة فوائير المافرن بأسلوب وبيع ، ولكن الميوت المتسرة كانت تكشف فيها ، أحياناً ، بعض الاخطاء الأملائية . كانت تيناردييه رائباً ، ثرهاً ، متبطلاً ، وحاذقاً . ولم يكن ليزوري الخدمات ، ومن هنا لم تبق عند زوجته واحدة منهم . فقد كانت هذه العملاقة جسوداً ، ولقد بدا لها أن هذا الرجل الاصفر المزبل ، الضئيل الجسم ، لا بدّ أن يكون موضوع استهزاء عام .

وكان تيناردييه - وهو فوق كل شيء رجل مكر واتزان - وغداً من ضرب معتدل . وهذا الضرب هو الاسوأ . إنه مزوج بالتفاق .

وليس ذلك يعني أن تيناردييه لم يكن قادراً في بعض المناسبات على أن يغضب ، بقدر ما كانت امرأته تغضب على الاخلاق . ولكن هذا كان نادراً جداً ؛ وفي تلك الحالات كان يبدو وكأنه في حرب مع الجنس البشري كله ، وكأن في باطنه اتوناً عميقاً من البغض ، وكأنه واحد من اولئك الذين لا ينفكون ينتقمون لانفسهم ، والذين يتهمون كل امرئ من حولهم بجميع الشرور التي تنزل بهم ، والذين هم دائماً على استعداد لأن يطرحوا على أول قادم ، كشكوى مشروعة ، كل ما مُنوا به في حياتهم من خيبة وإخفاق ومصائب . وإذا كانت هذه الخيرة تعمل في ذات نفسه ، ويطفو زبدها على فمه وعينه ، فقد كان مشهده مروّعاً .

والويل لمن يتعرض لثقلته عندئذ !

وكان تيناردييه ، بالإضافة الى سائر صفاته ، حسن الانتباه ، ثاقب النظر ، صبوراً أو ثباتاً وفقاً لمقتضى الحال ، وعلى ذكاء بالغ دائماً . كانت له ، بعض الشيء ، سبب الملاحين المتعدين أن يطرفوا بأعينهم في المناظر . لقد كان تيناردييه رجل دولة .

كان كل وافد جديد لا يكاد يدخل المطعم الحفير حتى يقول - لدن رؤيته تيناردييه الزوجة : « هو ذا سيد البيت . » وذلك خطأ . فهي لم تكن حتى سيدة البيت . كانت الزوج هو سيد البيت وسيدته في وقت معاً . كانت هي تعمل ، وكان هو يتدع . كان يسير كل شيء بضرب من العمل المغناطيسي المتواصل غير المنظور . كانت كلية واحدة .. وأحياناً ليامة - تكفي ، فإذا بالمستودونة \* تطيع . كان تيناردييه عندها - من غير أن تعي ذلك حقاً - ضرباً من الكائن الفريد ذي السلطان . كانت لها فضائلها الشخصية . فهي لم تختلف قط ، حول مسألة ما ، مع « مسير تيناردييه » ، وما كانت لتتأجر وإياه علناً - وهذا افتراض مستحيل - من أجل أبداً أمر مهما يكن . ولم تقترف ذات يوم « امام الغرباء » تلك الغلظة التي ترتكبها النسوة في كثير من الاحيان ، والتي ندعوها ، في اللغة البرلمانية : كشف الغطاء عن التاج . وعلى الرغم من ان تفاهيها ما كان يشر غير الشر ، فقد كان في خضوع السيدة تيناردييه لزوجها غذاء للتأمل . لقد تحرك جبل الضجة واللحم هذا تحت خنصر هذا الطاغية الواهن . وكان ذلك يمثل ، اذا ما نُظر اليه من جانبه القزم المضحك ، هذه الحقيقة الكلية الكبيرة : شغف المادة بالروح . ذلك بان اصل بعض البشاعات كامن في اعماق الجمال الازلي نفسه . لقد كان في

---

\* المستودون ، كما مر سابقاً ، حيوان متعرج يشبه الغبل . والمقصود بالمستودونة هنا مدام تيناردييه .

تيناردييه شيء من المجهول ، ومن هنا سلطان هذا الرجل المطلق على هذه المرأة . كانت في بعض الاحيان تنظر اليه نظرتها الى شمع مضاءة ، وكانت في بعضها الآخر تستشعر انه مخلب من الخالب .

كانت هذه المرأة مخلوقاً مخوفاً لا يجب احداً غير اولاده ، ولا يخشى شيئاً غير زوجه . كانت امماً لانها كانت حيواناً ثديياً . وكانت مشاعرها الأمومية تنتهي عند بنتها ، ولا تمتد ، كما رأينا ، لتشمل الصبيان اما هو ، الرجل ، فلم يكن له من هم غير الاتراء .

ولم يوفق الى النجاح . لقد أعوزت الفرصة الملائمة مواهبه الكبيرة . كان تيناردييه في مونفيرماي سائراً نحو الافلاس ، اذا كان الافلاس ممكناً عند الصفر . ولو قد كان هذا الرجل الذي لا يملك درهماً ، في سويسرة أو في اليريبنيه ، اذن لامسى مليونيراً . ولكن حيث يوثق القدر القنديقي تعين عليه ان يرى العشب .

ومفهوم ان كلمة قنديقي تُصطنع هنا بمعنى مقيد ، وانها لا تشمل طبقة برمتها .

وفي ذلك العام نفسه ، ١٨٢٣ ، كان تيناردييه مديناً بنحو الف وخمسة فرنك من الديون الملحة التي جعلته مشغول البال .

ومهما يكن القدر ظالماً له على نحو عنيد ، فقد كان تيناردييه واحداً من اولئك الرجال الذين يفهمون احسن الفهم ، وفي اشد ما يكون من العمق واحداث ما يكون من الاساليب ، ذلك الشيء الذي هو فضيلة عند الشعوب البدائية ، وسلعة عند الشعوب المتحضرة ، اعني حسن الضيافة . والى هذا ، فقد كان صياداً بارعاً يتخذ من ارض الآخرين ، دوناً إذن ، ميداناً لنشاطه ، وكان يُعَدُّ من الرماة الممتازين . كانت له ضحكة باردة ساكنة ، وكانت ضحكته هذه خطيرة ، بصورة خاصة .

كانت نظرياته في ادارة الفنادق تنبع من نفسه في بعض الاحيان مثل وميض البرق . وكانت له بعض الحكم المهنية التي غرسها في ذهن

زوجته . « إن واجب الفندقى ، كذلك قال لها ذات يوم ، فى تركيب وفى صوت خفيض ، « أن يبيع الوافد الاول طعاماً ، وراحة ، ونوداً ، وثاراً ، وشراف سرور قدرة ، وخدامات ، وبرايث ، وابتسامات ؛ ان يوقف المسافرين ، فيفرغ اكياس النقود الصغيرة ويخفف فى لطف من ثقل الاكياس الكبيرة ؛ ان يستقبل فى احترام الاسر المسافرة ، فيكشط الرجال ، ويتفد ريش النساء ، ويحلق الاولاد ؛ ان يتقاضى اجراً عن النافذة المفتوحة ، والنافذة الموصدة ، وزاوية الموقد ، والأريكة ، والكرسي ، والكرسي الذي لا ظهر له ، والموطىء ، وفراش الريش ، والحشية ، وفراش القش ؛ ان يعرف الى اى حد اصاب البلى المرأة ويفرض ضريبة على ذلك ؛ وان يحمل المسافر - وأقسم بالخمسة الف شيطان - على ان يدفع ثمن كل شيء حتى الذباب الذي يأكله كلبه ا . » .

كان هذا الرجل وهذه المرأة هما المكر والغيظ مجتمعين ، وبأله من اقتران راعب فظيع !

وفما كان الزوج يحسب ويدبر كانت تيناوديه الزوجة لا تفكر بالدائنين الغائبين ، ولا تحمل همّ الأوس او الغد ، بل تحيا فى هيجات لدقيقة التي هي فيها .

كذلك كان هذان الخلوكان ، وكانت كوزيت بينهما ، متعملةً ضغطهما المزدوج ، شبه شيء بمخلوقة تسحقها الرضى وتمزقها الكلابة إرباً إرباً ، فى آن معاً . لقد كانت لكل من الرجل والمرأة طريقة خاصة . فكانت كوزيت تُضرب فى غير رحمة ؛ وهذا من فضل المرأة . وكانت تمشي حافية فى أيام الشتاء ؛ وهذا من فضل الرجل .

وصعدت كوزيت السلم ، وهبطت السلم ، وغسلت ، ونظفت بالفرشاة ، ومسحت ، وكنست ، وركضت ، واجهدت نفسها فى السير ، ولمت ، ورفعت اشياء ثقيلة ، ونهضت بالاعمال الحثنة ، برغم ضعف بنيتها . لا رحمة البتة . سيدة شرسة ، وسيد خيث . لقد كان مطعم تيناوديه الحقيق أشبه بشرك

علقت به كوزيت وراحت ترتجف . ولقد تحقق المثل الاعلى للاضطهاد في هذه العبودية المشؤومة . كانت اقرب شيء الى ذبابة تخدم عناكب . واطاعت الطفلة المسكينة في استسلام وصمت . ولكن ما الذي يجري في هذه النفوس التي لم تنفصل عن الله الا منذ قريب حين تجد ذاتها في فجر الحياة ، صغيرة الى هذا الحد ، ضعيفة الى هذا الحد ، بين الرجال ؟

### ٣

يجب ان يشرب الرجال الخمر

وان تشرب الخيل الماء

كان قد وفد على الفندق أربعة نزلاء جدد . وفكرت كوزيت في اكتئاب . ذلك بأنها كانت قد قاست من ويلات الدهر ما يحملها على التفكير - وهي التي لم تتجاوز الثامنة - بمثل السبا الفاجعة التي ترين على وجه امرأة عجوز . وكانت حول مقلة كوزيت زرقة ناشئة عن ضربة سدتها بتنارديه الزوجة اليها ، يجمع كفها ، فهي تتساءل بين الفينة والفينة :  
- « ما أقبحها بهذا الورم الذي في عينها ! »  
كانت كوزيت تقول في ذات نفسها ، آنذاك ، ان الليل قد هبط ، وإنه أمسى دامساً ، وإن آنية الماء وزجاجاته العريضة القاعدة ، تلك الآنية والزجاجات التي في غرف النزلاء الجدد ، يجب ان تملأ في الحال ، وإنه لم يبق ثمة ماء في الحوض .  
وسمى عنها بعض الشيء ان الناس لا يشربون كثيراً من الماء في

حانة تيناردييه . وكان بين أولئك القوم كثير من العطاش ، ولكنه ذلك النوع من العطش الذي يبسط البدن نحو وعاء البحر الكبير لا نحو الزجاجاة العريضة القاعدة . ولو قد طلب أحد كوب ماء وسط كؤوس البحر هذه ، اذن لبدا متوحشاً في نظر هؤلاء الرجال . ومع ذلك فقد انقضت لحظة ارتجفت خلالها الطفلة : لقد رفعت مدام تيناردييه غطاء القدر الصغيرة ذات المقبض التي كانت تقلي على الموقد ، ثم تناولت كوباً وسارعت الى حوض الماء . وادارت الحنفية ؛ وكانت الطفلة قد رفعت رأسها وتابعت حركاتها جميعاً . وجرى من الحنفية خيط من الماء رفيع لم يشغل من الكوب غير نصفه .

وقالت :

« أنظر ! لم يبق شيء من الماء ! »

ثم انها صمتت لحظة . اما كوزيت فحبت أنفاسها .

وتابعت تيناردييه الزوجة كلامها وهي تنفخ الكوب نصف الملي :

« انا اشك في ذلك ! سوف يبقى مقدار كافٍ منه ، على

هذا الشكل . »

واستأنفت كوزيت عملها ؛ ولكنها استشعرت ، طوال ربع ساعة

او يزيد ، ان قلبها يشب في صدرها مثل كرة ضخمة .

وعدت الدقائق فيما هي تتصرّم هكذا ، وتنت في لفة لو ان

الفجر ييزغ .

وبين الفينة والفينة كان احد الشاربين ينظر الى الشارع ويهتف :

« إن الليل حالك مثل فرن ! » أو : « ينبغي ان يكون الانسان

هرة حتى يمشي الليلة في الشوارع من غير مصباح ! » وارتعدت كوزيت .

وفجأة دخل احد الباعة المتجولين النازلين في الفندق وقال في

صوت أجش :

« انكم لم تسقوا جوادي ! »



فقلت تينارديه الزوجة :

- « بل لقد سقيناه ، من غير ريب . »

فاستأنف البائع المتجول :

- « أقول لك لا ، يا سيدي . »

وخرجت كوزيت من تحت الطاولة .

وقالت :

- « اوه ! بلى ! يا سيدي ! لقد شرب الجواد . لقد شرب من

الدلو . الدلو الملائن . ولقد حملته انا بنفسي اليه ، وتحدثت معه . »

ولم يكن ذلك صحيحاً . لقد كذبت كوزيت .

فصاح البائع المتجول :

- « هم ذي فتاة في حجم قبضة يدي ، ومع ذلك فهي تكذب

كذبة في حجم اليت . أقول لك انه لم يشرب ، ابتها الطفلة الحفيرة !

ان له طريقة في اللهاث حين لا يكون قد شرب شيئاً من الماء وانا

اعرف طريقته تلك جيداً . »

واصرت كوزيت ، وازافت في صوت أبجته الألم النفسي المرير ،

فهو ما يكاد يُسمع :

- « ولكنه شرب مقداراً كبيراً من الماء . »

فتابع البائع في غضب :

- « كفى ، كفى ! قدّمي شيئاً من الماء الى جوادي ، ولا

تقولي كلمة إضافية في الموضوع . »

وعادت كوزيت الى مكانها تحت الطاولة .

وقالت تينارديه الزوجة :

- « الواقع ان هذا صحيح . اذا كانت الدابسة لم تشرب بعد

فينبغي ان تشرب . »

ثم أجالت البصر في ما حولها وقالت :

- « حسن ، ما الذي حلّ بتلك الفتاة ؟ »  
 واغتنت ، فاكشفت كوزيت رابضةً عند الطرف الآخر من  
 الطاولة ، تحت أقدام الشاربين تقريباً .  
 وصاحت تيناردييه الزوجة :  
 - « ألن تأتي ؟ »  
 وخرجت من شبه الثقب ذاك الذي اختبأت فيه . وثابت  
 تيناردييه الزوجة :  
 - « ابنتها الآنسة » الكلبة التي لا اسم لها ، اذهبي واحلي شيئاً  
 من الماء الى ذلك الجواد ! »  
 فقالت كوزيت في وهن :  
 - « ولكن ، يا سيدتي ، ليس هناك ماء . »  
 ففتحت تيناردييه الزوجة الباب المؤدي الى الشارع على مصراعيه :  
 - « حسن ، اذهبي واجلي شيئاً منه ! »  
 وخفضت كوزيت رأسها ، ومضت تلتبس دلوّاً فارغاً كان في  
 زاوية الموقد .  
 كان ذلك الدلو اكبر منها ، وكان في ميسور الطفلة ان تقعد فيه  
 على نحو مريح .  
 ورجعت تيناردييه الزوجة الى وجاقها ، وذافت ما كان في القدر  
 بملعة خشبية وهي تغغم :  
 - « ان في الينبرج ماء . هذه أخبت طفلة وجدت على ظهر  
 الارض . واحسب اني أحسن صنعا اذا تركت بصلي هذا . »  
 ثم انها بحثت في احد الادراج حيث كانت بضعة فلوس ، وشبه  
 من الفلفل والتوم .  
 وأضافت :  
 - « ابنتها الآنسة للضفدع ، لشترتي من الحجاز ، وانت عائدة ،

رغيفاً كبيراً . دونك خمسة عشر سو . »  
كان لكوزيت جيب صغير في جانب مئزرها . فتناولت للقطعة  
النقدية من غير ان تقول كلمة ، ووضعتها في ذلك الجيب .  
ثم انها ظلت جامدة : الدلو في يدها ، والباب مفتوح أمامها .  
لقد بدت وكأنها تنتظر ان يُقبل شخص ما ليجدها .  
وصاحت السيدة تينارديه :  
- « هيا ، اذهبي ! »  
وخرجت كوزيت ، وأوصد الباب .

## دخول دمية الى المسرح

لقد امتدّ صف الدكاكين ، كما يذكر القاري ، على طول الشارع من الكنيسة حتى فندق تيناردييه . وكانت هذه الدكاكين متلاثة كلها - بسبب اقتراب موعد انطلاق المواطنين الى قداس منتصف الليل - بالشموع المشعلة في فوانيس من ورق تركت - كما قال معلم مونفيرماي الذي كان جالساً آنذاك الى احدى طاولات تيناردييه - « أنراً سحرياً » . وبالمقابلة ، لم يكن المرء ليرى نجمة واحدة في السماء . وكانت آخر هذه الدكاكين الخشبية ، وقد اقيست تجاه باب تيناردييه تماماً ، دكان دميّ تتألق كلها بالصفائح المعدنية البالغة الصغر ، وبالحرز ، وبمختلف الاشياء الرائعة المصنوعة من صفيح . وفي الصف الاول ، وفي مكان متقدم ، كان البائع قد وضع ، فوق مهاذٍ من المناديل البيضاء ، دمية ضخمة يبلغ طولها نحواً من قدمين ، وترتدي ثوباً من « الكريب » الأزهر ، وقد جعلت على رأسها سنايل ذهبية ، ونعمت بشعر حقيقي وبعينين

مصنوعتين من المينا . وكانت هذه الاعجوبة قد 'عرضت طوال النهار فاذهلت جميع المارة من الذين لم يتجاوزوا العاشرة ، من غير ان توجد في مونفيرماي كلها أم هي من الغنى ، او من التبذير ، بحيث تشتريها لطفلها . كانت ايبونين وآزبيلما قد أنفقتا ساعات في التحديق اليها ، وكانت كوزيت نفسها قد جرؤت ، خلسة من غير شك ، على النظر اليها .

وحين خرجت كوزيت حاملة الدلو بيدها ، مُثقلة بالكآبة والغم ، لم نبالك ان ترفع عينها نحو هذه الدمية الرائعة ، نحو هذه «السيدة» كما دعتها . لقد وقفت الطفلة المسكينة متحجرة . انها لم ترَ تلك الدمية من على مثل هذا القرب من قبل .

لقد بدت هذه الدكان الحشوية كلها قصراً في عينها . ان تلك الدمية لم تكن دمية ؛ لقد كانت ودياً . كانت هي البهجة ، والبهاء ، والثروة ، والسعادة تراءت في ضرب من الاشعاع الوهمي لهذه المخلوقة الصغيرة البائسة المدفونة ، أعمق ما يكون الدفن ، في شقاء فاجع بارد . كانت كوزيت تقيس ، بحكمة الطفولة الساذجة البسيطة ، الهوة التي تفصلها عن تلك الدمية . وقالت في ذات نفسها إن الفتاة ينبغي ان تكون ملكة ، او أميرة على الاقل ، لكي تفوز بـ «شيء» مثل هذا . وحدثت الى هذا الثوب الازهر الجليل ، والى هذا الشعر الناعم الخلو ، وانشأت تفكر : «اي سعادة عظيمة ينبغي ان تكون هذه الدمية متمتعة بها !» ولم تستطع عيناها التحول عن هذه الدكان الغريبة . وكلما اطالت النظر تعاظم انشراحها . لقد حسبت انها رأت الجنة . وكانت دميً أخرى ، خلف الدمية الكبرى ، بدت لها جنأً وعفاريت . اما التاجر الذي كان يروح ويحيي في الجزء الخلفي من الدكان فتمثل لها بعض الشيء وكأنه «الأب الأزلي» .

وفي غمرة من هذا التعبد نسبت كل شيء ، حتى المهمة التي عهد اليها فيها ؛ وفجأة اعادها صوت السيدة تيناردييه الاجش الى الواقع :

« ماذا ايها الغبية ، ألم تذهبي بعد ؟ انتظري . أنا آتية اليك ! في احب

ان أعرف ما الذي تفعله هناك ؟ اينها المسخة الصغيرة ، اذهبي ! ،  
وكانت تبناردييه الزوجة قد القت نظرة الى الشارع ، ورأت كوزيت  
في حال من الوجد .  
وولت كوزيت حاملة دلوها ، موسعة خطاها اقصى ما تستطيع  
ان توسعها .

## الصغيرة فريسة الوحدة

واذ كان فندق تبناردية في ذلك الجزء من القرية الواقع غير بعيد عن الكنيسة فقد تعين على كوزيت ان تستقي الماء من ينبوع الغابة المجاورة « شيل » .

ولم تعاود النظر الى السلع المعروضة في الدكاكين . وكانت هذه الدكاكين المضادة تنير سبيلها ما بقيت في زقاق بولانجه وجوار الكنيسة ، ولكن سرعان ما اختفى آخر شعاع من آخر دكان . والفت الطفلة المسكينة نفسها في الظلة . لقد دُفنت فيها . بيد أنها وقد استبد بها انفعال ما ، راحت تهز عروة الدلو ، فيما هي ماضية لسبيلها ، أقصى ما تستطيع ان تهزها . ولقد احدث ذلك ضجة رافقتها في وحدتها .

وكلما أمعت في المسير ، أمتت الظلة اشد كثافة . لم يبقَ شخص ما في الشوارع . ومع ذلك ، فقد لقيت امرأة استدارت لدن رؤيتها ، وظلت جامدة تنسم من بين اسنانها : « ولكن الى اين يمكن ان تكون هذه الصغيرة ذاهبة ؟ أمي طفلة شبح ؟ » ثم ان المرأة عرفت كوزيت ، فقالت : « اوه ، إنها القبرة ! »

وهكذا اجتازت كوزيت تبة الشوارع المتعرجة المبهورة التي تنتهي بها قرية مونفيرماي من ناحية « شيل » . وكانت تمضي في جراءة كافية ما دامت تجد بيتاً ، بل جدراناً ، على جانبي طريقها . وبين الفينة والفينة كانت ترى ضوء شمعة ينبعث من شقوق مصراع من مصاريع النوافذ ؛ كان ذلك نوراً وحياة ، وكان ثمة أناس ، وكان ذلك بسرّي عنها ويُبقي

على شجاعتها . بيد ان سرعتها كانت تنبأطاً ، على نحو ميكانيكي ، كلما تقدمت . حتى اذا اجتازت زاوية البيت الاخير ، كفت عن السير . كان الذهاب الى ابعد من الدكان الاخير عبراً ؛ ولقد امسى الذهاب الى ابعد من المنزل الاخير مستحيلاً . ووضعت الدلو على الارض ، وغابت يدها في شعرها ، وشرعت تحك رأسها في ثؤدة ، وهي حركة خاصة بالاطفال المروءين المتردين . انها لم تعد في مونفيرماي ؛ لقد امست في الارض القضا . كانت البقعة المظلمة المهجورة امامها . ونظرت في يأس الى هذه الظلمة ، حيث لم يبقَ شخص ما ، حيث كانت الوحوش ، بل حيث كانت الاشباح في اغلب الظن . وانعمت النظر ، وسمعت الحيوانات الماشية فوق العشب ، وبصرت على نحو واضح بالاشباح المتحركة في الاشجار . ثم تناولت دلوها من جديد ؛ لقد امدتها الحوف بالجرأة . وقالت : و باه ! سوف اقول لها إنه لم يبق هناك شيء من الماء ! ، ورجعت في غير تردد ، الى مونفيرماي .

ولم تكد تخطو مئة خطوة حتى وقفت كرة أخرى ، وشرعت تحك رأسها . كانت تينارديه الزوجة هي التي تبدت لها الآن ، تينارديه الرهبة بفمها الذي يشبه فم الضبع ، وبعينها القادحتين بشرر الغيظ . والقت الطفلة نظرة مبكية الى امام والى وراء . ما الذي تستطيع ان تعمله ؟ ما الذي سيحل بها ؟ الى اين ينبغي ان تذهب ؟ فاما امامها فكان شبح تينارديه الزوجة ، واما ورائها فكانت جميع اشباح الليل والغابة . وانما تراجعت في وجه تينارديه الزوجة . واتخذت الطرق المؤدية الى الينبوع ، كرة اخرى ، وأنشأت تعدو . لقد خرجت من القرية راکضة ، ودخلت الغابة راکضة ، غير مبصرة شيئاً ، غير سامعة شيئاً . ولم تكف عن الركض إلا بعد ان انقطعت انفاسها . وحتى في تلك الحال تابعت طريقها مترنحة . لقد تقدمت الى امام واليأس بعصف بها .

وحتى فيما هي تعدو فازعتها نفسها الى البكاء .



ولفها ارتعاش الغابة الليلي لقساً كاملاً . لم تعد تفكر بشيء ؛ ولم تعد ترى شيئاً . لقد واجه الليل اللانهاشي هذه المحلقة الصغيرة . فمن ناحية ، الظلام كله ، ومن الناحية الأخرى ذرةٌ إيس غير .

وكان ينبوع لا يبعد عن طرف الغابة إلا مسيرة سبع دقائق أو ثمان دقائق . وكانت كوزيت تعرف الطريق لاجتيازها إياها بضع مرات يومياً . ومن عجب أنها لم تضلّ سبيلها . لقد هدتها بقية من غريزة ، على نحو أمي ، ولكنها لم تدر عينيها لا إلى اليمين ولا إلى اليسار ، خشية أن ترى أشياء على الأغصان وفي الأدغال . وهكذا انتهت إلى النبع .

كان حوضاً طبيعياً صغيراً أحدثته المياه في تربة رملية دلغانية ، وكان عمقه نحواً من قدمين ، وقد حفت به الطحالب وتلك الأعشاب الطويلة المطبّعة بشكل بارز والتي ندعوها اطواق عتق هنري الرابع ، ورُصف ببضعة حجار ضخام . وكان جدولٌ ينبثق من هناك ، في خرير رقيق ساكن .

ولم تحاول كوزيت أن تأخذ نفساً . كان الظلام دامساً ، ولكنها كانت متعودّة المجيء إلى هذا ينبوع . وبيدها اليسرى تلمّست في الظلمة سندبانة صميرة منحنية فوق ينبوع . - وكانت كثيراً ما تتخذ منها نقطة ارتكاز - فوجدت غصناً ، فتعلقت به ، وانحنت مغطسة الدلو في الماء . ومرّت بها لحظة كان الاحتياج غالباً عليها إلى درجة ضاعفت قوتها أضعافاً ثلاثة . وحين انحنت هكذا فوق البئر لم تلاحظ أن جيب مئزرها قد أفرغ ما انطوى عليه في البئر . لقد سقطت قطعة الخمسة عشر « سو » في الماء . ولم ترَ كوزيت تلك القطعة ، ولم تسمعها تسقط . لقد سحبَت الدلو مليئاً أو يكاد ، ووضعت على العشب .

حتى إذا تم لها ذلك ادركت أن قوتها قد نفدت . كانت راغبة أشد الرغبة في أن تتطلق في الحال ، ولكن الجهد الذي بذلته في ملء الدلو كان عظيماً إلى حد جعل من المتعذر عليها أن تخطو ، بعد ، خطوة

واحدة . لقد اضطرت الى الجلوس اضطراراً . فارقت على العشب وظلت مقرفة هناك .

واخفضت عينيها ، ثم فتحتها من غير ان تدري لماذا ، ولكنها ما كانت تستطيع ان تفعل شيئاً غير ذلك .

والى جانبها كانت المياه المثارّة في الدلو قد احدثت دوائر تشبه أفاعي النار البيضاء .

وفوق رأسها كانت السماء مغطاة بسحاب سوداء عريضة كانت أشبه بذبول من دخان . لقد بدا قناع الليل الفاجع وكأنه يُطبق ، في غموض ، على هذه الطفلة .

كان المشتري ( جوبيتير ) يغرب في أعماق الافق .

ونظرت الطفلة بعينين ذاهلتين الى ذلك الكوكب الضخم الذي لم تعرفه ، والذي ملأها رعباً . وفي الحق ان الكوكب كان ، آنذاك ، قريباً جداً من الافق ، وكان يجتاز طبقة كثيفة من الضباب خلعت عليه حمرة رابعة . وضخم الضباب ، وقد خُضِبَ على نحو فاجع ، ذلك الكوكب . كان في ميسور المرء أن يقول انه جرح ساطع .

وهبت من جانب السهل ريح باردة . كانت الغابة مظلمة ، ولم يكن فيها أيما حفيف ، أو أيما ومضة من ومضات الصيف تلك المبهمة الفضة . وانتصبت الاغصان الضخمة على نحو مخيف . وصفرت الادغال الهزيلة المشوهة في البقاع الجرداء من الغابة . وتلوت الاعشاب الطويلة ، تحت ريح الشمال ، مثل الانقليس . وتمايلت العواصف مثل أذرع طوال ذات يرائن تلتمس فرائس لها . وسافت الريح بعض الاعشاب البرية اليابسة ، فمرت في سرعة ، وبدت وكأنها تهرب مذعورة من وجه شيء كان يطاردها . كان كل شيء من حولها فاجعاً حقاً .

ان الظلمة توقع الدوار في الرأس . فالانسان في حاجة الى النور ، وأيما امرئ يغوص في تقيض النهار يستشعر انقباضاً في الصدر . فحين

تقع العين على السواد ، ترى النفسُ القلقَ . وعند الكسوف ، في الليل ، في الظلمة الفاحمة ، يسند الحصر النفسي حتى بأقوى الرجال . فما من أحد يستطيع أن يسري وحده ، في الغابة ، ليلاً ، من غير أن يرتعد . الظلمات والاشجار - ضربان من الاعماق الرهيبة . إن واقعاً ومهماً ليتبدى في المدى المبهم . ويتمثل ما لا يمكن تصويره تمثلاً طفيفاً ، في وضوح شجي ، على بضع خطوات منك . ويطفو في المدى أو في دماغك أنت شيء يتراعى لك غامضاً على نحو غريب ، شيء لا سبيل الى الامساك به مثل أحلام الرياحين الهاجمة . إن في الافق لأشباحاً ضاربة . وتنتشق روائح الفراغ الاسود الكبير . وبمعصف بك الحوف ، ومعصف بك الرغبة في ان تلتفت الى وراء . وتواجه نجويف الليل ، وشراسة الاشياء كلها ، والصور الجانبية الصامتة التي تتلاشى حين تتقدم نحوها ، والنشعشات الغامضة ، وباقات العشب الغضبي ، والبرك الزرقاء الضاربة الى السواد ، والحديدادي منعكساً على المائمي ، ولانهاية الصمت القبرية ، والكائنات المجهولة الممكنة ، وتمايل الاغصان الخفية ، والتواءات الاشجار الخفية ، وحفقات طويلة من الاعشاب المرتعشة - تواجه هذا كله من غير سلاح . وليس ثمة شجاعة لا ترعد ولا تحس بما يشبه العذاب النفسي المبرح . انك لتنتشر شيئاً راعياً ؛ لكان النفس تترج بالظلام . وهذا الدخول في الظلام مشؤوم ، بالنسبة الى الاطفال ، على نحو يجيل عن الوصف .

الغابات رؤى . وإن خفق أجنحة النفس الصغيرة ليحدث صوتاً كالخسرجة تحت قبتها المائلة .

ومن غير ان تعي ما الذي كانت تعانيه ، استشعرت كوزيت ان مدى الطبيعة اللانهاي الاسود يمك بها . لم يعد الذعر وحده هو الذي يكتبها ، ولكن شيء ما أشد فظاعة حتى من الذعر . وارتعدت . وانما تعجز الكلمات عن ان تقول اي شيء غريب انطوت عليه تلك

الرعدة التي اثلبنها حتى اعماق الفؤاد . وغدت عينها ضاربة . لقد أحست انها قد تضطر الى العودة الى هناك في الساعة نفسها من الليلة التالية .

ثم إنها شرعت - بضرب من الفريرة ، ولكي تخرج من هذا الوضع الفريد الذي لم تقيم منه شيئاً ولكنه يروّعها - نعدت بصوت عال : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، إلى العشرة ؛ حتى اذا انتهت ، عاودت للعدّ من جديد . ومكنتها ذلك من استعادة الادراك الواقعيّ للاشياء المحيطة بها . واستشعرت البرد في يديها اللتين تبللتا من جراء استئانها من البر . ونهضت . كان الخوف قد عاودها ، وكان خوفاً طبيعياً لا سبيل الى دفعه . ولم يجلّ في ذهنها غير خاطر واحد : ان تقرّ . ان تقرّ بكل ما في قدميها من قوّة ، عبر الغابات ، عبر الحقول ، الى السيوت ، الى النوافذ ، الى الشموع المضاءة . ووقعت عيناها على الدلو الذي أمامها . لقد كان الذعر الذي اوقعته السيدة تيناردييه في فؤادها شديداً الى درجة جعلتها لا تجرؤ على المضي من غير ان تحمل دلو الماء . وقبضت على عروته بيديها الاثنتين . ولم توفق الى رفع الدلو الا بشق النفس .

وخطت هكذا عشر خطوات ابو نحوها . ولكن الدلو كان مليئاً ، وكان ثقيلاً ، فاضطرت الى وضعه على الارض . وتنفتحت لحظة ، ثم امسكت بالعروة ككرة اخرى ، ومضت لسيبلها ، مواصلة السير هذه المرة فترة اطول بعض الشيء . ولكنها اضطرت الى ان تكف عن السير من جديد . حتى اذا استراحت بضع دقائق ، استأنفت السير . وانما مشّت منحنية الى امام ، مطأطئة رأسها مثل امرأة عجوز . لقد وثّر ثقل الدلو ذراعيها المزيلتين وصلبهما . وكانت عروة الدلو تخدّر يديها الصغيرتين المبللتين وتثلبهما . وبين الفينة والفينة ، كانت تضطر الى التوقف . وكلما توقفت ، كان الماء البارد الذي تطاير رشاشه من الدلو يسقط على ساقيها العاريتين . وانما وقع ذلك في قلب احدى

الغابات ، في موهن من الليل ، وفي الشتاء ، بعيداً عن كل عين بشرية . كانت طفلة في الثامنة من عمرها . ولم يكن ثمة في تلك اللحظة احد غير الله يرى هذا الشيء الكئيب .  
وأما من غير شك ، وأسفاه !

ذلك بان ثمة اشياء تفتح اعين الاموات في قبورهم .  
وقفت في ضرب من الحشجة الفاجعة . وخفتها التهديدات ، ولكنها لم تجرؤ على البكاء . الى هذا الحد كانت خائفة من السيدة تيناردييه ، حتى وهي بعيدة عنها . كانت تتخيل دائماً ان السيدة تيناردييه على مقربة منها .

وأياً ما كان ، فلم يكن في ميسورها ان تقطع شوطاً حسناً من الطريق ، على هذه الحال ، وكانت تتقدم في ببطء شديد . لقد حاولت جهودها ان تقصر فترات راحتها ، وان تسير بين كل منها والاخرى اطول مسافة ممكنة . وتذكرت في ألم نفسي مريع انها قد تحتاج الى اكثر من ساعة لكي تصل الى مونفيرماي على هذا النحو ، وان السيدة تيناردييه سوف تضربها . وامتزج هذا الألم النفسي بذعرها الناشئ عن وحدتها في الغابة ، ليلاً . وأبلاها الاعياء وهي لما تفارق الغابة بعد . حتى اذا بلغت شجرة الكستناء العجوز التي تعرفها ، وقفت للمرة الاخيرة ، وقفةً اطول من سابقتها لكي تستريح جيداً . ثم استجمعت قواها كلها ، ورفعت الدلو ككرة اخرى ، واستأنفت السير في شجاعة . ومع ذلك فلم تتمالك المخلوقة الصغيرة المسكينة عن ان تصيح :

— د اوه ! يا الهي ! يا الهي ! ،

وفي تلك اللحظة استشعرت فجأة ان ثقل الدلو قد تلاشى . كانت يدٌ ، بدت لها هائلة ، قد أمسكت اللحظة بعروة الدلو ، فهي تحمله في يسر . ورفعت رأسها . كان شكلٌ اسودّ ضخم ، مستقيم منتصب القائم ، يمشي الى جانبها في الظلام . انه رجلٌ كان قد أقبل من

ورائها ، ولم تكن قد احتت بقدمه . ومن غير ان يقول كلمة ،  
كان هذا الرجل قد قبض على عروة الدلو الذي تحمله .  
إن ثمة غرائر لجميع أزمات الحياة .  
ولم تستشر الطفلة خوفاً ما .

## ٦

وهو ما قد ينهض دليلاً على

ذكاء بولا تروويل

في أصيل يوم الميلاد نفسه ذاك ، من عام ١٨٢٣ ، مشى رجل " فتوة "  
طوبية في أشد أفسام و جادة المستشفى ، في باريس وحشة وانعزالاً .  
وكانت تبدو على وجه هذا الرجل سباً من يبحث عن مكان يبيت فيه ؛  
ولقد تراهى وكأنه يؤثر الوقوف عند أكثر البيوت تواضعاً في ذلك  
الطرف الحرب من ضاحية و سان مارسو ، .  
رلسوف نرى في ما بعد ان ذلك الرجل استأجر ، في الواقع ،  
غرفة " في ذلك الحي المنعزل .

وكان هذا الرجل ، بلبسه وبشخصه كله بمحقق النموذج الكامل لما  
يمكن ان ندعوه متسول المجتمع المترف - بؤس " متنامٍ تمازجه نظافة  
متناهية . وذلك مزاج نادر جداً يوقع في القلوب ذلك الاحترام المزدوج  
الذي نشعر به نحو الرجل الفقير جداً ، ونحو الرجل الفاضل جداً . كان  
يعتمر بقبعة مستديرة عريضة في القِدَم ، ومُفرشاة في عناية ، ويرتدي سترة  
طوبية ( ريدنفوت ) بالية " مهترئة الحياوط مفضّة من جوخ خشن أصفر  
ضارب الى لون التراب الحديدي ، وهو لون لم يكن شديد الغرابة في

ذلك العهد ، وصدرة واسعة ذات جيوب عتيقة الزي ، وبنطلوناً أسود أحال البلى لونه ، عند الركبتين ، الى رمادي ، وجوردين صوفيين أسودين ، وبتنعل حذاء غليظاً ذا أباليم نحاسية . ولقد كان في ميسور المرء ان يزعم انه مؤدب قديم لأسرة كبيرة انقلب من المهجر الى الوطن . ومن شعره الأسيب بالكلية ، ومن جبينه المتغضن ، ومن شفثيه الزرقاوين الضاربتين الى للسواد ، ومن وجهه حيث كل شيء ينم عن الاعياء والناء من الحياة ، كان خليقاً بالمرء ان يحسب انه تخطى السنين منذ زمن بعيد . في حين ان خطواته الثابتة وإن تكن بطيئة ، والعزم القوي الذي يسم حركاته كلها ، كانت تخيل الى المرء أنه لم يكد يبلغ المحين . وكانت لغضنات جبينه حسنة الاتساق فهي قادرة على ان تحبب اليه ايما شخص يتأمله في ابتداء . وكانت شفثه تنقلص في تعبير عجيب بدا قاسياً ، ومع ذلك فقد كان متواضعاً . أما في أحماق عينيه فكان صفاء فاجع لا سبيل الى وصفه . وكان يحمل بيده اليسرى صرة صغيرة مشدودة بمندبل . على حين كان يتوكأ بيده اليمنى على شبه عصاً قطعت من سياج من الاشجار الشائكة . وكانت هذه العصا قد سويت في بعض العناية ، ولم تكن لتبدو بشمة جداً . لقد ازبلت عقدها وصقلت فهي ملساء ، ولقد جعل لها من الشمع الأحمر رأس مرجاني . كانت هراوة ، ولكنها بدت عصاً من العصي .

وليس يجتاز تلك الجادة غير قليل من العابرين ، وبخاصة في فصل الشتاء . ولقد بدا أن هذا الرجل يجتنب الناس أكثر مما يسعى الى لقائهم ، ولكن من غير تكلف .

في ذلك العهد كان الملك لويس الثامن عشر يقصد كل يوم تقريباً الى « شوازي لو روا » . كانت إحدى زهاته المفضلة . وحوالي الساعة الثانية ، وعلى نحو لا يكاد يتغير ، كان الناس يرون العربدة الملكية

وموكب الفرسان الملكي يجترقان «جادة المستشفى» باقصى ما يستطيعان من السرعة .

وكان ذلك يقوم مقام الساعة عند نسوة الحي الفقيرات اللواتي كنّ يقلن : « انما الساعة الثانية . ها هو ذا يرجع الى التويلري . »

وكان بعض القوم يركضون ، وكان بعضهم الآخر يتنحّون ، اذ ما ان يمر ملك في شارع حتى تسوده جلبة وضجيج . والى هذا ، فقد كان ظهور لويس الثامن عشر وغيابه محدثان هزة انفعالية في شوارع باريس . فقد كان موكبه سريعاً ، ولكنه مهيب . كان هذا الملك العاجز مولعاً بسرعة السّوق . لقد اعوزته المقدرة على المشي فرغب في العَدْو . والواقع ان هذا المُعَدّ كان خليقاً به ان يستشعر مزيداً من السعادة لو ان البرق كان له سائقاً . لقد اخترق الشوارع ، هادئاً قاسياً ، وسط السيوف المسلولة . كانت عربته الضخمة ، المذهبة تذهيباً شاملاً ، المزودة بأغصان الزنبق المرسومة على مصاريعها ، تكرر في صخب . كان المرء لا يكاد يجد متسعاً من الوقت لالقاء نظرة عليها . وفي الزاوية الخلفية اليسرى ، فوق وسائل مغطاة بالاطلس الابيض ، كان يُرى وجه عريض ، ثبّت احمر اللون ، وجبين نضج منذ بوهة يسيرة على طريقة الطائر الملكي ، وعين فخور ، قاسية حادة ، وابتهامة أشبه بابتسامة الرجل الحسن الثقافة ، وكتفتان ضخمتان ذواتا اهداب حلزونية الشكل منسدلة فوق بذلة من بذلات المواطنين ، والجزء الذهبية ، وصليب القديس لويس ، وصليب جوقة الشرف ، ووسام الروح القدس الفضي ، وبطن كبير ، وعصاة عريضة زرقاء . ذلك كان الملك . وخارج باريس ، كان يضع قبعة ذات الريش الابيض على ركبتيه المغلفتين بلفافتي ساق انكليزيتين عاليتين ، حتى اذا عاد الى المدينة وضع قبعة على رأسه ، حانياً هامته بالتحية بعض الشيء . كان ينظر ، في برود ، الى الناس الذين كانوا يبادلونه نظره . وحين ظهر للمرة الاولى في حيّ سان مارسو كان كل ما وُفق



اليه من نجاح مقصوداً على هذه الكلمة التي وجهها احد ابناء الحي الى رفيقه : « ذلك الرجل البدن هو الحكومة . »

واذن فقد كان مرور الملك المحقق حدوثه في الساعة نفسها هو حدث « جادة المستشفى » اليومي .

ولقد كان واضحاً أن ذلك المتجول ذا السترة الطويلة الصفراء لم يكن من أبناء الحي ، ولعله لم يكن من أبناء باريس ، اذ كان يحمل هذا الحدث . فعين انطلقت العربية الملكية ، عند الساعة الثانية ، نحو الجادة ، بعد اجتازت « لا سالييريير » ، تحيط بها كوكبة من فرسان الحرس الملكي الموساة ملابسهم بالفضة ، بدا ذلك الرجل ذاهلاً ، بل بدا مروّعاً تقريباً . لم يكن ثمة احد غير عند مفرد الزقاق ، فارقت على جناح السرعة الى ما وراء زاوية الجدار الجانبي ، ولكن هذا لم يحل بين دوق دافريه وبين رؤيته . وكان الدوق دافريه ، بوصفه ضابط الحرس المكلف بمرافقة الملك ذلك اليوم ، جالساً في العربية تجاه الملك . فقال لجلالته : « هوذا رجل يبدو على وجهه سياء بغية . » وبصر به بعض رجال الشرطة الذين كانوا يخلون الطريق للموكب الملكي ، ايضاً ، فأمر واحد منهم بأن يتبعه . ولكن الرجل غاص في ازمة الضاحية المنعزلة . حتى اذا شرع الليل يحيط فقد الشرطي أثره ، على ما هو ثابت من تقرير تقدم في الليلة نفسها الى الكونت آنغليز ، وزير الدولة ، مدير البوليس .

وحين أضل الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء الشرطي ، استدار ملتفتاً مرات عديدة لكي يتأكد من ان احداً لا يتبعه . وعند الساعة الرابعة والربع ، يعني بعد هبوط الليل ، مر امام مسرح « لا بورت سان ماوتان » حيث كانت تقدم ذلك اليوم مسرحية « المحكوم عليها بالاشغال الشاقة » . وراعه هذا الاعلان المضاء بمصابيح المسرح العاكسة للنور ، إذ توقف عنده ، على الرغم من إسراره في السير ، لكي يقرأه .

وبعد لحظة انتهى الى زقاق « لا بلانشيت » غير النافذ ، ودخل « القصعة الصفيحية » ، حيث كان آنذاك مكتب عربة لانيي . وكانت هذه العربة تنطلق في الساعة الرابعة والنصف . كانت الجياد قد «قرنت اليها » وكان المسافرون ، وقد ناداهم السائق ، ينسلقون مسرعين سلم العربة الحديدية العالية .  
وتساءل الرجل :

« هل عندك مقاعد ؟ »

فاجابه السائق :

« لم يبق غير مقعد واحد ، الى جانبي ، على اللمدة » .

« سوف آخذه » .

« إصعد » .

بيد ان السائق التي ، قبل ان ينطلق ، نظرة على ملابس المسافر الحظيرة ، وصيغر صرعه ، وتقاضى أجره .

وسأله السائق :

« اذاهب أنت حتى لانيي ؟ »

قال الرجل :

« نعم » .

ودفع المسافر أجر الرحلة حتى لانيي .

وانطلقت العربة بهم . حتى اذا اجتازت باب المدينة حاول السائق ان يدخل مع المسافر في حديث ، ولكن هذا الاخير لم يجب بغير كلمات مفردة . وعندئذ آثر السائق ان يصفر ، وان يشتم الحيل . وتلفع السائق بمعطفه . كان الجو بارداً . اما المسافر فبدا وكأنه لا يفكر فيه . وهكذا اجتازوا « غورفي » و « نوبي سور ماون » .

وحوالى الساعة السادسة مساءً ، بلغوا « شيل » . وتوقف السائق ، لكي يريح جياده من عناء الرحلة ، امام فندق سائقي العربات المقام في الابنية القديمة من الدير الملكي .

وقال الرجل :

- « سوف أترجل هنا ،

وامسك بصرتي وعصاه ، ووثب من العربية .

وبعد لحظات اختفى عن العيان .

إنه لم يدخل الى الفندق .

حتى اذا انطلقت العربية بعد بضع دقائق قاصدة الى لانيي لم تلقه في

شارع لانيي الرئيسي .

والثفت السائق الى المسافرين الراكبين داخل العربية وقال :

- « هو ذا رجلٌ ليس من هذه المنطقة ، فأنا لا أعرفه . إن مظهره

يدل على أنه لا يملك فلساً ، ومع ذلك فهو لا يتشبث بالدرهم . إنه

يدفع أجر الرحلة الى « لانيي » ثم لا يذهب الى أبعد من « شيل » .

الدنيا ليل ، وجميع البيوت موصدة ، وهو لا يدخل الى الفندق ،

ونحن لا نلقاه في طريقنا . ينبغي ان يكون ، اذن ، قد غاص في

باطن الارض . »

ولم يكن الرجل قد غاص في باطن الارض . ولكنه كان قد اجتاز

بخطى واسعة ، تحت جنح الظلام ، الشارع الرئيسي في « شيل » . ثم إنه

انعطف الى الشمال ، قبل ان يبلغ الكنيسة ، سالكا الطريق القروية المؤدية

الى مونفيرماي ، مثل رجل عرف المنطقة واتخذ تلك الطريق من قبل .

وانطلق مسرعاً في تلك السيل . حتى اذا انتهى الى النقطة التي

تقاطع عندها مع الطريق القديمة التي تنهض الاشجار على جانبيها ، والتي

تمتد من « غانيي » الى « لانيي » ، سمع وقع أقدام يقترب منه .

فسارع الى الاختفاء في احدى الحفر ، وتربص هناك ريثما أمسى المارة

على مسافة بعيدة . وفي الحق أن ذلك الصنيع كان زيادة في الحذر ، لا

داعياً لها ، لأن الليلة كما ذكرنا كانت احدى ليالي كانون الأول الخالكة

جداً . ولم يكن المرء ليرى ، في جهد ، غير نجمين او ثلاثة نجوم ،

في السماء

هنا ، عند هذه النقطة ، كان 'يُصْعَدُ' الى الكتيب . ولم ينقلب الرجل الى طريق مونفيرماي . لقد انعطف الى اليمين ، عبر الحقول ، واتخذ سبيله ، في خطى سريعة ، نحو الغابة .

حتى اذا بلغ الغابة تمهل ، وانشأ بنعم النظر في الأشجار جميعاً ، متقدماً خطوة خطوة - وكأنه يلتبس أو يتبع طريقاً خفية لا يعرفها احد غيره . وانقضت لحظة بدا فيها وكأنه ضلّ عن سبيله ، ووقف متردداً . واخيراً وصل بتحصه طريقه في الظلام على نحو موصول ، الى بقعة في الغابة جرداء حيث كان ركام ضخّم من الحجارة الضاربة الى البياض . وتقدم مسرعاً الى تلك الحجارة ، وراح يفحصها في عناية ، من خلال ظلام الليل ، وكأنه يستعرضها كما يُستعرض الجند . وكانت على بضع خطوات من ركام الحجارة شجرة ضخمة مغطاة بتلك النوامي الغريبة التي هي تآليل النبات . فضى الى تلك الشجرة ، وأمرّ يده فوق لحاء الجذع ، وكأنما كان يسعى الى ان يتعرّف ويجعي جميع التآليل . ونجاء هذه الشجرة ، التي كانت شجرة دردار ، كانت كسناة مصابة بداء سقوط القشر سقوطاً ذاتياً ، وكانت قد ضمتدت بعصابة من الزنك صمّرت عليها . فما كان من الرجل إلا ان رفع نفسه ، على رؤوس أصابعه ، ولمس عصابة الزنك تلك .

ثم انه قرع الارض ، بقدميه ، عند الفسحة القائمة ما بين الشجرة والحجارة ، فترة من الزمن ، مثل رجل يريد ان يتحقق أن التربة لم 'تقلب منذ قريب .

حتى اذا تمّ له ذلك مضى لسبيله مستأنفاً سيره خلال الغابة .

كان هو ذلك الرجل الذي التقى بكوزيت .

ذلك أنه فيما كان يتخذ سبيله خلال الغابة التي 'تقطع بعض اشجارها بين الفينة والفينة ، متجنباً نحو مونفيرماي ، بصّر بهذا الظل الصغير

الذي كان يشقّ طريقه في أنين ، والذي وضع على الارض حملاً ما ،  
ثم رفعه ، واستأنف المسير . كان قد اقترب من ذلك الظلّ ، وادرك  
انه طفلة صغيرة جداً تحمل دلوّاً هائلاً من الماء . وعندئذ مضى الى  
الطفلة ، وأمسك بعروة الدلو في صمت .

## ٧

### كوزيت مع المجهول جنباً الى جنب ، وفي غمرة الظلام

- ولم نستشعر كوزيت ، كما قد قلنا ، خوفاً ما .  
وتحدّث الرجل اليها . كان صوته رزيباً يجاور المس .  
- « إن هذا الذي تحمله ثقل جداً عليك ، يا بُنَيَّتِي . »  
فرفعت كوزيت رأسها وأجابت :  
- « نعم ، يا سيدي . »  
وأضاف الرجل :  
- « أعطني اياه . سوف أحمله عنك . »  
وخلّصت كوزيت الدلو . وانشأ الرجل يمضي الى جانبها .  
وقال مخاطباً نفسه :  
- « الواقع انه ثقل جداً . »  
ثم أردف :  
- « ايها الصغيرة ، ما ستك ؟ »  
- « ثنائي سنوات ، يا سيدي . »  
- « وهل أقبلت على هذا الشكل من مكان بعيد ؟ »

- « من التبع الذي في الغابة . »
- « وهل انت ذاهبة الى مكان بعيد ؟ »
- « انه يبعد ربع ساعة كاملة ، من هنا . »
- واعتمى الرجل بالصمت لحظة ، ثم قال فجأة :
- « اذن فليس لك أم ؟ »
- فاجابت الطفلة :
- « لست ادري . »
- وقبل ان يجد الرجل متسعاً من الوقت لاستئناف الكلام ، اضافت :
- « لا اعتقد . ان جميع الاطفال لهم أم . اما انا فليس لي أم . »
- وبعد لحظة من الصمت ، اردفت :
- « أعتقد انه لم يكن لي أم في يوم من الايام . »
- وكفّ الرجل عن السير ، ووضع الدلو على الارض ، ثم انحنى ، ووضع يديه على كتفي الطفلة ، محاولاً ، في جهد ، ان ينظر اليها ، وان يرى وجهها في الظلام .
- وارتسم وجه كوزيت المهزول الضعيف البنية ارتساماً غامضاً تحت ضوء السماء القاتم .
- وقال الرجل :
- « ما اسمك ؟ »
- « كوزيت . »
- وبدا وكأن الرجل عمرته رجفة كهربائية . وعاد النظر اليها ، ثم رفع يديه عن كتفيها ، وتناول الدلو ، واستأنف المسير .
- وبعد لحظة ، سأل :
- « ايها الطفلة الصغيرة ، اين تسكنين ؟ »
- « في مونفيرماي ، اذا كنت تعرفها . »
- « إلى هناك نحن ذاهبان ؟ »

- « نعم يا سيدي . »  
وسكت كرة اخرى ثم اضاف :  
- « ومن الذي ارسلك الى الغابة لتجلبى الماء في هذه الساعة  
من الليل ؟ »

- « مدام تيناردييه . »  
وتابع الرجل في جرس حاول ان يجعله لامبالياً ، ولكنه كان  
ينطوي برغم ذلك على ارتعاشة فريدة :  
- « وماذا تعمل مدام تيناردييه هذه ؟ »  
فقال الطفلة :

- « إنها سيدتي . انها تدير الفندق . »  
فقال الرجل :  
- « الفندق ؟ حسن ، سوف اذهب وأبیت هناك هذه الليلة . دليبي على  
الطريق . »  
فقال الطفلة :

- « نحن ذاهبان الى هناك . »  
ومشى الرجل في سرعة بالغة . وتبعته كوزيت من غير ما عسر .  
إنها ما عادت تشعر التعب . وبين الفينة والفينة ، كانت ترفع عينها نحو  
هذا الرجل في ضرب من السكون والثقة التي تمتنع على الوصف . انها لم  
تعلم قط ان تلتفت الى العناية الالهية وتضلي ، ومع ذلك فقد أحسّت  
في صدرها بشيء يشبه الامل والبهجة ، شيء ارتفع نحو السماء .

وانقضت بضع دقائق ، وتكلم الرجل :  
- « اليس هناك خادم في فندق مدام تيناردييه ؟ »  
- « لا ، يا سيدي . »  
- « هل أنت وحدك ؟ »  
- « نعم ، يا سيدي . »

وتقصّت فترة اخرى من الصمت . ورفعت كوزيت صوتها :

- « يعني ان هناك بنتين صغيرتين . »

- « أي بنتين صغيرتين ؟ »

- « بونين وزيلما . »

وبسّطت الطفلة ، على هذه الشاكلة ، الاممين الرومانتيكيين العزيزين على السيدة تيناردييه .

- « ومن بونين وزيلما ؟ »

- « انهما آتستا مدام تيناردييه ، وفي استطاعتك ان تقول بنتيهما . »

- « وما تفعل هاتان البنتان ؟ »

فقالت الطفلة :

- « اوه ، انهما دميّتان جميلتان ؛ شيّتان عليهما ذهب ، انهما مليّتان

الشغل . انهما تلعبان . وانها تتسلّيان . »

- « طول النهار ؟ »

- « نعم يا سيدي . »

- « وأنت ؟ »

- « أنا ! أنا اشتغل . »

- « طول النهار ؟ »

ورفعت الطفلة عينيها الواسعتين اللتين تفرقت فيها دموع لم يكن من الميسور رؤيتها في الظلام ، واجابت في رقة :

- « نعم ، يا سيدي . »

ثم اضافت بعد فترة من الصمت :

- « وفي بعض الاحيان ، حين انهي عملي ، وترغبان هما في ذلك ، أنسلي

أنا ايضاً . »

- « وكيف تتسلّين ؟ »

- « قدر ما أستطيع . انهم يتّركونني وحدي ، ولكن ليس عندي

لعب كثيرة . و « بونين » و « زيلما » لا تسمحان لي بأن ألعب بلعبهما ، ولا



يوجد عندي غير سيف رصافي صغير ليس اكبر من هذا .  
واظهرت الطفلة خنصرها .

-- « وليس بقاطع أبداً ؟ »

فقلت الطفلة :

-- « بلى ، يا سيدي . انه يقطع الحسّ ورؤوس الذباب . »  
وبلغا القرية ؛ وقادت كوزيت الغريب عبر الشوارع . لقد اجتازا  
بالخبز ، ولكن كوزيت لم تفكر بالخبز الذي كان عليها ان تشتريه . ولم  
يوجه اليها الرجل ايما سؤال آخر ، معتصماً بصمت فاجع . حتى اذا تخطيا  
الكنيسة ، سأل الرجل كوزيت حين رأى تلك الدكاكين كلها :

-- « إذن ، فهذا أوان السوق الموسمية ؟ »

-- « لا ، يا سيدي ، انه عيد الميلاد . »

وحين اقتربا من الفندق ، مست كوزيت ذراعه في جزع .

-- « ميو ؟ »

-- « ماذا ، يا بنيتي ؟ »

-- « لقد صرفنا على مقربة من البيت . »

-- « ثم ماذا ؟ »

-- « أنحب ان تدعني احمل الدلو الآن ! »

-- « لماذا ؟ »

-- « لان مدام تيناردييه تضربني اذا وأت شخصاً بحمله عني .  
واعطاها الرجل الدلو . وبعد لحظة ، كانا بباب المطعم الحثير .

ما أبغض ان تضيف فقيراً

ربما كان غنياً

ولم تمالك كوزيت عن ان تلقي نظرة على الدمية الضخمة التي كانت  
ما تزال معروضة في دكان الدمى ؛ ثم قرعت الباب . وفتح الباب ، وظهرت  
السيدة ثيناردييه تحمل شمعة في يدها .

— « آه ، هذا انت ، ابتها الشحاذة الصغيرة ! الحمد لله ، لقد مشيت على  
مهلك ! كانت تلعب ، الوقعة ! »  
فقال كوزيت مرتعدة :

— « سيدتي ، هناك رجل سيد يريد ان ينزل في الفندق . »  
وفي مرة بالغة ، استبدلت السيدة ثيناردييه بسياها الضاربة انسراحة  
وجه متوردة — وتلك القدرة على الاستبدال يتفرد بها الفسديون ، فهم  
يصطنعونها لحظة بشاؤون — ونظرت الى الوافد الجديد بعينين مثلهفتين .  
وقالت :

— « اهو هذا السيد ؟ »  
فأجابها الرجل ، رافعاً يده الى قبعته :  
— « نعم ، يا سيدتي . »

إن المسافرين الاغنياء ليسوا على هذا اللطف كله . ومن هنا كان في هذه  
الايام ، وفي مشهد ملابس الرجل وامتعته التي استعرضتها السيدة ثيناردييه  
بنظرة واحدة ، ما جعل الملامح المحببة تختفي ، والسبا الضاربة تعاود  
الظهور . وازافت في جفاف :

— « ادخل ، ايها الرجل الساذج . »

ودخل الرجل الساذج . والقت السيدة تيناردييه نظرة أخرى عليه ، متأملةً على نحو خاص في سترته الطويلة التي كانت بالية بالكلية ، وقبمته المنكسرة بعض الشيء . وبهزة رأس ، وبهزة عين ، وتفضين أنف ، شاورت زوجها الذي كان لا يزال يعاقر البحر مع سائقي العربات . واجاب الزوج بهزة السبابة تلك التي تعني حين "تردّف بدم" الشفتين ، في مثل هذه الحال « فقر مدقع » . وعندئذ صاحت السيدة تيناردييه :

- « آه . ايها الرجل الفاضل ، انا آسفة جداً ، ولكن ليس عندي مكان . »

فقال الرجل :

- « ضمني حيث شئت . في العلنية ، في الاسطبل . سوف ارفع وكانني احتل غرفة . »

- « اربعون سو . »

- « اربعون سو . ليكن ذلك . »

- « مقدماً . »

فهمس احد سائقي العربات في اذن السيدة تيناردييه :

- « اربعون سو ! ولكن الاجرة عشرون سو ليس غير . »

فاجابت السيدة تيناردييه بصوت مبهوس ايضاً :

- « ولكنها اربعون بالنسبة اليه . انا لا أنزل الفقراء في فئدي

بأقل من ذلك . »

وأضاف زوجها في رقة :

- « هذا صحيح . إن قبول هذا الصنف من الناس يؤدي الى

خراب المؤسسة . »

وفي غضون ذلك ، كان الرجل - بعد ان ترك عصاه وصرته على

أحد المقاعد - قد جلس إلى طاولة كانت كوزيت قد وضعت عليها ،

في سرعة ، كالأرزاجاة من الحر . كان البائع المتجول الذي طلب  
دلو الماء قد مضى هو نفسه فعمله الى فرسه . وكانت كوزيت قد  
انقلبت الى مكانها تحت طاولة المطبخ واستأنفت حبكها .

ولم تفسد شفا الرجل الحر التي صبها في كأسه إلا نادراً . كان يتأمل  
الطفلة في انتباه عجيب .

كانت كوزيت بشعة . ولعلها كانت خليفة بان تكون جميلة لو كانت  
سميدة . ولقد سبق لنا ان رسمنا هذا الوجه الصغير الكئيب رسماً  
اولياً . كانت كوزيت مهزولة ، شاحبة . كانت في الثامنة من عمرها ،  
ولكن الناظر اليها كان يظن انها لم تكد تتجاوز السادسة . كانت عيناها  
الواسعتان ، الفارقتان في ضرب من الظلام العميق ، مظفأتين تقريباً من  
أثر البكاء الموصول . وكانت لزوايا فمها التواء الألم النفسي المألوف تلك ،  
التي ترى عند المحكوم عليهم والمرضى بأدواء لا يبرء منها . وكانت  
يدها ، كما حزرت أمها ، مليئتين بالشقوق الناشئة عن البرد . لقد كان  
في ضوء النار الذي شع من حولها في تلك اللحظة ما يبرز زوايا  
عظامها ، وجعل هزالها واضحاً على نحو غريب . واذا كانت ترتعد ابداً ،  
فقد تعودت ان تشد احدى ركبتيها الى الاخرى . ولم يكن ثوبها كله  
غير خرقة خليفة بان تثير الاشفاق في الصيف ، والذعر في الشتاء . لم  
يكن على جسدها غير نسيج قطني مليء بالثقوب . إنه لم يعرف خرقة  
واحدة من الصوف . وكانت ملابسها تلك تكشف عن بشرتها هنا  
وهناك ، وكان في ميسور المرء ان يبين عليها بقعاً سوداء وزرقاء  
تشير الى المواطن التي لمستها السيدة تينارديه منها . كانت ساقها  
العاريتان حمراوين خشنتين . وكانت فجائيف "توقوتها" تقبتر الدمع  
من عيني الناظر . كان شخص هذه الطفلة كله ، مشيتها ، وهيئتها ،  
وجرس صوتها ، والفترات بين كل كلمة من كلماتها وبين الاخرى ،  
ونظراتها ، وصمتها ، واقتصادها في الحركة - كان ذلك كله يُفصح عن

فكرة وحيدة : الخوف .

كان الخوف منشوراً عليها . كانت مضطربة ، اذا جاز التعبير . لقد ألصق الخوف مرفقيها بجانبها ، وردّ عقيبها تحت تنورتها ، وجعلها تحت أقلّ حيز ممكن ، وحملها على ان لا تتنفس الا بالقدر الضروري ؛ وكان قد أمسى ما يمكن ان ندعوه عادتها الجسدية ، فلا سبيل الى تغيير تلك العادة إلا اذا قصد بالتغيير الزيادة والتعقيد . كان في أعماق حدقتها زاوية يكمن فيها الذعر .

وكان خوفها ذاك من القوة بحيث أنها ، حين رجعت الى الفندق وقد بلّلت المياه ثيابها كلها ، لم تجرؤ على ان تتقدم نحو النار تحفيظاً لثيابها . لقد انصرفت الى عملها في صمت .

وكانت السّما التي تطبع محيّا هذه الطفلة ذات الثمانية أعوام كثيفة ، عادةً ، فاجعة ، في بعض الاحيان ، الى درجة تجعلها تبدو ، في بعض اللحظات ، وكأنها في سبيلها الى ان تصبح معنوعة أو شيطانية . لأنها لم تعرف قط ، كما ذكرنا من قبل ، ما هي الصلاة ، وانها لم تطأ قط أرض كنيسة في يوم من الايام . كانت السيدة تينارديه تقول : « وهل عندي متسع من الوقت لمثل ذلك ؟ »

ولم يرفع الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء عينيه عن كوزيت .  
وفجأة ، صاحت السيدة تينارديه :

— « أوه ! لقد نسيت ! اين ذلك الرغبة ؟ »

وسارت كوزيت الى الخروج من تحت الطاولة ، وفقاً للألف عادتها كلما رفعت السيدة تينارديه صوتها .

كانت قد نسيت ذلك الرغبة تماماً . ولجأت الى الوسيلة التي يصطنعها الاطفال الذين يعصف بهم الذعر على نحو موصول . لقد كذبت .

— « مدام ، كان الحيز مغلقاً . »

— « كان من الواجب عليك ان تفرعي الباب . »

- « لقد فعلت ، يا سيدتي . »

- « ثم ماذا ؟ »

- « ان الحجاز لم يفتح . »

فقلت السيدة تينارديه :

- « سوف أرى غداً ما اذا كان هذا صحيحاً . واذا كنت تكذبين

فسوف أرقصك رقصة تعجبك . وفي انتظار ذلك ، أعيدي إليّ قطعة

الحمة عشر سو . »

وغابت كوزيت يدها في جيب مئزرها ؛ واخضرت لونها . ان قطعة

الحمة عشر و سو ، لم تكن هناك .

وقالت السيدة تينارديه :

- « تعالي . ألم تسمعي ؟ »

وقلبت كوزيت جيبها جاعلةً داخلها خارجها ، فلم يكن هنالك شيء .

ما الذي يمكن ان يكون قد حلّ بتلك القطعة النقدية ؟ ولم نجد

المسكينة الصغيرة ما تقوله . لقد تحجرت تحجراً .

وصاحت السيدة تينارديه :

- « هل أضعتها - قطعة الحمة عشر سو ؟ أم تريدن ان تسرقها

مني ؟ »

وفي الوقت نفسه بسطت ذراعها نحو السوط المعلق عند زاوية الموقد .

وكان في هذه الحركة الرهبة ما منح كوزيت القوة على ان تصيح :

- « اغفري لي ، يا سيدتي ! أنا لن أفعل ذلك بعد اليوم . »

وتزعت السيدة تينارديه السوط .

وفي غضون ذلك ، كان الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء يبعث في

جيب صدره ، من غير ان يلحظ أحده هذه الحركة . أما المسافرين

الآخرون فكانوا يحتسون الخمر ، او يلعبون بالورق ، فهم لا يلتفتون

الى شيء .

وتلوت كوزيت بالألم النفسي المرير في زاوية الموقد ، محاولة أن  
تضمّ وتحنّي أوصالها البائسة نصف العارية . ورفعت السيدة تبنارديه  
ذراعها .

فقال الرجل :

- « عفراً ، يا سيدتي ، ولكنني رأيت في هذه اللحظة شيئاً يسقط  
من جيب مئزر هذه الفتاة الصغيرة ويكرّ على الارض . قد يكون  
ذلك ما نطلين . »

وفي الوقت نفسه ، انحنى ، وبدأ وكأنه يبحث في ارض المكاث  
لحظة من الزمن .

ثم قال وهو ينهض :

- « هكذا تماماً . ها هي ذي . »

وقدّم قطعة نقدية فضية الى السيدة تبنارديه .

فقال : « أجل ، هذه هي . »

ولم تكن هذه تلك ، اذ كانت قطعة من فئة العشرين « سو » ،  
ولكن السيدة تبنارديه وجدت فيها ربحاً لها . ووضعت القطعة النقدية  
في جيبها ، واكتفت بالقاء نظرة ضاربة على الطفلة ، قائلة :

- « لا تدعي ذلك يحدث مرةً اخرى ، مدى الدهر . »

ورجعت كوزيت الى ما كانت السيدة تبنارديه تدعو « جحرها » .  
وشرعت عيناها الواسمتان ، المسترتان على المسافر المجهول ، تفحصان  
عن شيء لم تعرفه قط من قبل . وكان ذلك لا يزال مجرد دهن ساذج ،  
ولكن ضرباً من الثقة المشدوهة كان يمازجه .

وسألت السيدة تبنارديه المسافر :

- « بالمناسبة ، هل تريد عشاء ؟ »

ولم يجيبها . لقد بدا وكأنه يفكر تفكيراً عميقاً .

ولثلثت \* السيدة تيناردية :

- « ما هذا الرجل ؟ إنه مقبول خيف . هو لا يملك فلساً يتعشى به . أيعتزم ان يدفع اليّ أجر مبيتة فقط ؟ من حسن الطالع ، على اية حال ، انه لم يفكر في سرقة المال الذي كان على الارض . ،  
وفتح باب ، وأقبلت لبيونين وآزليما .

كانتا فتاتين صغيرتين جميلتين حقاً ؛ وكانتا مدينتين اكثر منهما ريفيتين ، شديدتي الفتنة ، احدهما بجذائلها الكستانية الحسنة الصقال ، والاخرى بصفائرها الطويلة السوداء المنسدلة على ظهورها ؛ وكانت كل منهما نشيطة ، نظيفة ، ممتلئة ، ناضرة ، تطفح صحة الى درجة تجعل النظر اليها بهجة ومنعة . كانتا ترتديان ملابس توقع الدفء في جسديهما ، ولكن في فنّ أموميّ جعل غلظ النسيج لا يذهب بشيء من دلال الزينة . لقد وقّيتا شر الشتاء من غير ما يحور الربيع . وأراقت هاتان الفتاتان الصغيرتان الضياء من حولهما . والى هذا ، فقد كانتا قابضتين على زمام السلطة . ففي زينتهما ، وفي بهجتهما ، وفي الضجة التي أحدثتها كانت قمة سيادة مطلقة . وحين دخلتا ، قالت السيدة تيناردية لهما في جرس مفرّج كان يمور بالهيام :

- « آه ، انما هنا اذن ، ايها الطفلتان ! ،

ثم إنهما وضعتهما على ركبتيها ، الواحدة إثر الاخرى ، وانشأت قلّس شعرهما عاقدةً أشراطتهما ، لتتركهما آخر الامر تذهبان بعد ان هزّتهما تلك الهزة الخاصة بالامهات ، وصاحت :

- « أما رديثنا الهندام ! ،

ومضتا وجلستا قرب نار الموقد . وكانت لدهما دمية ، فراحتا تعلقبانيها على رُكبتها ظهراً لبطن وبطناً لظهر ، مغرّدتين مختلف ضروب التغريد . وبين الفينة والفينة ، كانت كوزيت ترفع عينيها عن زردّها ، وتنظر

---

\* ثلثت كلامه : لم يبيته .



اليها في كآبة بينا هما تلعبان .

ولم تنظر إيبونين وآزيملا الى كوزيت . فقد كانت عندهما شبه بكلمة . إن هاته الفتيات الصغيرات نبلغ اعمارهن ، مجتمعات ، ثمانية وعشرين عاماً . ومع ذلك فقد كن في تلك السن يمثلن المجتمع البشري كله : الحسد من جانب ، والازدراء من الجانب الآخر .

كانت دمية الشقيقتين تيناردييه خاصة جداً ، عتيقة جداً ، عطمة كلتها . ولقد بدت برغم ذلك رائعة في عيني كوزيت التي لم يكن لها في يوم من ايام حياتها دمية ، دمية حقيقية ، اذا اردنا ان نستعمل مصطلحاً يفهمه الاطفال جميعاً .

ونبهأة ، لاحظت تيناردييه الزوجة - التي كانت لا تقتأ تذرع الفرقة جيئة وزهاباً - أن انتباه كوزيت كان مشوشاً ، وانها بدلاً من ان تصرف الى العمل كانت مشغولة بالفتاتين الصغيرتين اللابتين .  
وصاحت :

- « اوه ، لقد قبضت عليك ! تلك هي الطريقة التي تعملين بها !  
سوف أكرهك على العمل بضربات السوط . اجل ، سوف افعل ! »  
ومن غير ان يغادر الغريب كرسيه ، التفت الى السيدة تيناردييه ، وقال مبتسماً في خجل :

- « ولكن ، يا سيدتي ، دعها تلعب ! »

ولو قد صدرت هذه الرغبة عن رجل كان قد أكل شريحة من لحم الضأن ، وشرب زجاجتين من الخمر اثناء تناوله العشاء ، ولم يكن له مظهر شحاذ مروع ، اذن لكانت أمراً مطاعاً . أما ان يمرؤ ورجل يعتمر بتلك القبعة فيسبح لنفسه بإبداء رغبة ما ، وأما ان يمرؤ ورجل يرتدي تلك السترة الطويلة فيسبح لنفسه بأن تمبر عن ارادة ما ، فذلك ما اعتقدت السيدة تيناردييه ان من غير الجائر التسامح به . فأجابت في حدة :

- « يجب ان تعمل ، لأنها تأكل . أنا لا أعيلها لكي لا نعمل شيئاً . »

فقال الغريب في ذلك الصوت العذب الذي يتناقض الى حد عجيب مع ثيابه الشبيهة بثياب الشحاذين ، وكنفيه الشبيهتين بكنفي الحالين :  
- « وما الذي تعمله ؟ »

وتنازلت تيناردييه الزوجة فأجابت :

-- « جوارب ، اذا شئت . جوارب لبتي الصغيرتين اللتين لا تملكان شيئاً من ذلك يستحق الذكر ، واللتين مستظران ، بعد قليل ، الى السير حافيتين . »

ونظر الرجل الى رجلي كوزيت الجراوين المثيرتين للشفقة ، وأضاف :  
- « ومنى سنهبي هذين الزوجين من الجوارب ؟ »

« انما في حاجة بعدد الى ثلاثة ايام او اربعة ايام على الاقل . يا لها من فتاة كسول ! »

- « وكم مساوي هذان الزوجان من الجوارب حين يتم صنعهما ؟ »  
والفت السيدة تيناردييه عليه نظرة احتقار .

- « ثلاثين سو ، على الاقل . »  
فقال الرجل :

- « اعطينيني إياهما مقابل خمسة فرنكات ؟ »

فصاح سائق عربة كان يستمع الى الحديث ، في ضحكة مجلجلة :

« يا الهي ! خمسة فرنكات ! انها خدعة اخم رصاصات ! »

واعتقد تيناردييه انه يتحتم عليه ان يتولى الكلام :

- « نعم ، يا سيدي ، اذا كان ذلك يرضي هواك ففي استطاعتك ان

تأخذ زوجي الجوارب. هذين بخمسة فرنكات . نحن لا نستطيع أن نضن على النزلاء بشيء . »

فقال تيناردييه الزوجة في طريقةها المختصرة الجازمة :

- « يجب ان تدفعها في الحال . »

فاجاب الرجل :

- « سوف اشترى زوجي الجوارب هذين . »

ثم اضاف ساجباً من جيبه قطعة من ذات الحمة الفرنكات ووضعها على الطاولة :

- « ولسوف ادفع ثمنها . »

ثم التفت نحو كوزيت :

- « والآن ، لقد اصبح شغلك ملكاً لي . العلي يا بنيتي ! »

واهتز سائق العربات لقطعة الحمة الفرنكات اهتزازاً جعله يترك كأسه ويسرع للنظر اليها .

وصاح بعد ان فحصها :

- « انها حقيقية ، مع ذلك . دولاب خلفي حقيقي ! انها غير مزورة ! »

واقترّب تيناردييه . وفي صمت وضع القطعة النقدية في جيبه . ولم يكن

عند السيدة تيناردييه ما نجيب به . لقد عضت شفيتها وطنت على وجهها سبباً من الخقد .

وفي غصون ذلك ارتعدت كوزيت . وغامت في السؤال :

- « هل هذا صحيح ، يا سيدتي ؟ هل تستطيع ان العب ؟ »

فاجابتها تيناردييه الزوجة في صوت فظيع :

- « العلي ! »

فقال كوزيت :

- « شكراً ، يا سيدتي ! »

وفما كان فيها يشكر تيناردييه الزوجة ، كانت روحها كلها تشكر المسافر .

ورجع تيناردييه الى شرابه . وهمت زوجته في اذنه :

- « من يمكن ان يكون هذا الرجل الاصفر ؟ »

فاجابها تيناردييه في صوت آمر :

- « لقد رأيت اصحاب ملايين في سترات طوبلة مثل هذه . »

كانت كوزيت قد تركت زردھا ، ولكنها لم تغادر مكانھا . كان من دأب كوزيت ان تتحرك أقلّ ما يمكنھا أن تفعل . وكانت قد اخرجت من صندوق صغير خلفھا بعض الحرق البالية ، وسيفھا الرصاصي الصغير . ولم تلتفت لیبونين وآزېلما ایما التفات لما كان جارياً . كانتا قد انتهتا منذ لحظة من القيام بعمل خطير : لقد ألقتا القبض على الهرة . وكانتا قد اطّرحتا الدمية على الارض ، وانصرفت ایبونين ، وهي الكبرى ، الى تقييط الهرة ، برغم مواتها والنواثا ، بمجموعة من الثياب وبجرق حمراء وزرقاء . وفيما هي منهكة في هذا العمل الجديّ العسير تحدثت الى اختها بلغة الاطفال العذبة الفاتحة تلك ، التي تتلاشى طلاوتھا ، مثل بهاء جناحي الفراشة ، حين نحاول ان نحتفظ بها .

- « انظري ! انظري يا اختي ، إن هذه الدمية ملتبسة اكثر من تلك . إنها تتحرك ؛ انها تصرخ ؛ انها دافئة . تعالي ، يا اختي ، دعينا نلعب معها . انها ستكون بنتي الصغيرة . وسأكون أنا سيدة » . ولسوف آتی لزيارتك ، ولسوف تنظرين اليھا ، وشيثاً بعد شيء نشاهدین شاربېھا ، وهذا سوف يدهشك . وبعد ذلك ستشاهدین أذنېھا ، ثم ذنېھا ، ولسوف يدهشك هذا . وستقولین لي : « آه يا الهي ! » ، وسأقول لك : « نعم يا سيدتي . إنها بنت صغيرة رزقتها هكذا . » ان البنات الصغيرات هنّ هكذا الآن . »

وأصغت آزېلما ، في اعجاب ، الى ایبونين . وفي الوقت نفسه ، كان الشاربون يغنون اغنية بذیقة ضحكوا لها على نحو كافٍ لأن یزلزل العرقه . وشجعهم تیناردييه وصاحبهم . وكما تصنع الطير عشاً من كل شيء ، كذلك یصنع الاطفال دمية من ایما شيء . فبما كانت ایبونين وآزېلما تقطّان الهرة ، كانت كوزيت ، بدورها ، قد ققطت السیف . حتى اذا تمّ لها ذلك مددته على ذراعھا ، واخذت تغني له في رقة لكي ینام .

ان الدمية احدى الضرورات القصوى ، وهي في الوقت نفسه احدى غرائز الطفولة الانثوية الأشد فتنة . ففي العناية بها ، وكسوتها ، وتربيتها ، واللباس ثيابها ، وتزج ثيابها ، واعادة اللباس من جديد ، وتعليمها ، وتوبيخها قليلاً ، وهددتها ، وتغنيجها ، وتويعها ، والتوم ان شيئاً ما هو شخص ما - في ذلك كله يكمن مستقبل المرأة كله . وفيما هي تحلم وتهذر ، وفيما هي تصنع رزماً صغيرة وأقمطة صغيرة ، وفيما هي تخطط فساتين صغيرة ، واجزاء عليا من الفساتين الصغيرة ، وصدرات ذوات اكمام ، تصبح الطفلة فتاة صغيرة ، وتصبح الفتاة الصغيرة فتاة كبيرة ، وتصبح الفتاة الكبيرة امرأة . وهكذا يجتلي اول اطفال المرأة محل دميته الاخيرة .

والفتاة الصغيرة من غير دمية تكاد ان لا تقل شقاء عن امرأة من غير اطفال ؛ وهي تعدل هذه المرأة استعالةً تاماً .

واذن ، فان كوزيت كانت قد اتخذت من سيفها دمية .  
واقربت تيناردييه الزوجة من الرجل الاصفر . وقالت في ذات نفسها : « ان زوجي على صواب . لعله ان يكون مسيو لافيت .  
ان بعض الاغنياء مضحكون الى هذا الحد . »  
وتقدمت ، وأراحت مرفقها على الطاولة التي كان جالساً اليها .  
وقالت :

— « مسيو ... »

ولم يكدر الرجل يسمع كلمة مسيو هذه ، حتى التفت . ان السيدة تيناردييه لم تناديه من قبل إلا بقولها ايها الرجل الطيب ، او ايها الرجل الساذج .

وثابت كلامها ، خالمة على وجهها أعذب ملامحه ، التي كانت ادعى الى الازعاج من سبابها الضاربة :

— « ترى ، يا سيدي ، اني راغبة في ان تلعب الطفلة . انا لا

اعارض في ذلك . ولكن هذا جيد اذا تم مرة واحدة ، لانك رجل كريم . غير أنها ، كما ترى ، بنت فقيرة . إن عليها ان تشتغل .  
فسألها الرجل :

- « واذن ، فالطفلة ليست بنتك ؟ »

- « أوه ، يا الهي ! لا ، لا ، يا سيدي ! إنها شحادة صغيرة أنزلناها عندنا من باب الشفقة والاحسان . إنها طفلة شبه معتوقة . ولا بد أن في دماغها ماء . إن رأسها كبير ، كما ترى . ونحن نعى بها جهد طاقتنا ، لاننا لسنا اغنياء . نحن نكتب الرسائل الى مسقط رأسها ، ولكننا لم نتلق جواباً منذ ستة أشهر . ولقد أصبحنا نعتقد ان أمها ماتت من غير شك . »

فقال الرجل :

- « آه . »

واستغرق في تفكيره .

وأضاف تينارديه الزوجة :

- « إن تلك الأم لم تكن شيئاً ذا شأن . لقد هجرت طفلتها . وطوال هذه المهادثة ، لم ترفع كوزيت عينيها عن السيدة تينارديه ، فكان غريزة من الغرائز أشعرتها بأنها كانا يتحدثان عنها . وسمعت بضع كلمات هنا وهناك . »

وفي غضون ذلك كان الشاربون ، وكل منهم ثلاثة أرباع سكران ، يكرّرون لازمتهم القذرة في ابتهاج مضاعف . كانت كلاماً مرحاً مفيهاً كثير التوابل يتردّد فيه اسما « العذراء » و « يسوع » . وكانت السيدة تينارديه قد مضت لتنهض بنصيبها من الطرب . أما كوزيت فكانت تنظر ، من تحت طاولتها ، الى نار الموقد التي كانت تنعكس من عينا المسددة . لقد راحت هي ايضاً تهدد ذلك الضرب من الطفل الحُرّقي الذي صنعه . وفيما هي تهدده لينام كانت تغني له في صوت خفيض :

لقد ماتت أمي ! لقد ماتت أمي ! لقد ماتت أمي !  
وبعد إلحاح جديد متواصل من صاحبة الفندق رضي الرجل الاصفر ،  
« المليونير » ، ان يتعشى .

- « ما يجب سيدي ان يأكل ؟ »

فاجاب الرجل :

- « بعض الحبز والجبين . »

وفي ذات نفسها قالت السيدة تيناردييه : « انه شحاذ من غير ريب » .  
وواصل الشاربون إنشاد اغنيتهم ، وكذلك واصلت الطفلة -  
من تحت الطاولة - انشاد أغنياتها .

وفجأة كفت كوزيت عن الانشاد . كانت قد التفتت منذ لحظة  
فرأت دمية ايبونين وآزيليما ، وكانت قد انصرفتا عنها الى المرة وتركتاها  
على الارض ، على بضع خطوات من طاولة المطبخ .

ثم انها أزلت السيف المقيط الذي لم يكن ليرضيها غير نصف ارضاء ،  
وأجالت بصرها في ارجاء الغرفة بنوذة . كانت السيدة تيناردييه تمس في  
أذن زوجها وتعد بعض الدرامم ، وكانت لإيبونين وآزيليما تلاعبان المرة ،  
وكان النزلاء بأكلون او بشربون او يغنون . إن عيناً واحدة ما كانت  
تنظر اليها . ولم يكن عندها لحظة تضيقها . فزحفت من تحت الطاولة على  
يديها وركبتها ، واستيقنت مرة اخرى من ان احداً ما كان يراقبها ،  
ثم انسلت في سرعة نحو الدمية واستولت عليها . وما هي الا لحظة حتى  
كانت في مكانها جالسة جامدة ، غير ملتفتة الا على نحو يمكنها من ابقاء  
الدمية التي كانت تحملها بين ذراعيها ، في الظلام . كانت سعادة اللعب بدمية  
نادرة عندها الى حد خلع عليها غف اللذة الحسية .

ان احداً لم يرها غير المسافر ، الذي كان يتناول عشاءه الهزيل ،  
في ببطء .

ودامت هذه البهجة نحواً من ربع ساعة .

ولكن ، على الرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذتها كوزيت ،  
فإنها لم تلاحظ أن إحدى رجلي الدمية كانت قد نتأت ، وإن فار  
الموقد كانت تضيقاً على نحو قوي جداً . ولفتت هذه الرجل الساطعة ،  
المنبثقة من الظلام ، نظر آريلا ، فجأة ، فقالت لأبيونين :  
- « أوه ! يا اختي ! »

وكفت الفتاتان الصغيرتان عن اللعب ، وغلب عليهما الذهول . لقد  
جرّزت كوزيت على أن تأخذ الدمية !  
ونفضت أبيونين . ومن غير أن تخلي سبيل المرأة ، مضت إلى أمها  
وبدأت تشدّها من تنورتها .  
وقالت الأم :

- « اتركيني ! ماذا تريدن مني ؟ »  
فكانت الطفلة :

- « أمي ! انظري هناك ! »  
وأشارت إلى كوزيت .

وإذا كانت كوزيت مستغرقة كل الاستغراق في نشوة التملك فإنها لم  
ترَ شيئاً ولم تسع شيئاً .

ورأت على وجه تيناوديه الزوجة تلك الانطباعة الخاصة التي تتألف  
من الفظيع بمتزجاً بالمبتذل ، والتي خلعت على هذا الضرب من النساء  
اسم إلهات الانتقام .

وهذه المرة ، زادت الكبرياء الجريح في غيظها أيضاً . لقد تخطت  
كوزيت جميع الحواجز . لقد وضعت كوزيت يدها على دمية « هاتين  
الآنستين » .

ولو أن قصيرة رأت إلى فلاح رومي ( موجيك ) يجربّ الوساح  
الازرق الكبير الخاص بابنها الامبراطوريّ اذن لما طفت على وجهها غير  
نلك الانطباعة نفسها .



وصاحت بصوت جعله السُخْط أجش :

« كوزيت ! »

وارتعدت كوزيت وكأن الارض قد زلزلت من تحتها . وتلفتت حولها .  
وكررت السيدة تيناردييه :

« كوزيت ! »

واخذت كوزيت الدمية ، ووضعتها على الارض برفق ، وفي ضرب  
من التقديس يمازجه اليأس . ومن غير أن ترفع عينها عن الدمية ، ضمت  
احدى يديها الى الاخرى ، وأنشأت - وهذا شيء من المروع ان يروى  
عن طفلة في تلك السن - تفتلها وتلويها . ثم انها - وهو ما لم تستدره  
منها اي من انفصالات ذلك اليوم ، لا الركض في الغابة ، ولا نقل دلو  
الماء ، ولا ضياع القطعة التقدية ، ولا مشهد السوط ، بل ولا للكلام  
للصارم الذي سمعته من السيدة تيناردييه - شرعت تسفع العبرات . لقد  
انخرطت في النحيب .

وفي الوقت نفسه نهض المسافر .

وقال لتيناردييه الزوجة :

« ما المسألة ؟ »

فقلت مشيرة باصبعها الى « البرهان المثبت للجريمة » منطرحاً على

قدمي كوزيت :

« الا ترى ؟ »

وقال الرجل :

« حسن ، وما ذاك ؟ »

فأجابت تيناردييه الزوجة :

« لقد جرؤت تلك الشحاذة على ان تسمّ دمية الطفلتين ! »

فقال الرجل :

« وهذه الضجة كلها من اجل ذلك ؟ وأي بأس في ان تلعب

بتلك الدمية ؟ »

وثابت تيناردييه الزوجة :

- « لقد لمسها بيديها القذرتين ! بيديها الفظيعتين ! »

وهنا ضاغت كوزيت نحيبها .

فصاحت نيناردييه الزوجة :

- « إخرمي ! »

ومضى الرجل ، مباشرة الى الباب المؤدي الى الشارع ، ففتحه ،

وخرج .

ولم يكذب يذهب ، حتى افادت نيناردييه الزوجة من غيابه فرفست

كوزيت ، القابعة تحت الطاولة ، رفعةً جعلت الطفلة تطلق صيحات عالية .

وُفتح الباب من جديد ، وبرز الرجل كرة اخرى ، حاملاً بيديه

الاثنتين تلك الدمية الاسطوانية التي تحدثنا عنها ، والتي كانت موضع

اعجاب جميع اطفال القرية منذ الصباح . ووقفها أمام كوزيت ، قائلاً :

- « خذي ، هذه لك ! »

واغلب الظن ان الرجل كان في خلال الوقت الذي قضاه هناك -

وهو يزيد على ساعة - قد لمع على نحو غامض ، وهو في غمرة من

التفكير ، 'دكان' الدمى تلك ، المضادة بالمصاييح وبالشموع على نحو ساطع

الى درجة جعلت في ميسور المرء ان يلحها من خلال زجاج الحانة ،

وكأنها شعلة من النور .

ورفعت كوزيت عينيها . لقد رأت الى الرجل 'يقبل' نحوها حاملاً

تلك الدمية وكأنها كانت ترى الى الشمس 'تقبل' نحوها ، وسمعت هذه

الكلمات التي لم 'يسمع' بمنحها من قبل : « هذه لك ! » ونظرت اليه ،

ونظرت الى الدمية ، ثم ارتدت الى الوراء في تودة ، فاخست ، أبعد

ما استطاعت الاختباء ، تحت الطاولة ، في زاوية الغرفة .

ولم تبك 'بعد' ، ولم تصرخ 'بعد' . لقد بدت وكأنها ما عادت بحرؤ

على التنفّس .

وغدت نيناردييه الزوجة ، وايونين ، وأزليها ، أشبه بالتأثيل .

ركف الشاربون أنفسهم عن الشرب . لقد وان سميت مهيب على الحالة كلها .

واستأنفت تيناردييه الزوجة - وقد تمجّرت واصابها البكم - حداثتها زوجها : « من ذلك المعجوز ؟ أهو شعاذ ؟ أهو مليونير ؟ لعله الاثنان معاً ، يعني لعله لص » .

اما وجه تيناردييه الزوج فتكتشف عن ذلك النفصن المعبر الذي يطبع الحيا البشري كلما تجلت فيه الفريرة السائدة بكامل قوتها الوحشية . لقد نقل صاحب الفندق طرفه من الدمية الى الماسفر ، ومن الماسفر الى الدمية ؛ ولقد بدا وكأنه يستروح هذا الرجل كما يستروح كيس دراهم . ولم يدم ذلك غير لحظة . لقد تقدّم نحو زوجته وهمس في أذنها قائلاً : - « هذه الماكينة تساوي ثلاثين فرنكاً على الاقل . كفى بلاهة » . واركمي على ركبتيك أمام هذا الرجل ! »

إن اصحاب الطبايع الفظة ليشاركون اصحاب الطبايع الساذجة في هذه الحصة ، وهي انهم لا يعرفون الانتقال التدريجي . فقالت تيناردييه الزوجة ، في صوت ارادت ان يكون عذبا ، ولكنه كان مركباً كلة من ذلك العسل الحامض - عمل النسوة الشريرات :

- « وبعد ، يا كوزيت ، ألا تريدان ان تأخذي دميك ؟ »  
وغارت كوزيت فخرجت من جحرها .  
وقال تيناردييه في جرس ملاطف :  
- « يا صغيرتي كوزيت . إن السيد يقدم اليك دمية . خذها .  
إنها لك . »

ونظرت كوزيت الى الدمية الرائعة في ضرب من الذعر . كان وجهها لا يزال غارقاً بالدمع ، ولكن عينيها شرعنا تنلثان ، شأن السماء عند انبلاج الفجر ، بأشعاعات ابتهاج غريبة . لقد كان الشعور الذي خاها

في تلك اللحظة يشبه بعض الشيء ذلك الشعور الجدير به ان يخامرها لو ان احداً قال لها فجأة : « ابنتها الصغيرة ، انت ملكة فرسة ! » وبدا لها أنها اذا ما لمست تلك الدمية انبثق الرعد منها .

وهو ما كان صحيحاً الى حد بعيد ، إذ قالت في ما بينها وبين نفسها إن تيناردييه الزوجة سوف توبخها وتضربها .

ومع ذلك ، فقد كان الاغراء اقوى منها . وهكذا تقدمت ، آخر الأمر ، وغضمت في حياء وهي تلتفت نحو تيناردييه الزوجة :

- « أستطيع ، يا سيدي ؟ »

إن ايما تمير لا يقدر على ان يصف ملامح وجهها التي كانت حافلة بالأس ، والذعر ، والحبور ، في آنٍ معاً .

وقالت تيناردييه الزوجة :

- « يا السهي ! لمنها لك . ما دام للسيد قد اعطاك اباه . »

فقال كوزيت :

- « هل هذا صحيح ؟ هل هذا صحيح ، يا سيدي ؟ هل السيدة

لي ؟ »

وترأى الغريب وقد فاضت عيناه بالدمع . لقد بدا وكأنه بلغ مرحلة الانفعال تلك حيث لا يتكلم المرء مخافة ان ييكى . وحتى رأسه لكوزيت انحناء تؤذن بالموافقة ، ووضع يد « السيدة » في يدها الصغيرة .

وسارت كوزيت الى سحب يدها ، وكان يد « السيدة » قد أحرقها ، وأنشأت تنظر الى الأرض . وهنا نظطر الى ان تضيف انها أخرجت لسانها ، في تلك اللحظة ، على نحو مفرط . وفجأة ، استدارت وأمسكت بالدمية في لفة .

وقالت :

- « سوف ادعوها كلارين . »

وكانت لحظة غريبة تلك التي التقت فيها اسمال كوزيت البالية بعصائب  
الدمية وشاشها الموصل الأزهر الرقيق ، وضغطت عليها .  
وقالت :

- « سيدتي ، هل تستطيع ان أضعها على كرسي ؟ »  
فاجبتها تيناردييه الزوجة :  
- « نعم ، يا بنيتي . »

كانت ايونين وآزليلا هما اللتين نظرتا الى كوزيت في حسد .  
ووضعت كوزيت كاترين على كرسي ، ثم قعدت على الارض أمامها ،  
وظللت جامدة ، لا تنطق بكلمة ، متخذة وضع المستغرق في التأمل .  
وقال الغريب :

- « لماذا لا نلعبين ، يا كوزيت ؟ »  
فاجبت الطفلة :

- « اوه ، اني أعب . »

وفي تلك اللحظة ، كان هذا الغريب ، هذا الرجل المجهول الذي  
بدا وكأنه مرسل من لدن العناية الالهية الى كوزيت ، هو الكائن الذي  
لا تكره تيناردييه الزوجة أحداً في العالم اكثر مما تكرهه . بيد انها  
كانت مضطرة الى ان تكبح جماح نفسها . كانت انفعالاتها أعنف مما  
تستطيع ان تختمل ، وهي التي تعودت المداراة بمحاولتها تقليد زوجها  
في جميع اعمالها . وفي الحال أمرت ابنتها بالايواء الى الفراش ، ثم  
التست من الرجل الاصفر الاذن في أن تدعو كوزيت الى النوم ايضاً ،  
مضيفة في جرس أمومي ان الفتاة الصغيرة متعبة اليوم جداً . ومضت  
كوزيت الى النوم ، حاملة كاترين بين ذراعيها .

ومضت تيناردييه الزوجة ، بين الفينة والفينة ، الى الطرف الآخر  
من الغرفة حيث كان زوجها لسكي تسوي عن نفسها ، كما قالت .  
وتبادلت وإياه بضع كلمات كانت من الضراوة بحيث لم تجرؤ على ان

تنطق بها جهاراً :

- « يا له من معتوه عجوز ! ما هذا الذي يدور في خاطره ؟  
يأتي الى هنا ويزعجنا ! يريد من هذه المسخ الصغيرة ان تلعب ! ويقدم  
اليها دمي ! يقدم دمي من صنف الاربعين فرنكاً الى كبة ابيها  
انا باربعين سو ! وبعد قليل ، سوف يقول لها يا صاحبة الجلالة كما  
يقولون لدوقة بري !\* أهو مالك قواه العقلية ؟ لا بد أنه مجنون ،  
هذا الرجل العجوز العجيب ! »

فأجابها تيناوديه :

- « لماذا ؟ المسألة بسيطة جداً . اذا كان يروق له ! أنت انما  
يروق لك ان تعمل الفتاة ؟ أما هو فيروق له ان تلعب ! إن له الحق  
في ذلك . في استطاعة نزيل الفندق ان يفعل ما يشاء اذا دفع الثمن .  
واذا كان هذا العجوز محسناً محباً للبشر فما يضيرك ذاك ؟ واذا كانت  
معتوهاً فليس هذا من شأنك . لماذا تتدخلين في هذه الامور ، ما دام  
يملك مالا ؟ »

لغة سيّد ومنطق فندقي لا يدع اي منها مجالاً لجواب .

كان الرجل قد أسند مرفقيه الى الطاولة ، واستأنف وضعه التأملي  
الحالم . وكان جميع النزلاء الآخرين ، من باعة وسائقي عربات ، قد  
نأوا بعض الشيء وكفوا عن الغناء . لقد نظروا اليه من بعيد في ضرب  
من الخوف الموقر . فقد كان هذا الرجل المرتدي مثل هذه الاعمال  
البالية ، الذي يخرج من جيبه القطع النقدية ذوات الحمة الفرنكات في  
كثير من اللامبالاة ، والذي يغدق الدمى الضخمة على فتيات قذرات  
ينتعلن احذية خشبية - كان هذا الرجل من غير شك إنساناً سليم الطوية ،  
إنساناً راثماً وخيفاً .

---

\* Duchesse de Berry ( ١٧٩٨ - ١٨٧٠ ) زوجة شارل فرديناند الابن الثاني للملك

شارل العاشر ، وكانت ابنة لرنوا الاول ملك نابولي .

وانقضت عدة ساعات . وتلي قداس منتصف الليل ، وانتهت وجبة ما بعد عيد الميلاد ، وانصرف الشاربون ، وأغلقت الحانة ، وهجرت القاعة السفلى ، ونحلت النار ، ومع ذلك فقد ظل الغريب في المكان نفسه ، والوضع نفسه . لقد غيّر ، بين الفينة والفينة ، المرفق الذي كان يستند اليه ، وكان ذلك كل شيء . ولكنه لم ينبس بكلمة منذ ان مضت كوزيت .

واقامت تيناردييه الزوجة وحدها ، وبسبب من اللياقة والفضول ، في القاعة . وغفمت : « أيعتزم ان يمضي الليل هكذا ؟ »

وحين اعلنت الساعة الثانية صباحاً ، اعترفت بانها هزمت وقالت لزوجها : - « أنا ذاهبة الى الفراش . في استطاعتك ان تفعل ما يحلو لك » .

وجلس الزوج الى طاولة ما ، في احدى الزوايا ، واضاء شمعة ، وراح يقرأ صحيفة « البريد الفرنسي » .

وانقضت على هذا النحو ساعة او يزيد ، قرأ الفندقّي الفاضل في اثناها صحيفة « البريد الفرنسي » ثلاث مرات على الاقل ، من تاريخ العدد الى امم الطابع . ولكن الرجل الغريب لم يتحرك .

وتحرك تيناردييه ، وسعل ، وبصق ، وتمخط ، وراح يحدث بكربيه صرياً . ولم يتحرك الرجل . وقال تيناردييه بينه وبين نفسه : « أهو قائم ؟ » ان الرجل لم يكن نائماً ، ولكن أياً شيء لم يكن قادراً على إيقاظه . واخيراً نزع تيناردييه قلنسوته وتقدم في رفق وغامر بالقول :

« الا يعتزم سيدي ان يجمع ؟ »

لقد بدا له انه لو قال « ألا يعتزم سيدي أن ينام ، اذن لكان ذلك ثقل الوطأة اكثر مما ينبغي ، بالغ الابتذال . اما قوله « ان يجمع » فكان ينطوي على ترف وكان ينم عن احترام . ومثل هذه الكلمات لها تلك الخاصة الحفية الرائعة التي تمكنها من تضخيم الفاتورة في صباح اليوم التالي . فالغرفة التي تنام فيها تكلف عشرين سو ؛ على حين ان الغرفة التي تهجع فيها تكلف عشرين فرنكاً .

وقال الغريب :

- « نعم . انت على صواب . اين الاسطبل ؟ »

فأجابه تيناردييه في ابتسامة :

- « سيدي ، انا سوف ادلّ سيدي على الطريق . »

واخذ الشعلة ، واخذ الرجل صرّته وعصاه ، وقاده تيناردييه الى غرفة في الدور الاول . كانت ذات بهاء نادر ، واثاث من خشب الماهوغاني ، وسرير رفيع المهاد ، وسجّفة من نسيج قطني أحمر .

وقال المسافر :

- « ما هذه ؟ »

فأجاب صاحب الفندق :

- « إنها غرفة عرسنا الخاصة . نحن نحتل غرفة بمائة لهذه ، انا وزوجتي . ان هذه الغرفة لا تقفح غير ثلاث مرات او اربع مرات في العام . » فقال الرجل في خشونة :

- « انا افضل الاسطبل عليها . »

وبدا تيناردييه وكأنه لم يسمع هذا الجواب الذي تعوزه البياقة . واضاء شمعتين لم تمسا من قبل ، كانتا قائمتين فوق الموقد . وكانت فار حنة التاجع تضطرم في الموقد . وعلى غطاءه ، تحت صندوق زجاجي ، كانت قبة نسوية مصنوعة من خيوط فضية ومزدانة برسوم زهر البرتقال .

وقال الغريب :

- « ما هذا ؟ »

فأجاب تيناردييه :

- « سيدي ، إنها قبة زفاف زوجتي . »

ونظر الغريب الى ذلك الشيء نظرة بدت وكأنها تقول : « لقد انتفضت إذن لحظة كانت فيها هذه الغولة عذراء . »

ولكن تيناردييه كان يكذب . فعين استأجر هذا البيت الفقير ليعوته



الى مطعم ، وجد الغرفة مؤتة على ذلك النحر ، واشترى هذا  
الاثاث ، ورسوم زهر البرتقال لاعتقاده بأن ذلك يلقي ظلًا انيقاً على  
« قريته » ، ويخلع على مؤسته ما يدعو الانكاز الجلال .

حتى اذا التفت المسافر كره اخرى لم يجد صاحب الفندق . كان تينارديه قد  
انسل في لباقة من غير ان يجرؤ على ان يمتنى للغريب ليه سعيدة ، لعدم رغبته  
في ان يعامل بمودة غير محشمة وجلًا كان يمتزم ان يسلم جلدته ، في  
كثير من الابه ، صباح اليوم التالي .

لقد انقلب صاحب الفندق الى غرفته . وكانت زوجته في سريره ،  
ولكنها لم تكن نائمة . فما إن سمعت وقع قدمي زوجها ، حتى التفتت  
اليه وقالت :

« هل تعلم اني سوف اطرد كوزيت ، غداً ، من البيت ؟ »

فأجابها تينارديه في برود :

« اجل أعلم ذلك حقاً . »

ولم يتبادلا كلاماً آخر ، وما هي الا لحظات حتى كانت شمعتيها قد  
أطفئت .

أما المسافر فكان قد وضع عصاه وصرنه في زاوية . حتى اذا ولى  
صاحب الفندق ، جلس في كرسي ذي ذراعين ، وظل فترة من الوقت  
يفكر ، ثم خلع نعليه ، وحمل احدي الشمعين ، وأطفأ الاخرى ،  
ودفع الباب ، وغادر الغرفة ، بجلا الطرف في ما حوله وكأنما كانت  
يبعث عن شيء . واجتاز برواق ، وتقدم نحو السلم . ثم إنه سمع  
صوتاً بالغ العذوبة كان اشبه شيء بتنفس طفل . وعلى هدي من ذلك  
الصوت انتهى الى تجويف مستطيل مبني تحت السلم ، أو مُشكل على  
الاصح بالسلم نفسها . ولم يكن ذلك التجويف ، غير الفسحة التي تحت  
السلم . وهناك بين مختلف ضروب السلال العتيقة وأصناف الحطام القديم ،  
وسط الغبار وخيوط العنكبوت كان فراش ، اذا جاز ان تدعى فراشاً

تلك الحشية المملأى بهذا القدر من الثقوب حتى لقد تكشفت عن التبن ،  
وذلك الغطاء الملى بهذا القدر من الثقوب حتى لقد تكشفت عن الحشية .  
ولم يكن ثمة مراثف . كانت الحشية موضوعة على البلاط مباشرة .  
وهناك ، في هذا السرير ، كانت كوزيت نائمة .  
واقترب الرجل منها ، ونظر إليها .

كانت كوزيت مستغرقة في نوم عميق . وكانت مرتدية ثيابها كلها .  
وفي الشتاء كان من دأبها ان لا تنزع ثيابها تخفيفاً لوطأة البرد .  
كانت تفضّل إليها الدمية التي التمتعت عيناها ، الراسعتان المفتوحتان ،  
في الظلام . وبين الفينة والفينة كانت تصعد زفرة عميقة ، وكأنها على  
وشك ان تستيقظ ، وتصر الدمية هصرأ يكاد يكون تشنجياً . وكانت  
فردة واحدة من حداثها الحشي الى جانب فراشها ، ليس غير .

وكان باب مفتوح على مقربة من مأوى كوزيت الخفي يكشف عن  
غرفة كبيرة قاتنة . ودخل الغريب تلك الغرفة . حتى اذا بلغ اقاصها  
لمح ، من خلال نافذة زجاجية ، سريرين صغيرين توأمين شديدي البياض .  
كانا سريرى آزيما وايبوين . وخلف هذين السريرين كاث محتجب ،  
نصف احتجاب ، سرير خيزراني لا ستائر له . وفي ذلك السرير كان ينام  
الطفل الصغير الذي لم يكفّ عن الصراخ طوال المساء .

وقدّر للرجل الغريب ان تكون هذه الغرفة متصلة بغرفة تينارديه  
الزوجة . وكان على وشك ان ينسحب عندما وقعت عيناها على الموقد ،  
وكان من تلك الموائد الضخمة التي في الفنادق - حيث النار هزيلة  
ابداً ، حين يكون ثمة نار - والتي يوقع النظر إليها البرد في الاوصال .  
وفي ذلك الموقد ، لم تكن نار ، بل لم يكن رماد . ومع ذلك فان  
ما كان هناك لفت انتباه المسافر . ولم يكن ما لفت انتباهه غير فردتي  
هذه صغير من احذية الاطفال ، فردتين أبيضتي الشكل ، مختلفتي  
الحجم . وتذكر المسافر تلك العادة الظرفية الخالدة التي تقضي ان

يضع الاطفال أحذيتهم في الموقد ليلة عيد الميلاد ، وان ينتظروا هناك في الظلام طمعاً في الحصول على هدية مشرقة من جنيتهم الطيبة . وبذلت ايبونين وآزيليما جهداً حَسَناً لكي لا تنسيا ذلك ، فوضعت كل منهما فردة من حذاءها في الموقد .

وانحنى تزيل الفندق فوقها .

كانت الجنية - يعني الأم - قد قامت بزيارتها ، وكانت تلتصع في كل من فردتي الحذاء قطعة نقدية جميلة ، بالغة الجودة ، من فئة العشرة سو .

ونفض الرجل ، وكان على وشك الذهاب ، عندما لمع في المدى البعيد ، وعلى حدة ، عند زاوية الموقد الاشد حلكة ، شيئاً آخر . ونظر ، فرأى حذاء خشبياً ، حذاء مروجاً من اغلظ الخشب ، نصف منكسر ، ومغطى كله بالرماد والوحل اليابس . كان ذلك حذاء كوزيت . ذلك ان كوزيت كانت قد وضعت هي الاخرى حذاءها في الموقد ، فحذوها ثقة الطفولة المؤثرة التي يمكن أن 'تخدع دائماً من غير ان تثبط عزيمتها البتة .

ما أسمى الأمل وما أعذبه في طفلة لم تعرف قط غير اليأس ! ولم يكن في ذلك الحذاء شيء .

وبحث الغريب في جيوب صدره ، وانحنى ، ووضع في حذاء كوزيت الخشبى ليرة ذهبية لوبسية . ثم انقلب الى غرفته من غير ان يحدث صوتاً ما .

## ٩

### تيناردويه يناور

وفي صباح اليرم التالي ، قبل ساعتين من طلوع الشمس ، على الاقل ،

جلس تينارديه الى طاولة في قاعة الحانة السفلى ، والى جانبه شجرة وفي يده قلم ، وانشأ يُعدّ فاتورة المسافر ذي السترة الطويلة الصفراء .

كانت زوجته واقفة ، نصف منحنية فوقه ، تتبعه بعينها . ولم يتبادلا كلمة ما . فمن ناحية ، كان التأمل العميق ، ومن الناحية الاخرى كان ذلك الاعجاب الخاشع الذي يستولي علينا حين نرى الى معجزة من معجزات العقل البشري تثبت وتفتح . وسمعت في الفندق ضجة . كانت القسوة تكس السلم .

وبعد ربع ساعة او يزيد ، وبعد شيء من الشطب ، أخرج تينارديه هذه الرأفة :

#### فاتورة السيد الناؤل في الغرفة رقم ١

عشاء	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	٣ فرنكات .
غرفة	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	« ١٠
شبح	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	« ٥
فر	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	« ٤
خدمة	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	.	« ١
المجموع																		٢٣ فرنكا

وكانت كلمة خدمة مكتوبة هكذا : خدمت \* .

وصاحت المرأة في حماسة ممتزجة بشيء من التردد :

- « ثلاثة وعشرون فرنكاً ! ،

ومثلّ جميع الفنانين الكبار ، لم يكن تينارديه راضياً .

وقال :

---

\* في الأصل أن. كلمة Service كانت مكتوبة هكذا Service وقد رأينا ان يؤدي المني الذي رمى اليه المؤلف ، وهو جيل تينارديه لقواعد الرسم او الاملاء ، من طريق كتابة التاء المربوطة تاء مبسطة .

- « تبا له ! »

كانت تلك نبوة كاسلري \* وهو يُعده لمؤتمر فيينا الفاتورة التي كانت على فرصة ان تدفعها .

ونغمت المرأة ، وقد فكرت في الدمية التي 'قدّمت الى كوزيت في حضرة بنتها :

- « مسيو تينارديه ، انت على صواب . إنه يستحق ذلك جيداً .

هذا منصف ، ولكنه اكثر بما ينبغي . إنه لن يدفع المبلغ . »

فابتسم تينارديه ابتسامته الباردة ، وقال :

- « سوف يدفعه . »

كانت تلك الضحكة اسمى أمارات الثقة والسلطان . وما قيل على

هذه الشاكلة ، يجب ان يكون . ولم تصرّ المرأة قط . لقد اخذت

ترتيب الطاولات ، بينا راح زوجها يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . وبعد

لحظة أضاف :

- « أنا مدين بالف وخمسة فرنك ، على الاقل . »

وجلس في زاوية الموقد ، وانشأ يفكر واضعاً قدميه على الرماد الحار .

وقالت المرأة :

- « آ ، ها ! انت لم تنسَ اني سوف أطرد كوزيت ، اليوم ،

الى الشارع ؟ يا لها من مسخه ! إنها تسحق فؤادي بدميتها ! اني افضل

ان اتزوج لويس الثامن عشر على ان أبقيا يوماً إضافياً في البيت ! »

وأشعل تينارديه غليونه ، وأجاب بين الجحنيين :

- « أنت ستقدمين الفاتورة الى الرجل . »

ثم خرج .

ولم يكده يغادر الغرفة حتى دخلها المسافر .

---

\* Castlereagh سياسي انكليزي ( ١٧٦٩ - ١٨٢٢ ) كان روح التحالفات الأوروبية التي تمّت ضد نابليون .

وفي الحال برز تيناردييه ، كرة اخرى ، من ورائه ، وظل جامداً  
لدى الباب نصف المفتوح ، فليس يراه احد غير زرجه .  
وحمل الرجل الاصفر عصاه وصرقه بيده .

وقالت تيناردييه الزوجة :

- « لقد استيقظت باكراً جداً ! ايعترم سيدي ان يفارقنا  
اللحظة ؟ »

وفيا هي تتكلم ، أدارت الفانورة بين يديها في سياء مرتبكة ،  
وراحت تنفضها بأظافرها . ونمّ حياها للقاسي عن ظنّ من الجبن والشك  
لم يكن مألوفاً .

لقد بدا لها أن في تقديم مثل هذه الفانورة الى رجل تبدو عليه  
مظاهر « الشجاذ » كاملةً إحراجاً كبيراً .

وبدا المسافر مشغول البال ، ذاهلاً .

وأجابها :

- « نعم ، يا سيدي . أنا راحل . »

فأضافت :

- « واذن فليس عند سيدي أعمال في مونفيرماي ؟ »

فأردف :

- « لا . أنا عابر سبيل . هذا كل ما هنالك . كم يتعين عليّ ان

أدفع ، يا سيدي ؟ »

وناولته السيدة تيناردييه الفانورة المطوية ، ولم 'نجب بشيء' .

ونشر الرجل الورقة ، ونظر اليها . ولكن أفكاره كانت ، على

نحو واضح ، في مكان آخر .

وسألها :

- « هل تسير الاعمال على ما يرام في مونفيرماي ؟ »

فاجابت السيدة تيناردييه وقد انشدهت إذ لم تشهد انفجاراً آخر :

- « بين بين ، يا سيدي . »

ثم تابعت في جرسر فاجع يدعو الى الرثاء :

- « اوه يا سيدي . الازمة شديدة ، وليس في ديارنا هذه غير نفر قليل من الاغنياء ! انها قرية صغيرة ، كما ترى . ليقنا ننعم بين الفينة والفينة بنزلاء اغنياء ، مثلك يا سيدي ! ان لدينا نفقات كثيرة . ان تلك الفتاة الصغيرة تكلفنا عيوننا نفسها . »

- « أبة فتاة صغيرة ؟ »

- « تلك الصغيرة التي تعرفها ! كوزيت ! القبرة ، كما يدعونها

في المنطقة ! »

فقال الرجل :

- « آه ! »

وتابعت :

- « ما أشد بلاهة هؤلاء النلاحين والالخاب التي يخلعونها على الناس ! انها تشبه الحفّاش اكثر مما تشبه القبرة . وكما ترى ، يا سيدي ، فنحن لا نلتس الصدقة ، ولكننا عاجزون عن تقديمها .

نحن لا نربح شيئاً ، وإن علينا اشياء كثيرة يجب ان تدفع . فهناك الاجرة ، والضرائب ، والابواب والنوافذ ، ومختلف الرسوم المفروضة على كل شيء ! وسيدي يعلم ان الحكومة تطالب بمقدار هائل من المال . والى هذا ، فأن عندي بنتي . ولست في حاجة الى ان أغيل اطفال الناس . »

واجابها الرجل في صوت رغب في ان يجمعه لامبالياً ولكنه كان ينطوي على ارتجافة :

- « افرضي ان امرأاً خلّصك منها ؟ »

- « بمن ؟ كوزيت ؟ »

- « نعم . »

وغدا وجه الفندقية الاحمر العنيف متهللاً بانطباعة مخيفة :  
- « آه ، يا سيدي الطيب ! خذها ! احتفظ بها ، اذهب بها ،  
اصطحبها ، حملها بالسكر ، اطبخها بالكماء ، اشربها ، كلتها ،  
ولتباركك مريم العذراء وجميع قديسي السماء ! »  
- « اتفقنا ! »

- « صحيح ؟ سوف تذهب بها ؟ »

- « سوف اذهب بها . »

- « في الحال ؟ »

- « في الحال . نادي الطفلة ! »

فصاحت تيناردييه الزوجة :

- « كوزيت ! »

وتابع الرجل :

- « وفي انتظار ذلك ، سوف أدفع اليك فاتورتي ، ما مبلغها ؟ »

والقى نظرة على الفاتورة ، ولم يتمكن من ان يكبح حركة من حركات

الدهش :

- « ثلاثة وعشرون فرنكاً ! »

ونظر الى صاحبة الفندق وكرر :

- « ثلاثة وعشرون فرنكاً ؟ »

وكان في النطق بهاتين العبارتين ، المكررتين على هذا النحو ، تلك

التبرة التي تقصل ما بين علامة التعجب وعلامة الاستفهام .

وكانت تيناردييه الزوجة قد وجدت متسعاً من الوقت لأعداد نفسها

للصدمة . فأجابت في توكيد :

- « نعم ، طبعاً ، يا سيدي ! انها ثلاثة وعشرون فرنكاً . »

ووضع الغريب خمس قطع نقدية من فئة الحصة الفرنكات على الطاولة وقال :

- « اذهبي واثنين بالفتاة الصغيرة . »



وفي تلك اللحظة تقدم تيناردييه الى منتصف الغرفة وقال :

- « السيد مدين بستة وعشرين سو . »

فصاحت المرأة :

- « ستة وعشرون سو ! »

وتابع تيناردييه في برود :

- « عشرون سو مقابل الغرفة ، وستة سو مقابل العشاء . اما للفتاة

الصغيرة فيتعين عليّ ان اتحدث مع السيد في شأنها . اتركينا وحدنا ايها الزوجة . »

واصبحت تيناردييه الزوجة بضرب من ذلك الانشده الذي توقعه في نفس

المرء برارق العبقرية المفاجئة . لقد استشعرت ان المنزل العظيم قد دخل

الى المسرح ، فلم تجب بكلمة ، ومضت لسيلها .

وما إن خلا تيناردييه بالمسافر حتى قدم اليه كرسياً . وقعد المسافر ،

ولكن تيناردييه ظل واقفاً ، وقد اتخذ وجهه انطباعة فريدة من اللطيفة

واللباسطة . وقال :

- « اسمع ، ياسيدي ، ينبغي ان اقول انني اعبد هذه الطفلة . »

فنظر اليه الغريب نظراً موصولاً .

- « اية طفلة ؟ »

وتابع تيناردييه :

- « ما أعجب ذلك ! لقد جمعت المحبة ما بيني وبينها ! ما هذه القطع

الفضية كلها ؟ أعد قطع العشرة سو الى جيبك . هذه الطفلة أنا اعبدُها . »

وسأله الغريب :

- « من هذه ؟ »

- « واوه ، كوزيتنا الصغيرة ! ألا تريد ان تأخذها منا ؟ انا اتكلم في

صراحة حقاً ؟ فما لا ريب فيه - كما انه لا ريب في انك رجل فاضل -

اني لن اوافق على ذلك . فانا سوف أفقد هذه الطفلة ، من غير شك .

لقد عرفتها منذ ان كانت صغيرة جداً . صحيح انها تكلفنا مالاً ؛ صحيح

ان لها اخطاها ؛ صحيح اننا لسنا اغنياء ؛ صحيح اني دفعت اكثر من اربعمئة فرنك ثمن ادوية لمرض واحد من امراضها ليس غير ؛ ولكننا يجب ان نعمل شيئاً في سبيل الله هذه الطفلة لا أم لها ولا أب . لقد نشأتها انا . إن عندي من الحب ما يكفيها وما يكفيني . الحق اني يجب ان أحتفظ بهذه الطفلة . ولا ريب في انك قد فهمت ، فنحن قوم اصحاب عاطفة . انا ، شخصياً ، هيمة كبيرة . انا لا احكم العقل . اني أحب هذه الفتاة الصغيرة . إن زوجتي نزقة ، ولكنها تحبها ايضاً . وكما ترى ، إنها مثل ولد من اولادنا . انا احس بالحاجة الى هذرها وثرثرتها في البيت .

كان الغريب يحدق اليه طوال الوقت . وتابع حديثه :

« عفواً يا سيدي ، ومعذرة ، ولكن المرء لا يقدم طفله على هذه الشاكلة الى عابر سبيل . اليس صحيحاً اني على صواب ؟ وبعد هذا فقلت اقول - فأنت رجل غني ، وتبدو عليك سيما الرجل الطيب - ان هذا لن يكون لمصلحتها . ولكني يجب ان أعرف ، أتعلمني ؟ لنفرض اني تركتها تذهب وانني ضحيت بعواطفي فأني أحب ان اعرف الى اين سوف تذهب . انا لا اريد ان أفقد متعة النظر اليها ؛ انا اريد ان اعلم في بيت من هي ، لكي اذهب وأراها بين الفينة والفينة ، ولكي تعرف ان الرجل الطيب الذي رباها ، والذي هو في مقام أبيها ، لا يزال يراها . واخيراً فتنة اشيء غير ممكنة . انا لا اعرف حتى اسمك ، فاذا ما ذهبت بها فليسوف اقول : وألسا على القبرة الصغيرة ! الى اين ذهبت ؟ يجب على الاقل ان ارى قصاصة ورق بالية ، قطعة من جواز سفر ، او شيئاً ما . ومن غير ان يكفّ المسافر عن النظر اليه تلك النظرة التي نفذت ، اذا جاز التعبير ، الى اعماق الضمير ، اجابه في جرس وقور ثبتت :

« ميسو تيناردييه ، إن الناس لا يأخذون جواز سفر لكي يأتوا الى مكان يبعد خمسة فراسخ عن باريس . اذا اخذت كورزيت اخذتها . هذا كل ما هناك . انك لن تعرف اسمي . انك لن تعرف مقري . انك

لن تعرف الى أين سامضي بها . وفي نيتي ان اجعلها لا تراك في حياتها  
بعد اليوم ابدأ . سوف اكسر السلك الذي يطوق قدميها ، وسوف تمضي .  
هل يوافقك ذلك ؟ نعم أم لا ؟

وكما نحسّ الشياطين والجنّ ، من بعض الأمارات ، أنها في حضرة  
ربّ أسى ، كذلك ادرك تيناردييه انه امام وجل قوي جداً . كان  
ذلك أشبه بالحدس ؛ لقد فهمه ببصيرته الصافية الناقبة . فنيا كان يجتسي  
الحرق ، اللبلة البارحة ، مع سائقي العربات ، وفيها هو يدخن ، وفيها هو  
يفني الاغاني البذيئة ، جعل من همه أن يراقب الغريب طوال الوقت ،  
وان يترصده مثل هرة ، ويدرسه مثل عالم رياضي . لقد تربص به  
لحسابه الخاص ، للمتعة وبدافع من الغريزة ، وأحصى عليه الانفاس ،  
في وقتٍ معاً ، وكان أحداً قد دفع اليه أجراً على ذلك . إن إيماءة  
واحدة او حركة واحدة من إيماءات الرجل ذي السترة الصفراء أو  
حركاته لم تفتنه . وحتى قبل أن يفصح الغريب عن اهتمامه بكوزيت ،  
كان تيناردييه قد تنبأ بذلك . لقد باغت نظرات هذا المعجوز المتطلعة ،  
الملتفتة ابدأ نحو الطفلة . علام هذا الاهتمام ؟ ومن هذ الرجل ؟ ولماذا  
يرتدي مثل هذه الملابس البائسة ما دام كليس دراهمه حافلاً بذلك المال  
كله ؟ تلك كانت اسئلة وجّهها الى نفسه من غير أن يجد لها جواباً ،  
فهي تقلقه وتثيره . لقد سلخ الليل كله وهو يفكر بها . إن هذا الرجل  
لا يمكن ان يكون أباً كوزيت . أهو جدما ؟ واذن ، فلماذا لم يُعلن  
عن نفسه منذ اللحظة الاولى ؟ فحين يكون للمرء حق في شيء ، يعتمد  
الى إظهاره . وواضح ان هذا الرجل لا حق له في كوزيت . وإذن  
فمن هو ؟ وثاه تيناردييه في ضروب من الافتراضات . لقد لمح كل  
شيء ، ولكنه لم ير شيئاً . وأباً ما كان ، فحين بدأ عبادته هذا الرجل  
- واثقاً من ان ثمة سرّاً في ذلك كله ، موقناً من أن الرجل شديد  
الرغبة في ان يظل مجهول الهوية - استشعر أنه قوي . حتى اذا جاءه

جواب الغريب الواضح الصارم وادرك أن هذه الشخصية الغامضة كانت غامضة لا أكثر ولا أقل ، استشر أنه ضعيف . إنه ما كان يتوقع شيئاً من مثل ذلك . لقد هزمت ظنونه وأحداسه . واستجمع فكراته . وراز ذلك كله في ثانية . فقد كان تيناردييه واحداً من أولئك الرجال الذين يفهمون وضعاً ما ، من اللعبة الأولى . وقدّر ان هذه هي اللحظة التي يتعين عليه فيها ان يمضي قدماً وعلى نحو سريع . لقد فعل ما يفعله القادة العظام في تلك اللحظة الحاسمة التي يعرفون هم وحدهم أن يدركوها . لقد كشف القناع ، فجأة ، عن مدفعيته . وقال :

« يجب ان أحصل على الف وخمسة فرنك ، ياسيدي . »  
وأخرج الغريب من جيبه الجانيي محفظة دراهم عتيقة مصنوعة من جلد أسود ، وفتحها وسحب منها ثلاث اوراق نقدية ووضعها على الطاولة . ثم إنه أراح إبهامه الضخم فوق هذه الاوراق ، وقال للفندي :  
« أدع كوزيت . »

وفيا كان ذلك كله يجري ، ماذا كانت كوزيت تعمل ؟  
لم تكذب كوزيت تنهض من فراشها حتى سارعت الى حضانها الخشبي ، فوجدت فيه القطعة الذهبية . إنها لم تكن ليرة نابوليونية ، ولكن إحدى تلك القطع الجديدة ، ذوات العشرين فرنكاً ، التي سُكّت في عهد عودة آل بوربون الى العرش والتي حلّ ساق الزهر البروسي الصغير ، على وجهها ، محل تاج الغار . وشُدّعت كوزيت . لقد بدأ قدَرُها يُسْكِرُها . إنها لم تدرك أنها قطعة ذهبية ، فهي لم ترَ من قبل ليرة من ذهب ، فسارعت الى إخفائها في جيبها وكأنها قد سرقها . ومع ذلك ، فقد استبشرت بها خيراً . وحزرت من أين جاءت تلك الهدية ، ولكن ضرباً من الهبة المليئة بالذعر مرى في أوصالها . كانت منشرفة الصدر ، وكانت فوق كل شيء ذاهلة مشدودة . ان هذه الاشياء الرائعة الى هذا

الحد ، الجيلة الى هذا الحد ، بدت وهمية في عينيها . فالدمية قد أخافتها ، والليرة الذهبية قد أخافتها . لقد ارتجفت في دهش أمام هذا البهاء كله . أما الغريب فكان هو وحده الذي لم يوقع الرعب في فؤادها . على العكس ، لقد هدأ من روعها . فنزد الليرة الباردة - من خلال دهشها كله ، وفي أثناء رقادها - وهي تفكر بعقلها الطفلي الصغير في هذا الرجل الذي كان يبدو عجوزاً ، فقيراً ، وكثيراً الى هذا الحد ، والذي كان على مثل هذا الغنى ، وتلك الطيبة . ومنذ ان التقت هذا الرجل الطيب في الغابة ، بدا لها وكأن جميع الاشياء قد تغيرت من حولها . فكوريت ، وكانت اقل سعادة من اذال سنونو في السماء ، لم تعرف قط معنى الاحتماء تحت جناح الأم . وطوال خمس سنوات ، اي منذ اقدم الايام التي كان في ميسور ذاكرتها ان ترقى اليها ، ارتجفت الطفلة المسكينة وارتعدت . كانت عارية أبداً تحت ربيع الشتاء الشرسة ، وها هي ذي الآن يتواهى لها أن جسها قد أمسى مكسواً . كانت روحها تستشعر لذع البرد ، من قبل ؛ أما الآن فهي دافئة . إن كوريت لم تعد خائفة من تيناردييه الزوجة ؛ إنما لم تعد وحدها . إن ثمة شخصاً يرواها ويُعنى بها .

وسارعت الى القيام بعملها الصباحي . ولكن هذه الليرة الذهبية اللويسية - التي كانت قد وضعتها في جيب مئزرها نفسه الذي سقطت منه قطعة الحمة عشر « سو » الليرة الباردة - ألفتها عن عملها . إنما لم تجرؤ على ان تمسها ، بيد انها كانت تتفق في كل مرة خمس دقائق متواصلة وهي تتأملها - وينبغي أن نعرف - مخرجةً لسانها . وفيما كانت تكف عن السلم ، كفت عن العمل ووقفت هناك جامدة ، ناسيةً مكنتها ، والعالم كله حولها ، وقد انهمكت في النظر الى تلك النجمة المتلألئة في قعر جيبيها .

وفي فترة من فترات التأمل هذه فاجأها تيناردييه الزوجة .

كانت قد مضت للبحث عنها ، نزولاً عند ارادة زوجها . ومن عجب  
لأنها لم تصفها ، ولم تقذفها بشبهة .

لقد قالت في جرس يكاد يكون عذبا :

- « كوزيت ، تعالي في الحال . »

وبعد لحظة ، دخلت كوزيت القاعة السفلى .

وتناول الغريب الصرة التي كان قد جلبها معه ، وفككتها . كانت  
تلك الصرة تحتوي على فستان صغير من الصوف ، ومئزر ، وصدرية  
ذات كتمين مصنوعة من قماش قطني خشن ، وتنورة داخلية ، ومنديل  
للمعنى ، وجوربين صوفيين ، وحذاء - مجموعة ثياب كاملة لفتاة في  
الثامنة . وكانت تلك الملابس كلها سوداء .

وقال الرجل :

- « خذي هذه ، يا بُنتي ، واذهي فالبسيها في سرعة . »

وكان الضعى يرتفع عندما وقعت أبصار سكان مونفيرماي الذين بدأوا  
يفتحون ابوابهم على رجل ساذج فقير الثياب يجتاز الطريق المؤدية الى  
باريس ، ممسكاً بيد فتاة صغيرة ترتدي ملابس حِداد كاملة ، وتحمل  
بين ذراعيها دمية كبيرة زهراء . لقد انجها نحو ليفري .

كانا صاحبنا وكوزيت .

ولم يعرف الرجل أحد . واذا لم تعد كوزيت ترتدي اسمالاً بالية  
فقد عرفها نفر قليل لبس غير .

لقد مضت كوزيت لسبيلها . مع من ؟ كانت تجهل ذلك . الى  
اين ؟ لم تكن تدري . كل ما فهمته أنها خلّفت وراءها مطعم تينارديه  
الفقير . ولم يخطر في بال احد ان يوجه اليها كلمة وداع ، ولم يخطر  
في بالها هي ان توجه كلمة وداع الى أحد . لقد غادرت ذلك البيت  
مكروهة " كارهة " .

بالها من مخلوقة رقيقة بائسة ، لم يعرف فؤادها حتى تلك اللحظة

سُبْحاً غير السَّحْقِ ١

وسارت كوزيت في رصانة ، فاتحة عينيها الواسعتين ، ناظرة الى الساء . كانت قد وضعت ليرتها الذهبية اللبسية في جيب مئزرها الجديد . وبين الفينة والفينة ، كانت تنعني وتلقي نظرة عليها ، ثم تنو الى الرجل الطيب . لقد استشعرت ، بعض الشيء ، وكأنها قرب الله .

١٠

من يلتبس الاحسن قد يقع على الاسوأ

كانت مدام تيناردييه ، وفقاً لعادتها ، قد تركت زوجها وشأنه . وكانت تتوقع احداثاً ذات شأن . حتى اذا انقضت خمس عشرة دقيقة أو تزيد على ذهاب الرجل وكوزيت ، اتعس بها جانباً وأراها الألف والمحسقة فرنك .

وقالت :

— « ما هذا ؟ »

كانت هذه هي اول مرة تجرأت فيها ، منذ زواجها ، على ان تنتقد عملاً من أعمال سيدها . وأحسن بأثر الضربة .

وقال :

— « صحيح ؟ انتِ على صواب ، انا معتوه . أعطيتني قبعتي . » وطوى الاوراق المالية الثلاث ، وأقعدها في جيبه ، وانطلق باقصى ما يستطيع من مرعة ، ولكنه ضل الطريق ، أخذاً يمينه باديء الامر . ولكنه سأل بعض الجيران فهدوه سواء السبيل . لقد شوهدت القبرة

والرجل سائر في اتجاه ليفري . فضى في ذلك الاتجاه ، منطلقاً بخطوات واسعة ، مخاطباً نفسه :

- « هذا الرجل هو من غير شك مليونير في ملابس صفراء ، أما أنا فبهيمة . لقد أعطى ، اول الامر ، عشرين سو ، ثم خمسة فرنكات ، ثم خمسين فرنكاً ، ثم ألفاً وخمسة فرنك ، ودفعها كلها في كثير من اليسر . ولقد كان على استعداد لأن يدفع خمسة عشر ألف فرنك . ولكني سوف أوقعه في الفخ مرة ثانية . »

ثم صرة الثياب هذه المعدة مقدماً من اجل الفتاة الصغيرة ، كل هذا كان غريباً . كان وراء ذلك سرّ خفي . وحين يضع المرء يده على سرّ فإنه لا يُفْلته إن اسرار الاغنياء قطع من الاسفنج مليئة بالذهب . ويتعين على المرء ان يعرف كيف يعصرها . كانت هذه الافكار كلها تعصف في دماغه . وقال :

- « أنا بهيمة . »

إن في امكان المرء ، حين يغادر موتهير ماي ويبلغ منعطف الطريق الى ليفري ، أن يرى الطريق تمتد امامه بعيداً بعيداً فوق النجد . حتى اذا انتهى الى هناك قدّر أنه سوف يرى الرجل والفتاة الصغيرة من غير ريب . ونظر الى اقصى ما تستطيع عيناه أن تنظرا ، ولكنه لم ير شيئاً . واستعلم كرة اخرى . وفي غضون ذلك ، كان الوقت يضع . وقال له بعض عابري السبيل ان الرجل والطفلة اللذين يبحث عنها مضيا نحو الغابة في اتجاه غاني . فسارع الى الانطلاق في هذا الاتجاه . كانا قد سبقاه ، ولكن الطفلة تمشي في تودة ، على حين ينطلق هو في سرعة . والى هذا فقد كان يعرف المنطقة معرفة جيدة .

وفجأة كف عن السير ، وصقع جيئته مثل رجل نسي الشيء الرئيسي ، رجل على وشك ان يرتد على آثاره . وقال :



- « كان ينبغي ان اجيء بينديتي ! »

كان تيناردييه واحداً من اصحاب تلك الطبايع المزدوجة التي تبرز بيننا في بعض الاحيان من غير ان تدري ، والتي تختفي من غير ان نعرف ، لان القدر لم يُرنا إلا جانباً منها . فقد كتب على كثير من الرجال ان يعيشوا هكذا مغموين نصفَ عمر . ففي الحال الطبيعية الهادئة ، كان لدى تيناردييه ما هو ضروري لأن يصنع - ولا نقول لأن يكون - ذلك الذي تعودنا ان ندعوه تلجراً أميناً ، او مواطناً صالحاً . وفي الوقت نفسه ، وفي بعض الظروف الخاصة ، تحت وطأة بعض الهزات التي تثير طبيعته الدنيا ، كان في باطنه كل ما يحتاج اليه المرء لكي يكون شريراً فاتكماً . كان صاحب دكان يخفي في بُرديه غول . ولا ريب في ان ابليس قد جلس القرفصاء لحظةً ، في زاوية ما من الثقب الذي يقطن فيه تيناردييه ، ودرس هذه الرائعة الخفية .

وبعد ان تردد لحظة ، قال في ذات نفسه :

- « ولكن هذا سوف يمنحها متسعاً من الوقت للهرب ! »

وواصل طريقه ، ماضياً الى الامام في سرعة ، وقد غلبت على بحياه سباه من الثقة تقريباً ، وساقته فطنة كفطنة الثعلب استروح سرباً من الجحلان .

والواقع أنه حين اجتاز المستنقعات ، وعبرَ على نحو موارب ذلك المرج العريض المتبسط الى عين شارع يلفو ، وانتهى الى المجاز المعشوشب الذي بطوق الكثيب ، أو يكاد ، والذي يستر القناة العتيقة التي تَجْرُ المياه الى دير « شيل » لمح على دغل من الادغال قبة كان قد بنى عليها كثيراً من الظنون والاحداث . كانت قبة رجل ، وكان الدغل منخفضاً ، وادرك تيناردييه ان الرجل وكوؤيت كانا جالسين هناك ، ولم يكن في ميسوره ان يرى الطفلة ، من جراء قصرها ، ولكنه كان قادراً على ان يلمح

رأس الدمية .

ولم يحدد تينارديه . كان الرجل قد جلس هناك لكي يمكن كوزيت من ان تروح بعض الشيء . وازاح صاحب المطعم الدغل ، وبرز فجأة امام أعين هذين اللذين يبحث عنهما . وقال وهو يلث لهائاً شديداً :

« عفواً ، وألتمس المذرة يا سيدي ، ولكن هذه هي الالف والحسنة فرنك التي دفعتها اليّ . »

وفيا هو ينطق بذلك قدم الاوراق المالية الى الرجل الغريب . ورفع الرجل عينيه وقال :

« ما معنى هذا ؟ »

فاجابه تينارديه في احترام :

« هذا يعني انني سوف أسترجع كوزيت يا سيدي . »

وارتعدت كوزيت ، وثبتت بالرجل الطيب .

اما هو فأجاب ، ناظراً الى تينارديه في عينه مباشرة ، مباعداً ما بين مقاطع الحروف :

« أنت تـ تـ تر - جع كوزيت ؟ »

« نعم ، يا سيدي ، سوف أسترجهما . اريد أن اقول لك . لقد فكرتُ .

في الواقع ، اني لا حق لي في ان اعطيك اياها . انا رجل امين كما ترى ، وهذه الفتاة الصغيرة لبست لي . انها ملك لأما . لقد استودعني اما اياها ، فليس في استطاعتي ان أحلها إلا الى اما . وقد تقول لي : ولكن أما ماتت . حسناً ، في هذه الحال لا أستطيع ان أسلم الفتاة إلا الى شخص يحل اليّ امراً موقعاً من الأم ينصّ على ان من واجبي ان أسلم الفتاة اليه . هذا شيء واضح . »

ومن غير ان يجيب ، بحث الرجل في جيبه ، ورأى تينارديه الحافظة المنطوية على الاوراق المالية تبرز من جديد .

وسرت في اوصال الفندق رعدة من البهجة .  
وقال فيما بينه وبين نفسه :

« حسن ! اصمد . انه يريد ان يرشوني . »

وقبل ان يفتح حافظة نقوده ،لقى المسافر نظرة على ما حوله . كان  
المكان خالياً تماماً فلم تكن ثمة نفس واحدة لا في الغابة ، ولا في الوادي .  
وفتح الرجل حافظة نقوده وسحب منها لا الاوراق المالية التي كانت  
تينارديه يتوقعها ، ولكن قصاصة من ورق ما لبث ان نشرها وقدمها  
الى صاحب الفندق قائلاً :

« أنت على صواب . إقرأ هذا ! »  
وتناول تينارديه الورقة ، وقرأ :

موتروني سور مير ، لي ٢٥ آذار ، ١٨٢٣

« مسيو تينارديه ،

« سوف تسلم كوزيت الى ناقل هذه الرسالة .

« إنه سوف يدفع اليك جميع الديون الصغيرة .

« لي الشرف ان احبك في احترام .

« فانتين . »

وأردف الرجل :

« اتعرف هذا التوقيع ؟ »

كان توقيع فانتين حقاً . ولقد عرفه تينارديه .

ولم يكن ثمة ما يقوله . لقد استشر غبطاً مضاعفاً ، فهو مغيظ  
لاضطرابه الى التخلي عن الرشوة التي منى النفس بها ، وهو مغيظ للهزيمة  
التي اصابته . وأضاف الرجل :

« في استطاعتك ان تحتفظ بهذه الورقة كأصل . »

وانسحب تينارديه في نظام .

ودمدم قائلاً :

- « هذا التوقيع مزور تزويراً بارعاً . حسن ، فليكن ذلك ! »

ثم إنه بذل جهداً يائساً ، فقال :

- « هذا حسن ، يا سيدي . واذن فأنت الناقل المشار إليه .

ولكن عليك أن تدفع جميع الديون الصغيرة » . إنها مدينة لي بمبلغ  
ضخم . »

ونفض الرجل واقفاً ، وقال وهو ينفض بطرف سبابته بعض الغبار

عن رذنه المهترية :

- « مسيو تينارديه ، في كانون الثاني قدرت الأم انها مدينة لك

بمئة وعشرين فرنكاً . فأرسلت اليها في شباط مذكرة بخمسة فرنك .

ولقد تلقيت ثلاثئة فرنك في آخر شباط ، وثلاثئة فرنك في مطلع آذار .

وانقضت منذ ذلك الحين تسعة اشهر ، كل شهر بخمسة عشر فرنكاً ،

وهو السعر المتفق عليه ، وهذا يجعل مطلوبك مئة وخمسة وثلاثين فرنكاً .

ولقد قبضت مئة فرنك مقدماً ، فيكون قد بقي لك خمسة وثلاثون

فرنكاً . ومع ذلك فقد اعطيتك ، منذ لحظة ، ألفاً وخمسة فرنك . »

واستشعر تينارديه ما يستشعره الذئب لحظة يجد نفسه بين فكي

الشرك الفولاذيين .

وقال في ذات نفسه :

- « أي شيطان هو هذا الرجل ؟ »

وفعل ما يفعله الذئب . فانتفض انتفاضة قوية . كانت الجرأة قد

نجحت معه قبل الآن .

وقال في عزم ، طارحاً هذه المرة كل تظاهر بالاحترام :

- « ايها السيد الذي لا اعرف له اسماً . سوف استرجع كوزيت

أو تعطيني ألف ريال . »

فقال الغريب في هدوء :

- « كوزيت ، تعالي . »

وأمسك كوزيت بيده اليسرى ، ورفع عصاه باليمنى ، وكانت على الأرض .

ولاحظ تيناردييه ضخامة المراوة ، ووحشة المكان .

واختفى الرجل في الغابة ، ومعه الطفلة ، مخلّفاً صاحب الفندق جامداً مرتبكاً .

وفيا هما ينطلقان لاحظ تيناردييه منكبيه المريضين ، المقوسين بعض الشيء ، وقبضتيه الضمختين .

ثم وقفت عيناه على ذراعيه هو ، القميصين وبديه هو ، المهزولتين ، وقال في ما بينه وبين نفسه :

- « لقد كنت مجنوناً حقاً اذ لم آت ببندقيتي ما دمت خارجاً

الى القنص . »

ومع ذلك فان الفندقى لم يكفّ عن تعقبه ، قائلاً :

- « يجب ان اعرف الى اين سوف يذهب . »

وشرع يتبعهما من على مسافة ما . وكان قد بقي بين يديه شيطان ، اولهما سخريه مريرة ، هي قصاصة الورق الموقعة فانتين ، والثاني عزاء ، وهو مبلغ الالف والخمسة فرنك .

كان الرجل يقود كوزيت في اتجاه « ليفري » و « بوندي » . كان يمشي في تؤدة ، مطاطناً رأسه ، وقد رانت على وجهه سيما التفكير والحزن . وكان الشتاء قد عرّى الغابة عن الاوراق ، بحيث اصبح في ميسور تيناردييه ان يتبعهما بصره ، برغم بقائه بعيداً عنهما بعداً غير يسير . وبين الفينة والفينة ، كان الرجل يتلفت فويرى ما اذا كان احدٌ يقفني آثاره . وفجأة ، لمح تيناردييه . فما كان منه إلا ان دخل هو وكوزيت غابة تُقطع اشجارها في العادة ، فغابا عن العيان .

وقال تينارديه :

« يا للشيطان ! »

وضاعف سرعته .

وأكرهته كثافة الغابة على أن يقترب منها . عى اذا انتهى الرجل الى اشد اجزاء الغابة كثافة ، استدار راجعاً . وكان تينارديه قد حاول الاختباء بين الاغصان ، ولكنه لم يوفق الى ان يمنع الرجل من رؤيته . والتقى الرجل نظرة قلقة ، عليه . ثم هز رأسه ، واستأنف سيره . فما كان من الفندقى إلا أن تعقبه كرة أخرى . وتقدما على هذا النحو مثنى خطوة او ثلاثئة خطوة . وفجأة ، استدار الرجل من جديد . ولمح الفندقى . ونظر اليه هذه المرة نظرة كالحة الى حد جعل تينارديه يقدر أن « من غير المجدي ، الذهاب الى أبعد . فرجع من حيث أتى .

## ١١

رقم ٩٤٣٠ يظهر كرة اخرى

وكوزيت تربحه في اليانصيب

إن جان فالجان لم يمت .

فحين سقط في البحر ، او على الاصح حين ألقى بنفسه فيه ، كانت كما قد رأينا غير راسفٍ في الاغلال . لقد سبح تحت الماء الى سفينة راسية مُشد إليها مركب من المراكب .

ووجد سبيلاً مكنته من الاختباء في هذا المركب حتى المساء . وفي موطن من الليل قذف بنفسه كرة اخرى في الماء ، وانتهى الى

الساحل على مسافة غير بعيدة من رأس و برون .  
واذ كان المال لا يعوزه فقد تمكن من الحصول على بعض الملابس ،  
هناك . فقد كانت في ضواحي بالاغوييه حانة صغيرة تروّد الفارين من  
سجن الاشغال الشاقة بالملابس ، وكانت تجارة رابحة . وعندئذ سلك  
جان فالجان سبيلاً غامضاً مترحلاً ، شأن جميع اولئك الشاردين التعساء  
الذين يحاولون ان يضلّوا أرواح القانون والقدر الاجتماعي . ووجد  
مأوى ، بادي الامر ، في برادو ، قرب بوسيه . ثم اتجه نحو « غران  
فيلار » قرب بريانسون ، في « الألب العليا » . فراراً تحسبي قلق ،  
وسبيل اشبه بسبيل الخلد ذات التشعبات المجهولة . ولقد اكتشف في  
ما بعد شيء من آثاره في « ابن » ، فوق مقاطعة سيفريو ، وفي  
البيرينيه ، عند « آكون » ، في مكان يدعى « « غرانج دو دوميك »  
قرب قرية شافاي ، وفي ضواحي بيريفو ، عند بروثي » ، وهي قضاء  
من أقضية « شابل غوناغيه » . واخيراً وصل الى باريس . ولقد  
رأيناه بعدُ في مونفيرماي .

وكان اول همومه ، لدن بلغ باريس ، ان يشتري ثوب حداد لفتاة  
صغيرة يتراوح عمرها ما بين السابعة والثامنة ، وان يبحث بعد ذلك  
عن مكان يبيت فيه . حتى اذا تم له هذا مضى الى مونفيرماي .

ويذكر القارئ انه كان قد قسام ، عند فراره الاول او حوالى  
ذلك الحين ، برحلة خفية لبحث العدالة وميضاً منها .

والى هذا ، فقد سرى الاعتقاد بأنه قد مات ، وذلك ما كتف  
الظلمة التي اكتفت . وفي باريس ، وقعت بين يديه احدى الصحف التي  
دونت الواقعة . فاستشعر الطمأنينة وقدرأ من الامن يكاد يعدل ذلك  
الذي كان خليقاً به ان يستشعره لو انه مات حقاً .

وفي مساء اليوم نفسه الذي وُفق فيه جان فالجان الى انتراع كوزيت  
من مغالب تيناردييه وزوجته ، عاود الدخول الى باريس . لقد دخل

المدينة ، هو والطفلة ، عند هبوط الليل ، من باب مونسو . وهناك استأجر عربية ذات دولابين أقلته الى ساحة المرسد . ثم ترجل من العربية ، ودفع الأجر الى السائق ، وأمسك بكوزيت من يدها ، وانشأ يمشيان ، في الليل البهيم ، عبر الشوارع المهجورة المجاورة لـ «أورسين» ولا «غلاسير» ، نحو جادة المستشفى .

كان النهار غريباً حافلاً بالانفعالات التي حملها الى كوزيت . وكنا قد أسكنا خلف الأسبجة المكونة من الاشجار الشائكة خبزاً وجبناً اشترياهما من بعض المطاعم الحظيرة المتعزلة ؛ وكنا قد انتقلا عدة مرات من عربية الى عربية ، وقطعنا مسافات فصاراً على اقدامهما ، فلم تشك ولم تتذمر ، ولكنها كانت متعبة ؛ ولقد ادرك جان فالجان ذلك من جذبها ليداه اثناء السير جذباً اشدّ وطأة من ذي قبل . وحلها على ظهره . ووضعت كوزيت رأسها ، من غير ان 'نقلت كاترين ، على كتف جان فالجان ، واستسلمت للرقاد .



## الكتاب الرابع

### بيت غوربو العتيق

١

#### الاستاذ غوربو

منذ اربعين سنة ، كان المنزلة المتوحد الذي يغامر في التقدم الى  
مجاهل « لا سالبيريير » ، وبصعد في الجادة حتى « باب ايطالية » ،  
ينتهي الى مناطق بعينها حيث يمكن القول ان باريس قد اختفت . انها  
لم تكن بقعة مهجورة ، فقد كان ثمة عابرو سبيل . ولم تكن ريفاً ،  
فقد كانت ثمة بيوت وشوارع . ولم تكن مدينة ، فقد كانت الشوارع  
ملأى بالاخاديد ، مثل الجواد الكبيرة ، وكان العشب نامياً على حوافها .  
ولم تكن قرية ، فقد كانت المنازل مرتفعة جداً . ماذا كانت اذن ؟

كانت بقعة آهلة ليس فيها احد من الناس ؛ كانت بقعة " مهجورة ينزلها  
نفر من الناس ؛ كانت جادة من جوادة المدينة العظيمة ، شارعاً من  
شوارع باريس ، اشدّ وحشة - في الليل - من غابة ، واكثر كآبة  
- في النهار - من مقبرة .

كانت حيّ " مارشييه أو شيفو " القديم .  
ولو قد غامر هذا المتزوّج بالمضيّ الى ما وراء جدران " مارشييه أو  
شيفو " الاربعة المتداعية ، ولو قد ارتضى ان يذهب حتى الى ابعـد  
من شارع " بيتي بانكبييه " بعد ان يخلّف الى يمينه " فناءً تحيط به  
اسوار عالية " ثم مرجأً مرصعاً بأكداس من قشر الدبّغ اشبه ما  
تكون بتلك السدود الضخمة التي تبنيها كلاب الماء ؛ ثم حظيرة " نقص"  
مخشب البناء وإكروام من أرومات الاشجار والنشارة والتجارة كانت  
ينبع من أعلاها كاب ضخم ، ثم جداراً طويلاً منخفضاً متهدماً ذا  
باب صغير أسود هرم يكسوه الطحلب المتقل بالازهار في أيام الربيع ،  
ثم - في البقعة الاكثر وحشة - بناءً مروّعاً متهدماً " كتب عليه بأحرف  
ضخام " ممنوع إلصاق الاعلانات " - نقول لو قد غامر هذا المتزوّج  
الجسور بذلك كله اذن لانتهى الى زاوية شارع " فيني" سان مارسيل " ،  
وهي رقعة لا يعرفها غير القليل . هناك ، قرب احد المصانع ، وبين  
جدارين من جدران الجنائن كان يرى آنذاك بيت عتيق متهدم يبدو ،  
للنظرة الاولى ، صغيراً مثل كوخ ، ومع ذلك فقد كان واسعاً مثل  
كاندراوية . كان ينهض وحائط جكوته \* متجه نحو الجادة ، ومن هنا  
صفره الظاهري . لقد كان البيت كله محجوباً تقريباً . إن المرء ما كان في  
مبـسوره ان يرى منه غير الباب واحدى الدوافذ ليس غير .  
ولم يكن ذلك البيت المتداعي مؤلفاً من اكثر من دور واحد .

---

\* الجملون بناء على هيئة ستام الجمل . وهو يعرف في الفرنسية بـ pigeon وفي  
الانكليزية بـ gable .

وكانت الخاصة التي تبدء الناظر اليه ، الراغب في درسه ، اول ما تبده ، ان ذلك الباب ما كان يمكن ان يكون ، في يوم من الايام ، غير باب بيت حقير ، على حين ان النافذة كان يمكن ان تكون لو ركبت في حبر مربع او منحوت لا في حبر مرضوم \* - نافذة قصر من القصور .

كان الباب مجرد مجموعة من أكواخ خشبية أكلها السوس ، مُشد بعضها الى بعض ، على نحو أخرق ، بعوارض تشبه قطعاً من القود قدت قدأ رديثاً . وكان يفتح مباشرة على سلم شديدة الانحدار ذات درجات عالية يعلوها الوحل ، والحص ، والغبار - سلم يبلغ عرضها عرض الباب ، وتبدو من الشارع وكأنها تنهض على نحو ممودي مثل مرقاة ، وتحتفي في الظلام بين جدارين . وكان أعلى الفسحة للشاة التي ينفلق عليها هذا الباب مقعماً بمجازر علوي ضيق نُشرت في وسطه فوهة مثلثة الزوايا كانت حين يوصد الباب بمثابة كوة وخادة \*\* في آن معاً . وعلى داخل الباب كانت فرشة مغمسة بالحبر قد رسمت بضربتين من ضربات مُجمع اليد الرقم ٥٢ ، وفوق الحاجز كانت الفرشة نفسها قد خربشت الرقم ٥٠ حتى ليرتد الوافد الجديد ويتساءل : « ابن أنا » . إن أعلى الباب يقول : « في المنزل ذي الرقم ٥٠ » . ولكن داخله كان يجيب : « لا » في المنزل رقم ٥٢ . اما الاحمال الفبارية اللون المتدلية مثل السائر حول الحادة المثلثة الزوايا فلن نحاول ان نصفها .

كانت النافذة عريضة ، وعلى ارتفاع غير يسو . وكانت ذات مصاريع خارجية ، وأطر ذات الواح زجاجية عريضة . بيد ان تلك الالواح الزجاجية العريضة كانت قد أصيبت بمجروح مختلفة أخفتها وأعلنت عنها ، في وقت معاً ، ضمادات ورقية غير بارعة . وكانت المصاريع الخارجية محطمة مفككة الى حد جعلها تهدد عابر السبيل بالخطر ، اكثر مما تصون النازلين في البيت . كانت تموزها ، هنا وهناك ، العوارض الخشبية

\* رضم الحجارة جبل بعضها على بعض من غير ان ينحتها ويهوها .  
 \*\* الحادة : هي الباب الصغير الذي يكون في الباب الكبير .

الافقية ، وقد استعوض عنها بالروح مُتمتت عمودياً ، بحيث ان ما كان في اول الامر مصاريع خارجية ، انتهى الى ان يصبح مصراعاً مصقحاً . وكان ذلك الباب بظهوره القدر ، وتلك النافذة بسيماها اللانفة ، رغم تهدمها ، منظوراً اليها هكذا في بناية واحدة ، يتوكان في النفس مثل الاثر الذي يتركه مشهد شعاذين يمزقي الثياب بمضيان في اتجاه واحد ويمشيان جنباً الى جنب ، وقد تكشفت كل منها ، تحت الاعمال نفسها ، عن سيما خاصة ، فأما احدهما فأشبهه برجل سلخ عمره كله شعاذاً ، وأما الآخر فكان في يوم ما شريفاً من الاشراف .

وكانت السلم تقود الى بناء فسيح جداً هر أشبه شيء بسقيفة مُحولت الى بيت . وكان شريان المواصلات الرئيسي في هذا البناء رواقاً طويلاً تفتتح الى يمينه والى يساره أشباه غرف ذات أبعاد مختلفة ، غير آهة الا في النادر ، وهي اقرب الى ان تكون حوانيت صغيرة خشبية منها الى ان تكون غرفاً . وكانت هذه الحجرات تطل على الاراضي المجاورة غير الواضحة المعالم . وكانت كلها مظلمة ، قابضة للصدر ، شاحبة ، كشيبة تذكّر بالمقابر ، وكانت تخترقها ، تبعاً لمواضع الشقوق وكونها في السقف أو في الباب ، أشعة الشمس الباردة حيناً ، ورياح الشمال المثلوجة حيناً آخر . ومن الخصائص الطريفة الماثمة التي يمتاز بها هذا الضرب من البيوت ضخامة عناكبها .

والى يسار الباب الرئيسي ، المطل على الجادة ، كانت نافذة صغيرة مسدودة تشكل ، على ارتفاع ستة اقدام تقريباً عن الارض ، كوة مربعة ملأى بالحجارة التي قذفها بها الصبية اثناء مرورهم من هناك . كان جزء من هذا البناء قد هُدم منذ قريب ، ولكن ما بقي منه اليوم لا يزال في ميسوره ان يعطي فكرة عما كان عليه من قبل . إن البناء ، بوصفه كلاً واحداً ، لا يزيد عمره على مئة عام . والمئة عام شباب بالنسبة الى كنيسة من الكنائس ، ولكنها شيخوخة بالنسبة الى

بيت من البيوت . لكناً بيت الانسان يشاركه في وجوده الموجز ،  
على حين ان بيت الله يشاركه في سرمديته .

وكان سعاة البريد يدعون البيت رقم ٥٠ - ٥٢ ؛ بيد أنه كانت  
معروفاً في الحي بـ « بيت غوربو » .  
فلننظر من اين جاء هذا اللقب .

ان متصيدي الصغار التافهة الذين يجمعون النواذر والحكايات كما  
يجمع دارس النباتات والحشائش اعشابه ، ويشكّتون التواريخ الزائلة في  
ذواكرهم بدبوس ، يعرفون انه كان في باريس ، في القرن الماضي ،  
حوالى سنة ١٧٧٠ ، نائبان عامان في الـ « شاتيليه » \* احدهما يدعى « الغراب »  
Corbeau والآخر يدعى « الثعلب » Renard - وهما اسمان تنبأ بهما لافوتتين .  
وكانت الفرصة جديّة مواتية لأرسال النكتة ، فليس من المعقول ان يضعها  
جماعة المساعدين القضائيين . وهكذا ما لبثت أروقة قصر العدل أن ضجت  
بالتحريف التالي ، في أبيات عرجاء بعض الشيء :

« كان الاستاذ الغراب جاثماً فوق أحد الملفات  
مسكاً في منقاره حكماً بالاعدام سبياً .  
وأغرت الزاحفة الاستاد الثعلب  
فروى على مسامحه هذه الحكاية :  
هاى ، صباح الخير ! النع .. »

واذ اغتناظ هذان الموظفان المخلصان لهذا المزاح المستبح ، واذا كانت  
عواصف الضحك التي تعقبه تتعارض وكرامتها ، فقد اعتزما تغيير اسميهما  
ملتسجين من الملك ان يميز لهما ذلك . وقُدّمت المريضة الى لويس  
الخامس عشر في ذلك اليوم نفسه الذي انحنى فيه ، بنحشوع ، سفير البابا  
والكاردينال « لا روش ايمون » ، في حضرة جلالاته ، لكي يضع كل

---

\* Châtelet وكان مقر محكمة الجنايات في باريس .

منها فردة من بابوج مدام دوبلوي \* في رجلها العاريتين وهي تنهض من السرير . وواصل الملك - وكان يضحك - ضحكه ذاك ، وانتقل في حبور من الأسقفين الى النائبين العامين ، وأحلّ رُجلي القضاء هذين من اسميها ، أو كاد . فقد أجيّز للاستاذ كوربو Corbeau ( القراب ) ، مع سرور الملك ، ان يضيف ذيلًا الى الحرف الاول من اسمه ، بحيث امسى غوربو . أما الاستاذ رينار Renard ( الثعلب ) فكان أقلّ حظاً ، اذ لم يفز باكثر من إذن اجاز له ان يضع حرف P قبل حرف ال R ، بما جعل الكلمة « برينار » Prenard \*\* ، وهو اسم لم يكن أقلّ ملائمة من الاسم الاول .

والآن ، فقد كان الاستاذ غوربو هذا ، وفقاً للرواية المحلية ، صاحب البناء المرقم ٥٠-٥٢ ، جادة المستشفى ، وكان هو ، كذلك ، مبتدع النافذة الفخمة .

ومن هنا اكتب ذلك البناء اسمه : بيت غوربو .

ومقابل رقم ٥٠-٥٢ تنهض ، بين اشجار الجادة ، شجرة دودار سامقة ، شبه ميتة . وتجاهها تقريباً امتد شارع « باب غوبلين » وهو شارع كان آنذاك من غير منازل ، ومن غير تعبيد ، وكانت تحيط به اشجار هزيلة خضراء او موحلة تبعاً لفصول السنة ، حتى يتصل ، عند زاوية قائمة ، بالسور الذي يطوق باريس . كانت رائحة كبريتات الحديد تقفح ، هبات هبات ، من سطوح مصنع مجاور .

وكان باب باريس قريباً جداً . ففي عام ١٨٢٣ كان سور المدينة لا يزال قائماً .

وكان هذا الباب نفسه يملأ الذهن بالصور القائمة . كان على الطريق

---

\* Contesse du Barry معظية لويس الخامس عشر وقد أعدمت في عهد الارهاب

( ١٧٤٣ - ١٧٩٣ ) .

\*\* ومعناها الرجل الشر .

المؤدبة الى «بيستر» . ومن هناك كان السجناء المحكوم عليهم بالموت ، في عهد الامبراطورية وعهد عودة آل بوربون الى العرش ، يدخلون باريس ، ككرة اخرى ، يوم إعدامهم . وهناك وقعت ، حوالى عام ١٨٢٩ ، تلك الجريمة الخفية التي 'دعيت' « جريمة باب فونتنبلو » ، والتي لم توفق السلطات قط الى اكتشاف أبطالها - مسألة فاجعة لما 'تجلى' بعد ، ولغز مروع لما 'يحل' . فاذا تقدمت بضع خطوات الى أمام تجد شارع كرولبارب المشؤوم حيث طعن أولباش 'بخنجره' الفتاة الايفرية المعازة ، تحت قصف الرعد ، على طريقة المآسي المسرحية . واذا تقدمت ، ككرة ثانية ، بضع خطوات ، انتهت الى دردارات باب « سان جاك » البغيضة المظووعة الرؤوس ، تلك الوسيلة التي اصطنعها عبو البشر لاختفاء المقصلة ، الى ساحة الاعدام تلك الدنيئة المحزنة التي اقامها مجتمع دكاكيني مديني موسر 'يحمل' من عقوبة الموت ، ومع ذلك فهو لا يجرؤ على ان يلغياها في جلال ، او يحتفظ بها في سلطان . ومنذ سبع وثلاثين سنة ، وباستثناء « ساحة سان جاك » تلك ، التي بدت وكأنها وازحة تحت وطأة قضاء سبقي محتوم والتي كانت مروعة دائماً ، كانت النقطة الاكثر عبوساً في هذا الشارع العابس هي في اغلب الظن تلك البقعة التي نهض فيها بناء ٥٠ - ٥٢ العتيق ، والتي لا تزال منقورة الى اليوم .

ولم تشرع البيوت المدينية 'تطلع' رؤوسها هناك إلا بعد خمس وعشرين سنة . فقد كانت المحلة مقينة . فبالإضافة الى الافكار الكئيبة التي تسبب بك هناك ، كنت تستشعر انك بين « لاساليتيريير » \* البادية قبتة لناظريك ، وبيستور \* \* القريب بابها اليك - يعني بين جنون المرأة وجنون

---

\* la Salpêtrière مأوى لقنوة الجائز في باريس ، ولدت نتاج فيه ايضاً المعتوهات والصابات بالهستيريا .

\*\* Bièvre قرية فرنسية فيها مأوى شهير للجائز والمجانين .

الرجل . وعلى مدى البصر لم يكن ثمة ما يُرى غير المسالخ ، وسور المدينة ،  
وقليل من واجهات المصانع الشبيهة بالسكنات او الاديرة . ففي كل مكان  
اكواخ واكداس من حطام الجلس ، وجدران قديمة سوداء كتوب حِداد  
الارملة ، وجدران جديدة بيضاء كالأكفان . وفي كل ناحية صفوف اشجار  
متوازية ، وابنية ناهضة على نحو مستقيم : ابنية منخفضة مسطحة ، وخطوط  
طويلة باردة ، وتلك الكتابة الحِدادية التي توحبها الزوايا القائمة . لا تفاوت  
في صفحة الارض ؛ لا سُذوذ في الفن المعماري ؛ لا انحراف او التواء .  
وكان ذلك في مجموعه شيئاً منلوجاً نظامياً بشعاً . وليس من شيء يقبض الصدر  
كالتناظر *symétrie* فالتناظر هو السأم ، والسأم هو روح الاسى والكتابة .  
ان اليأس يتشاءب . وفي استطاعتنا ان نتخيل شيئاً أفظع من جهنم التي  
نسام فيها العذاب ، هي جهنم التي نصاب فيها بالسأم . ولو قد كان ثمة  
مثل جهنم هذه ، اذن لكان هذا الجزء من جادة المستشفى جديراً بان  
يكون هو المدخل اليها .

وحين يهبط الليل ويختصر النهار ، وبخاصة في الشتاء ، في تلك اللحظة  
التي تجرد فيها ريح المساء شجرات الدردار من اوراقها الناصلة الداوية ،  
حين تكون الظلمة حالكة تعوزها النجوم او حين يحدث القمر والريح  
صدوعاً في السحب ، تصبح هذه الجادة ، فجأةً ، مروعة . كانت الخطوط  
المستقيمة تغوص وتختفي في الظلام مثل فلذ اللانهاية . فلا يتالك عابر السبيل  
من ان يفكر في تقاليد البقعة الدامية التي لا تحصى . فقد كان في  
وحشة هذه المنطقة حيث اقتشفت جمهرة كبيرة من الجرائم ، شيء مخيف .  
ان المرء ليخيل اليه ان قلبه يجدته بان في هذه الظلمات أشراكاً ، واذا  
بجميع الاشكال المختلطة في العتمة تبدو مريبة ، واذا بالتجاويف الطويلة المربعة  
التي يلحها بين كل شجرة وشجرة ، تبدو كالفبور . في النهار كانت تلك  
البقعة بشعة ، وفي المساء كانت كثيفة ، وفي الليل كانت مشؤومة .  
وفي الصيف ، عند الغسق ، كان المرء يرى ههنا وههناك بعض



النسوة العجايز الجالسات ، تحت شجر الدردار ، على مقاعد جعلتها  
الامطار شبه عتة . كانت هاتيك العجايز الطبيبات مدمنات للشحاذة .

وعلى الجلة ، فان هذا الحي الذي بدا شيئاً زال زمانه اكثر مما بدا  
شيئاً عتيقاً ، أخذ منذ ذلك الحين يتخذ هيئة اخرى . لقد أمسى كل من  
يرغب في رؤيته ، ابتداءً من تلك الفترة ، مضطراً الى الاسراع . ففي  
كل يوم كان يزول جزء من اجزاء ذلك المجموع . فالآن ، ومنذ عشرين  
سنة خلت ، كانت نهاية خط اورليان الحديدي هناك ، خارج الضاحية  
القديمة تماماً ، فهي تبقى على قيد الحركة . فحيثما نجد في ضواحي عاصمة  
من العواصم مستودعاً من مستودعات السكة الحديدية ، فاعلم ان ثمة  
قوية ثوت ، ومدينة تولد . لكأنما حول هذه المراكز الكبرى لنشاط  
الامم ، وحول دمدمة هذه الماكينات الجبارة ، وحول خيول الحضارة  
العلاقة هذه التي تأكل النعم وتقي النار ، ترتجف الارض الملأى بجرانيم  
الحياة ، وتفتح فيها لتبتلع منازل الناس القديمة وتطلع المنازل الجديدة .  
إن المنازل القديمة لتتهار ، وإن المنازل الجديدة لتنبثق .

ومنذ أن غزا مستودع سكة حديد اورليان اراضي لا سالبيريير ،  
والشوارع القديمة الضيقة المجاورة لحادق « سان فيكتور » و « حديقة  
النباتات » ترتجف ، وقد اخذت تجتازها ثلاث مرات او اربع مرات  
يومياً ، وفي غنف ، سيول من عربات المسافرين ، وعجلات الكراء ،  
والمركبات العامة التي ترد البيوت الى الورا . خلال فترة من الزمان -  
ذات اليمين وذات الشمال . ذلك بان ثمة أشياء تراهى غريبة في  
الآذان ، ومع ذلك فهي صحيحة مئة بالمئة . وكما ان من الصواب  
القول إن الشمس تعمل على إغناء واجهات البيوت المتجهة  
نحو الجنوب في المدن الكبرى ، فكذلك لا ينكر ان مرور  
العربات الموصول يزيد في عرض الشوارع إن أعرض حياة جديدة  
لواضحة لعيان . ففي ذلك الحي البلدي القديم ، وفي زواياه الاشد

إيجاشاً ، بدأ بلاط الشوارع يبرز ، واخذت الارصفة تنبتق وتندّ الى مسافات أطول فأطول ، حتى في تلك المواطن التي ما تزال خلواً من عابري السبيل . وذات صباح - ذات صباح تاريخي في تموز سنة ١٨٤٥ - شوهدت قدور سوداء ملأى بالزفت تطلق الدخان هناك . وفي ذلك النهار كان في ميسور المرء ان يقول ان الحضارة وصلت الى شارع الداوربين ، وان باريس قد دخلت ضاحية د سان مارسو .

## ٢

### عش لـبوم ودُخْلة \*

أمام بيت غوردو العتيق هذا وقف جان فالجان . لقد اختار مثل جوارح الطير ، المكان الأشدّ انزاعاً لكي يبني عشه .

وبحث في صدره ، واخرج منها ضرباً من مفتاح تعنو له الاطفال كلها ، وفتح الباب ، ودخل ، ثم أعاد اغلاق الباب في عناية ، ورفق السلم وهو لا يزال حاملاً كوزيت .

وعند أعلى السلم اخرج من جيبه مفتاحاً آخر فتح به باباً ثانياً . كانت الغرفة التي دخلها واعاد اغلقها في الحال ضرباً من العلية ، فسيحة بعض الشيء ، ليس فيها من الاثاث غير حشيتة ممددة على الارض ، وطارلة ، وبضعة كراسي . وكان في احدى الزوايا موقد مشعل تبدو جمراته للعيان .

وأضاء مصباح الجادة هذه الغرفة الحظيرة اضاءة باهتة . وفي طرفها الاقصى ، كانت غرفة صغيرة تحتوي على سرير ذي 'سيور' . وعلى هذا السرير وضع جان فالجان الطفلة من غير ان يوقظها .

\* الدخّل والدخلة طائر صغير مفرد .

وقدح بالزند ناراً ، وأضاء شمعة ؛ وكان ذلك كله مُعداً على الطاولة مقدماً . وكما فعل في الليلة البارحة انشأ يحدثني الى كوزيت في نظرات ملأى بنشوة الجذل ، وقد كادت انطباعة الطيبة والحنان الغالبة عليها ان تبلغ حد الحبل . وكانت الفتاة الصغيرة قد استسلمت للرقاد - بتلك الثقة الهادئة التي لا ترافق الا القوة القصوى او الضعف الاقصى - من غير ان تدري مع مَنْ كانت ، وواصلت نومها من غير ان تعرف اين كانت .

وانحنى جان فالجان وقبّل يد الطفلة .  
ولنسة أشهر خلت قبّل يد الام التي كانت ، ايضاً ، قد استسلمت منذ لحظة ، للرقاد .  
وملاً فؤاده ذلك الاحساس عينه ، ذلك الاحساس الفاجع ، التقى ، الممض .

وركع قرب سرير كوزيت .

كانت الشمس قد اشرقت ، ومع ذلك فالطفلة ما تزال نائمة . وعبر نافذة العلية شعاع شاحب من أشعة شمس كانون الاول ورسم على السقف خيوطاً طويلة من الظل والضوء . وفجأة ارتجحت كارة قالسح حجارة ، مُثقلة بأحمالها ، فوق حصاء الجادة وهزّت البناء العتيق وكأنها عاصفة ، فاذا به يرتجف من أساسه الى قمة رأسه .

وأفاقت كوزيت بحفلة ، وصاحت :

- « نعم ، مدام ! ها قد جئت ! ها قد جئت ! »  
ووثبت من السرير ، وأجفأها ما تزال نصف منمضة بتقل النوم ، وبسطت ذراعها نحو زاوية الجدار .  
وقالت :

- « آه ، يا الهي ، يا الهي ، أين مكنتني ؟ »  
وهنا كانت عيناها قد انفتحتا على مدامها ، فرأت وجه جان فالجان

الباسم .

وقالت الطفلة :

- « اوه ، نعم ، هذا صحيح ! صباح الخير ، يا سيدي . »

ان الاطفال ليتقبلون البهجة والسعادة في سرعة وفي ألفة لانهم هم  
انفسهم ، بالفطرة ، عنوان السعادة والبهجة .

وبصرت كوزيت بكاترين عند قدم سريرها ، فاستولت عليها في  
الحال . وفيما هي تلعب ، وجهت الى جان فالجان مئة من الاسئلة :  
ابن هي ؟ وباريس ، اهي بلدة كبيرة ؟ ومدام تيناردييه ، اهي بعيدة  
جداً ؟ هل سترجع كرة اخرى ؟ الخ . الخ . وفجأة صاحت :

- « ما اجل هذا المكان ! »

كان كوخاً مخيفاً ، ولكنها استنشقت نسيم الحرية .  
واردفت آخر الامر :

- « اليس من واجبي ان اكنس ؟ »

فقال جان فالجان :

- « لمعي ! »

وهكذا انقضى النهار . ومن غير ان تتعب نفسها بمحاولة فهم شيء ،  
نعمت كوزيت بسعادة تمتنع عن التعبير ، بين هذه الدمية ، وهذا  
الرجل الطيب .

### ٣

## بؤسان يمتزجان فيولدان سعادة

وطلع صباح اليوم التالي على جان فالجان وهو على مقربة من  
كوزيت ايضاً . كان ينتظر هناك ، من غير حراك ، ليرى اليها

وهي تستيقظ .

كان شيء جديدٌ يُداخل روحه .

إن جان فالجان لم يحب شيئاً في يوم من الايام . لقد سلخ خمساً وعشرين سنة وهو وحيد في هذا العالم . إنه لم يكن ، ذات يوم ، أباً أو عاشقاً ، أو زوجاً ، أو صديقاً . وفي سبعين المحكوم عليهم بالاشتغال الشاقة ، كان نكدأ ، كالح الوجه ، عفيفاً ، جاهلاً ، نفوراً . كان فؤاد هذا المعجوز المحكوم عليه بالاشتغال الشاقة مليئاً بالبئسولات . إن أخته وأطفال اخته لم يخلفوا في نفسه غير ذكرى غامضة وبعيدة ، ما لبثت آخر الامر ان تلاشت . لقد بذل غاية جهده للعثور عليهم ، حتى اذا لم يجدهم نسيمهم . فالطبيعة البشرية هكذا خلقت . اما عواطف شبابه الرخصة الاخرى ، إن عرف شيئاً من ذلك ، فقد سقطت في هاوية . وحين رأى كوزيت ، حين أخذها ، حين ذهب بها وانقذها ، استشعر ان فؤاده قد تحرّته هزّة . لقد استيقظ كل ما فيه من مشاعر وانفعالات واندفع في عنف نحو هذه الطفلة . كان يقترب من الفراش الذي ترقد فيه ، ويرتجف هناك من البهجة . لقد استشعر أسواقاً باطنية مثل أمّ من الامهات ، من غير أن يدري ما هي . ذلك بأنها جدّ مبهمة وجدّ عذبة هذه العاطفة العظيمة الغريبة التي تعمّر القلب في حبه الاول .

يا له من قلب شقيّ عجوز لا يزال غضاً طرياً !

ولكن ، لما كان هو في الخامسة والحسين وكانت كوزيت في الثامنة ، فان كل ما كان يمكن أن يستشعره من الحب في حياته كلها ذاب في ضرب من الاشعاع يحلّ عن الوصف .

كانت تلك هي الرؤيا البيضاء الثانية التي تبدّت له . كان الاسقف قد أطلع في افقه فجر الفضيلة ، ثم جاءت كوزيت فأطلعت في افقه ذاك فجر الحب .

وكرّرت الايام القليلة الاولى في غمرة من هذا الانشده .

وغدت كوزيت هي الاخرى ، من غير ان تدري ، شخصاً آخر .  
يا لها من كائنة صغيرة بائسة ! كانت صغيرة جداً حين فارقتها أمها فهي  
لا تتذكرها البتة . وكلما يفعل جميع الاطفال ، وهم في ذلك أشبه بطلاع  
الكرمة الغضة التي تتعلق بكل شيء ، حاولت كوزيت أن تحب .  
ولكنها ما كانت لتقدر على النجاح . لقد صدها الناس جميعاً : تينارديه  
وزوجته ؛ واولادها ؛ والاولاد الآخرون . وكانت قد أحبت الكلب  
ولكنه مات . وبعد ذلك لم يرض شخص ما ، بل لم يرض شيء ما ،  
ان تكون له صلة بها . وأمرٌ فاجع ينهي ان نقوله - وقد يلحنا اليه  
من قبل - ان فؤادها كان بارداً حتى في الثامنة . ولم تكن هذه غلطتها .  
إن ملكة الحب ما كانت هي الشيء الذي يعوزها . وأنساء ! انما كانت  
تموزها امكانية الحب . وهكذا فنذ النهار الاول بدأ كل ما فيها من  
فكر وشعور محبّ هذا الرجل الطيب . لقد احسّت اليوم بما لم تحس  
به قط من قبل - استشعرت أنها تفتتح وتتمو .

لقد كفّ الرجل الطيب عن ان يكون في عينيها عبوزاً أو فقيراً .  
لقد وجدت جان فالجان جيلاً ، تماماً كما قد وجدت الكوخ جيلاً .  
تلك هي آثار الفجر ، والطفولة ، والصبا ، والبهجة . وإن لجدّة  
الارض والحياة صلةً بذلك . فليس شيء اشدّ سحراً من الأصباغ  
الزاهية التي تنفخها السعادة على العليّة . لقد كانت لنا جميعاً ، في ماضي  
اباما ، مسكن حفيّر خرافيّ .

لقد اقامت الطبيعة هوةً عريضة - فترة خمسين عاماً - ما بين جان  
فالجان وكوزيت . ولكن هذه الهوة ردمها القدر . لقد جمع القدر ،  
فجأةً ، وقرن بقوته التي لا تقاوم ، ما بين هاتين الحياتين المقتلعتين  
الجدور ، المتباينتين في السن ، المتشابهتين في الأسى . والحسب ان  
إحداها تمّت الاخرى . فقد كانت غريزة كوزيت تبحث عن أب ، كما  
كانت غريزة جان فالجان تبحث عن ولد . وكان في اجتماعهما ما يفيد

معنى غنور كل منها على حالته . وفي تلك اللحظة العجيبة التي ناست فيها أيديهما التجم أحدهما بالآخر . وحين تبادلت روحاهما النظر ، أدركا ان كلا منهما في حاجة الى رفيقه ، وتعاونا غنائاً حاراً .

ولو أردنا ان نحمّل الكلمات معناها الأشد شمولاً وإطلاقاً اذن لكان في ميسورنا ان نقول ان جان فالجان - وقد فصل عن كل شيء بمقدران القبر كما فصلت رفيقته الصغيرة - كان الرجل الأرملة ، وان كوزيت كانت الفتاة اليتيمة . وهذا الوضع انتهى بجان فالجان الى ان يصبح ، بمعنى سماوي ، أبا كوزيت .

والواقع ان الانطباعة الحفية التي أحدثتها في نفس كوزيت ، وسط غابة « شيل » ، يد جان فالجان تلك التي قبضت على يدها في الظلام لم تكن وهماً ولكن حقيقة . لقد كان دخول هذا الرجل الى قدر تلك الطفلة أشبه شيء بتدخل الله .

وفي غضون ذلك ، كان جان فالجان قد أحسن اختيار نخبه . كان هناك في حال من الأمن بدت كاملة غير منقوصة .

وكانت الغرفة ، ذات الحبيرة الجانبية ، التي احتلها مع كوزيت ، هي تلك التي تطل نافذتها على الجادة . وكانت هذه النافذة هي الوحيدة في ذلك المنزل . ولم تكن ثمة نظرات جارٍ يخشى أذاها لا من هذه الناحية ولا من الناحية المقابلة .

وكان الطابق الاول من رقم ٥٠-٥٢ أشبه شيء بملحق خرب . كان يؤدي دور الاسطبل بالنسبة الى زارعي البقول في السبخ ، ولم يكن ثمة سبيل يصله بالطابق الاعلى . كان معزولاً عنه بالسقف الذي لم يكن فيه لا سلم ولا باب سقف ، والذي كان بمثابة « الحجاب الحاجز » للسكن العتيق . وكان الدور العلوي يحتوي ، كما قلنا ، على عدة غرف وبضع عليّات كانت واحدة منها فقط آهلة بامرأة عجوز خدمت جان فالجان بوصفها مدبرة منزل . اما سائر الغرف فكانت مهجورة . كانت هذه المرأة العجوز ، المشرفة بلقب « المستأجرة الرئيسية » ،

والمكلفة في الواقع بهام الحارسة او البوابة ، هي التي أجبرته هذا المأوى يوم عيد الميلاد . وكان قد أوهبها انه ثري أفقرته و سندات اسبانيا ، وانه يعتزم ان يقطن هناك مع حفيده . وكان قد دفع اليها اجر الغرفة عن ستة أشهر ، مقدماً ، وكاف العجوز في ان تؤثث الغرفة والحجيرة على النحو الذي وصفنا . وكانت هذه المرأة العجوز هي التي أضرمت النار في الموقد ، وهيات لهما كل شيء ، ليلة وصولهما . وتصرمت أسابيع . وعاش هذان الخلوفان عبثة سعيدة في ذلك المأوى الحفير .

ومنذ مطلع الفجر ، كانت كوزيت تضحك ، وتهذر ، وتغني . إن للأطفال اغانيم الصباحية ، مثل الطيور .

وكان يتفق في بعض الاحيان ان يملك جان فالجان بيدها الصغيرة الخراء ، التي شققها برد الشتاء ، ويقبّلها . ولم تكن الطفلة المسكينة ، المتعوذة ان تضرب ، لتفهم معنى ذلك ، فكانت ترتد الى الوراء في حياء .

وفي بعض الاحيان كان يغلب عليها الجدة ، وتتأمل فستانها الصغير الاسود . إن كوزيت ما عادت ترتدي اسمالاً بالية ؛ إنما ترتدي ثوب الحداد . لقد فارقت الشقاء ودخلت الحياة .

وكان جان فالجان قد شرع يعلمها القراءة . وأحياناً ، كان يتذكر - فيما هو يعلم الطفلة كيف تنهجى - أنه انما تعلم القراءة ، في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، لكي يفيد منها في عمل الشر . وها هو هدفه ذاك ينقلب الى تعليم القراءة لطفلة صغيرة . وعندئذ كان العجوز المحكوم عليه بالاشغال الشاقة يضحك ضحكة الملائكة الراضعة بالنأمل .

لقد استشعر أن ، في ذلك تعمداً من قوة علوية ، استشعر انها ارادة كائن فوق البشر ، واستغرق في تفكيره الخالم . إن للافكار الحيرة مهاوي كالافكار الشريرة سواء بسواء .



وكان تعليم كوزيت القراءة وتركها تلعب هما حياة جان فالجان كلها تقريباً . وبعد ذلك راح يتحدثها عن امها ويعلمها كيف تصلي . وكانت تناديه : أبي ، ولا تعرفه بغير هذا الاسم البتة .

كان يسلم ساعات وهو يتأملها ثلثس دميته ثيابها ثم تنزعها عنها ، وبستمع اليها وهي تغني وتهذر . ومن ذلك الحين بدت الحياة في عينيه ملأى بالمتعة ، وبدأ الناس خيرين منصفين . ولم يعد لينحي باللائمة ، بينه وبين نفسه ، على احد ما ، او ليجعله تبعه ظلم ما ، ولم يعد يرى اي سبب يدعوه الآن الى ان لا يعمر طويلاً ، بعد أن أحبه هذه الطفلة . لقد تطلع الى مستقبل طويل تنيره كوزيت بضياء فاتن . والحق ان خير الناس لبوا منزهي عن بعض الافكار الانانية . فقد كان يخطر له ، احياناً ، وبضرب من الابتهاج ، انها لن تكون مليحة الوجه بحال .

وليس هذا غير رأي شخصي . ولكن اذا اردنا ان نعب عن فكرتنا كاملة ، في النقطة التي بلغها جان فالجان عندما شرع بحب كوزيت ، قلنا ان من غير الثابت عندنا أنه ما كان في حاجة الى هذا الزاد الجديد من الطيبة لكي يتمكن من مواصلة السير في الطريق القويم . كان قد رأى سوء خاق الناس وسقاء المجتمع في مظاهر جديدة مظاهر غير كاملة ، ولا تظهر مع الأسف غير جانب واحد من الحقيقة - القدر المقسوم للمرأة ملخصاً في فانتين ، وسلطة الدولة مثلاً في جافير . لقد أعيد الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، هذه المرة ، لأنه عمل صالحاً . وكانت امواج جديدة من الماراة قد اجتاحتها ؛ وعصف به الاشتزاز والسأم . وكادت ذكرى الاسقف نفسها ان يعثرها الكسوف لتعاود الظهور بعد ذلك وضاء مظفرة من غير شك ؛ ولكن هذه الذكرى المباركة اصابتها الوهن آخر الأمر . ومن يستطيع ان يثبت ان جان فالجان لم يكن على وشك اليأس والتودّي في هاوية الشر ؟ وهنا أقبل الحب فاذا به يغدو قوياً من جديد . وأسفاه ! إنه لم يكن

أقلّ ضعفاً من كوزيت . لقد أسبغ حمايته عليها ، فنحته هي القوة .  
بفضله أمسى في ميسورها ان تسير في طريق الحياة ؛ وبفضلها أمسى في  
ميسوره ان يلتزم الفضيلة . كان هو سِنَاد هذه الطفلة ، وكانت هذه الطفلة  
هي نقطة ارتكازه . إيه إيه اللغز الالهي الذي لا يسبر غوره ، لغز  
توازن القدر !

## ٤

### ملاحظات المستأجرة الرئيسية

كان جان فالجان من الحكمة بحيث حظّر على نفسه مغادرة الغرفة  
في ساعات النهار . كان كل مساء يخرج للتنزه ، حوالى الفسق ، فيتشى  
ساعةً او ساعتين ، وحده في بعض الاحيان ، ومع كوزيت في كثير  
من الاحيان ، متخيراً ازقة الجادة الاكثر انزلاً ، او قاصداً الى  
الكنائس عندما يبط الليل . وكان مولعاً بالذهاب الى كنيسة نـ سان  
ميدار ، ، وهي اقرب الكنائس الى مشواه . وكانت كوزيت ،  
تبقى ، اذا لم يصطحبها جان فالجان ، الى جانب المرأة المعجوز ؛ ولكن  
الطفلة كانت تجد اعظم البهجة في الذهاب مع الرجل الطيب . كانت  
تؤثر ان تقضي ساعة معه على أن تجلس وجهاً لوجه مع كاترين نفسها .  
وكان يمشي بمسكاً بيدها ، ويجدتها أحاديث حلوة .

وانفق ان أصبحت كوزيت لعباً الى حد بعيد .  
وكانت المرأة المعجوز تدبّر المنزل وتنهض بأمر المطبخ ؛ وكانت هي  
التي تخرج الى السوق لشراء الحاجات الضرورية .  
لقد عاشت عيشة مقصدة . كانت النار هزيلة دائماً في موقدها .  
ولكن جان فالجان - شأن الناس الذين تكنتهم ظروف حرجة - لم

يحدث أيّ تغيير في اثاث الغرفة ، بل أبقاه كما كان في اليوم الأول .  
كلّ ما في الامر أنه أوعز بأن بوضع بابٍ خشبيٍّ محلّ باب حجيّرة  
كوزيت الزجاجي .

وكان يرتدي ، أبداً ، سترة الطويلة الصفراء ، وسرواله الاسود ،  
وقبعته العتيقة . وفي الشارع كان الناس يحسبونه شحاذاً . وكان يتفق ،  
في بعض الاحيان ، ان تستدير النسوة الصالحات ، ويقدّمن اليه فلساً .  
وكان جان فالجان يأخذ الفلس وينحن في اتضاع . وكان يتفق في  
بعض الاحيان ايضاً ، ان يلتقي بانساً يلتبس صدقة ، فلا يكون منه  
إلا ان يلتفت الى وراه ليتأكد من ان احداً لا يراه ، ويقترّب من  
المسكين خلسةً ، ويضع في يده قطعة نقدية ، هي غالباً قطعة فضة ،  
ثم يسارع الى الابتعاد عنه . وكان لذلك ماوئه . لقد بدأ الناس  
يعرفونه ، في الحلي ، باسم الشحاذ الذي يوزع الصدقات .

وكانت « المستأجرة الرئيسية » - وهي مخلوقة مقطّبة الوجه ،  
معجونة بالملاحظة الدقيقة لكل ما يتصل بالجيران ، على طريقة اهل  
الضواحي - تراقب جان فالجان مراقبة دقيقة من غير ان تثير ارتياحه .  
كانت صماء بعض الشيء ، وذلك ما جعلها مهذّارة . وكان قد بقي لها  
من ماضيها سنّان ، الاولى في الفكّ الاعلى ، والثانية في الفكّ الاسفل ،  
وكانت لا تفتأ تقرع هاتين السنين احدهما بالأخرى . وكانت قد وجهت  
بعض الاسئلة الى كوزيت التي كانت - لجلها كل شيء - غير قادرة  
على أن تقول اكثر من أنها أقبلت من مونفيرماي . وذات صباح رأت  
هذه الجالوسة جان فالجان يمضي ، وعلى وجهه سبابا بدت غريبة في نظر  
المرأة الثائرة ، الى احدى غرف البيت المهجورة . فتبعته بمنل خطى  
هرّة عجوز ، ووقفت الى ان تراه ، من غير ان يراها هو ، من  
خلال خصاص الباب المقابل مباشرة . وكان جان فالجان قد ولّى ظهره  
ذلك الباب ، زيادةً في الحذر من غير شك . وبصرت العجوز به

يبحث في جيبه ، ويخرج منها مِثْبَرَةٌ ، ومَقْصاً ، وخِيطاً ، ثم يعمد الى فتق بطانة جانب من جوانب سِتْرِهِ الطويلة ويخرج من تحنها قصاصة ورق ضاربة الى الصفرة ما لبث ان نشرها . ولاحظت العجوز ، في ذعر ، انها ورقة نقدية من ذوات الالف فرنك . كانت هي الورقة الثانية ، او الثالثة ، من اوراق هذه الفئة ، التي وقعت عليها عينها منذ ان أبصرت النور . وفرت والرعب يعصف بها .

وبعد لحظة دنا جان فالجان منها ، وسألها ان تصرف ورقة الالف فرنك هذه ، مضيفاً إنها دخله نصف السنوي ، الذي تلقاه البارحة . وفي ما بينها وبين نفسها ، تساءلت العجوز : « أين ؟ » إنه لم يغادر الغرفة إلا في الساعة السادسة مساءً ، وخزينة الدولة لا تظل مفتوحة - من غير شك - حتى تلك الساعة . وصرفت العجوز الورقة النقدية ، وأطلقت العنان لظنونها وأحداها . وادت ورقة الالف فرنك هذه ، وقد علقت عليها وضوعفت ، الى نشوء جمهرة من الأحاديث اللاهثة بين عجائز شارع « فينيي » سان مارسيل ، الثرثرات .

وبعد بضعة ايام اتفق ان كان جان فالجان ، ينشر الحشب في الرواق ، غير مرتدي سِتْرِهِ الطويلة . وكانت المرأة العجوز في غرفته تنظفها وترتبها . كانت وحدها . ذلك أن كوزيت كانت تحديق ، في إعجاب ، الى الحشب المنثور . وبصرت العجوز بالسِتْرَ المعلقة بمسار ، وفحصتها . كانت البطانة قد خيبت من جديد . وتلمستها في عناية ، واعتقدت انها ستجد في ثيابها وتخشيبتها اكداً من الورق . اوراقاً مالية اخرى من ذوات الالف فرنك من غير شك !

ولاحظت ، الى جانب ذلك ، ان جيوبه كانت حافلة بمختلف ضروب الاشياء . لم تكن ثمة تلك الأبر والمقص والحِطوط التي سبق لها ان رأتها فحسب ، ولكنها عثرت بالاضافة الى ذلك على حافظة دراهم ضخمة ، ومدينة كبيرة جداً ، وعلى عدة لمسم من الشعر المستعار

- وهي ظاهرة تثير الريبة - ذات ألوان مختلفة . لقد بدا لها وكأن كل جيب من جيوب تلك السترة الطويلة يحتوي على شيء يستعان به ضدّ حادث مفاجيء .  
وعلى هذا النحو انتهى سكان البيت العتيق الى ايام الشتاء الاخيرة .

## ٥

### قطعة نقدية من فئة الخمسة فرنكات

#### تقع على الارض فتحدث ضجة

وكان قرب سان ميدار شعاذ يجلس القرفصاء فوق حافة إثر عمومية مدودة . وكان جان فالجان كثيراً ما يتصدق على هذا الرجل . لأنه ما كان ليبرّ به الا ويعطيه بضعة فلوس . وكان يتحدث اليه في بعض الاحيان . ولقد زعم حساد هذا الشعاذ انه يعمل في خدمة البوليس . كان خادماً عجوزاً في كنيسة من كنائس العوام ، في الخامسة والسبعين من العمر ، فهو يهيمهم بصلواته وأدعيته على نحو موصول . وذات مساء ، فلما كان جان فالجان يجتاز تلك الطريق ، ولم تكن كوزيت معه ، لمح الشعاذ جالساً في مكانه المألوف تحت مصباح الشارع المضاء منذ لحظة . وبدأ الرجل ، وفقاً لعادته وكأنه يصلي ؛ وكانت منحنياً انحناء كاملاً ، فتقدم جان فالجان نحوه ، ووضع في يده صدقته المعتادة . وفجأة ، رفع الشعاذ عينيه ، وحدّق الى جان فالجان ، ثم طأطأ رأسه في سرعة . وكانت هذه الحركة اشبه بوميض برق . وارتعد جان فالجان . لقد تراءى له انه لمح اللحظة على ضوء مصباح الشارع ، لا وجه خادم الكنيسة العجوز الوديع الفاجر الفم ، ولكن وجهاً

فظيحاً يعرفه جيداً . وغلب عليه مثل ذلك الشعور الذي يغلب على المرء حين يجد نفسه ، فُجَاءَةً ، وتحت جنح الظلام ، وجهاً لوجه أمام نمر من الانوار . وارتدّ الى الوراء ، مذعوراً متعجباً ، غير واجد الجراءة لا على أن يتنفس ولا على أن يتكلم ، لا على أن يبقى ولا على أن يفتر ، مدداً نظره الى الشحاذ الذي عاود خفض رأسه المغطى بمخرقة ممزقة ، والذي بدا وكأنه ما عاد يحس بوجوده قط . في تلك اللحظة الغريبة حالت غريزة ما - لعلها غريزة حفظ الذات ، الحقيّة - بين جان فالجان وبين ان ينطق بكلمة . كان شكل الشحاذ ، وأسماله البالية ، وهيبته العامة هي هي لم يتغير منها شيء . وقال جان فالجان مخاطباً نفسه : « تبا لي ! اني معتوه ! أنا احلم ! متعبل ! » وانقلب الى غرفته قلقاً اعظم القلق .

ولم يجرؤ الا بشقّ للنفس ، على ان يعترف ، حتى لنفسه ، بأن الوجه الذي ظن أنه رآه كان وجه جافير .

وفي تلك الليلة ندم - وهو يفكر في المسألة - لعدم استجوابه ذلك الرجل بحيث يُكرهه على ان يرفع رأسه ككرة أخرى .

وحين هبط الليل من اليوم التالي قصد الى هناك من جديد . كان الشحاذ في مكانه . وقال جان فالجان في عزم : « مساء الخير ، ايها الرجل الطيب ! » واعطاه فلساً . فرفع الشحاذ رأسه واجاب في صوت منتحب : « شكراً ، يا سيدي الطيب ، شكراً ! » انه لم يكن ، في الحق ، غير خادم الكنيسة المعبوز .

واطمأنّت نفس جان فالجان اطمئناناً كاملاً . بل لقد شرع يضحك . وقال في ما بينه وبين نفسه : « يا للشيطان ! كيف كاد يخيل اليّ اني رأيت جافير ؟ آه ، يبدو ان بصري قد بدأ يضعف حقاً ! » ولم يعاود التفكير في ذلك .

وبعد بضعة أيام ، ولعلّ الساعة كانت الثامنة مساء ، كان جان

فالجنان في غرفته يعلم كوزيت التهبة ، فتردد الاحرف من بعده في صوت مرتفع ، عندما سمع باب البناء العتيق يفتح ثم يوصد من جديد . وبدا ذلك غريباً في نظره . ذلك ان المرأة العجوز ، وكانت وحدها تشاركه السكنى في ذلك البيت ، كانت تأوي الى فراشها كل ليلة ، عند هبوط العتمة ، لكي توفر الشمع . واوماً جان فالجان الى كوزيت بان تلزم الصمت . لقد سمع وقع قدمين تصعدان السلم . لعلها المرأة العجوز وقد استشعرت مرضاً فقصدت الى الصيدي ثم عادت . وأصغى جان فالجان . كان وقع القدمين ثقيلًا ، وكان يبدو وكأنه وقع قدمي رجل . ولكن المرأة العجوز كانت تنتعل حذاء غليظًا ، وليس ثمة ما يشبه وطء أقدام الرجال اكثر من وطء أقدام النسوة المعجّز . ومع ذلك ، فقد أطفأ جان فالجان شمعته .

وطلب الى كوزيت ان تأوي الى فراشها ، قائلاً لها في صوت كالهمس :

- « نامي في سكون كثير ! »

وفيا هو يقبلها من جبينها انقطع وقع القدمين . وظل جان فالجان صامتاً ، جامداً ، مديراً ظهره الى الباب ، جالساً على كرسيه الذي لم يتحرك عنه قط ، حابساً أنفاسه في الظلام . حتى اذا انقضت فترة طويلة لم يسمع خلالها شيئاً ما ، استدار من غير ان يحدث اي ضجة ، ورفع عينيه نحو باب غرفته فرأى من ثقب القفل نوراً ، وكان هذا النور اشبه بكوكب مشؤوم في خلفية الباب والجدار السوداء . كان ثمة من غير شك ، شخص ما ، يحمل شمعة ؛ وكان هذا الشخص يصغي .

وانقضت بضعة دقائق ، واختفى النور . ولكنه لم يسمع وقع قدمين ، بما بدا وكأنه يؤذن بأن ذلك الشخص الذي كان يصغي لدى الباب قد خلع نعليه .

وانطرح جان فالجان على السرير من غير ان ينزع ثيابه ، ولكنه لم

يستطيع ان يغمض عينيه تلك الليلة .

وعند الصباح ، فيما كان 'هيو' من الأعياء أفاق كرة أخرى على صرير باب غرفة قائمة في اقصى الرواق ، ثم سمع وقع خطى الرجل نفسه الذي ارتقى السلم في الليلة البارحة . واقترب ذلك الوقع . ووثب من سريره ، ووضع عينه على ثقب الباب ، وكان كبيراً ، رجلاً ان يلح الشخص ، كائناً من كان ، الذي اتخذ سبيله الى ذلك البيت في موهن من الليل والذي استرق السمع لدى بابه . كان رجلاً ، في الواقع ، ذلك الذي مرّ بغرفة جان فالجان ، ولكن من غير ان يتوقف هذه المرة . وكان الرواق لا يزال مظلماً الى حدّ لم يمكنه من ان يتبين وجهه ؛ ولكن حين وصل الرجل الى السلم انعكس عليه من الحارج شعاع جعله يبرز مثل صورة مظلة سوداء ، ورأى جان فالجان ظهره رؤية كاملة . كان الرجل طويل القامة ، يرتدي ريدنغوتاً طويلاً ، ويحمل تحت ذراعه هراوة ضخمة . كانت تلك هيئة جافير الرهيبة .

وكان في ميسور جان فالجان ان يلقي عليه نظرة أخرى من خلال نافذته المظلة على الجادة ، ولكن ذلك كان يقتضيه ان يفتح هذه النافذة ، وهذا ما لم يجرؤ عليه .

كان واضحاً ان هذا الرجل قد دخل الى البناء وفي يده مفتاح ، وكأنه يدخل الى بيته . من الذي اعطاه هذا المفتاح ؟ وما معنى هذا ؟ وعند الساعة السابعة صباحاً ، حين اقبلت المرأة العجوز لتنظف الغرفة ، رمعها جان فالجان بنظرة حادة ، ولكنه لم يوجه اليها ايما سؤال . وبدأت المرأة الطيبة في حال طبيعية .

وفيما هي تكفّس ، قالت :

— « لعل سيدي سمع شخصاً ما ، يدخل البيت الليلة البارحة ؟ ، في مثل تلك السن » ، وعلى تلك الجادة كانت الثامنة مساء هي الليل الأشدّ حلكة .



واجابها في جرس ليس اكثر منه طبعية :  
 - « بالنسبة ، هذا صحيح . من كان ذلك الشخص ؟ »  
 فقالت المرأة العجوز :  
 - « إنه مستأجر جديد وَفَدَّ على المنزل . »  
 - « وما اسمه ؟ »  
 - « لم اعد اذكر ذلك . ديمون أو دومون . شيء من هذا القليل . »

- « ومن هو ، مسيو دومون هذا ؟ »  
 ونألماته العجوز ، لحظةً ، بعينها التَّسْمِيَتَيْنِ الصَّغِيرَتَيْنِ ، وأجابت :  
 - « إنه رجل يعيش على دخله ، مثلك انت . »  
 وجائز ان لا تكون العجوز قد رَمَتْ الى شيء ، ولكن جاز  
 فالجان اعتقد أنها استهدفت بملاحظتها تلك أمراً ما .

وحين مضت لسبيلها نضد مئة من الفرنكات ، كانت في احد  
 الادراج ، على شكل إصبع ، ووضعها في جيبه . وعلى الرغم من الحذر  
 البالغ الذي اصطنعه في هذا العمل لكي لا يُسَمَّعَ رنين الفضة ، فأث  
 قطعة نقدية من ذوات الخمسة الفرنكات افلتت من قبضته ، وكررت  
 ضاجةً فوق ارض الغرفة .

وعند الفسق ، هبط السلم ، وأجال طرفه في طول الجادة وعرضها .  
 ولم يقع نظره على احد . لقد بدت الجادة مهجورةً هجرأً كاملاً .  
 صحيح ان من الجائز ان يكون رجلٌ ما ، محتبباً خلف شجرة .  
 وارتقى السلم من جديد .

وقال لكوزيت :

- « تعالي ! »

وأمسك بيدها ، وغادرا المكان .

---

\* الشيتين بعيني النمس .

الكتاب الخامس

## المطاردة السوداء وتحلج الى كلاب قميص صامته

١

خطوط الاستراتيجية المتعرجة

لكي نفهم الصفحات التي سوف لي مباشرة ، وصفحات اخرى سنقع عليها في ما بعد ، يتعم علينا هنا ان ننص على هذه الملاحظة :  
انقضت سنوات طوال ومؤلف هذا الكتاب - الذي يجد نفسه ، في أسف ، مضطراً الى التحدث عن نفسه - غائب عن باريس . ولقد تغيرت باريس ، منذ ذلك الحين ، تغيراً كبيراً . إن مدينة جديدة قد نشأت ، هي عنده ، بمعنى من المعاني ، مبهولة . وهو في غير حاجة الى القول انه يحب باريس ؛ فباريس هي د مفت رأس ،

روحه . ومن طريق المدم وإعادة البناء أصبحت باريسُ شبابيَّة - باريس التي يحتفظ بها ، بخشوع ، في ذاكرته - باريساً قديمة ترقى الى عهد ماضٍ . فلندعهُ يتحدث عن باريس تلك وكأنها لا تزال قائمة . فقد يتود المؤلف قراءه الى بقعة ما ، قائلاً : « في الشارع الفلاني كان البيت الفلاني ، ثم يتفق ان لا يكون قد بقي ، بعدُ ، لا شارع ولا بيت . ولسوف يتعري القراء الحقيقة ، اذا أحبوا ان يتجسسوا غناء ذلك . اما هو فيجمل باريس الجديدة ، وهو يكتب ، وباريس القديمة ماثلة نصب عينيه في صورة خادعة أثيرة لديه . إن ما يوقع في نفسه شعوراً عذباً ان يتخيل أنه لا يزال ثمة ، وراه ، شيء مما رآه حين كان في وطنه ، وان كل شيء لم يزل ولم يتلاش . ذلك بأن المرء ، حين ينعم بالعيش في ارض الوطن ، يتوهم ان هذه الشوارع لا تعنيه في قليل او كثير ، وان هذه النوافذ ، وهذه السقوف ، وهذه الابواب ، ليست عنده بشيء ، وان هذه الجدران اجنبية بالنسبة اليه ؛ وان هذه الاشجار لا يميزها شيء عن الاشجار الاخرى ، وان هذه البيوت التي لا يدخلها البتة لا تغناء فيها ؛ وان حصاء الطريق التي يمشي عليها ليست غير حجارة . ولكن في ما بعد ، حين يحرم المرء نعمة العيش في الوطن ، يجد ان هذه الشوارع عزيزة جداً ؛ وان هذه السقوف ، وهذه النوافذ ، وهذه الابواب قد ضاعت من يديه ، وان هذه الجدران ضرورية له ، وان هذه الاشجار غالية على فؤاده ، وان هذه البيوت التي لم يدخلها قط كان يدخلها كل يوم ، وانه قد خَلَف شيئاً من احشائه ، ومن دمه ، ومن قلبه ، فوق حصاء الطريق تلك . عندئذ يجد المرء ان جميع تلك المواطن التي لم يعد يراها ، والتي قد لا يراها ككرة اخرى ابدأ ، والتي احتفظ بصورتها في مخيلته ، تكتسب فتنةً موجهة ، وتعاوده بمثل كآبة الشبح ، وتجعل الارض المقدسة تتراءى لناظريه ، فهي اذا جاز التعبير فرنسة نفسها .

ويجد أنه يحبها ، ويستحضرها كما هي ، كما كانت ، ويتشبث بها ، غير راغب في ان يغير شيئاً ، لأن الانسان يتعلق بصورة الوطن كما يتعلق بوجه امه .

فليسمع لنا اذن ان نتحدث عن الماضي في الحاضر . والآث ، نلتس من القارىء ان يأخذ علماً بهذا ، ونستأنف الحديث .

كان جان فالجان قد غادر الجادة في الحال ، وشرع يجوب الشوارع في حذر ، مكسراً خطوط سيره ما وسعه تكسيهها ، مرتدأ فجأة على آثاره لكي يستيقن ان احداً لا يتعقبه .

وهذه المناورة من شبة الأيئل المطارد . وفي البقاع التي تخلف القدم أثراً فيها تتمتع تلك المناورة - الى جانب حسناتها الاخرى - بالقدرة على خداع القاصين والكلاب من طريق الآثار المضادة . وذلك ما يُدعى ، في علم القنص بالكلاب ، و عودة الأيئل الزائفة الى كئسه .

كان القمر بديراً . ولم يكن جان فالجان مغضباً لذلك . فقد فصل القمر ، وهو ما يزال جدياً قريب من الافق ، مواشير ضخمة من الضوء والظل في الشوارع . وكان في ميسور جان فالجان ان ينساب في محاذاة المنازل والجدران ، في الجانب القائم ، وان يراقب الجانب المضي . ولعله لم يدرك إدراكاً كافياً ان الجانب القائم ، قد فاتته . ومع ذلك ففي جميع الشوارع الصغير المبهورة المجاورة لشارع بوليفو ، كان على مثل اليقين من ان احداً لا يلحق به

ومشت كوزيت من غير ان تسأل أيما سؤال . كانت آلام السنوات الست الأولى من حياتها قد أدخلت شيئاً من روح الطاعة العمياء الى طبيعتها . والى هذا - وهذه ملاحظة سوف نرجع اليها في اكثر من مناسبة - فقد ألفت ، من غير ان تعبها وعياً كاملاً ، صفات صديقتها الطيب الفارقة وغرائب القدر . وفوق ذلك كله ، فقد كانت

تستشعر الأمن ، ما دامت الى جانبه .

ولم يكن جان فالجان يدري ، اكثر من كوزيت ، الى اين كان يقصد . كان مفوضاً أمره الى الله ، كما فوّضت هي أمرها اليه . لقد بدا له أنه يمك ، هو ايضاً ، بيد كائن اكبر منه . لقد استشعر ان كائناً غير منظور ، يقوده . واخيراً ، فلم تكن عنده أيما فكرة محدّدة ، أو أيما خطة ، أو أيما مقصد . بل إنه لم يكن واثقاً كل الثقة من أن ذلك الرجل هو جافير . والى هذا ، فقد يكون هذا الرجل جافير ، من غير ان يعلم انه جان فالجان . ألم يكن متكرراً ؟ ألم يعتقد القوم أنه قد مات ؟ ومع ذلك ، فقد حدثت أشياء غريبة منذ بضعة ايام . إنه في غير ما حاجة الى مزيد من ذلك . لقد وطّن العزم على ان لا يدخل بيت غوريو كره أخرى . وكالحايوان المطرود من مأواه ، راح يبحث عن ثقب يجتريه فيه ويثا يجد ثقباً يقبم فيه .

واجتاز جان فالجان متاحات عديدة متباعدة في حي موفسار الذي كان قد أوى حتى في تلك اللحظة الى الرفاد ، وكأنه لا يزال مجاً في ظل نظام القرون الوسطى ، وتحت نير منع التجول ليلاً . لقد احدث مزاجات مختلفة في استراتيجية حكيمة ما بين شارع سانييه وشارع كوبرو ، وشارع بانوار سان فيكتور وشارع بُوري ليوميت . ان ثمة بيوتاً في تلك البقعة ، ولكنه لم يدخل أيّاً منها لعدم وقوعه على ما يلائمه منها . وكان موقناً من انهم اذا كانوا يقتفون اثره ، اتفاقاً ، فلا ريب في انهم قد اضاعوه الآن .

وحين اعلنت ساعة « سان ايتيين دو مون » الحادية عشرة عَبَرَ شارع بوتواز أمام مكتب مفوضية البوليس ، الذي يحتل المبنى رقم ١٤ . وبعد بضخ لحظات دعتة الفريزة التي تحدثنا عنها من قبل الى ان يلتفت الى الورا . وفي تلك اللحظة رأى في وضوح - بفضل مصباح المفوضية الذي نَمَ عليهم -

ثلاثة رجال كانوا يتبعونه عن كثب يمرون واحداً إثر واحد نحت ذلك المصباح في الجانب المظلم من الشارع . ودخل احد هؤلاء الرجال المجاز المؤدي الى بيت المفوضة . ولقد بدا له الرجل السائر في الطليعة مريباً على نحو لا يحتمل الشك .

وقال لكوزيت :

— « تعالي ، يا بنيتي ! »

وسارع الى مغادرة شارع بونتواز .

وقام بدورة ، وطاف حول « مجاز البطاركة » الذي كان موصداً بسبب من انتصاف الليل ، وأغدت السير في شارع الـ « إيبه دو بوا » وشارع الـ « آرباليت » ، وغاص في « شارع البريد » . وكانت « ساحة » ، حيث تقوم اليوم كلية رولين ، وحيث ينشعب شارع « نوف سانت جانفييف » .

( ولنا في حاجة الى القول إن شارع « نوف سانت جانفييف » هو شارع قديم ، وان مركبة بريد واحدة ما كانت تجتاز ، مرة كل عشر سنوات ، « شارع البريد » ! وكان شارع البريد هذا ، في القرن الثالث عشر ، آملاً بالحزافين ، واسمه الحقيقي هو شارع الحزف . )

وسفع القمر اشعة مشرقة على هذه الساحة . واختبأ جان فالجان في مدخل بيت من البيوت ، مقدراً ان في ميسوره ، اذا ما كان هؤلاء الرجال يواصلون مطاردته ، أن يراهم على وجه التأكيد رؤبة واضحة وهم يجتازون هذه الرقعة المضاة .

والواقع ان اولئك الرجال ما لبثوا ان برزوا بعد ثلاث دقائق أو أقل . كانوا الآن أربعة . كانوا كلهم ذوي قامات طويلة ، وكانوا يرتدون سترات طويلة ممراء ، ويعتصرون بقبعات مدورة ، ويحملون هراوات ضخمة بأيديهم . ولم تكن قاماتهم الطويلة وقبضاتهم العريضة

اكثر ترويعاً من سيرهم المشؤوم في الظلام . كان يجتبل للمرء أنهم  
اربعة اشباح تنكرت بلباس المواطنين .

وكفوا عن السير في وسط الساحة وشكلوا حلقة اشبه بحلقات  
الناس حين يتبادلون الرأي . كانت تبدو عليهم سيما التردد . واستدار  
ذلك الذي تراهي انه يقودهم ، وأشار بيده اليمنى ، اشارة كلها عزم ،  
نحو الجهة التي كان جان فالجان فيها . وبدأ واحد من الآخرين وكأنه  
يشير في شيء من العناد الى الجهة المعاكسة . ولحظة استدار قائدهم  
اضاء القمر وجهه اضاءة تامة ، وتبين جان فالجان وجهه جافير تيناً كاملاً.

## ٢

من حسن الطالع ان في ميسور

العربات ان تجتاز جسر اوسترلنيز

ونفد الشك عند جان فالجان . ولكنه لم ينفد ، لحسن الحظ ،  
عند اولئك الرجال . وأفاد من تردد دم . كان ذلك وقتاً يضاع بالنسبة  
اليهم ، ووقتاً يُكتسب بالنسبة اليه . وبارح المدخل الذي كان يجتبيء  
فيه ، واغذ السير في « شارع البريد » متجهاً نحو « حديقة النبات » .  
وبدأت كوزيت تستشعر التعب . فرفعها بين ذراعيه ، وحملها . لم  
يكن في الشوارع احد ، ولم تكن المصابيح العامة قد اضيئت بسبب  
من القمر .  
وضاعف سرعته .

وفي بضع خطى ، وصل الى معمل غوبليه الخرفي ، وكان على  
واجهته خط قديم ، جعلته أشعة القمر مقروءاً في وضوح :

« هنا مصنع ابن غوبله ؛  
تعالوا واختاروا جراراً وأباريق ،  
وأصمماً للزهور ، وأنايب ، وآجرًا .  
ولكلّ واحد يبيع القلب مرّيات من بلاط . »

وخلف وراءه « شارع المفتاح » ، ثم عّين « سان فيكتور » ،  
ومضى في محاذاة « حديقة النبات » ، سالكاً الشوارع المنخفضة ، حتى  
انتهى الى رصيف النهر . وهناك اجال البصر في ما حوله . كان الرصيف  
مجهوراً ؛ وكانت الشوارع مبهورة . ولم يكن احد خلفه . وتنفس  
الصعداء .

وانتهى الى جسر اوستوليتز .  
وكانت السلطة لا تزال تتقاضى رسماً من عابري ذلك الجسر .  
وقدّم نفسه الى موظف المكوس ، في مكتبه ، ودفع اليه فلساً .  
فقال الموظف :  
- « ينبغي ان تدفع فلسين . انت تحمل طفلة تستطيع ان تمشي .  
لأدفع رسماً عن شخصين . »  
ودفع ، وقد غاظه ان يلفت عبوره النظر . إن كل فرار يجب ان  
يكون انزلاقاً .

كانت كارتة ضخمة تعبر الـ « سين » ، في تلك اللحظة عينها ، وكانت  
منه متخذة الضقة اليمنى . وذلك شيء يمكن ان يُفيد منه جان فالجان .  
إن في ميسوره ان يجتاز الجسر كله في ظل تلك الكارتة .  
وحوالى منتصف الجسر رغبت كوزيت ، وقد خدّرت رجلاها ، في  
أن تسير . فأثقلها الى الارض ، وأمسك بيدها .  
واذ اجتاز الجسر لمح اكداساً من الحشب قائمة امامه ، منحرفة قليلاً  
الى ناحية اليمين . فضى في ذلك الاتجاه . وكان عليه لكي يبلغ ذلك  
المكان ، ان يغامر في اجتياز رقعة واسعة من الارض ، مكشوفة مضادة .



ولم يتردد . كان واضحاً أن أولئك الذين تعقبوا خطواته قد أضلّوا السبيل . واعتقد جان فالجان انه امسى في نجوة من الخطر . هذا صحيح ، ولكن احداً لم يكن يتبعه .

وأطلّ على شارع صغير ، هو شارع هـ شومان فيرسان انطوان ، بمدة بين مستودعين للخشب مطوّقين بجدران . وكان هذا الشارع ضيقاً ، مظلماً وكأنه صنع خصيصاً من أجله . وقبل ان يدخله ، التفت الى وراءه . ومن موقفه ذلك كان في ميسوره ان يرى جسر اوسترايتز بطوله . وفي تلك اللحظة ، دخل الجسر اربعة أشباح .

وسرت في اوصال جان فالجان وعدة كتلك التي تسري في جسم الطريدة حين ترى الى الكلاب تتعقبها من جديد .

كان قد بقي عنده أمل واحد ، وهو ان يكون هؤلاء الرجال لما يدخلوا الجسر ، ولم يلمحوه لحظة اجتاز الرقعة الواسعة المضاءة مسكاً بيد كوزيت .

في تلك الحال ، يكون في ميسوره - اذا ما اندفع في الشارع الصغير المنبسط أمامه ، واذا ما وفق الى بلوغ مستودعي الخشب ، والمستنقعات ، والحقول ، والارض الفضاء - ان ينجو بنفسه . لقد بدا له ان في إمكانه ان يفوّض أمره الى هذا الشارع الصامت . فدخله .

## ٣

### انظر مخطط باريس عام ١٧٢٧

وبعد ان خطا نحواً من ثلاثئة خطوة بلغ نقطة افترق فيها الشارع . لقد انشعب الى شارعين ، ينعطف احدهما ، منحرفاً ، نحو الشمال ،

وينعطف الآخر ، منحرفاً ، نحو اليمين . كان امام جان فالجان مثل  
فرعيّ حرف ٧ ، فأَيّ الفرعين يختار ؟  
ولم يتردد قط . وانعطف نحو اليمين .  
لماذا ؟

لأن الفرع الايسر يقود الى الضاحية ، يعنى الى المناطق الآهلة  
بالسكان ؛ ولأن الفرع الايمن يقود الى البرية ، يعنى الى المناطق  
المهجورة .

ولكنها ما عادا بمشيان ، الآن ، في مرة . لقد أعاقت خطوات  
كوزيت خطوات جان فالجان .

ورفعها عن الارض حاملاً ايها من جديد . وأسندت كوزيت رأسها  
الى كتف الرجل الطيب ، ولم تنبس ببنت شفة .

وكان يستدير ، بين الفينة والفينة ، وينظر خلفه . وكان يحرص على  
ان يلقم الجانب المظلم من الشارع أبداً . كان الشارع مستقيماً وراءه .  
وفي المرتين الاوليين او المرات الثلاث الاولى التي استدار فيها ، لم يَر  
شيئاً . كان الصمت صمياً ، ولقد واصل سيره في شيء من الاطمئنان .  
وفجأة ، بدا له ، حين استدار كرتة اخرى ، انه رأى شيئاً يتحرك  
بعيداً في الظلام ، عند ذلك الجزء الذي اجتازه من الشارع .

وانطرح الى الامام ، ولا نقول مشى ، راجياً ان يجد شارعاً  
جانبياً يفرّ من خلاله ، ويروغ كرة اخرى من مطاردته .  
ووصل الى جدار .

بيد ان هذا الجدار لم يحل بينه وبين الذهاب الى ابعد . كان جداراً  
يحيط بزقاق معترض ينتهي به الشارع الذي كان جان فالجان فيه  
آنذاك .

وهنا ابصاً تعيّن عليه ان يقرر : أينطلق الى اليمين ام ينطلق الى  
الشمال ؟

ونظر الى اليمين . كان الزقاق يمتد الى بقعة قائمة بين بعض الابنية التي كانت إما سقائف أو أمراء ، ثم ينتهي فجأة . كان آخر هذا الزقاق غير النافذ بادياً لمعبان - جداد ضخم ايض .

ونظر الى الشمال . كان الزقاق من هذه اللحاجية مفتوحاً ، وكانت يتصل ، على بعد مئتي خطوة تقريباً ، بشارع كان هو رافداً من روافده . وفي ذلك الاتجاه بالذات كانت السلامة .

ولحظة قرّر جان فالجان ان ينمط شمالاً ، لكي يحاول بلوغ الشارع الذي رآه عند نهاية الزقاق ، لمسح عند زاوية الزقاق والشارع الذي كان على وشك الانطلاق نحوه شبه قتال اسود جامد .

كان شخصاً ما - رجلاً - 'كثف بالوقوف هناك من غير شك ، وكان ينتظره قاطعاً الطريق عليه . وأجفل جان فالجان .

وهذا الجزء من باريس الواقف فيه جان فالجان اللحظة ، والواقع بين ضاحية سان أنطوان ولا لاراييه ، واحد من تلك الاجزاء التي غيرتها الاممال الحديثة من قمة الرأس الى اخص القدم ، مبشّعةً اياها في زعم بعض الناس ، بحجة اياها في زعم بعضهم الآخر . لقد ولت جنائن الحضّر ، ومستودعات الحطب ، والابنية العتيقة . وحلت محلها اليوم شوارع واسعة جديدة ، ومدرجات ، وسيارات ، وميادين سباق ، ومحطات للسكة الحديدية ، وسجن ، هوسجن مازاس . يعني التقدم ، كما نرى ، وملطّفاته

منذ نصف قرن ، كانت البقعة التي انتهى اليها جان فالجان تدعى في اللغة الشعبية الدارجة التي تصرّ على اطلاق اسم « الامم الأربع » على « مؤسسة فرنسة » واسم « فابيدو » على « الاوبرا كوميك » - نقول كانت تلك البقعة تدعى « بيكبوس الصغير » في هذه اللغة . « باب سان جاك » ، « باب باريس » ، « حاجز الرقباء » ، « بورشيون » ، « غالبوت » ، « سيلبستين » ، « كابوسين » ،

« . مايل » ، « . د بوب » ، « . شجرة الكار كوفي » ، « . بولونية الصغيرة » ، و « . بيكبوس الصغير » ، تلك هي اسماء باريس القديمة التي تعود فوق الاسماء الجديدة . إن ذاكرة الشعب لتطفو فوق حطام الماضي هذا .

وكان « . بيكبوس الصغير » - الذي لم يكن له في الواقع وجود حقيقي إلا بشق النفس ، والذي لم يكن أكثر من تصميم حيي من أحياء الكنى - ذلك المظهر الرهباني الذي لمدينة إسبانية تقريباً . كانت الطرق معبدة تميداً رديئاً ، وكانت الشوارع منشأة على نحو هزيل . فواء الشارعين أو الثلاثة الشوارع التي نوسك ان نتحدث عنها لم يكن ثمة غير الأسوار والوحشة . فلا دكان ، ولا عربة . بل لا شجرة مضادة ههنا وهناك ، في النوافذ ، الا نادراً . كانت الانوار كلها تطفأ بعد الساعة العاشرة . جنائن ، وأديرة ، ومستودعات خشب ، وغياض ، وبضعة منازل منخفضة متناثرة ، وجدران ضخام لا تقل ارتفاعاً عن المنازل .

كذلك كان هذا الحي في القرن الماضي . ولكن الثورة غيرت معالمه تغييراً كبيراً . كانت السلطات الجمهورية قد هدمت بعض ابنيه وشقت الشوارع اليه ومن خلاله . لقد اقيمت مستودعات النفايات هناك . ومنذ ثلاثين سنة وهذا الحي يُسمى محوياً تدريجياً بأنشاء أبنية جديدة . أما اليوم فقد سُطِبَ نهائياً . « . بيكبوس الصغير » الذي لا يحتفظ أيما مخطط من المخططات الحاضرة بأثر من آثاره كان يحتل مكانه على نحو واضح في مخطط عام ١٧٢٧ الذي نشره في مدينة باريس دونيز تيوي ، شارع سان جاك ، تجاه شارع بلاتر ، وفي مدينة ليون جان جيرين ، شارع ميرسيير ، في « . برودانس » . وكان « . بيكبوس الصغير » ما دعونه منذ لحظة لا شوارع ، مؤلفة من شارع « . شومان فير سان انطوان » منشعباً الى فرعين اثنين ، ومتخذاً في ناحية اليسار

اسم بيكبوس الصغير ، وفي ناحية اليمين اسم شارع بولونسو . وكان فرعاً ٧ متصلين عند قمتها بمثل قضيب معدني . وكان هذا القضيب المعدني يدعى شارع « دروا مور » . وهناك كانت ينتهي شارع بولونسو . أما شارع بيكبوس الصغير فكان يمضي الى أبعد ، مصحداً نحو سوق لينوار . وكان الوافد من « سين » حين ينتهي الى أقصى شارع بولونسو يجد الى يساره شارع « دروا مور » منعطفاً انعطافاً حاداً على شكل زاوية قائمة ، ويبعد أمامه سور ذلك الشارع ، وإلى يمينه امتداداً أبتر لشارع « دروا مور » من غير منفذ ، يدعى زقاق جانرو .

في تلك النقطة كان جان فالجان .

لقد أجفل ، كما ذكرنا من قبل ، حين لمح ذلك الشكل الاسود الواقف وقفة الحرس عند زاوية « دروا مور » وشارع بيكبوس الصغير . لم يكن ثمة شك . كان ذلك الشبح يراقبه .

ما الذي يجب أن يفعله ؟

لم يبق ثمة مدسع من الوقت للارتداد . وإن ما رآه يتحرك في الظلام ، على مسافة ما خلفه ، في اللحظة السابقة ، كان من غير شك جافير وزمرته . ولعل جافير قد انتهى الآن الى أول الشارع الذي كان جان فالجان في نهايته . وكان جافير ، كما تؤذن القرائن كلها ، يعرف هذا الشرك الصغير ، وكان قد اتخذ احتياطاته بأن ارسل واحداً من رجاله ليحرس المنفذ . وفجأة ، عصفت هذه الأحداش الشديدة الشبه بالحقائش في دماغ جان فالجان القلق ، مثل حفنة من الغبار تطاير في وجهه ربيع مفاجئة . لقد تأمل زقاق جانرو ؛ كانت ثمة اسوار عالية . وتأمل شارع بيكبوس الصغير ؛ كان ثمة حرس . لقد رأى هذه الصورة الكالحة تتكرر سوداء فوق بلاط الطريق الابيض المغمور بأشعة القمر . كان التقدم الى أمام يعني الانقراض على ذلك الرجل . وكان الارتداد

الحق وراءه يعني إلقاء نفسه بين يدي جافير . واستشعر جان فالجان وكأنه مطوق بسلسلة كانت تضيق الحناق عليه شيئاً بعد شيء . ورفع عينيه الى السماء في يأس .

## ٤

جان فالجان يتلمس

في الظلام سبيله الى النجاة

لكي نفهم الصفحات التالية يتعين علينا ان نكون فكرة دقيقة عن زقاق دروا مور ، وبخاصة الزاوية التي يشكلها الى يسارك وانت تنادر شارع بولنسو لتدخل هذا الزقاق . وكان زقاق « دروا مور » مطوقاً من ناحية اليمين تطويقاً كاملاً تقريباً ، حتى شارع بيكبوس الصغير ، منازل تبدو عليها سماء الفقر ، ومن ناحية الشمال ببناء مفرد ذي خطوط قاسية مؤلف من عدة بيوت كانت ترتفع تدريجياً دوراً أو دورين ، فيما هي تقترب من زقاق بيكبوس ، بحيث أن هذا البناء الشديد الارتفاع من ناحية زقاق بيكبوس كان شديد الانخفاض من ناحية شارع بولنسو . هناك ، عند الزاوية التي تحدتنا عنها ، أمسى البناء منخفضاً الى حد جعله مجرد حائط ليس غير . ولم يكن هذا الحائط ينتهي ، على نحو متعامد ، الى الشارع . لقد بدا وكأنه شقة جدار بُنيت على نحو منحرف تاركة فسحة عريضة تحجبها زاويتها عن اعين المراقبين الذين قد يتفق ان يقف احدهما على مسافة ما في شارع بولنسو ، والآخر على مسافة ما في شارع « دروا مور » .

ومن زاويتي الشقة المبتورة هاتين ، كان الجدار يمتد على شارع

بولونسو حتى منزل يحمل رقم ٤٩؛ وعلى شارع « دروا مور » ، حيث كان ارتفاعه اقل بكثير ، حتى ذلك البناء الكالح الذي تحدثنا عنه ، قاطعاً حائط يجعلونه المثلث الجانبي ، محدثاً بذلك زاوية منعكسة جديدة في الشارع . وكان لجدار الجبلون هذا مظهر كتيب . لم يكن المرء يرى قمة ، غير نافذة واحدة ، او على الاصح مصراعين محجوبين بصفحة من الزنك ، موصلين ابدأ .

إن أوضاع المواطن التي نصفها هنا دقيقة الى حد صادم ، وهي توقف من غير شك ذكرى غالبية جداً في اذهان سكان الحية القديمة . وكان يلاً شقة الجدار المتورة هذه شيء يشبه جداراً هائلاً حقيراً . وكان ذلك مجتمعاً واسعاً غير منسقى من الواح عمودية ، أعلاها أعرض من أدناها ، وقد شد بعضها الى بعض بسيور من حديد طويلة معترضة . والى جانب ، كان باب للهربات ذو أبعاد عادية ، لا يرقى انشاؤه ، من غير شك ، الى أبعد من خمسين عاماً . ورفعت شجرة زيزفون اغصانها فوق شقة الجدار المتورة ، وكالت الجدار مغطى بالبلاب من ناحية شارع بولونسو .

وفي الحظر الدائم الذي كان يحيط بجبان فالجان تكشفت هذه البناية الكالحة عن وجه منزول غير أهل لفت نظره اليها ، وأجال طرفه فيها على نحو خاطف . وقال فيما بينه وبين نفسه إنه إذا ما وفق الى دخولها فقد ينعم بالسلامة . وعأوده الامل حين خطرت له هذه الفكرة .

وعند منتصف واجهة البناء المطلة على شارع « دروا مور » ، احاطت بنوافذ الادوار كلها انايب رصاصية عتيقة . وكانت فروع هذه الانايب الممتدة من أنبوب رئيسي الى كل منها ترسم على الواجهة شبه شجرة . ولقد بدت تشعبات هذه الانايب بمرافقها المثة مثل قضبان الكرمة المجردة من أوراقها ، والملتفة على واجهات الليوت الريفية القديمة . وكان هذا العريش العجيب ذو الاغصان المؤلفة من صفائح وحديد

اول ما لفت انتباه جان فالجان . فأجلس كوزيت ، مسنداً ظهرها الى أحد الاعمدة ، طالباً اليها ان تلزم السكون ، ومضى الى حيث يسكن الانبوب بلاط الشارع ، لعله يجد وسيلة تساعد على ان يتسلق الجدار ، من هناك ، ويدخل المنزل . ولكن الانبوب كان متصدعاً بعيداً عهد الاستعمال ، ولم تكن مثبتاته لتمسك به إلا بشق النفس . والى هذا ، فقد كانت نوافذ هذا البيت الصامت ونوافذ الغرف القائمة تحت السقف نفسها ، مسلحة بقضبان حديدية غليظة . ثم ان القمر كان يضيء هذه الواجهة إضاءة كاملة ، وخلق بالرجل الذي كان يراقبه من اقصى الشارع أن يراه يتسلق الجدار . وأخيراً ، ما الذي يفعله بكوزيت ؟ كيف يرفعها الى قمة بيت ذي ثلاثة أدوار ؟ واطرح فكرة التسلسق بواسطة الأنبوب ، ودبّ على طول الجدار الى شارع بولونسو .

وحين بلغ شفة الجدار المتورة حيث ترك كوزيت ، لاحظ أن أحداً لا يستطيع أن يراه هناك . لقد تخلص ، كما شرحنا للحظة ، من النظرات جميعاً أياً كان مصدرها . والى هذا ، فقد كان الظلام يلفه . وأخيراً ، فقد كان ثمة بابان . لعلهم أن يفتحوهما . وكانت واضحة أن الجدار ، الذي رأى فوقه الزيزفون والبلابل ، يطل على حديقة كان في ميسوره ان يختبئ فيها على الأقل - على الرغم من ان الاشجار ما تزال مجرّدة من الاوراق - ويضي بقية الليل هناك . كان الوقت ينقضي . إن عليه ان يعمل في سرعة . وجرب باب العربات ، فوجد في الحال أنه موصد من الداخل والخارج .

واقترب من الباب الكبير الآخر وقد حمّر فؤاده أمل أعظم . كان هزماً الى حد مروع ، وكان حجمه الهائل قد جعله حتى أقل صلابة . كانت ألواح الحشبية عثة ، وأربطته الحديدية - وهي ثلاثة - جدته . لقد



بدا اختراق هذا النطاق النخري أسراً ميسوراً .  
حتى اذا امتحن هذا الباب رأى أنه لم يكن باباً . فلبس فيه  
رزات ، أو صفائح حديدية ، أو قفل ، أو خصاص في الوسط .  
وكانت العصابات الحديدية تطوقه من جانب الى جانب على غير انقطاع .  
ومن صدوع الألواح الخشبية ملحّ رصماً \* وحجارة ألحم ما بينها بالملاط على  
نحو أخرق ، كالتي كان لا يزال في ميسور عابري السبيل ان يروها منذ  
عشر سنوات . لقد اضطر الى الاعتراف في انشده ان هذا الباب  
الكاذب لم يكن غير زخرف زَيْن به ذلك الجدار . وكان يسيراً عليه  
ان ينزع لوحاً خشبياً ، ولكنه سوف يجد نفسه ، عندئذ وجهاً لوجه  
مع جدار من الجدران .

## ٥

وهو ما كان متعذراً لو ان الشوارع

أضيئت بالغاز

في تلك اللحظة بدأت ضجة مخنوقة نظامية تعلن عن نفسها على مسافة  
ما . وغامر جان فالجان فألتع عنقه حول زاوية الشارع . كانت مفرزة  
مؤلفة من سبعة جنود او ثمانية جنود قد انعطفت اللحظة نحو شارع  
بولونسو . لقد رأى وميض حراهم . كانوا مقبلين في اتجاهه .

وتقدم الجند ، وقد تبين على رأسهم قامة جافير الطويلة ، في تودة  
وفي حذر . وبين الفينة والفينة كانوا يقفون . كان واضعاً انهم  
يستكشفون كل زاوية من زوايا الجدران ، وكل فُرجة من فُرَج

الرض الحجارة غير المنحوتة .

الابواب والازقة .

ولما كان هؤلاء الجنود - وهنا لا سبيل الى ان 'يُجَدِّعَ' الخدس -  
يؤلفون دورية من العسس التقاها جافير ، وطلب اليها ان ترضع نفسها  
بنصرته .

وسار مساعدا جافير بين صفوفهم .

وكانوا في حاجة الى ربع ساعة تقريباً ، بسبب من بطنهم وكثرة  
توقفهم ، حتى يبلغوا البقعة التي تطلها قدما جان فالجان . كانت لحظة  
مروعة . ان بضعة دقائق لتفصل جان فالجان عن تلك المأوى الخفية  
التي فطرت فاهها ، امامه ، للمرة الثالثة . ولم يعد سجن المحكوم عليهم  
بالاشتغال الشاقة ، الآن ، سجن الاشتغال الشاقة وحسب . لقد أمسى  
ذلك السجن ضياعاً كوزيت الى الابد . يعني حياة شبيهة بباطن القبر .  
كان ثمة الآن شيء واحد ممكن .

وكانت جان فالجان هذه الميزة التي تمكننا من القول انه كانت يحمل  
جرايين في آن معاً . فأما الجراب الاول فكان ينطوي على افكار  
قدسية ؛ وأما الجراب الثاني فكان ينطوي على المواهب الرهيبة التي  
يستمع بها محكوم عليه بالاشتغال الشاقة . ولقد كان يلتمس العون من  
واحد من هذين الجرايين ، تبعاً لما يقتضيه المقام .

والى جانب براعاته الاخرى ، كان قد أمسى - كما نذكر جيداً ،  
وبفضل هروبه المتكرر من سجن المحكوم عليهم بالاشتغال الشاقة في  
طولون ، استاذاً في ذلك الفن الذي لا يُصدَّق والذي يجعل المرء قادراً  
على ان يرفع نفسه ، من غير سلام ، ومن غير كلال ، بالقوة العضلية  
وحدها ، ومن طريق الاستناد الى مؤخر عنقه ، والى كتفيه ، ووركيه  
وركبيته ، مستعيناً او يكاد ببعض نتوءات الحجر النادرة - ان يرفع  
نفسه على هذا النحو ، عند زاوية جدار قائمة ولو الى اعلى الدور السادس  
من بناية ما عند الحاجة . وهو فن جعل زاوية ساحة الكونسيرجيري

بباريس رهبة وشهرة ، بعد ان فرّ منها « باتومول » المحكوم عليه بالاشغال الشاقة .

وقاس جان فالجان ، بعينه ، الجدار الذي رأى اغصان شجرة الزيزفون فوقه . كان ارتفاعه يبلغ ثمانية عشر قدماً تقريباً . وكانت الزاوية التي شكلتها مع حائط جملون البناية للضحة ملأى ، في جزئها الأدنى ، بركام من الحجارة مبنية على شكل مستطيل لعل القصد من اقامته كان صيانة هذه الخلة الملائمة من غارات ذلك الضرب من الطيور التي ندعوها عابرة السيل . والواقع ان هذا الملء الوقائي لزوايا الجدران كثير الشيع في باريس .

وكان ارتفاع هذا الركام يبلغ نحواً من خمسة أقدام . ومن قته ، كانت المسافة الواجب اجتيازها للوصول الى الجدار لا تزيد على اربعة عشر قدماً .

وكان الجدار مغطى بطبقة من الحجارة المطمعة لا تنوء فيها على الاطلاق .

كانت كوزيت هي العقبة . فكوزيت ما كانت تعرف كيف تسلق جداراً . أيتخطى عنها ؟ إن ذلك لم يخطر في بال جان فالجان . وما كان حلها أمراً ممكناً . فأن كامل قوة المرء ينبغي ان 'تحمّد للقيام بمثل ذلك التسلق العجيب . ولا ريب في ان أقلّ عبء خليق بان يفقده مركز ثقله ، ويهوي به الى الأرض .

كان الموقف يقتضي حبلاً . ولم يكن عند جان فالجان شيء من ذلك . وأن يستطیع ان يحد حبلاً ، عند منتصف الليل ، في شارع بولونسو ؟ وبمينا ، لو كان لجان فالجان في تلك اللحظة مملكة ، اذن لتنازل عنها من أجل حبلى .

إن بليغ الحالات القصوى بروقها التي 'تعمينا في بعض الاحيان ، وثلهما في بعض الاحيان .

والتفت نظرة جان فالجان اليائسة بعمود المصباح العام في زقاق جانزو.  
في ذلك العهد لم تكن شوارع باريس تضاء بغاز الاستصباح . فما  
إن يبط الليل حتى تُتار مصابيح الشارع ، التي كانت مُقامة على مسافات  
معينة ، والتي كانت تُرفع وتُخفض بجبلٍ مخترقه الشارع من أقصاه الى  
أقصاه ، ويجري عبر نقوب الأعمدة . وكان الملوى الذي يلتف حوله  
هذا الجبل مخبوءاً ، تحت المصباح ، في صندوق حديدي صغير يحتفظ به  
الموظف المكلف إنارة المصابيح ، وكان الجبل نفسه مصوناً ، حتى ارتفاع  
بمينيه ، في بيت معدني .

وبقوة صراعٍ أسمى ، اجتاز جان فالجان الشارعَ بوثة واحدة ،  
واقنعم الزقاقَ ، وكسر لسانَ قفل الصندوق الصغير برأس مُدبته ؛  
وما هي الا لحظة حتى انقلب الى كوزيت كرةً اخرى . كانت معه  
جبل . إن مخترعي الجبل اليائسين هؤلاء اينطلقون ، في صراعهم مع  
القدور ، انطلاقاً خاطفاً ، عند الحاجة .

وفي غضون ذلك كانت الساعة ، والمكان ، والظلمة ، وانهاك جان  
فالجان ، وسلوكه العجيب ، ورواحه وبجيشه - كانت هذه كلها قد  
شرعت تقلق كوزيت . ولقد كان خليقاً بأبما طفلة غيرها ان تطلق ،  
منذ فترة بعيدة ، صيحات عالية . أما هي فاكنتت بأن جذبت جان  
فالجان من ذيل سترته الطويلة . كانت ضجة الدورية المقتربة تُسمع  
أوضحَ فأوضحَ على نحوٍ موصول .

وقالت ، في همس :

- « اي ، انا خائفة . من القادم ؟ »

فأجابها الرجل التمس :

- « هـ ! إنها السيدة تينارديه ! »

وارتعدت كوزيت .

واضاف :

« لا تقولي كلمة . دعيني أعمل . واذا صرخت ، واذا بكيت ،  
 فعندئذ تسمعك السيدة تيناردية . لقد جاءت لكي تستودك . »  
 ثم إن جان فالجان - من غير ما تعجل ، ولكن من غير أن  
 يكرر عملاً ما مرة ثانية ، وفي عزم ثابت وسريع ، وهو شيء يكون  
 ادعى إلى الدهش حين نذكر أن دورية العسس وجافير قد ينقضات  
 عليه في أي لحظة - نزع رباط عنقه ، وأمره حول جسد كوزيت  
 تحت الذراعين ، محاذراً أن يصيب الطفلة اذى ما ، وشد رباط الرقبة  
 هذا إلى طرف الجبل بواسطة العقدة التي يدعوها الملاحون « عقدة  
 السنونو » ، وعض على طرفه الآخر بأسنانه ، ونزع نعليه وجوريه طارحاً  
 إياها فوق الجدار ، وارثي ركام الحجارة المبنية على شكل مستطيل ،  
 وشرع يرفع نفسه عند زاوية الجدار وحائط الملون في صلابة وثقة بالفتين  
 وكان تحت عيبيه ومرقبه مراقبي وسلالم . ولم تكده تنقضي نصف  
 دقيقة حتى كان على ركبته ، فوق الجدار .

وراقبه كوزيت ذاهلة ، من غير أن تبس بكلمة . فقد كان في  
 وصية جان فالجان وفي اسم السيدة تيناردية ما أصابها بالكم ،  
 وفجأة ، سمعت صوت جان فالجان يدعوها في همن :  
 - « أسندي ظهرك إلى الجدار . »

وأطاعت .

فأضاف جان فالجان :

- « لا تتطقي بكلمة ، ولا تخافي . »

واستشعرت أنها ترتفع عن الأرض .

وقبل أن تبعد متسماً من الوقت للتفكير أين كانت ، ألقت نفسها  
 عند قمة الجدار .

وأخذها جان فالجان بين يديه ، ورضعها على ظهره ، وامسك يديها  
 الصغيرتين بيده اليسرى وانبطح على بطنه ، ودب فوق قمة الجدار حتى

انتهى الى الزاوية المبثورة . وكما سبق له ان قدر ، كان ثمة بناية  
يتحدّر سطحها من أعلى الساج الحشبي الى قريب جداً من الارض ،  
تحدّراً رقيقاً ينتهي به الى ان يمس شجرة الزيفون .  
وكانت تلك ظاهرة سارة ، لأن الجدار كان في ذلك الجانب أعلى  
بما كان في جانب الشارع بكثير . ولمح جان فالجان الارض ، من  
تحتة ، على عمق بعيد .

كان قد بلغ سطح السقف المنحدّر ، ولما يفادر قمة الجدار ، حين  
أعلنت جلبة عنيقة وصول دورية العس . وممع صوت جافير الراحل :  
- « فنشوا في الزقاق ! إن شارع « دروا مور » تحت الحراسة ،  
وكذلك شارع بيكبوس . اؤكد لكم أنه في الزقاق ! »  
واندفع الجنود الى زقاق جانزو .

وانزلت جان فالجان هابطاً السطح ، متشبّثاً بكوزيت حتى بلغ شجرة  
الزيفون ، ووثب الى الارض . وسواء أكان ذلك ثمرة الذعر أم ثمرة  
الشجاعة ، فان كوزيت لم تهس همّة واحدة . كانت يداها قد مُخدّشتا  
بعض الشيء .

## ٦

### بدء احجية

ووجد جان فالجان نفسه في شبه حديقة واسعة جداً وذات مظهر  
فريد ؛ حديقة من تلك الحدائق المحزونة التي تبدو وكأنها مُجعلت لكي  
تُرى في الشتاء وفي موهن من الليل . كانت تلك الحديقة مستطيلة الشكل ،  
في اقصاها صفٌّ من شجر الجور الضخم ، وفي زواياها أدواح فارعات  
الطول ، وفي وسطها فسحة غير ظليلة ، حيث تنهض شجرة منعزلة بالغة

العِظَم ، ثم بضع شجرات مشرة ملتوية شعناء مثل عواصج ضخام ، ومساكب من الحضر ، ومَبْطَحَة \* كانت الاواني الزجاجية التي تُفطي ثمراتها تلتصع تحت اشعة القمر ، وبئر قديمة . وكان هنا وهناك مقاعد حجرية بدت سوداء من اثر الطحلب . وكانت الممرات محوطة بشجيرات كثيفة ، بالغة الاستقامة . لقد غطى العشب نصفها ، والطحلب الاخضر ساورها . وكان الى جانب جان فالجان البناية التي مكّنه سطحها من الهبوط ، وركامٌ من الحشب ، وخلف الحشب ، في محاذاة الحائط تماماً ، تمثال من حجر لم يعد وجهه الا بتر غير قناع سائره بدا على نحو ضبابي في غمرة الظلام .

وكان البناء خراباً ، ولكن بعض الغرف المهتمة كان يمكن ان تميّز فيه . وكانت احدى تلك الغرف غاصة بما فيها ، بما يؤذن بأن القوم يتخذون منها مقيفة .

وكانت بناية شارع « دروا مور » الكبيرة المرتجعة على شارع ييكبوس الصغير تطلّ على هذه الحديقة بواجهتين مربعتين . وكانت هاتان الواجهتان الداخليتان أشدّ كثابة من الواجهات الخارجيّة نفسها . كانت جميع النوافذ مقضبة بالحديد . ولم يكن ثمة ضوء ما . وفي الأدوار العليا كانت مصاريع كالتي توجد في السجون . وكانت احدى هاتين الواجهتين تلتقي بظلمها فوق الأخرى ، فينطرح على الحديقة مثل قطعة ضخمة من قماش أسود .

وما كانت العين لتقع على أيما منزل آخر . كان اقصى الحديقة مضمّلاً في الضباب وفي الظلام . ومع ذلك فقد كان في مبدور المراء ان يتبين ، على نحو غامض ، جدراناً تتقاطّع ، وكانت وراء ذلك اراضٍ مزروعة أخرى ، وان يتبين ايضاً سطوح شارع بولونسو المنخفضة .

---

\* المبطنة زاوية من الحديقة تفرد زراعة البطيخ .

وليس في ميسور الانسان ان يتخيل شيئاً اكثر ضراوة واشد انغزاًل من هذه الحديقة . فلم يكن ثمة احد ، وهو امر طبيعي بسبب من تقدم الليل . ولكن المكان بدا وكأنه لم 'يُجْعَل لكي يمشي فيه إنسان ما ، حتى في رابعة النهار .

وكان أول هموم جان فالجان ان يبحث عن حذائه وأن ينتعله . ثم ان يدخل السقيفة مع كوزيت . والحق ان الرجل الذي يحاول الهرب لا يستشعر ابداً انه محبوب على نحو كافٍ عن اعين مطارديه . واذ كانت الطفلة تفكر بتبنارديه الزوجة تفكيراً موصولاً فقد شاركته غريزته ، فربضت اكثر ما استطاعت أن تربض .

وارتعدت كوزيت ، والتصقت به . وممعا جلبة الدورية التي كانت تجوس خلال الزقاق والشارع بحثاً عنهما ، وصدى التماس بين بنادقهم وبين الحجارة ، ونداءات جافير للحرس الذين أقامهم هنا وهناك ، ولعنائته المتزعجة بكلمات لم يكن في ميسورهما ان يتبينتاها . وبعد ربع ساعة ، بدا وكأن هذه الزجاجة العاصفة قد شرعت تنأى . ولم يأخذ جان فالجان نفساً .

كان قد وضع يده ، في رفق ، على فم كوزيت . ولكن العزلة التي وجد نفسه فيها كانت ساكنة سكوناً عجيماً الى درجة جعلت تلك الجلبة المروعة ، المهاجرة الى أبعد الحدود ، القرية الى أبعد الحدود ، لا تُلقِي عليها ولو ظلاً من كدر . لقد بدا وكأن هذه الجدران مبنية من زجاج الحجارة الصم التي يتحدث عنها الكتاب المقدس .

وضجة ، وفي غمرة من هذا السكون العبق ، ارتفعت ضجة جديدة ، ضجة سماوية ، السّمة ، لا سبيل الى وصفها ، ضجة فاتنة بقدر ما كانت تلك مروعة . كانت ترنيمة انبثقت من الظلام ، مزاجاً مذهلاً من الصلاة والتناغم في صمت الليل القاتم الخفيف ، أصواتاً نسائية ،



ولكنها أصوات تحمل نبوات العذارى الصافية ، ونبوات الاطفال الساذجة ،  
تلك الاصوات غير الارضية الشبيهة بالتي لا يفتأ الوليد يسمعها ، والتي  
تردد في مسمي المرء ساعة الاحتضار . وانما انطلقت هذه الاغنية من  
البنابة الكالحة المطلة على الحديقة . وفي تلك اللحظة التي تباعدت فيها  
جلبة الأبالسة لم يكن عجباً ان يُخيل الى السامع أنها جوقـة من  
الملائكة تقترب تحت جناح الظلام .

وركمت كوزيت وجان فالجان على رُكبهما .

انهما لم يعرفا ماهية ذلك ، إنهما لم يعرفا ابن كانا ، ولكنها كليهما ،  
الرجل والطفلة ، التأثب والبريئة ، استشعرا ان عليهما ان يجسّوا على  
رُكبهما .

ومن عجب ان هذه الاصوات لم تمنع البنابة من ان تبدو موحشة .  
كانت أشبه بأغنية خارقة في منزل مهجور .

وفيما كانت هذه الاصوات تتغنى ، استغرق جان فالجان فيها استغراقاً  
تاماً . إنه لم يعد يرى الليل . لقد رأى سماء زرقاء . لقد بدا وكأنه  
يحسّ بانبساط هذه الاجنحة التي تملكها كلنا في باطننا .

وخذت الاغنية . ولعلها ان تكون قد استمرت فترة طويـلة . فلم  
يكن في ميسور جان فالجان ان يدري . إن ساعات النشوة الروحية  
ليست أبداً غير دقيقة واحدة .

وغرق كل شيء في الصمت كـرةً اخرى . لم يبق شيء في الشارع ،  
ولم يبق شيء في الحديقة . لقد تلاشى كل شيء ، ذلك الذي كان  
يتهدّد ، وذلك الذي كان يوقع الطمأنينة في النفس . وداعبت  
الريح العشب الجاف فوق قمة الجدار ، محدثة ضجة خفيفة ، رفيعة ،  
كثيـبة .

## الأحجية تستمر

كانت ربح الليل الشمالية قد هبت ، وهو ما آذن بأن الساعة كانت تتراوح من غير شك ما بين الساعة الواحدة والساعة الثانية صباحاً . ولم تنطق كوزيت المسكينة بكلمة ما . واذ كانت قد جلست الى جانبه ، وامسدت رأسها اليه ، فقد ظن جان فالجان انها نائمة . وانحنى قليلاً ، ونظر اليها . كانت عيناها مفتوحتين على مداهما ، وكانت ترين على وجهها سياه أوجعت فؤاد جان فالجان .

كانت لا تزال ترتجف .

فقال جان فالجان :

- « هل انت ناعمة ؟ »

فأجابت :

- « انا اشعر ببرود شديد . »

وبعد لحظة ، اضافت :

- « ألا تزال هناك ؟ »

فقال جان فالجان :

- « من ؟ »

- « مدام تيناردييه . »

وكان جان فالجان قد نسي الوسيلة التي اصطنعها ليضمن سكوت كوزيت . وقال :

- « اوه ! لقد ذهبت . لا تخافي شيئاً بعد الآن . »

وتهدت الطفلة ، وكأنّها ثقلاً قد رُفع عن صدرها .

كانت الارض رطبة ، وكانت السقيفة مشرعة من جنباتها جميعاً ،

وكانت الريح تزداد برودة لحظة بعد لحظة . ونزع الرجل الطيب سترة الطويلة ولف كوزيت بها .

- « هل تحسِن بالدفء ، الآن ، اكثر من ذي قبل ؟ »

- « اوه ، نعم ، يا أبت ! »

- « حسن ، انتظريني هنا لحظة . سوف ارجع في الحال . »

وغادر المكان الحَرِّب ، ومضى في محاذاة البناية الكبيرة ، التماساً لماوى افضل . لقد وجد ابواباً ، ولكنها كانت كلها موصدة . وكانت جميع نوافذ الدور الارضي مقضبة بالحديد .

وفيما هو يمتاز زاوية البناء الداخلية ، لاحظ انه انتهى الى بضع نوافذ مقنطرة لمح عندها بصيصاً من النور . ونهض على رؤوس اصابعه ، وحدق من خلال إحدى تلك النوافذ . كانت جميعها تنفتح على قاعة واسعة ، مفروشة ببلاطات عراض ، تشطرها عقود واساطين ، حيث لم يكن في وسع المرء ان يتبين غير وميض ضئيل وظلمات كثيفة . وكان ذلك الوميض ينبعث من قَنَدِيل مضاء في احدى الزوايا . كانت القاعة مهجورة ، وكان كل شيء ساكناً . ومع ذلك فقد وقع في نفسه انه رأى ، يانعاً النظر ، شيئاً منبسطاً على ارض القاعة ، شيئاً بدا وكأنه مغطى بكفن . وكان له شكلاً إنسانياً . كان منبطحاً على بطنه ، مستقبلاً الارض بوجهه ، متصالب الذراعين ، جامداً جمود الموت . ولقد كان خليفاً بالرائي أن يقول ، بسبب من شبه افعى كانت ترحف فوق ارض القاعة ، ان حبلاً كان يطوق عنق ذلك الشكل المشؤوم .

وكانت القاعة كلها غارقة في ذلك الضباب الذي يرين على الاماكن الباهتة الاضاءة ، والذي يضاعف الذعر .

وكثيراً ما قال جان فالجان منذ ذلك الحين إنه ، على الرغم مما شاهده خلال حياته من مشاهد كثيفة لا تكاد تفحص ، فان بصره لم يقع على ما هو افظع وادعى الى الرعب من تلك الصورة الملتزمة

المحققة لسرٍّ عجيب ما ، ليس يعرفه ، في ذلك الموطن الكالح ، والتي  
نُلح على هذا النحو الضبابي في الليل . كان بما يروِّع المرء ان يفترض  
أنها قد تكون مينة ، وكان بما يروِّعه أكثر ان يظن انها قد تكون  
على قيد الحياة .

وآنس من نفسه الجرأة على ان يضغط بجبينه على الزجاج ، واث  
يراقب ليرى ما اذا كان ذلك الشيء سوف يتحرك . وقضى على هذا  
فترة طويلة ، في ما بدا له ، ولكن على غير طائسل . ان الشكل  
المتبطح لم يُبدِ حراكاً . وفجأةً ، عصف به دعر يجلّ عن الوصف ،  
وولى فراراً . لقد انطلق نحو السقيفة من غير ان يجرؤ على النظر الى  
وراء . فقد بدا له أنه اذا ما التفت فسوف يرى تلك الصورة تعدو  
خلفه في خطى واسعة ، هازةً بذراعيها .

وبلغ السقيفة الحربة مبهوراً منقطع النفس . وخذلته ركبتهاه ،  
وتخلّب العرق البارد من مامّ جسده جميعاً .

ابن كان ؟ مَنْ ذا الذي قدّر له يوماً أن يتخيل أيّ شيء مثل هذا  
الضرب من القبر في قلب باريس ؟ ما هذا البيت الغريب ؟ بناء حافل  
بالأسرار الليلية ، ينادي الأرواح ، تحت جنح الظلام ، بأصوات  
الملائكة ، حتى اذا اقبلت فاجأها بمثل هذا المشهد الرهيب - يَعِدُ  
بفتح باب الجنة المشعّ ، ويفتح باب القبر الخيف . أكان ذلك بناء  
حقاً ، بيتاً ذا رمّ في الشارع ؟ ألم يكن هذا حلماً ؟ كان في حاجة  
الى ان تتقرّى يدها الجدران بالأسس لكي يصدق ذلك .

كان البرد ، والقلتي ، والاهتياج ، وما عاناه في تلك الليلة من  
آلام - كانت هذه كلها توقع في جسده حمى حقيقية . وانشأت افكاره  
كلها تصادم في دماغه .

واقترب من كوزيت . كانت نائمة .

## الاحجية تتعقد

كانت الطفلة قد الفت رأسها على حجر واستلمت للرقاد .  
وجلس قربها ، ونظر اليها . شيئاً بعد شيء ، فبدا هو يتأملها ،  
هدأ روعه ، واستعاد صفاء ذهنه .

كان واضحاً انه ادرك هذه الحقيقة ، التي أمت أساس حياته منذ  
اليوم ، وهي أنها ما دامت على قيد الحياة ، وما دامت الى جانبه فلن  
يكون في حاجة الى شيء ابدأ إلا من أجلها ، ولن يخشى شيئاً ابدأ  
إلا بسبب منها . إنه لم يحسّ حتى بذلك البرد الشديد الذي كان يستبد  
به وقد نزع سترته الطويلة ليغطيها بها .

وفي غضون ذلك ، ومن خلال التأمل الحالم الذي استغرق في خضمه ،  
طرفت سمعه ، فترة ما ، ضجة فريدة . كانت أشبه بصوت جُلجل\*  
يتأيل . ولما انبعثت تلك الضجة من الحديقة . وسمعت في وضوح ،  
على الرغم من انها كانت واهنة : لقد أشبهت تلك الموسيقى البدائية  
الغامضة التي تعزفها جلاجل البقر ، ليلاً ، في مراعيها .

تلك الضجة حملت جان فالجان على الالتفات .

ونظر ، فرأى ان في الحديقة شخصاً ما .

كان مخلوقٌ شبيه بالرجل يمشي وسط الاواني الزجاجية التي نططي  
ثمرات البطيخ ، ناهضاً حيناً ، منحنيّاً حيناً ، متوقفاً حيناً ، كل ذلك  
في حركات نظامية وكأنما كان يسحب او يبسط شيئاً على الارض .  
وكان ذلك المخلوق اعرج في ما يبدو .

وارتعد جان فالجان بارتعاش المساكين الموصولة . إنهم يجدون كل

---

\* الجللل : الجرس الصغير . وجهه جلاجل .

شيء معادياً وريبياً . فهم يحذرون النهار لأنه يساعد رجال السلطة على رؤيتهم ، ويحذرون الليل لأنه يساعد أولئك الرجال على مباغتتهم . منذ لحظة ، كان يرتعد لان الحديقة خالية ؛ وما هو ذا الآن يرتعد لأن ثمة شخصاً فيها .

وانتقل كرة أخرى من خضمّ المخاوف الوهمية الى خضمّ المخاوف الحقيقية . وقال في ذات نفسه : لعل جافير وجواسيسه لما يغادروا المكان ، وأنهم قد خلفوا من غير ربب شخصاً ما ليراقب الشارع ، وانه اذا ما اتفق لذلك الشخص ان اكتشف وجوده في هذه الحديقة فسوف يستعدي الناس على اللص ، ويبله الى السلطة . وفي رفق ، رفع كوزيت النائمة ، بين ذراعيه ، وحملها الى أقصى زاوية من زوايا السقيفة خلف ركاب من الأثاث القديم لم يعد موضع الاستعمال . ولم تتحرك كوزيت .

ومن هناك ، راقب حركات ذلك المخلوق الذي كان يمشي في الرقعة المزروعة بطيحاً . ومن عجب ان صوت الجلبجل كان يتبع كل حركة من حركات هذا الرجل . فاذا ما اقترب الرجل ، اقترب الصوت . واذا ما ابتعد الرجل ، ابتعد الصوت . وحين كان الرجل يأتي بحركة مفاجئة ، كان يصاحب تلك الحركة ارتجاف في الصوت . وحين كان ينوقف ، كانت تلك الضجة تنقطع . لقد بدا واضحاً أن الجلبجل كان مشدوداً الى ذلك الرجل . ولكن ، اي معنى يمكن ان يُستفاد من ذلك ؟ اي رجل هو ذاك الذي يُعلّق في عنقه جلبجل ، كما يُعلّق في عنق كبش او ثور ؟

وفيا هو يفكر في هذه الاسئلة ، لمس يدي كوزيت . كانتا مثلوجتين .

وقال :

- « آه ، يا الهي ! »

وناداهما في صوت خفيض :

- « كوزيت ! »

فلم تقنع عينيها .

وهزها في قوة .

ولم تستيقظ .

فقال :

- « أيمكن ان تكون قد ماتت ؟ »

ووثب واقفاً ، وهو يرتعد من قمة رأسه حتى اخمص قدميه .

واندفعت الى عقله ، كيفما اتفق ، أفضع الافكار وأدعاها الى الذعر .

فئة لحظات تحاصرت فيها الافتراضات البشعة الحجة مثل جبهة من آلهة

الجمجم ، وتفتحتم ابواب دماغنا . ونحن يكون اولئك الذين نجبهم في

خطر بختوع قلقنا مختلف ضروب المخافات . وتذكرنا ان النوم في

المواء المطلق ، وفي الليالي الباردة ، قد يكون مهلكاً .

كانت كوزيت شاحبة ، وكانت قد انطرحت على الارض ، عند

قدميه ، من غير ان تأتي بحركة .

وأصغى الى انقاسها . كانت تنفس ، ولكن تنفساً بدا له واهناً

وعلى وشك ان يجمد .

ما السبيل الى تدفئتها ؟ ما السبيل الى إيقاظها ؟ لقد طرد كل شيء

من تفكيره ما خلا هذا . واندفع في يأس الى خارج المكان الحروب .

كان ضرورياً جداً ان توضع كوزيت في فراش ما ، وتقرم النار

الى جانبها ، وان يتم ذلك في مدى لا يتجاوز ربع ساعة .

## الرجل ذو الجللجل

ومضى مباشرة الى الرجل الذي رآه في الحديقة . كان قد حمل بيده لفة المال التي كانت في جيب صدره .  
وكان ذلك الرجل مطأطأ الرأس . فلم يره مقبلاً نحوه . وما هي الا بضعة خطوات حتى كان جان فاجان على مقربة منه .  
وحاذاه جان فاجان هاتفاً :

« مئة فرنك ! »

وأجفل الرجل ، ورفع عينيه .

وتابع جان فاجان :

« مئة فرنك نكسبها ، اذا آويتني هذه الليلة . »

واضاء القمر وجه جان فاجان الذاهل إضاءة كاملة .

وقال الرجل :

« ماذا ! هذا انت ، ايها الاب مادلين ! »

وكان في هذا الاسم الملفوظ هكذا ، في تلك الساعة المظلمة ، وفي ذلك المكان المجهول ، وعلى لسان ذلك الرجل المجهول ، ما جعل جان فاجان يرتد الى وراه .

كان مستعداً لكل شيء عدا هذا . فقد كان المتكلم رجلاً عجوزاً ، متقوس الظهر ، أعرج ، مرتدياً ثياباً هي شبه ثياب الفلاحين ، وعلى ركبتة اليسرى واقية للرؤكب جلدية يتدلى منها جرس ضخيم بعض الشيء . أما وجهه فكان في الظل ، فليس من سبيل الى ان يتبينته المرأة .

وفي غضن ذلك كان الرجل الساذج قد نزع قلنسوته ، وهنف وهو يرتجف :



- « آه ، يا الهي ! كيف جئت الى هنا أيا الأب مادلين ؟  
من اين دخلت ، أوه ، ايها الرب يسوع ! هل هبطت من السماء ؟  
اذا كنت قد هبطت من مكان ما فليس من ريب في انك هبطت من  
هناك . وما الذي دهاك ؟ فأنت لا ترتدي رباط عنق ، ولا تعتمر  
بقبعة ، وليس على جسدك سترة . ما ؟ اندري انك كنت جديراً بأن  
تروّع اي امريء لا يعرفك ؟ لا سترة ؟ يا الهي ! أين القديسون  
في هذه الايام ؟ ولكن كيف دخلت الى هنا ؟ »

ولم تكن اى من كلماته تنتظر الاخرى . كان الرجل العجوز  
يتحدث في ذلاقة رفيعة لم يكن فيها ما يقلق . ولقد قيل ذلك كله في  
مزيج من الانشداء والطيبة الساذجة .  
وسأله جان فالجان :

- « من انت ؟ وما هذا البيت ؟ »

فصاح الرجل العجوز :

- « آوه ، حقاً ، هذا حسن . انا الرجل الذي وظّفته هنا ، وهذا  
البيت هو المكان الذي وظّفني فيه . ماذا ؟ انت لا تتذكرني ؟ »  
فقال جان فالجان :

- « لا . وكيف اتفق ان عرفتني ؟ »

فأجاب الرجل :

- « لقد أنقذت حياتي . »

والفت ، فأضأت اشعة القمر صفحة وجهه ، فعرف جان فالجان  
انه فوشلوفان العجوز .

وقال جان فالجان :

- « آه ! هذا أنت ؟ أجل ، أنا أذكرك . »

فقال الرجل العجوز في نبرة عتاب :

- « هذا سار جداً . »

واضاف جان فالجان :

- « وماذا تفعل هنا ؟ »

- « أوه ! أنا أغطي بطيخاتي . »

وفي الحق ان فوشلوفان كان يحمل في يده ، لحظة دنا منه جان فالجان ، طرفَ حصير من قصب كان منهكاً في نشره فوق مسكبة البطيخ . وكان قد نشر على هذا النحو عدداً من الحُصُر خلال الساعة التي قضاها في الحديقة . كانت هذه العملية هي التي حملته على القيام بتلك الحركات الخاصة التي لاحظها جان فالجان من السقفة .

واضاف :

-- « لقد قلت لنفسي : القمر نير ، ولسوف 'تصعق' الارض' .

لعل من الخير أن ألبس بطيخاتي سترانها . و ... »

وهنا نظر الى جان فالجان ثم اضاف مُرسلاً ضحكة عالية :

- « ... لقد كنتَ تحسن صنعاً لو انك 'عنيتَ' بنفسك مثل هذه

العناية ! ولكن كيف جئتَ الى هنا ؟ »

واذ وجد جان فالجان ان ذلك الرجل يعرفه ، باسم مادلين على

الاقل ، فقد اطرح ما كان يلتزمه من حذر شديد . وضاعف اسئلته .

فبدا - وبالعجب ! - انها قد تبادلا دوريهما . لقد قام هو -

المتطفل - بدور المستجوب .

- « وما هذا الجبل المعلق برقبته ؟ »

فأجابه فوشلوفان :

- « هذا ؟ إن الغرض منه ان يجتنبني القوم . »

- « كيف ؟ لكي يجتنبك القوم ؟ »

وغزوه فوشلوفان بعينه على نحو لا سبيل الى وصفه .

- « آه ، يا الهي ! ليس يوجد في هذا البيت غير النساء . غير عدد

كبير من الفتيات . ويبدو ان من الخطر الالتقاء بي . ان الجبل

بجذّرهـن . فحين اُجِـيء يذْهَبـن . »

- « ما هذا البيت ؟ »

- « ولكنْ ، انت تعرف جيداً ! »

- « لا ، انا لا أعرف . »

- « ولكنك أنت الذي جعلتني يستانياً في هذا المكان ! »

- « أُجِـبني وكأنني لا أعرف شيئاً البتة . »

- « حسنًا ، انه اذن دير بيكبوس الصغير . »

وتذكّر جان فالجان . كانت المصادفة ، يعني العناية الإلهية ، قد قذفت به على وجه الضبط في دير حيّ سان انطوان هذا حيث كان فوشلوفان العجوز قد أدْخِلَ ، بناء على توصية منه ، بعد ان أقعده السقوط من عربته ، قبل عامين اثنين . وكرّر وكأنما كان يخاطب نفسه :

- « دير بيكبوس الصغير ! »

واستأنف فوشلوفان :

- « ولكن ، يا للشيطان ! كيف استطعت ، حقاً ، ان تدخل

الى هنا ، انت ، ايها الاب مادلين ؟ عبثاً تحاول إقناعي بأنك قديس .

أنت رجل ، ومحظوظٌ على الرجال ان يدخلوا الى هنا . »

- « ولكنك هنا . »

- « ليس هنا رجلٌ غيري . »

فأردف جان فالجان :

- « ومع ذلك فينبغي ان أبقى هنا . »

فصاح فوشلوفان :

- « آه ، يا الهي ! »

واقترّب جان فالجان من الرجل العجوز وقال له في جرس فاجع :

- « ايها الاب فوشلوفان ، لقد انقذتُ حياتك . »

فأجابه فوشلوفان :

« لقد كنتُ انا اول من تذكر ذلك . »

« حسناً ، في استطاعتك ان تقدم اليّ اليوم مثل تلك الخدمة

التي قدمتها اليك بالامس . »

وأمسك فوشلوفان بيديه الهرمتين المتجمعتين المرتجفتين يدي جان

فالجان القويتين . وانقضت بضع ثوانٍ قبل ان يوفّق الى الكلام .

واخيراً صاح :

« أوه ! اذا استطعتُ أن اردّ اليك بعض جيلك ، فسوف

يكون ذلك فضلاً من عند الله . انا ! انا اتقد حياتك ! سيدي العمدة ،

ان الرجل المعجوز تحت تصرفك ! »

لكأنّ حبروراً رائعاً قد غلب على وجه هذا المعجوز فتهلّل به . لقد

بدا وكأنّ شعاعاً قد انبتق من وجهه .

وأضاف :

« ما الذي تطلب اليّ ان أعمله ؟ »

« سوف اشرح لك ذلك . أعندك غرفة ؟ »

« عندي كوخ منعزل ، هناك ، خلف خرائب الدير العتيق ،

في زاوية لا يراها احد . إنّ هناك ثلاث غرف . »

وكان الكوخ ، في الحق ، محبوباً خلف الخرائب وفي منأى عن

اعين الرقباء الى حد جعل جان فالجان يعنى عنه .

وقال جان فالجان :

« حسن . سوف أسألك ، الآن ، امرين . »

« ما هما ، يا سيدي العمدة ؟ »

« اولاً ، ان لا تقول لأحد ما تعرفه عني . وثانياً ، ان لا

تحاول ان تعرف من ذلك شيئاً إضافياً . »

« كما تريد . أنا أدري انك لا تستطيع ان تفعل الا ما يشرف

وانك كنت دائماً رجلاً من رجال الله . والى هذا ، فأنتك انت الذي  
وضعتني هنا . هذا المكان لك . وانا طوع أورك . ،

- « حسن جداً . والآن ، تعال معي . سوف نذهب لتأني بالطفة . »  
فقال فوشلوفان :

- « آه ! هناك طفلة ! »

ولم يزد على ذلك كلمة واحدة ، وتبع جان فالجان كما يتبع كلب  
سيده .

وفي أقلّ من نصف ساعة كانت كوزيت قد أمست وردية اللوث  
بفضل اللهب المنبعث من نار قوية ، وثامت في سرير البستاني المعجوز .  
وكان جان فالجان قد عاود ارتداء رباط عنقه وستوته الطويلة . وكانت  
قبعته التي قذف بها من فوق الجدار قد وجدت ورفعت عن الارض .  
وفيا كان جان فالجان يلبس ستوته الطويلة كان فوشلوفان قد نزع واقيه  
ركبته ذات الجبلجل ، وعلقها بمسار قرب مصرع النافذة ، فهي تزين  
الجدار . كان الرجلان يتدقآن ، وقد اسندا مرفقيهما الى مائدة كانت  
فوشلوفان قد وضع عليها قطعة من جبن ، وشيثاً من الخبز الاسمر الدهون  
وزجاجة خمر ، وكأسين . وقال المعجوز لجان فالجان واضعاً يده  
على ركبته :

- « آه ! ايها الاب مادلين ! انك لم تعرفني لأول وهلة ! انت  
تتخذ الناس ، ثم تنسام ! اوه هذا غير حسن ! انهم يذكرونك .  
أنت جاحد تنكر الجليل ! »

## وفيه يتضح كيف أضاع جافير الطريدة

والواقع ان الاحداث التي رأينا اللحظة وجهها الآخر ، اذا جاز للتمييز ، انما تمت في ظل ابط الاحوال والملابسات .

عندما فرّ جان فالجان - في ليل ذلك اليوم نفسه الذي اعتقله جافير خلاله قرب سرير فانتين المحتضرة - من سجن مونتروي سور مير البلدي ، قدّر البوليس ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة الهارب من وجه العدالة قد اتجه ، من غير شك ، نحو باريس . فباريس درودور صاحب يضيع فيه كل شيء . وكل شيء يختفي في دوامة العالم هذه كما يختفي في دوامة البحر . وليس من غابة تستطيع ان تحجب رجلاً كما تحبّه هذا الحشد . والفارّون على اختلاف اصنافهم يعرفون ذلك . منهم يذهبون الى باريس وكأنهم يذهبون الى مكان يفمرهم ؛ فتمّة بالوعات متجبي وتنفذ . ورجال الشرطة يعرفون ذلك ايضاً ، فهم انما يبحثون في باريس عن اضاعوه في اياما مكان آخر . ولقد بحثوا هناك عن صدة مونتروي سور مير السابق . ودعي جافير الى باريس لمساعد الشرطة في مباحثتها . والحق ان جان فالجان قد ساعد ، في قوة ، على اعتقال جان فالجان من جديد . ولقد أشاد مسيو شابوييه ، امين سر الشرطة في عهد الكونت آنغلينز ، بالحلمة والذكاء اللذين تكتشف عنها جافير في تلك المناسبة . ومن ثمّ وقتي مسيو شابوييه ، الذي سبق له ان أسبغ حمايته على جافير ، الى ان ينقل مفتش مونتروي سور مير الى مركز الشرطة بباريس . وهناك ، أثبت جافير بطرائق مختلفة أنه - ولتقلها برغم ان الكلمة تبدو غريبة لم يُسمع بمثلا في الكلام على مثل تلك المصلحة - عظيم الفائدة باستقامة وشرف .

وكان قد اطرح التفكير في جان فالجان نهائياً - فعند كلاب القنص هذه الموكلة ابدأ بطرائدها يطس ذئب اليوم على ذكرى ذئب أمس - عندما قرأ في كانون الاول عام ١٨٢٣ صحيفة ما ، وهو الذي لم يقرأ الصحف في يوم من الايام . ولكن جافير جعل من همه - بوصفه ملكياً - ان يعرف تفاصيل دخول « الامير الفائذ العام » \* المظفر الى بايون . حتى اذا أتم قراءة المقالة التي اثارت اهتمامه لفت نظره في الاسطر الدنيا من احدى الصفحات اسم من الاسماء ، هو اسم جان فالجان . لقد اعلنت الصحيفة ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة جان فالجان قضى نحبه . وانما سيق الحبر في عبارة جازمة الى حد جعل جافير لا يشك في صحته البتة . لقد اكتفى بالقول : « إن هذا يضع حداً للمسألة » ، ثم التفت الصحيفة جانباً ، وأقنع عن التفكير في ذلك . وبعد فترة اتفق ان حوّلت مذكرة بوليسية من مديرية شرطة الـ « سين ايه واز » الى مديرية شرطة باريس عن حادث اختطاف طفلة وقع ، كما قيل ، في ظروف خاصة ، في قضاء مونفيرماي . وقد نصت تلك المذكرة على ان طفلة صغيرة في السابعة او الثامنة من العمر كانت أمها قد عهدت في تربيتها الى فتى من اهل المنطقة ، قد سرقها من ذلك الفندق رجل مجهول . وكانت هذه الطفلة الصغيرة تُعرف بكوزيت . وكانت ابنة فتاة تدعى فانتين ، ماتت في المستشفى ، وليس ثمة من يعرف متى كانت وفاتها أو ابن . وانتهت هذه المذكرة الى جافير ، فلم تكده عيناه تقعان عليها حتى استغرق في التفكير . كان هذا الاسم ، فانتين ، معروفاً عنده جيداً . لقد ذكر ان جان فالجان جعله ينقجر ، هو جافير ، بالضحك حين سأله مهلة ثلاثة ايام لكي يذهب التماساً لابنة هذه المحلقة . وذكر ان جان فالجان اعتُقل في باريس لحظة كان يصعد الى مركبة مونفيرماي العمومية . ولقد قادته

\* يقصد دوق آنتوايم الذي قاد حملة اسبانية ، وقد ورد ذكرها في الجزء السابق .

بعض الدلائل الى الاعتقاد ، آنذاك بأن هذه كانت المرة الثانية التي امتطى فيها متن هذه العرب ، وانه كان قد قام ، الليلة البارحة ، برحلة اخرى الى ضواحي تلك القرية لأن احداً لم يره في القرية نفسها . اي شيء كان يعمل في منطقة مونفيرماي هذه ؟ ذلك ما لم يستطع احد ان يجزره . ولكن جافير فهمه الآن . كانت ابنة فانتين هناك . ولقد ذهب جان فالجان اليها . وما قد سرق رجل مجهول تلك الطفلة . من عساه يكون هذا الرجل المجهول ؟ أيمكن ان يكون جان فالجان ؟ ولكن جان فالجان قد مات . ومن غير ان يقول كلمة لاحد ، امتطى جافير متن العرب العمومية عند « بلاديتين » ، زقاق بلانشيت ، وسافر الى مونفيرماي .

لقد توقع ان يجد ايضاحات هامة هناك ، ولكنه لم يجد غير غموض كبير .

وفي الايام الاولى كان تيناردييه وزوجته قد أذاعا ، في غمرة من غيظهما ، نبأ ذلك . وأحدث اختفاء القبضة ضجة في القرية . وفي الحال اتخذت القصة عدة اشكال ، ورؤيت روايات مختلفة ، انتهت بأن أمست حادثة اختطاف . ومن هنا مذكرة البوليس التي اشرنا اليها . وأياً ما كان ، فحين مهدت الفورة الاولى ادرك تيناردييه في غير ابطاء ، تحدوه غريزته الرائعة ، أن ليس من مصلحته أن يستعدي النيابة العامة الملكية ، وان أولى نتائج شكاواه في ما يتصل باختطاف كوزيت ، سوف تكون تركيز عين العدالة الناقبة عليه هو ، تيناردييه ، وعلى كثير من متاعبه التجارية . إن آخر ما تمناء اليوم هو ان تحمل اليها شحنة . وقبل كل شيء ، كيف يفسر الخمسة عشر ألف فرنك التي تسلمها ؟ وغير وجهته بغنة ، وكلّم فم زوجته ، وتظاهر بالدعش كلما حدثه امرؤ عن الطفلة المسوقة . إنه ما كان يعرف عن ذلك شيئاً . ولا ريب في أنه تشكّى ، في الحال ، أن « تترّع » منه تلك الفتاة



الصغيرة العزيزة بثل هذه السرعة ؛ ولقد كان يفضل ، بدافع من الحنان المحض ، ان يحتفظ بها يومين اضافيين او ثلاثة ايام إضافية . ولكن جدّها هو الذي جاء يطلبها ، وهو شيء طبيعي اكثر من اي شيء آخر في العالم . كان قد اضاف الجّد الى القصة ، وهو ما بداسائفاً في الآذان . على هذه الحكاية وقع جافير في مونفيرماي . وكان في ذكر الجّد ما استبعد جان فالجان ، وأخرجّه من الحساب .

ومع ذلك فقد طرح جافير بعض الاسئلة ، وكأنها مسابير \* في رواية تيناردييه : « من كان هذا الجّد ، وما اسمه ؟ » وأجاب تيناردييه في بساطة : « انه مزارع غني . لقد رأيت جواز سفره . انا اعتقد انه يدعى مسيو غيوم لامبير . »

إن لامبير اسم وقور جداً يوقع الطمأنينة في الفؤاد . ورجع جافير الى باريس .

وقال مخاطباً نفسه :

— « إن جان فالجان ميتٌ حقاً . وإني لمعتوه . »

وكان قد شرع ينسى هذه القصة كلها ، عندما سمع بعضهم يتحدث ، خلال شهر نوار ١٨٢٤ ، عن رجل غريب يقطن في ابرشية سان ميداو ، ويدعى « الشحاذ الذي بوزّع الصدقات . » وكان هذا الشخص ، كما قيل ، رجلاً يحيا على كسّله ، وليس بمرف احد اسمه ظاماً — رجلاً يعيش وحده مع فتاة صغيرة في الثامنة ، لا تدري من أمرها غير شيء واحد وهو أنها أقبلت من مونفيرماي . مونفيرماي ! إن هذا الاسم ليتكرر دائماً ، وإنه ليلفت انتباه جافير . وازاد جاسوس عجوز من جواسيس الشرطة المتسولين — وهو مستخدم قديم في احدى الكنائس كان ذلك الشخص يتصدق عليه — معلومات جديدة ، فقال : « هذا الرجل شديد النفرة من الناس ، فهو لا يغادر منزله إلا ليلاً ، وهو لا يتحدث

\* جمع مبار وهو ما يتحن به غور الماء ليعرف مقداره .

الى احد ، ما عدا الفقراء في بعض الاحيان ، ولا يدع أحداً يتعرف إليه . إنه برندي سترة عتيقة صفراء مخيفة تساوي عدة ملايين ، لأنها محشوة كلها بالاوراق النقدية . واثار ذلك فضول جافير من غير ريب . ولكي يرى الى هذا الغني الغريب عن كتب من غير أن 'يفعله' ، فقد استعار ذات يوم من المستخدم في الكنيسة ملابسه الرثة والمكاث الذي تعود جاسوس الشرطة العجوز ان يجلس فيه القرفصاء كل مساء مخنئاً بأدعيته ، متجسماً من خلال صلواته .

وفي الواقع فقد وفد الشخص المريب ، الى جافير المنتكّر على هذا النحو ، وتصدق عليه . وفي تلك اللحظة رفع جافير رأسه . وأصابه ، إذ اعتقد انه عرف جان فالجان ، مثل تلك الصدمة التي اصابته جات فالجان اذ اعتقد انه عرف جافير .

ومع ذلك ، فلعلّ الظلمة قد خدعته ؛ فقد كان موت جان فالجان أمراً مثبتاً عند السلطات . ولكن بقيت في نفس جافير شكوك ، وشكوك جدية . وفي حال الشك ، ما كان جافير - وهو الحذر الذي يسعى جهده لاجتناب الخطأ - ليأخذ بخناق أيما رجل على الاطلاق .

ولحق بصاحبه حتى بيت غوربو . وأغرى « المرأة العجوز » بالكلام ، وهو أمر لم يكن عديراً قط . وأيدت العجوز رواية السترة المحشوة بطائنها بالملايين ، وقصّت عليه حكاية الورقة النقدية ذات الألف فرنك . لقد رأتها ! لقد لمسناها ! واستأجر جافير غرفة . وفي تلك الليلة نفسها نزل فيها . واسترق السمع عند باب المستأجر الغريب ، راجياً ان يبلغ أذنيه جرس صوته ، ولكن جان فالجان لمح شمعته من خلال القفل ، وأحبط سعي الجاسوس بالتزام الصمت .

وفي اليوم التالي ، ارتحل جان فالجان . ولكن العجوز سمعت صدى قطعة الخسة الفرنكات التي أفلتت منه وهي تجري على الارض ، فخطر لها انه على وشك الرحيل ، وسارعت الى إعلام جافير بالأمر قبل حدوثه .

وفي الليل ، حين غادر جان فالجان الغرفة ، كان جافير يترصده خلف شجرات الجادة مع رجلين اثنين .

وكان جافير قد سأل مديرية الشرطة أن تقدمه بقوة اضافية ، ولكنه لم يصرّح باسم الشخص الذي كان يرجو اللقاء القبض عليه . كان ذلك مرآ من أسرارده ، ولقد احتفظ به لثلاثة اسباب : أولاً ، لأن اقلر افشاء للسرّ خليق به ان يحذر جان فالجان . وثانياً ، لان اعتقال محكوم بالاشغال الشاقة قديم فارتّ معدود بين الاموات - مجرم كانت سجلات العدالة قد صغته الى الابد بين الاشوار الذين هم من الضوب الاشد خطواً - سوف يكون فوزاً رائعاً لن يتركه رجال الشرطة الباريسية القدماء ، من غير شك ، لوافد جديد مثل جافير ؛ ولقد كان يخشى ان ينتزعوا منه طريده الهارب من سجن الاشغال الشاقة . واخيراً ، لأن جافير - بوصفه فناناً - كان مولعاً بالمفاجآت . لقد كان يكره تلك الانتصارات المبشر بها والتي يُزيل بها طول التحدث عنها مقدماً . كان يجب ان يُتقن رواثعه في الظلام ، ليكشف النقاب عنها بعد ذلك فجأة .

كان جافير قد تعقب جان فالجان من شجرة الى شجرة ، ثم من زاوية شارع الى زاوية شارع ، ولم يدعه يغيب عن ناظريه لحظة واحدة . وحتى في تلك اللحظات التي استشعر جان فالجان خلالها انه على اعظم ما يكون من الامن والسلامة ، كانت عين جافير مستمرة عليه .

لماذا لم يلتق جافير القبض على جان فالجان ؟ لأنه كان لا يزال في ريب من أمره .

وينبغي ان نذكر ان الشرطة ، في ذلك العهد ، لم تكن تستشعر الراحة والقدرة على حرية التصرف . كانت الصحافة الحرة تضايقتها . والحق ان بعض الاعتقالات الاعباطية التي أعلنتها الصحف تردّد صداها

حتى في قاعة البرلمان ، بما جعل مديرية الشرطة جبانة مخلوعة الفؤاد .  
كان الاعتداء على الحرية الشخصية شيئاً خطيراً . وكان ضباط البوليس  
يخشون ارتكاب الاخطاء . لقد جعلتهم المديرية مسؤولين عن ذلك ،  
فاذا ما وقع ضابط في خطأ خسراً وظيفته . وانتخيل الاثر الجدير بهذه  
الفقرة الموجزة المكررة في عشرين صحيفة ان تتركه في باريس :  
« أمس ، القي القبض على رجل عجوز اشتعل رأسه شيباً ، وهو مثير  
محتوم كان يقوم بنزهة مع حفيده البالغ عمرها ثمانية أعوام ، وسبق  
الى سجن الشرطة كمحكوم عليه بالاشغال الشاقة فاراً من وجه العدالة ،  
ولتكرر ، الى هذا ، ان جافير كانت له وسواسه . وانضافت  
وصايا ضميره الى وصايا مدير الشرطة . لقد كان في ريب من أمر  
الرجل حقاً .

وأدار جان فالجان ظهره ، وراح يمشي في الظلام .  
وكان الحزن ، والقلق ، والخصر النفسي ، وثقل المهوم ، وهذا  
الشقاء الجديد الذي اكراهه على الفرار تحت جنح الظلام والى البحث  
من غير تبصر عن مأوى في باريس يلجأ اليه هو وكوزيت ، واضطراره  
الى ان يكتف خطونه وفقاً لخطوة طفلة صغيرة - كل ذلك كان قد  
غيّر مشية جان فالجان ، وهو لا يدري ، وطبع هيئته بطابع  
الشيخوخة الى حد جعل في الامكان خداع البوليس نفسه ، المتجسس في  
جافير . وكان في تعذر المغالاة في الاقتراب منه ، وملابسه التي تذكر  
بمؤدب عجوز مهاجر ، وفي تصريح تيناردييه الذي جعله جدياً ، واخيراً  
في الاعتقاد بأنه قد لقي حتفه في سجن الاشغال الشاقة ، ما عزز  
الشك المتعاطف في ذهن جافير .

وخطر له ، لحظة ، ان يطلب اليه فجأة ابراز أوراقه . ولكن اذا  
لم يكن هذا الرجل جان فالجان ، واذا لم يكن هذا الرجل مثريباً عجوزاً  
محمود السيرة فاغلب الظن انه لص متصل اتصالاً مميّناً بأوعاً بشبكة

الجريمة الباريسية الغامضة ، او رئيس عصابة خطيرة من عصابات قطاع الطرق يتصدق على الفقراء لإخفاء لمواهه الأخرى ، وهي حيلة قديمة . ولا ريب في انه كان له رفاق ، وشركاء في الجريمة ، وملاحيه قريية يغزغ اليها . وكل هذا اللغ والدوران الذي كان يقوم به في الشوارع يبدو وكأنه يدل على انه لم يكن رجلاً بسيطاً صالحاً . فالقاء القبض عليه بأسرع مما يجب من باب « قتل الدجاجة التي تبيض ذهباً » . واي بأس في الانتظار ؟ كان جافير مرقناً أحسن اليقين من انه لن يفتر .

وهكذا واصل تقدمه في كثير من الارتباك ، موجهاً الى نفسه عشرات من الاسئلة عن هذه الشخصية اللغز . ولم يتأكد من ان الرجل هو جان فالجان من غير ريب إلا بعد ذلك بكثير ، في شارع بونتواز ، وبفضل ضوء ساطع تدفق من إحدى الحانات .

إن في هذا العالم مخلوقين يستطيع الطرب ان يعصف بها في قوة وغنف : الأم التي تجده ولدها الضائع ، والنمر الذي يهتدي الى فريسته من جديد . لقد احس جافير بهزة الطرب هذه .

ولم يكده يتحقق بما لا يحتمل الشك ان الرجل المعجوز هو جان فالجان ، الاشغالي \* الرهيب ، حتى انتبه الى انه على رأس قوة لا تعدو رجلين اثنين ، وعندئذ طلب من مفوضية بوليس شارع بونتواز أن تقدمه بقوة اضافية . فقبل ان يسلك المسرء بقضيب ذي أشواك يغلف يديه بقفاز .

وكان في هذا التأخر والوقوف في ساحة رولين للتشاور مع رجاله ما جعله يفقد الأثر . ومع ذلك ، فرعان ما حزر أن جان فالجان

---

\* نصلطع هذه العيفة ، أحياناً ، لتقوم مقام « المحكوم عليه بالاشغال الشاقة » حين يتمذو لإلحاق النعت بذلك التمييز المؤلف من اربع كلمات .

راغب في ان يتخذ من النهر حائلاً بينه وبين مطارديه . ونكس رأسه وفكر ، مثل كلب ضخم يضع انفه في التراب لكي يستيقن بأنه على جادة الصواب . واندفع جافير ، بسداد غريزته البالغ ، اندفاعاً مباشراً نحو جسر اوستوليتز . وطرح سؤالاً على مأمور المكوس أطلعته على جلية الأمر - « هل رأيت رجلاً يصطحب فتاة صغيرة ؟ ، فأجابه المأمور : « لقد دفعته فلسين . » ووصل جافير الى الجسر في الوقت المناسب ، فبصر بجان فالجان على الضفة الاخرى من النهر ، يقود كوزيت بيده عبر الارض القضاء التي كانت أشعة القمر تنيرها . لقد رآه يدخل شارع « شومات فير سان انطوان » ، وفكر في زقاق جانزو القائم هناك مثل شرك من الاشراك ، وفي المنفذ الوحيد من شارع « دروا مور » الى شارع بيكبوس الصغير . وعمل على ان « يضمن المسالك الامامية » ، كما يقول الصيادون فسارع الى ارسال احد رجاله ، من طريق فرعية ، لحراسة ذلك المنفذ . ومرت دورية من العسس عائدة الى مخفر دار الصناعة ، فصادرها وحملها على مرافقته . ففي مثل هذه اللعب يُعتبر الجند اوراقاً قوية راجية . والى هذا القاعدة تقول بأن اصطياد الخنزير البري يقتضي علم القانص وقوة الكلاب . حتى اذا أتمت هذه الاستعدادات واستشعر ان جان فالجان قد وقع في الشرك المؤلف من زقاق جانزو الى اليمين ، ومساعدته الى الشمال ، ومنه هو نفسه ، جافير ، في المؤخرة - عندئذ تناول قبضة \* من السوط .

ثم إنه بدأ يلعب . لقد استمتع بلحظة نشوى تمور بالحبث . فترك طريقه يمشي أمامه ، عارفاً أنه اسيره ، راغباً في ان يرجع - اكثر ما يستطيع الارجاء - لحظة اعتقاله ، سعيداً بان يستشعر أنه قد وقع في قبضته وبأن يراه حراً طليقاً ، ناظراً اليه في مثل لذة العنكبوت التي تدع الذبابة تطن ، والهزة التي تدع الفأرة تعدو . إن الحلب والبرثن ليجدان

\* القبضة ( باصدا المبه ) : ما تزوده بأطراف امابله .

متعة ضخمة في اختلاجة الحيوان الواقع في قبضتها . اي بهجة ينطوي عليها ذلك الحق !

كان جافير محبوراً . لقد كانت حلقات شبكته محكمة التلاحم ، وكان واثقاً من النجاح . لم يبق عليه ، الان ، غير إطباق يده .

وإذ صعبه ذلك النفر من رجال الشرطة ، فقد كانت فكرة المقاومة مستحيلة مهما يكن جان فالجان نشيطاً ، شديد البأس ، يائساً .

وتقدم جان فالجان في تودة ، جاساً في طريقه جميع زوايا الشارع الخفية ، فاحصاً إياها ، كما يفعل المرء بمحبوب لص من اللصوص .

حتى اذا وصل الى وسط النسيج الذي حاكه ، لم يجد الذبابة هناك . فتصور حنقه وسخطه .

لقد استعجب الحارس الذي أقامه عند شاري « دووا مور » و « بيكبوس » . إن ذلك الشرطي ، الذي لزم مركزه من غير ان يبدي حراكاً ، لم يرَ الرجل يمر .

قد يتفق في بعض الاحيان ان يسترد أبل حريته ورأسه مغطى ، يعني أنه يفرّ على الرغم من ان كلب القنص جاثم فوقه ، وعندئذ لا يدري أقدم الصيادين ما يقولون . إن دو فيفيه ، ولينيغيل ، وديريز \* لصابون بالذهول . وفي مناسبة مشابهة تتضح بحجة الامل صاح آرتونج : « إنه ليس أيتلاً . إنه ساحر ! »

كان جافير يتنمى لو يُطلق مثل هذه الصيحة . وعرفت خيبة أمله لحظة من اليأس والغبط الشديد .

من الثابت ان نابوليون ارتكب اخطاء كثيرة في الحرب ضد روسيا ، وان الاسكندر ارتكب اخطاء كثيرة في حروبه بالهند ، وان قيصر ارتكب اخطاء كثيرة في الحرب الافريقية ، وان كوروش

---

\* وم صادون . مهورون . وكذلك آرتونج .

ارتكب اخطاء كثيرة في حربه ضد سيثية ، وان جافير ارتكب اخطاء كثيرة في هذه الحملة ضد جان فالجان . لعله قد اخطأ بتردده في إثبات هوية الأشغالي العتيق ، فقد كانت النظرة الاولى خليقة بأث تكفيه . ولقد اخطأ إذ لم يُلْقِ القبض عليه ، بكل بساطة ، في ذلك البيت المتداعي . ولقد اخطأ إذ لم يعتقله حين عرفه معرفة يقينية في شارع بونتواز . ولقد اخطأ إذ تشاور مع مساعديه ، والقمر بدر ، في ساحة رولين . صحيح ان طلب النصح مفيد ، ومن الخير ان يعرف المرء ويستجوب من بين كلابه ذلك النفر الجدير بالاعتقاد . ولكن القانص لا يستطيع ان يتخذ من الاحتمالات اكثر مما ينبغي حين يطارد حيوانات قلقة جزوعة كالذئب والمحكوم عليه بالاشغال الشاقة . وجافير بانهماكه الشديد في وضع كلابه السلوقية على الطريق ، نبّه فريسته الى الخطر إذ جعلها تستروح المطاردة ، وأغراها بالفرار . ولقد اخطأ فوق ذلك كله إذ لعب ، بعد ان اهتدى الى الاثر من جديد في جسر اوسترليتر ، تلك اللعبة الرهيبة الصيانية التي قضت بأن يمك مثل هذا الرجل بالطرف الاقصى من الحيط . لقد حسب نفسه أقوى بما كان في الواقع ، واعتقد ان في استطاعته ان يلاعب الأسد كما تلاعب الفأرة . وفي الوقت ذاته ظنّ نفسه أضعف مما ينبغي عندما قدر ان من الضروري ان ياتمس المدد من مديرية الشرطة . فقد كان ذلك الاحتياط مشؤوماً ، بما اضاع عليه من وقت ثمين . لقد ارتكب جافير جميع هذه الاخطاء ، ومع ذلك فقد كان واحداً من اكثر رجال البوليس السري حكمةً واشدّهم استقامة في التاريخ كله . لقد كان ، بأقوى معاني الكلمة ، ما يُدعى في فن القنص بالكلاب « كلباً حكيماً » . ولكن من ذا الذي يتصف بالكمال ؟

إن لكبار المتمرسين بقيادة الجيوش نصيبهم من الحور ، والاختفاق .



والحمقات الكبرى تتألف عادة ، كالحبال الضخام ؛ من جمهرة من الحيوط . خذ الحبل الضخم خيطاً خيطاً ، خذ جميع الدوافع الصغيرة المقررة كلاً على حدة ، تقطعها واحدة إثر واحدة ، وعندئذ تقول : وهذا كل ما هنالك ! . ولكن اضفرها وأحكم إبرامها تصبح قوة جسيمة . إنما آتيلاً\* يتردّد بين مارسيان\*\* في الشرق وفالانتينيان\*\*\* في الغرب ؛ وهنibel يتأخر في كابوا ؛ ودانتون يستسلم للرقاد في آرسيس سور أوب .

وأياً ما كان ، فحتى في اللحظة التي أدرك جافير خلالها ان جان فالجان أفلت من يده لم يفقد صوابه . واذ كان واثقاً من ان الاشغالي النار لا يستطيع ان يكون بعيداً ، فقد بث الارصاد ، وأقام الاشراك والمكامن ، وجاس خلال الحمي طول النهار . وكان اول ما رآه ، ذلك التغير الطاريء على مصباح الشارع العمومي الذي 'قطع حبله - أمانة' ثمينه ولكنها أضلته السيل ، مع ذلك ، بان جعلته يوجه مباحثه كلها نحو زقاق جانزو . فقد كان في ذلك الزقاق جدران شديدة الانخفاض تطل على حدائق كانت حدودها تمتد الى بعض الاراضي الواسعة غير المزروعة . وكان واضحاً ان جان فالجان قد فرّ في ذلك الاتجاه . والحق ان جان فالجان كان خليقاً بان يفعل ذلك ، لو انه تقدّم الى أبعد قليلاً في زقاق جانزو ، وعندئذ يتعذر العثور عليه . وراد جافير تلك الحداث والاراضي وكأنه يبحث عن ابرة ضائعة .

---

\* Anila ملك الهون ، وقد تغلب على عدد من اباطرة الشرق والغرب . ثم ارتدّ أخيراً على صفاف الدانوب ، حيث توفي عام ٤٥٣ م .

\*\* Marcien مارسيانوس فلافوس امبراطور الشرق الروماني وقد دام حكمه من عام ٤٥٠ الى عام ٤٥٧ .

\*\*\* Valentinien الثالث امبراطور الغرب الروماني وقد دام حكمه من عام ٤٢٥ الى ٤٥٥ .

وعند الصباح ابقى في ذلك المكان رجلين ذكيين عهد اليهما في أمر  
الرقابة ، وانقلب الى مديرية الشرطة خجلاً مثل جاسوس من جواسيس  
الشرطة اعتقله لص من المصوص .



الكتاب السادس

پیکچوس الصغیر

## شارع بيكبوس الصغير ، رقم ٦٢

لم يكن ثمة ، منذ نصف قرن ، ما يمثل باب العربات النموذجي الكبير ، في ذلك العهد ، أكثر من باب العربات المؤدي الى البناء ذي الرقم ٦٢ في شارع بيكبوس الصغير . وكان هذا الباب مُشَرَّعاً على نحو نصفين مغزلي الى ابعد حدود الاغراء ، كاشفاً عن شئنين لبسا فاجمين جداً : فناء مطوق بجدران مزدانة بالعرائش ، ووجه بوابٍ يقطع الوقت متنقلاً من اليمين الى الشمال ومن الشمال الى اليمين . وفوق الجدار الخلفي كان المرء يرى شجرات كبيرة . وحين تُبْهِج اشعة الشمس

الفناء ، وتبهج كأس من حجر البواب يكون من العسير عليك ان تمر  
بوم ٦٢ ، شارع بيكبوس الصغير ، من غير ان تصرف حاملاً فكرة  
ضحكة . ومع ذلك فقد كان ذلك الذي لحنه موطناً قائماً .

لقد انقسم الجدار . أما المنزل فصلتى وبكى .

ولو قد وفقت ، وهو امرٌ ليس باليسير ، الى ان تتخطى البواب  
- وهو يكاد يكون مستحيلاً على الكثرة المطلقة من الناس لانه كانت  
قمة كلمة مرّ سحرية يجب ان تعرفها - نقول اذا وفقت الى تخطى  
البواب فعندئذ تدخل من ناحية اليمن دليلاً صغيراً يؤدي بك الى سلم  
محصورة بين جدارين ، ضيق الى حد يجعلها لا تتسع لصاعدتين اثنتين  
في وقت واحد . واذا لم تسع لنفسك بأن يروّعها ورق الجدران  
الأصفر ذو الاساس الشوكولاتي اللون الممتد على طول السلم ، واذا  
غامرت في الصعود ، تصل الى منبسط أول ، ثم الى منبسط ثانٍ ،  
وتبلغ الدور الثاني برواق يتبعك فيه الصبح الأصفر والقاعدة الشوكولاتية  
في عنادٍ وديع . إن السلم والرواق مضاءان بنافذتين جيلتين . وفجأة  
ينعطف الرواق ، ويسمي مظلاً . فاذا تجاوزت ذلك الرأس انتهت ،  
بعد بضع خطوات ، الى باب يزيد غوضاً وأسراراً كونه غير موحد  
إبصاراً كاملاً . وتدفع الباب ، فتجد نفسك في غرفة صغيرة تبلغ  
مساحتها نحواً من ستة اقدام مربعة ، مفروشة ارضها بالبلاط ، مفسولة ،  
نظيفة ، باردة ، مزدانة الجدران بورق نانكين ذي الزهيرات الخضراء ،  
الذي تباع اللقطة الواحدة منه بخمسة عشر سو . إن ضوءاً أبيض باهتاً  
يقبل من نافذة عريضة ذات الواح زجاجية صغيرة كانت الى اليسار ،  
وكانت تستغرق عرض الغرفة كله . وتنتظر ، فلا ترى احداً . ونصفي ،  
فلا تسمع خطوةً ما ، أو صوتاً بشرياً ما . ان الجدار عاري . وليس  
في الغرفة أثاث ، حتى ولا كرسي واحد .

وتزجّع البصر ككرة اخرى فتري في الجدار الذي يواجه الباب

فتحة" مربعة الزوايا تبلغ مساحتها نحواً من قدم مربع ، مغطاة بحاجز من القضبان الحديدية المتعاضة ، السوداء ، الصلبة ، ذات العقد ، التي ألّفت مربعات - وكدت أقول خلايا شبكة - يقل طولها عن إنش واحد . إن زهيرات ورق نانكين الخضراء لتتقدم في هدوء وفي نظام حتى هذه القضبان الحديدية من غير ان يروّعها أو يشتتها ذلك الاحتكاك الفاجع . ولو قد فرضنا ان كائناً حياً كان من الهزال بحيث يحاول ان يدخل الفتحة المربعة او يخرج منها إذن لخال ذلك الحاجز بينه وبين ما يبتغي . إنه ما كان يميز للجسد ان يدخل ، ولكنه كان يميز ذلك للعين ، يعني للعقل . ويبدو ان القوم قد فكروا في هذا ، بدليل أنهم أردفوا الحاجز بصفحة من التنك رُكبت في الجدار المتخلف عنه بعض الشيء وتناثر فيها ألف من الثقوب هي اكنو ميكرومكوبية من ثقوب المرغاة . وفي ادنى هذه الصفحة كانت فرجة شبه ما تكون بقم علة من علب البريد . وكانت شريطة عريضة تتصل بجرس معلق الى يمين الفتحة المقضبة .

وتحرك هذه الشريطة ، فيون جرس ، وتسمع على مقربة دانية منك صوتاً تجفل منه وترتعد .

وبأل الصوت :

- « مَنْ هناك ؟ »

إنه صوت امرأة ، صوت عذب ، عذب الى درجة جعلته فاجعاً . وهنا ايضاً كانت ثمة كلمة سحرية يجب ان تعرفها . فاذا جهلتها لم تسمع الصوت ككرة اخرى ، ويرقد الجدار صامتاً من جديد وكان ظلمة القبر الموحشة كانت في الجانب الآخر .

أما اذا عرفت الكلمة فعندئذ يضيف الصوت :

- « أدخل الى اليمين . »

وبعد ذلك تلاحظ الى يمينك ، تجاه النافذة ، باباً مزججاً معلو

إطار مزيج أيضاً مدهون باللون الرمادي . وترفع المزلاج ، وتجتاز الباب ، وتحسّ بمنزل ذلك الشعور الذي يغلب عليك حين تدخل مقصورة ذات شباك ، في احد المسارح ، قبل أن يُخفض الشباك وتضاء الأنوار . انك في الواقع في شبه مقصورة مسرحية ما يكاد يضيئها نور الباب الزجاجي الباهت ، ضيقة ، مؤنثة بكروسيين هرمين ، وحصير من قصب مقطّع الأوصال - مقصورة حقيقية واجهتها في ارتفاع المشكأ يعلوها لوح من خشب أسود . وكانت تلك المقصورة ذات شباك ، إلا أنه لم يكن شباكاً من خشب مذهب ، كشبابيك الاوبرا ، ولكن شباكاً من اعمدة حديدية تداخلت على نحو خفيف ورُستخت في الجدار بمشبّات تشبه كل منها 'جُعب كَف' منسبة الاظفار .

وبعد بضع دقائق ، حين تبدأ عيناك تألفان هذه العنبة الكهفية ، تحاول ان تنظر من خلال القضبان الحديدية ولكنك لا ترى الى ابعد من ستة إنشآت ليس غير . هناك تبصر حاجزاً من مصاريع النوافذ السوداء وقد بُنيت ودُممت بعوارض خشبية مدهونة بلون خبز الزنجبيل . وكانت هذه المصاريع ذات مفاصل ، وكانت تنقسم الى أضلاع هزيلة متطاولة ، وتغطي عرض القضبان الحديدية بكامله . إنها كانت موصدة ابداً .

وبعد بضع لحظات تسمع صوتاً يناديك من وراء هذه المصاريع ، قائلاً :

— « أنا هنا . ماذا تريد مني ؟ »

إنه صوت محبّب الى النفس ، وقد يكون في بعض الاحيان صوتاً هم به القلوب . ولا ترى احداً . وما تكاد تسمع تردّد نفّسٍ من الانفاس . لقد بدا وكأنه كان صوتاً شجياً يتحدث اليك من خلال باب القبر . ولو قد برزت هناك في بعض الاحوال الضرورية ، وهي نادرة جداً ، فعندئذ يفتح امامك ضلع ضيق من أضلاع تلك المصاريع ،



ويفقد الصوت الشبحي طيفاً . فخلف القضبان الحديدية ، وخلق المصراع ، ترى على مقدار ما تسمح القضبان الحديدية ، رأساً لا تلح منه غير الفم والذقن . أما ساثره فمحبوب بنقاب أسود . وتلح قيصاً نائياً أسود ، وشكلاً غير واضح المعالم يحلته كفن أسود . ويتحدث هذا الرأس معك ، ولكنه لا ينظر إليك ، ولا يبتسم لك البتة .

إن النور المنبعث من ورائك مركزاً على نحو يجعلك ترى الرأس في النور ، ويجعله يراك في الظل . إنه نور رمزي . وفي الوقت نفسه ، نحدق عينك في لفحة من خلال هذه الفرجة التي انتفتحت ، إلى ذلك المكان المحبوب عن أعين الرقباء .

إن ظلمة كثيفة لتغلّف هذا الشكل اللابس ثوب الحديد . وتبحث عينك في هذه الظلمة ، وتحاول أن تستبين أي شيء يحيط بالظلمة . وما هي إلا فترة قصيرة حتى تدرك أنك لا ترى شيئاً . إن ما تراه هو الليل ، والفراغ ، والظلمات ، وضباب الشتاء ممزوجاً بخار القبور ، ضرب من الهدوء المروع ، وصمت لا تقع فيه على شيء ، حتى على الزفرات نفسها - ظلام لا تبيّن فيه شيئاً ، حتى الاطيات .

إن ما تراه عينك هو الجزء الداخلي من دير .

إنه الجزء الداخلي من ذلك البيت الصارم المظلم الذي يدعى دير البرنارديات للسجود السرمدى . وهذه المقصورة ، التي كنت فيها ، هي غرفة الاستقبال . وهذا الصوت ، الذي خاطبك أول مرة ، هو صوت البوابة القاعة ابدأ ، جامدة صامتة ، عند الجانب الآخر من الجدار ، قرب الفتحة المربعة ، تصونها القضبان الحديدية والصفحة ذات الالف ثقب ، مثل قناع خوذة مزدوج .

أما الظلمة التي غرقت فيها المقصورة المفضبة فناشئة عن أن غرفة الاستقبال ذات النافذة المطلّة على العالم الخارجي لم يكن لها أبداً نافذة تطل على ناحية الدير . إن العين الدنيوية ينبغي أن لا ترى شيئاً من

هذا المكان المقدس .

يبد أنه كان قبة نحيء وراء هذا الظلام ؛ كان قبة نور ؛ كان قبة حياة في هذا الموت . وعلى الرغم من ان هذا الدبر كان أمتنع من ايما دبر آخر ، فسوف نحاول ان ندخله ، وان نأخذ القاريء معنا ، فنروي بأوسع ما نستطيع من الاسهاب شيئاً لم يروا أصحاب القصاص قط ، فلم يقدر لهم بالتالي أن يرووه في يوم من الأيام .

## راهبات الطاعة لمارتن فيرغا

هذا الدير الذي كان قد سلخ ، عام ١٨٢٤ ، دهرآ طوبلاً في شارع  
بيكوس الصغير ، كان لجماعة من الراهبات البرنارديات اللواتي يدنّ  
بالطاعة لمارتن فيرغا .

وهكذا فهؤلاء البرنارديات لم يكنّ يُنصّب الى كليرفو ، مثل  
البرنارديين ، ولكنّ الى سيتو ، مثل البنيديكتيين . وبكلمة ثانية فانهنّ  
كنّ من رعايا القديس بنديكت ( بينوا ) لا من رعايا القديس  
برنارد .

وكل مطلع على الكتب القديمة يعلم أنّ مارتن فيرغا انشأ عام ١٤٢٥  
رهبانية من البرنارديات - البنيديكتيات ، وانه جعل لمنكة مقرّها  
الرئيسي ، وأسس في آلكالا فرعاً لها .  
ثم ان فروع هذه الرهبانية انتشرت في جميع بلدان اوروبية  
الكاثوليكية .

وتلقح رهبانية ما برهبانية اخرى على هذا النحو ليس شيئاً غير  
مألوف في الكنيسة اللاتينية . ونحن نجتزئ بالاشارة الى رهبانية واحدة

هي رهبانية القديس بينوا التي نتحدث عنها هنا . فهذه الرهبانية تنسب منها ، باستثناء راهبات الطاعة لمارتن فيرغا ، أربع أخويات ، اثنتان في ايطالية ، هما اخوية الـ « مون كاسان » ، واخوية « سان جوستين » ، في بادوا ، واثنان في فرنسا ، هما اخوية « كلوني » ، وأخوية « سان مور » ، وتسع رهبانيات هي « فالومبروزا » ، و « غرامون » ، و « السابويون » ، و « الكامالدوليون » ، و « الكرونزيون » ، و « المتصنون » ، و « الاوليفينيون » ، و « السيلفيستريون » ، واخيراً رهبانية « سيتو » . لان رهبانية « سيتو » نفسها ، وهي اصل رهبانيات اخرى ، لا تعدو ان تكون فرعاً من رهبانية القديس بينوا . إن رهبانية سيتو ترقى الى عهد القديس روبر ، راهب موليس ، في ابرشية لانغر ، عام ١٠٩٨ ؛ على حين ان الشيطان الذي اعتزل الناس وازدري في صحراء سويياكو ( كان عجوزاً ، فهل أمسى فاسكاً ؟ ) إنما طرد ، سنة ٥٢٩ ، من هكل أبولو القديس حيث كان يحيا الى جانب القديس بينوا البالغ عمره آنذاك سبع عشرة سنة .

والواقع ان الأنظمة التي تخضع لها راهبات مارتين فيرغا البونارديات البينديكتيات هي أقصى الأنظمة الرهبانية على الاطلاق ، باستثناء أنظمة الكرملين الذين يمشون حفاة ، ويطوقون حناجرهم بقطعة من خيزران ، والذين لا يخلسون أبداً . انهم ينشعن بالسواد ، ويرتدين قميصاً يرتفع وفقاً لأمر القديس بينوا الصريح ، حتى الذقن ، وثوباً من نسيج صوفي غليظ ذا رددين واسعين ، وحجاباً صوفياً كبيراً ، والقميص الذي يرتفع الى الذقن وقد « مثق » على شكل مربع فوق الصدر ، وعصابة الرأس التي تنخفض حتى العينين . تلك هي ملابسهن ، وكلها سوداء ، ما خلا عصابة الرأس فهي بيضاء . والراهبات الحديثات العهد بالترهب يرتدين الملابس نفسها ، مع فارق وحيد هو ان ملابسهن هذه بيضاء كلها . اما الراهبات ذوات النذور فيتميزن فوق هذا بسبعة تحملها

كل منهن بجنبتها .

وتقوم راهبات مارتن فيوغا البرنارديات - البنيديكتيات بالسجود  
الرمدي على غرار الراهبات البنيديكتيات المعروفة بد « سيدات سرّ  
القربان المقدس » ، اللواتي كان لهن في باريس ، عند مطلع هذا  
القرن ، ديران احدهما في ال « تامبل » والآخر في « شارع نوف  
سانت جانفييف » . وفي ما عدا ذلك فان راهبات « بيكبوس الصغير »  
البرنارديات - البنيديكتيات اللواتي نتحدث عنهن كنّ يؤلفن رهبانية  
مستقلة تمام الاستقلال عن « سيدات سرّ القربان المقدس » الحيات في  
« شارع نوف سانت جانفييف » ، وفي ال « تامبل » . كانت ثمة فروق  
كثيرة بين أنظمة الجماعتين ، وكان ثمة بعض الفروق في الزي . كانت  
راهبات « بيكبوس الصغير » البرنارديات - البنيديكتيات يرتدين قميصاً اسود ،  
على حين كانت بنيديكتيات سرّ القربان المقدس وشارع نوف سانت  
جانفييف يرتدين قميصاً أبيض ويزينّ صدورهن الى ذلك بتمثال للمصلوب  
موضوع من الفضة او من النحاس المذهب يبلغ طوله نحواً من ثلاث  
بوصات . ولم تكن راهبات بيكبوس الصغير يحملن تمثال المصلوب  
هذا . وألحق ان السجود الرمدي ، المشترك بين دير بيكبوس الصغير  
ودير التامبل ترك الرهبانيتين مختلفتين كل الاختلاف . فثمة تشابه في هذه  
الناحية فقط بين سيدات سرّ القربان المقدس وبرنارديات مارتن فيوغا كما  
كان ثمة تشابه في درس وتجميع جميع العجائب المتصلة بطفولة يسوع  
المسيح وحياته وموته ، وبالعدواء ، بين رهبانيتين منفصلتين أتمّ  
الانفصال ومتعاديتين في بعض الاحيان : رهبانية ال « اوراتوار »  
الاطالية التي أسسها في فلورنسة فيليب النيري ، ورهبانية ال « اوراتوار »  
الفرنسية التي أسسها في باريس بيير دو بيسول . و « أوراتوار »  
باريس تدعى حق التصدر ، اذ كان فيليب النيري مجرد قديس ، على  
حين كان بيسول كاردينالاً .

ولتعد الى انظمة مارتن فيرغا الاسبانية الصارمة .

ان راهبات هذا الدير البرنارديات - البنيديكتيات يمتنعن عن اكل اللحم طوال العام ؛ ويصمن الصوم الكبير واياماً اخرى كثيرة خاصة بين ؛ وينهضن من نومهن الاول في الساعة الواحدة صباحاً لكي يقرأن كتاب فرض الكهنه ، وينشدن صلاة السحر حتى الساعة الثالثة ؛ وينمن في فُرُش من قش وعلى شراشف من نسيج صوفي غليظ في جميع فصول السنة ؛ ولا يدخلن الى الحمام ابداً ؛ ولا يشعلن ناراً البتة ؛ ويعاقبن انفسهن يوم الجمعة من كل اسبوع ؛ ويلتزمين قاعدة الصمت ، فلا تتحدث احداهن الى الاخرى إلا في اوقات الاستراحة ، وهي قصيرة جداً ؛ ويلبسن قصاناً صوفية خشنة طوال ستة اشهر ، من ١٤ ايلول ، وهو عيد ارتفاع الصليب ، حتى عيد الفصح . وهذه السنة الاشهر تنطوي على تخفيف ؛ فالنظام يقضي بان يكون ذلك على مدار العام كله . ولكن قميص الصوف الخشن هذا ، غير المحتمل في حر الصيف ، كان يورث لابساته ضروباً من الحمى والتشنج العصبي . فكان ضرورياً أن يصار الى تحديد استعماله . وحتى مع هذا التلطيف ، فقد كانت الراهبات يُصَبَن بعد الرابع عشر من ايلول ، حين يرتدين هذه القمصان ، بحمى تستمر ثلاثة ايام او اربعة ايام . الطاعة ، الفقر ، العفة ، الثبات على الحياة الرهبانية - تلك هي ندورهن التي كانت انظمتن تجعل الوفاء بها اشد صعوبة وعسراً .

فكانت رئيسة الدير تُنتخب من قبل « الامهات » اللواتي كن بسمين « الامهات الصوتيات » ، لأنهن صوتاً في مجلس الراهبات . ولم يكن القانون ليجيز اعادة انتخاب الرئيسة اكثر من مرتين ، وهذا ما جعل أطول ولاية ممكنة لرئيسة ما لا تعدو تسع سنوات .

وما كن يرين قط الكاهن المحتفل بالفداس ، الذي كان محبوباً عنهن ابداً بستان صوفي يبلغ ارتفاعه تسعة اقدام ، وكن في اثناء العظة حين

يكون الكاهن في الكنيسة ، يسبلن حجبهن على وجوههن . إن عليهن دائماً ان يتحدثن في صوت خفيض ، ويمشين وقد غضضن من ابصارهن ، وطأطأة رؤوسهن . ولكن رجلاً واحداً يستطيع ان يدخل الدبر ، هو كبير اساقفة الابوشية .

والحق ان ثمة رجلاً آخر قادراً على ذلك ، هو البستاني . ولكنه دائماً رجل عجوز ؛ ولكي يكون وحده في الحديقة على نحو موصول ، ولكي 'تخذر' الراهبات منه فيجتنبه ، فقد علّق بركبته جرس صغير .

وهن يدنّ للرئيسة بخضوع مطلق اعمى . انه الخضوع المطابق لقوانين الكنسية بكل ما ينطوي عليه من انكار للذات . الخضوع للامانة ، للاشارة الاولى *ad nutum, ad primum signum* ، وكأنما هو امتثال لصوت المسيح ، *ut voci Christi* ؛ الخضوع في الحال ، في سعادة ، في مواظبة ، وفي ضرب من الطاعة العمياء *promptè, hilariter, perseveranter et caeca* ، كالمبرد في يد العامل *quadam obedientia quasi limam in manibus fabri* . فهنّ لا يستطعن ان يقرأن او يكتبن شيئاً مهما يكن من غير اذن واضح صريح . *legere vel scribere non addisceris sine expressa superioris licentia* .

وكانت كل منهن تؤدي ، بدورها ، ما يسميه « الاستغفار » . والاستغفار صلاة يُقصد بها التكفير عن جميع الخطيئات ، وجميع الاخطاء التي تُتفرف فوق سطح الارض ، وعن كل خلل ، وكل مخالفة ، وكل بغي . وكل جريمة ترتكب فيها . فطوال اثنتي عشرة ساعة متعاقبة ، من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى الساعة الرابعة صباحاً ، او من الساعة الرابعة صباحاً حتى الساعة الرابعة بعد الظهر ، تظل الراهبة « المستغفرة » راكمة على الحجر ، امام القربان المقدس ، مشوكة اليدين ، مطوّقة العنق بحبل . حتى اذا غدا التعب غير محتمل انطرحت على بطنها ، متصالبة الذراعين ، مستقبلة الارض بوجهها . ذلك كل نصيبها من الراحة .

وفيا مي على هذا الوضع نصلي من اجل جميع المذنبين في الكون . إن هذا شيء عظيم حتى الاعجاز .

واذ كانت الراهبات يقمن بهذا الصنيع أمام وتد تحترق في أعلاه شمعة طوية فقد كن يلقن من غير تمييز « ادت صلاة الاستغفار » او « ركعت امام الوند » . بل ان الراهبات ليؤثرن ، بدافع من الضعة والخشوع ، هذا التعبير الأخير المنطوي على معنى من العقوبة والاذلال .

واداء صلاة الاستغفار عملية تستغرق فيها النفس كلها . فالراهبة الجالسة امام الوند لا تلتفت ولو سقطت خلفها صاعقة .

والى هذا ، فهناك ابدآ راهبة راکعة امام القربان المقدس . وهذا الركوع يستمر ساعة من زمان . وهن يتناوبن هذه المهمة كالجنود في اثناء العمل . وذلك هو السجود المرمدي .

والرئيسة و « الامهات » يحملن دائماً ، تقريباً ، اسماء ذات جلال خاص تذكر ، لا بالقدسين والشهداء ، ولكن بلحظات من حياة يسوع المسيح ، مثل الأُم « ميلاد » ، والأُم « حمل » ، والأُم « تقدمة » ، والأُم « آلام » . بيد ان اسماء القديسات ليست محظورة .

وحين ترى اليهن لا تبصر غير أفواههن . وكلهن ذوات اسنان صفراء . فما دخلت فرشاة اسنان الى الدير قط . ان تنظيف الاسنان بالفرشاة بمثابة الدرجة العليا من سلم ادنى دوجاتها خسارة النفس .

وكل منهن لا تضيف ، في كلامها ، شيئاً ما الى ضمير المتكلم المفرد ، فهن لا يملكن شيئاً ، ولا ينبغي أن يتعلقن بشيء . انهن يصفن الاشياء كلها الى ضمير جماعة المتكلمين فنقول الواحدة منهن : حجابنا ، وسبحتنا . واذا تحدثت عن قميصها قالت : « قميصنا » . وفي بعض الاحيان كنّ يولعن بشيء من الاشياء الصغيرة ، بكتاب صلاة ، بأثر نفيس ، بمدالية مقدسة . فما ان يدركن انهن قد شرعن بمن بذلك



الشيء ، حتى يتمنّين عليهن اطرأحه . إنهن يتذكرن كلمة القديسة تيريز التي قالت لها سيدة عظيمة ، لحظة دخولها في رهبانيتها : « اسمحي لي ، يا أمّ ، ان ابعث في طلب نسخة من الكتاب المقدس أنا شديدة التعلق بها . فاجابتها بقولها : « آه ، أنت شديدة التعلق بشيء ! وإني افضل ، والحالة هذه ، ان لا تدخلني الى ديرنا . »

ومحظور على ابيّ منهنّ ان تزوي - ان يكون لها بيت ، أو غرفة . إنهن يعشن في قلايا \* مفتوحة . وحين تلتقي احدهن بالآخرى تقول : « الحمد والسجود لقرابات المذبح الاقدس ! » فتجيبها زميلتها : « الى الأبد ! » وتجري المجاملة الاحتفالية نفسها حين تطرق أحدهن باب الاخرى . فما إن يُيس الباب حتى يُسمع من الجانب الآخر صوت عذب يقول في عجلة بالغة : « إلى الابد ! » ومثلّ جميع الطقوس يصبح هذا الضئع ، بسبب من العادة ، ميكانيكياً . وقد تقول احدهن في بعض الاحيان « إلى الابد ! » قبل ان تجد الاخرى مقعماً من الوقت لكي تنطق بهذه الجملة الطويلة حقاً : « الحمد والسجود لقربان المذبح الاقدس ! » وعند « راهبات الزيارة » تقول الراهبة التي تدخل : « *Avé Maria* » \*\* فتجيبها تلك التي دخل عليها في قليتها : « *Gratiâ plena* » \*\*\* . ذلك هو سلامهن ، وهو « تمليّ نعمة » حقاً .

وفي كل ساعة من ساعات اليوم يقرع ناقوس كنيسة الدير ثلاث دقات إضافية . وعند هذه الإشارة تقطع الرتيبة ، والامهات الصوتيات ، والراهبات ذوات النذور ، والراهبات القائمت بالاعمال اليدوية ، والراهبات المستجدات ، وطلبات الترهّب - عند هذه الإشارة يقطعن ما كنّ يقُلْنَ ، أو ما كنّ يفعلنه ، أو ما كنّ يفكرن فيه ،

\* القلايا : جمع قلية ، وهي الصومعة .

\*\* السلام عليك يا مريم .

\*\*\* الامانة نعمة .

ويقلنَ جميعاً في صوت واحد ، اذا كانت الساعة الحامسة مثلاً : « في الساعة اظامسة ، وفي كل ساعة ، الحمد والسجود لقربان المذبح الاقدس ! » فاذا كانت الساعة الثامنة قلنَ : « في الساعة الثامنة ، وفي كل ساعة النخ ... » وهكذا ، وفقاً للساعة كائنة ما كانت .

وهذه العادة ، المقصود بها أن تقطع التفكير وأن تردّه دائماً الى الله ، معروفة في كثير من الرهبايات . ولكن الصيغة هي التي تختلف لبس غير . وهكذا فانهم في رهبانية « الطفل يسوع » يقولون : « في هذه الساعة ، وفي كل ساعة ، فليُخْزَم حبُّ يسوع فؤادي ! »

وراهبات مارتن فيرغا البينديكتيات - البرنارديات ، اللواتي كنَّ خبيسات « بيكبوس الصغير » لحسين سنة خلت ، ينشدن قداساتهن الاحتفالية في نبرات ثقيلة ، وترتل كنسي صافٍ ، رافعات أصواتهن دائماً طوال القداس . وحينما وجدت في كتاب القداس نجمة فاصلة ، يقفنَ ويقلنَ في صوت خفيض : « يسوع - موم - يوسف » . وفي الصلاة على الميت يُنشدن في نبرة منخفضة الى درجة يكاد يتعذر على الاصوات النسائية ان تهبط اليها . وإنما يحدث ذلك اثرأ مؤلماً فاجعاً .

وكانت راهبات « بيكبوس الصغير » قد جعلن كهيفاً تحت مذبحهن المرتفع لدفن من يتخطّفه الموت من اعضاء الرهبانية . والحكومة ، كما كنَّ يستينها ، ما كانت لتجيز وضع الجثث في هذا الكهيف . وهكذا كنَّ يفارقن الدير عند الوفاة . وكان ذلك يحزنهن ويروعنهن وكأنه مخالفة للشريعة .

وكنَّ قد فزن - وتلك تمزية ضئيلة - بامتياز يقيح لمن أن يُدفن في ساعة مخصوصة ، وفي مكان مخصوص في مقبرة « فوجيوار » القديمة الواقعة في ارض كانت من قبل ملكاً لرهبايتين .

وكل خميس يسمع هؤلاء الراهبات القداس الصارخ ، وصلاة المساء ، وجميع الصلوات ، فعلمنَ يوم الأحد من كل اسبوع . والى هذا ،

فهن يتقيدن في ضبط كليّ بجميع الاعياد الصغيرة التي لا يعرفها أبناء الحياة الدنيا ، والتي كانت الكنيسة سخية بها في ما مضى في فرنسا ، ولا تزال سخية بها في اسبانية وايطالية . ولا نهاية لذهابهن الى الكنيسة . أما عدد صلواتهن والمدة التي تستغرقها فليس ثمة ما يمكننا من أن نقدّم فكرةً حسنة عنها خيراً من ان ننقل هذه الكلمة الساذجة التي صدرت عن واحدة منهن : « ان صلوات طالبات الترهّب موهّعة ، وصلوات الراهبات الحديثات العهد بدخول الدير أسوأ ، وصلوات الراهبات ذوات النذور أسوأ وأسوأ . »

ومرةً كل اسبوع يلتئم مجلس الراهبات ، فتدير الرئيسة الاجتماع ، وتشهده « الأمهات » . وتقبل كل راهبة بدورها ، وتركع على الحجر وتعتزّ ، في صوت عالٍ ، أمامهنّ جميعاً ، بالاعطاء والآثام التي ارتكبتها في اثناء الاسبوع . وتتشاور « الأمهات » ، إثر كل اعتراف ويُعلنُ العقوبة جهاراً .

وبالإضافة الى الاعتراف العلني الذي يحتفظن له بجميع الاعطاء الخطيرة ، بعض الشيء ، كان عندهن للاعطاء غير المميّنة ما يسمينه « عقاب الخطيئة » . وإنما يقضي ذلك العقاب بأن تتطرح الراهبة على وجهها ، أثناء الصلاة ، أمام رئيسة الدير حتى تشير هذه الاخيرة - التي لا تتحدث عنها الراهبات إلا بقولهنّ « أمّنا » - الى الراهبة المعاقبة ، بضربة رفيقة على كرسيها الخشبي ، أنّ في ميسورها ان تنهض . ويُنزل « عقاب الخطيئة » بالراهبة لاتفه الاسباب ، كأن تكسر كأساً ، او تترق حجاباً ، او تتأخر في الصلاة بضع نوان على نحو غير ارادي ، او تخرج على اللحن في الكنيسة - إن أياً من هذه الآثام يكفي لاتزال « عقاب الخطيئة » . و « عقاب الخطيئة » تلقائيّ مثلاً بالثبّة . فالمدنبة

نفسها ( وهذه الكلمة هي في محلّها من وجهة النظر الاستباقية \* ) هي التي تخاطم نفسها ، وهي التي 'تنزل العقاب بنفسها . وفي الاعياد وأيام الأحد تنشد الصلوات اربع من الامهات المرتلات امام مقرأ كبير ينظم اربعة مقارء فرعية . وذات يوم استهات احدى الامهات المرتلات زموراً يبدأ بـ *Eccc* ، وبدلاً من ان تلفظ *Eccc* لفظت هذه العلامات الموسيقية الثلاث في صوت مرتفع : *ut , si , sol* . ولقد خضعت ، بسبب من شروء الفكر هذا ، لعقاب استغرق فترة الصلاة بكاملها . وبما جعل الغلطة ضخمة جداً أن مجلس الراهبات لم يتألك عن الضحك عند حدوثها .

وحين تُدعى احدى الراهبات الى غرفة الاستقبال ، ولو كانت الرئيسة نفسها ، فأنها 'تُسدل حجابها ، كما نذكر ، على نحو لا يُبدي من وجهها غير القم .

والرئيسة وحدها تملك حق الاتصال بالغرباء . أما سائر الراهبات فلا يستطعن أن يَرَيْنَ غير اقربائهنّ الأدنّين ، وفي مناسبات فادرة جداً . واذا اتفق ان وفد شخص ما ليرى راهبة كان يعرفها او يحجبها قبل دخولها المدير اقتضى ذلك مفاوضة رسمية . فاذا كان الزائر امرأة فقد يُيجاز لها هذا في بعض الاحيان . وعندئذ تُقبل الراهبة ، فتتحدث اليها المرأة من خلال المصاريع التي لا تُفتح أبداً إلا لأُمٍّ او لأخت . ولا نحتاج الى القول ان الزائرين من الرجال لا يحظون بذلك الاذن البتة .

ذلك هو نظام القديس بينوا ، وقد جعله مارتن فيرغا اكثر صرامة . إن هؤلاء الراهبات لسنّ مرحات ، متورّدات ، فاضرات ، شأن فتيات الرهبانيات الاخرى عادة . لئن شاحبات الوجوه ، آخذات باسباب الجِدّة . وبين سنة ١٨٢٥ وسنة ١٨٣٠ أصيبت ثلاث منهن بالجنون .

---

\* على اعتبار ان كلمة « الخطيئة » او « عقاب الخطيئة » *Coupe* وكلمة المذب *Coupable* مشتقتان في الفرنسية من جذر واحد ، كما ترى .

## ضروب من القسوة والصرامة

وتسلخ المرشحة لدخول الدبر سنتين على الأقل ، بوصفها طالبة ترهب ،  
 وأربع سنوات في الغالب قبل ان تصبح عضواً في الرهبانية . ثم تقضي  
 أربع سنوات أخرى بوصفها راهبة مستجدة . ونادراً ما تعلن النذور النهائية  
 قبل ثلاث وعشرين سنة أو أربع وعشرين سنة . إن راهبات مارت  
 فيرغا البرنارديات - البنيديكتيات لا يقبلن في رهبانيتن أرمة ما .  
 ومن يخضعن انفسهن ، في قلاياهن ، لضروب من الأمانة المجهولة التي  
 التي لا يحق لمن أن يتحدث عنها أبداً .

ويومَ تمتّ الراهبة المستجدة نذورها الرهبانية تجلّي في أحسن زينة ،  
 ويحلى رأسها بالزهر الأبيض ، ويصقل شعرها ويحده . ثم إنها تكبّ  
 على وجهها ، ويُنشر فوقها حجاب كبير أسود ، وتُنشد صلاة الموني .  
 وعندئذ تنقسم الراهبات صفتين ، يمرّ أحدهما على مقربة منها قائلاً في  
 نبرة ناشئة : « لقد ماتت اختنا ! » ، فيجيبه الآخر في صوت مرنان :  
 « إنها نحيّا في السيد المسيح ! »

وفي الفترة التي ترقى اليها هذه القصة أُلحِقَتْ بالدير مدرسة داخلية ، تضمّ عدداً من الفتيات النيبلات ، كان معظمه من الموسرات . وكانت من أبرز هؤلاء الآنسان « دو سانت أولير » و « دو بيليسين » ، وفتاة انكليزية تحمل اسم « ثالبوت » الكاثوليكي الشهير . وإنما سُبِتْ هاتِه الفتيات - اللواتي نشأتهن الراهبات بين اربعة جدران - على الخوف من العالم ومن العصر . فقد قالت احداهن لنا ذات يوم : « إن النظر الى حصباء الطريق جعلني ارتجف من قمة رأسي الى اخص قدمي » . وكن يرتدين ملابس زرقاء ، ويعتمرن بقلنسوة بيضاء ، ويزين صدورهن بصلبان من فضة او نحاس مذهب . وفي بعض الاعياد الكبرى ، وبخاصة يوم عيد القديسة مارتا ، كان يُسمح لهن كنعة عظيمة وسعادة قصوى ، أن يرتدين ملابس الراهبات ويؤدين صلوات القديس بينوا وطقوسه يوماً كاملاً . وفي البدء كانت الراهبات ذوات النذور يُعرهنّ ملابسهن السوداء . ولكن ذلك بدا مدنساً للقديسيات ، فحظرت الرتبة . ولم 'تُحْزَرْ هذه الأعادة إلا للراهبات المستعدات . وبما يلفت النظر أن هذا التمثيل - الذي كان يُتسامح به ويُشجّع في الدير بروح تبشيرية خفية من غير شك ، ولكي يُغرس في نفوس هؤلاء الفتيات الصغار حبّ قسبيّ للملابس المقدسة - كان متعة حقيقية وسلوى صحيحة للطلابات . كنّ يتلهّثن به ليس غير . كان شيئاً جديداً ، كان تغيّراً للجو . وإنهما لسيبان طفلان ساذجان لا يوفقان على أية حال الى جعلنا نفهم ، نحن الدنيويين ، تلك السعادة التي ينطوي عليها الامساك بمنضحة الماء المقدس ، والوقوف ساعات وساعات على القدمين ابتغاء الانشاد على نحو رباعيّ امام مقرّأ من المقارى .

والطلابات يخضعن لجميع طقوس الدير ، خلا ضروب التقشف والأمانة . وهناك فتيات مُعدّن الى العالم ؛ وعلى الرغم من أنهن سلخن عدة سنوات من الزواج فانهن لما يُوفقن الى الاقلاع عن عادة القول في سرعة باللغة كلما قرع امرؤ بابهنّ : « إلى الابد ! » . ومثل الراهبات ، كان

محظوراً على الطالبات الدخليات ان يرين احداً غير النسابين ، في غرفة الاستقبال . وحتى أمهاتهن لم يكن يجاز لهن ان يعانقنهن . وحسبك دليلاً على الشدة التي اصطنعت في تطبيق هذه القاعدة ان فتاة زارنها أمها مصطحبة اختاً لها صغيرة في الثالثة من العمر . وبكت الفتاة ، فقد كانت شديدة التوق الى تقبيل اختها . مستحيل . والتمست ان تبسح للطفلة بأن تتمرّ يدها الصغيرة ، على الاقل ، من خلال القضبان الحديدية لكي يكون في ميسورها ان تقبلها . ولكنهن أبين ذلك عليها ، وفي نبرة تكاد ترشح بالخط .

## مباهج

ومع ذلك فقد ملأت الفتيات الصغيرات هذا البيت المهيب بذكريات  
فائنة .

ففي بعض الساعات ، كانت الطفولة تلتهمع في هذا الدير . لقد دقت  
ساعة الاستراحة ، ودار بابٌ على مفاصله . وقالت الطير : حسن !  
هوذا سرب من الفتيات الصغيرات ! إن فيضاً من الفتوة قد أغرق هذه  
الحديقة التي تحترقها بررات على شكل صليب ، مثل كفن من الأكفان .  
وإن وجوهاً مُشعّة ، وجهاً بيضاً ، وعيوناً ساذجة تطفح بالضياء  
البهيج ، وضروباً من الفجر مختلفات ، قد تناثرت في تلك الظلمة .  
فبعد ترتيب المزامير ، وقرع النواقيس ، ودق أجراس الحزن ، وأداء  
الصلوات انفجر ، فجأةً ، أزيز هؤلاء الفتيات الصغيرات أحلى وأعذب  
من أزيز النحل . لقد فُتح قفير الجدال ، ولقد حملت كلٌ عسلها .  
لقد لعبن ؛ لقد تنادَيْن ؛ لقد شككن جماعات ؛ لقد ركضن .  
وهذّوت في الزوايا أسنان صغيرة جميلة بيضاء . ومن بعيد راقبت  
الحُجُب ضحك الضاحكات : ظلال تنجس على الأشعة ؛ ولكن ما  
خرهن ! إنهن يتلألأن ويضحكن . وهذه الجدران الأربعة المحزونة  
كانت لها لحظات من الافتتان أيضاً . لقد شاركت ، هي الأخرى -  
وقد أضيئت على نحو باهت بما انعكس عليها من ابتهاج غامر - في  
دوران النحل العذب هذا . وكان ذلك أشبه شيء بوابل من الرياحين  
يهطل على هذه الجنائز . لقد أخذت الفتيات الصغيرات بأسباب المرح  
والعبث تحت أعين الراهبات ؛ إن نظرات العصاة لا تُزعج البراءة .  
وهكذا ، فبفضل هؤلاء الاطفال كانت ثمة ساعة غير متصّعة وسط



جمهرة من الساعات العابسة الصارمة . لقد وثبت الصغيرات ، ورقصت  
الكبيرات . ففي هذا الدير امتزجت البهجة بالبهاء . ولم يكن ثمة شيء  
احفل بالفتنة والبهاء من هذه النفوس الناضرة . ولو قد رأى هوميرو  
هذا المشهد إذن لضحك مع بيرو\* ولقد كان في هذه الحديقة السوداء  
من الصبّا ، ومن الصحة ، ومن الضجّة ، ومن الصباح ، ومن السعادة  
ما يكفي لازالة التجمعات عن وجوه السيدات المعجّات جميعاً ، - وراء  
منهن عجائز الملحمة او عجائز الحكاية ، عجائز العرش او عجائز للكوخ ،  
من هيكوب\*\* الى « الأوزة الأم » \*\*\*

وفي هذا البيت ، اكثر من أيّا مكان آخر في ما يبدو ، كانت  
تسمع « نغاثات الاطفال » هذه التي تمور بالطلاوة والتي تجعل المرء  
يضحك ضحكاً حافلاً بالتفكير . فضمن هذه الجدران المائتة الأربعة  
صاحت طفلة في الخامسة من عمرها ذات يوم : « أماء ! إن فتاة كبيرة  
قالت لي اللحظة إني لن أبقى هنا ، بعد ، أكثر من تسع سنوات  
وعشرة أشهر . ما أعظم سعادتي بذلك ! »  
وهناك ، ايضاً ، دار هذا الحوار المأثور :

احدى الامهات الصوتيات . - « لماذا تبكين ، ابنتي الطفلة ؟ »  
الطفلة ( وعمرها ست سنوات ) متهددة . - « لقد قلت لأليس  
إني اعرف دوس تاريخ فرنسا . فقالت لي بل انت لا تعرفينه . وأنا  
أعرفه حقاً . »

---

\* Charles Perrault ( ١٦٢٨ - ١٧٠٣ ) كاتب فرنسي وضع عدة حكايات عن  
الجن خلدت اسمه .

\* Hécube زوجة بريام ، وام هيكتور وباتريس وغيرها . وقد خسرت في  
خلال حرب طروادة جميع اولادها تقريباً البالغ عددهم تسعة عشر ، ورأت زوجها  
المجوز بريام وزوجها بوليكتين وابنتها وحفيدها يُذبحون تحت عينها ...  
\*\*\* هي الراوية الخرافية لحكايات بيرو الدائرة كلها حول الجن ، وقد نشرت  
هذه الحكايات اول مرة عام ١٦٩٧ .

أليس ( وصرها تسع سنوات ) . - « لا ؛ إنها لا تعرفه . »  
الأم . - « كيف ذلك ، يا بُنيتي ؟ »  
أليس . - « لقد قالت لي ان أفتح الكتاب عند أي موضع منه ،  
وأن أسألها أي سؤال من أسئلة الكتاب ، قائلة : إن في استطاعتها ان  
نجيب عنه . »

- « ثم ماذا ؟ »  
- « إنها لم تجب عن السؤال . »  
- « حسن . ماذا سألتها ؟ »  
- « لقد فتحت الكتاب كيفما اتفق ، طبقاً لقولها ، ووجهت إليها  
اول سؤال وقعت عليه . »  
- « وما كان ذلك السؤال ؟ »

- « كان : « وما الذي حصل في ما بعد ؟ »  
وهناك ، ايضاً ، أبدت هذه الملاحظة المبيقة حول بقاء نهمة  
بعض الشيء كانت لاحدى السيدات العاملات في المدرسة الداخلية :  
- « أليست لطيفة ؟ إنها تأكل أعلى قطعة الخبز المدهونة بالزبدة  
مثل سيدة من السيدات ! »

ومن فوق بلاطة من بلاطات هذا الدير التَّقَط هذا الاعتراف ،  
الذي كتبت مقدماً ، لكي لا ينسى ، خاطئة صغيرة في السابعة من  
العمر :

- « أبت ، أنا اهتم نفسي بأني كنت بخيلة .  
« أبت ، أنا اهتم نفسي بأني قد زنت .  
« أبت ، أنا اهتم نفسي بأني رفعت عيني نحو الرجال . »  
وفوق مقعد من مقاعد هذه الحديقة المعشوشبة ارتجل هذه القصة فم  
وردي في السادسة من العمر ، وممعتها أعين زُرُق في الرابعة والخامسة  
من العمر :

- وكانت ثلاثة ديوك صغار تعيش في بلد مليء بالازهار . فقطفت الديوك تلك الازهار ووضعتها في جيوبها . وبعد ذلك قطفت الديوك الأوراق ووضعتها في 'لعبها' . وكان في البلد ذئب ، وكانت فيه غابات كثيرة . وكان الذئب في الغابات ، ولقد أكل الديوك الصغار . وكذلك ، هذه القصيدة الاخرى :

- « كانت هناك ضربة عصا .

وإن بوليشنبيل \* هو الذي سدها الى المرة .

و لم 'يفد' ذلك شيئاً . ولكنه أوجعها .

و ثم جاءت سيدة فوضعت بوليشنبيل في السجن . »

وهناك ، ايضاً ، قيلت هذه الكلمات الرقيقة الممزقة للقلب على لسان لقيطة صغيرة كان الدير ينشئها ابتغاء وجه الله . لقد سمعت الفتيات الاخريات يتحدثن عن امهاتهن فههمن في زاويتها قائلة :

- « أما أنا فأنا أمي لم تكن هناك عندما 'ولدت' ! »

وكانت في الدير بوابة بدينة كان المرء يراها دائماً تجتاز الاروقة في سرعة ، حاملة حزمة مفاتيحها ، وكان اسمها الاخت آغاثة . وكانت الفتيات الكبيرات الكبيرات ، وهن اللواتي يزيد عمرهن على العاشرة ، يناديها آغانوكليس \*\* .

وكانت قاعة الطعام غرفة واسعة متطاولة ومربّعة لا ينفذ اليها النور إلا من نافذة رواق ذات حنية ثالثة النقش في مستوى الحديقة . وكانت مظلمة رطبة ، وملأى - كما قالت الفتيات الصغيرات - بالبهائم . ذلك بأن جميع المواطنين المجاورة كانت تزودها بأنصبتها من الحشرات . ولقد أطلق على كل من زواياها الأربع ، في لغة الطالبات ، اسم خاص

---

\* عَلمَهم على المهرج ، عند الفرنسيين ، ويقابله في عالمنا « كراكوز » و«عواظ» .

\*\* Agathoclès طافية ميراكيرس إحدى مدن صقلية . وكان عدواً لدرودا للقرطاجين

( ٢٦١ - ٢٨٩ ق . م )

معتبر . فهناك زاوية العناكب ، وزاوية الأساريع \* ، وزاوية قوارض الحُشب ، وزاوية الصراصير . وكانت زاوية الصراصير قرب المطبخ ، وكانت تحظى بأجلال كثير ، بسبب من انها كانت أدفاً من سائر الزوايا . ومن قاعة الطعام ، انتقلت هذه الاسماء الى المدرسة وساعدت هناك ، كما ساعدت في كلية مازاران القديمة ، على التمييز ما بين أربع أمم . وكانت كل طالبة تنتمي الى احدى هذه الأمم الأربع تبعاً للزاوية التي تجلس فيها الى المائدة في غرفة الطعام . وذات يوم ، فيما كان كبير الاساقفة يقوم بزيارته الرعائية ، رأى فتاةً صغيرة جميلة متوهجة الحدين ذات شعر أشقر فاتن تدخل الى الصف الذي كان يمرّ به . فسأل طالبةً اخرى ، وكانت سمراء ساحرة ذات وجنتين نضرتين ، اتفقن ان كانت قريباً منه :

- « مَنْ هذه الفتاة الصغيرة ؟ »
  - « إنها عنكبوت ، يا صاحب السيادة . »
  - « عجيب ! وتلك ؟ »
  - « إنها صرصور . »
  - « وتلك ؟ »
  - « إنها أسروع . »
  - « حقاً . ومن أنت ؟ »
  - « انا قارضة من قوارض الحُشب ، يا صاحب السيادة . »
- ولكل بيت من هذا الضرب فرائده . ففي مطلع هذا القرن كانت إيكروين موطناً من تلك المواطن الجميلة الصارمة حيث نمت ، في ظل يكاد يكون جليلاً ، طفولة الفتيات الناضرات العود . ففي إيكروين يُميّز عند تنظيم موكب القربان المقدس بين المذاري وزارعات الرياحين . وكانت ثمة ايضاً « المظلات » و « المباخر » ، وقد حمل الاولون حبال
- 
- \* دود ابيض الابدان ، ينسلخ فيصير فراشاً . واحده أسروع ويسروع .

المظلة ، وأرجع الآخرون المباخر امام القربان المقدس . وكانت الرياحين تُعاد الى زارعاتها لا يَنازعن في ذلك احد . وكانت اربع « عذارى » يشبه في مقدمة الموكب . وفي صبيحة اليوم العظيم لم يكن من غير المألوف أن تسع هذا السؤال في حجرة النوم :

- « اَيْكُنْ عذراء ؟ »

وتروي السيدة كامبان ان « فتاة صغيرة » في السابعة من العمر قالت لـ « فتاة كبيرة » في السادسة عشرة ترأست الموكب ، على حين ظلت هي ، الفتاة الصغيرة ، في المؤخرة :

- « أنتِ عذراء ، أنتِ . اما أنا فليست كذلك ! »

## ٥

### شواغل

وفوق باب حجرة الطعام كُتِبَ بحرف سوداء ضخمة هذه الصلاة التي كانت تدعى « الصلاة الربانية البيضاء » ، والتي كانت غمك القوة على ان تقود الناس الى الجنة مباشرة :

- « الصلاة الربانية البيضاء التي صاغها الله ، والتي قالها الله ، والتي وضعها الله في الجنة . في الليل ، حين أويت الى الفراش ، أوجدت ( كذا ) \* ثلاثة ملائكة مستقلقين على سريري ، أحدهم عند قدّم السرير ، والآخران عند مقدّمه ، ومرّيم العذراء الطيبة في الوسط ، وقد قالت لي إن عليّ أن أنام ، وان لا ارتأب في شيء . إن الرب الرحيم

. « في الاصل Je trouvais بدلاً من Je trouvais اي « وجدت » فالحقاً يتمثل في كيفية صياغة الفعل الماضي من « وجد » ولا لم يكن من سبيل الى التعبير عن ذلك في العربية فقد رأينا أن تؤدي المعنى المطلوب بوضع فعل « أوجد » بدلاً من فعل وجد ، أي استعمال صيغة الفعل الرباعية بدلاً من صيغته الثلاثية .

هو ابي ، والمعدراء الطيبة هي أمي ، والرسل الثلاثة هم إخوتي ،  
والمعدراء الثلاث هن أخواتي . إن القميص الذي ولد فيه الاله ليلف  
جسدي . وان صليب القديسة مارغريت لمكتوب على صدري . وغضي  
السيدة المعدراء عبر الحقول ، باكينة من اجل الرب ، وتلتقي بالسيد  
القديس يوحنا . سيدي القديس يوحنا ، من اين اقبلت ؟ لقد اقبلت من  
« آف سالوس » . انت لم ترَ الرب الاله ، اليس كذلك ؟ إنه على  
شجرة الصليب ، متدلي القدمين ، مسمّر اليدين ، وعلى رأسه قبعة صغيرة  
من الشوك الابيض . إن كل من يردد هذا ثلاث مرات عند المساء ،  
وثلاث مرات عند الصباح ، يفوز بالجنة في آخر الامر .

وفي سنة ١٨٢٧ كانت هذه الصلاة المميّزة قد طمست تحت طبقة من  
الورق مثلثة ألصقت على الجدار . وهي تذكّر حتى هذه الساعة في ذاكرة  
بعض فتيات ذلك العهد الصغيرات ، وقد امسين الآن سيدات عجاثر .

وكان تمثال ضخم من غائسل المصلوب معلق على الباب ، يتمّ زخرف  
غرفة الطعام هذه التي كان بابها الوحيد ينفّث ، كما نحسب اننا قد ذكرنا ،  
على الحديقة . وكانت طاولتان ضيقتان ، يحيط بكل منهما مقعدان  
خشبيان ، تمتدان في خطين متوازيين من اقصى قاعة الطعام الى اقصاها .  
وكانت الجدران بيضاء ، والطاولتان سوداوين ، فقد كان هذان اللونان  
الجداريان هما مظهر التنوّع الأوحد في الاديرة . وكانت وجبات الطعام  
خشنة ، وكانت اغذية الصغيرات أنفسهن صارمة . فكانت الوجبة المترفة  
عبارة عن طبق واحد يتألف من شيء من اللحم والحضر مجتمعين ، او  
من سمك مملح . بيد ان هذه اللائحة الموجزة ، التي تُفحص بها الطالبات  
الداخليات وحدهن ، كانت شيئاً نادراً جداً . وانما كانت الفتيات  
الصغيرات يأكلن في صمت ، تحت عيني « الأم » المكلفة مراقبتهن ذلك  
الاسبوع ، والتي كانت تقنع وتغلّق ، بين الفينة والفينة ، وفي ضجة ،  
كتاباً خثياً ، كلما خطر ببال ذبابة ان تحوم أو تطنّ خلافاً للقاعدة .

والواقع ان هذا الصت كان يُتَبَلَّ بِسَيَرِ القديسين تتلى بصوت عال من كرسي صغير ذي مِقْرَأ قائم عند قدمي تمثال من تمائيل المصلوب . وكانت الفارئة طالبة كبيرة تختار لاداء هذه المهمة طوال اسبوع كامل . وكانت توضع على الطاولة المجردة ، وعلى مسافات بعينها ، آنية فخارية موهة كانت كل طالبة تغسل فيها قدحها المعدني وصحنها بنفسها ، وكن أحياناً يُلْقَن في تلك الآنية بعض النفايات ، كقطعة من لحم قاسية او سمكة فاسدة ؛ وكان ذلك يعرضهن للعقاب . وكانت تلك الآنية تدعى البروك المستديرة .

وكانت الطفلة التي تقطع حبل الصت « ترم بلسانها صلياً » . ابن ؟ على الارض . كانت تلص ارض الحجر . كان التراب ، تلك النهاية الواضعة حدّاً لجميع المباح ، يُكَلَّف بمعاينة أحكام الرياحين الصغيرة المسكنة هذه حين تُتَهم بالزفزة .

وكان في الدير كتاب لم يطبع منه في ايام يوم من الايام غير نسخة وحيدة محظورة قراءتها . ذلك هو نظام القديس بينوا ؛ سرّ ينبغي ان لا تنفذ اليه عين من الاعين الدنيوية غير الطاهرة .

*Nemo regulas seu, constitutiones nostras, externis communicabit .*

ووفقت الطالبات ، ذات يوم ، الى سرقة هذا الكتاب ، فأخذن يقرأنه في لفة قراءة كثيرة ما قوطعت بالحرف من ان تقاچهن احدى الراهبات على تلك الحال ، وهكذا اضطرون الى إغلاق المجلد في سرقة بالغة . انهن لم يَفْزَن من هذه المخاطرة الكبيرة بغير متعة ضئيلة . ولقد اعتبرن بعض الصفحات المبهمة الباحثة في آثام الصبية الصغار « اكث صفحات الكتاب إمتاعاً » .

لقد لعبن في بحر من بمرات الحديقة نهضت على طوله بضع شجيرات مثمرة مهزولة ، ورغم المراقبة الشديدة وقوة العقوبات كن يوفقن ، كلام لاتيني مناه : لا يجوز لاحد أن يبوح بأنظمتنا وفوائتنا الى الغرباء .

في بعض الاحيان ، حين تهبّ الريح الاشجار ، الى ان يلتقطن ، خلسةً تفاحةً فجأةً ، أو مشمشةً فاسدةً ، أو إجازةً يسرح فيها الدود . وسوف أترك الكلام الآن لرسالة موجودة بين يديّ ، رسالة كتبته منذ خمس وعشرين سنة طالبة سابقة ، هي اليوم السيدة دوقة ... ، إحدى نساء باريس الأكثر أناقة ، فقد جاء في هذه الرسالة بالحرف الواحد : « كانت الواحدة منا تخبيء إجازتها أو تفاحتها ما وجدت الى ذلك سبيلاً . حتى اذا صعدنا لنضع الشراشف على الاسرة في انتظار طعام العشاء وضعتها تحت ومبادتها ، ثم أكلتها ليلاً في سريرها . فاذا لم تتعكّن من ذلك أكلتها في الكنيف . » كانت تلك إحدى 'متعهن' الأكثر حيوية .

وذات مرة ، عند زيارة رئيس الاساقفة للدير ايضاً ، راهنت إحدى الفتيات الصغيرات ، الآنة بوشار ، وهي متعطرة من اسرة مونغورينسي ، على انها سوف تسأله ان يمنح الطالبات عطلة يوم ، وهو شيء مروع في مجتمع كالح الى هذا الحد . وقبيل الرهان ، ولكن أياً من اولئك اللواتي اشتركن فيه لم تعتقد أنها سوف تجرؤ على ذلك . وحين منحت الفرصة ، فيما كان رئيس الاساقفة يستعرض الطالبات انبثقت الآنة بوشار من الصفوف ، مشيرةً دعر رفيقائها التي لا يوصف ، وقالت : « مونسينيور ، عطلة يوم واحد . » وكانت الآنة بوشار طويلة القامة ، ناضرة العود ، ذات وجه ورديّ صغير ليس في العالم اجل منه . وابتمسم مسيو دو كيلين وقال : « وكيف ، ابنتها الطفلة العزيزة ، تطلين عطلة يوم واحد ليس غير ؟ خذي ثلاثة ايام ، اذا شئت . أنا أمتنعك عطلة ثلاثة ايام . » ولم تستطع الرئيسة ان تفعل شيئاً ، فقد تكلم رئيس الاساقفة . كانت فضيحةً بالنسبة الى الدير . ولكنها كانت بهجةً بالنسبة الى المدرسة الداخلية . وفي ميسور القراء ان يتخيّلوا النتيجة .

يبد ان هذا الدير الفظّ لم يكن من شدة التحصين بحيث تعجز حياة



العالم الخارجي العاطفية ، وبحيث تعجز المأساة وتعجز المغامرة الجبّية نفسها ، عن النفاذ اليه . ولا ثبات ذاك نجحتمى بالنص ، في اختصار ، على واقعة حقيقية لا وراء فيها ، وإن لم يكن لها في ذاتها صلة بقصتنا هذه إذ لا يربطها بها أيما خيط على الإطلاق . وإنما نشير الى هذه الواقعة لكي ننته صورة الدير في ذهن القارئ ، لبس غير .

حوالى تلك الحقبة كانت في ذلك الدير امرأة غريبة ليست براهبة - امرأة كانت تعامل في احترام كبير ، وتدعى مدام آلبيروتين . إن احداً لم يكن يعرف عنها شيئاً غير أنها معتوهة ، وإن العالم الخارجي كان يفترض أنها ميتة . ولقد كان وراء هذه القصة ، كما قيل ، بعض الترتيبات المالية الضرورية لزواج ضخم .

كانت هذه المرأة البائنة الثلاثين من العمر أو تكاد ، السمراء المليحة ، تحدى بعينها السوداءين الواسعتين تحديقاً ضارباً . أكانت ترى ؟ لا أحد يدري . وكانت تنزلت انزلاقاً أكثر مما تنهي مشياً . وما كانت لتتكلم . ولم يكن الناظر اليها يثيق ثقةً كاملة من انها تنفّس . فقد كان منحراها رفيقين شاحبين وكأنها لفظت اللحظة آخر نفس من أنفاسها . وكان لمس يدها شبه شيء بلس الثلج . وكانت على رقة شبحية عجيبة . فحينما دخلت أوقعت البرد في أوصال الجمع . وذات يوم رأتها إحدى راهبات مارة فقالت لزميله من زميلاتنا : « إن الإنسان ليحسبها ميتة . » فأجابته هذه بقولها : « لعلها كذلك ! »

لقد رويت قصص كثيرة عن مدام آلبيروتين . كانت موضوع فضول الطالبات الداخليات الدائم . وكان في الكنيسة سدة تدعى الكوة . وفي هذه السدة ، حيث لم يكن يوجد غير فتحة مستديرة واحدة هي كوة من الكوى ، كانت مدام آلبيروتين تشهد الصلوات والخدمات الدينية . وكانت تستقل بذلك المكان عادة ، لأن الواعظ أو الكاهن المحتفل بالقداس كان يرى من تلك السدة المرتفعة ، وهو امرٌ محظور

على الراهبات . وذات يوم ارتقى المنبر كاهن شاب ذو رتبة رفيعة هو دوق دو روهان ، عضو المجلس الاعلى الفرنسي ، الذي كان ضابطاً في فرقة « الفرسان الحمر » عام ١٨١٥ ، عندما كان أميراً ليون ، والذي توفي بعد ذلك ، عام ١٨٣٠ كاردينالاً ورئيس اساقفة بيزانسون . وكانت هذه اول مرة يعظ فيها مسيو دو روهان في دير بيكبوس الصغير . وكان من دأب مدام آليرتين ان تستمع الى العظات وتشهد الخدمات الدينية في صمت ميق وسكينة كاملة . اما في ذلك اليوم فأنها لم تكذب ترى مسيو دو روهان حتى نهضت نصف نهضة وصاحت وسط سكون الكنيسة الشامل : « ماذا ؟ أوغوست ؟ » وُهِتت جماعة الراهبات كلها ، والتفتن الى الورا . ورفع الواعظ عينيه ، ولكن مدام آليرتين كانت قد ارتدت الى جودها الصامت . إن نفساً من العالم الخارجي ، إن الناعة من حياة كانت قد مرت ، لحظة ليس غير ، أمام هذا الشكل الميت المتلوج ، ثم تلاشى كل شيء وانقلبت المجنونة ، ككرة اخرى ، الى الجنة .

ومع ذلك فان هاتين الكلمتين أطلقنا لسان كل قادرة على الكلام في ذلك الدير . فما اكثر الاشياء التي انطوت عليها تلك الـ « ماذا ؟ أوغوست ؟ » وما اكثر الابحاث ! فقد كان اسم مسيو دو روهان ، في الواقع ، هو أوغوست . وكان واضحاً ان مدام آليرتين تنتسب الى ارقى طبقة في المجتمع ، ما دامت قد عرفت مسيو دو روهان ، وانها كانت تحتل هي نفسها مكانة رفيعة ما دامت قد تحدت بمثل هذه الدالة عن نبيل على مثل هذا العظم كله ، وانه كانت لها صلة ما به ، لعائها صلة قرابة ، ولكنها حمية جداً من غير شك ، ما دامت تعرف اسمه الصغير .

وكانت دوقتان قاسيتان جداً ، هما مدام دو شوازيل ومام دو سيران ، كشيئاً ما تزوران الدير ، الذي كان يفتح ابوابه لهما ،

من غير شك ، بفضل مكانتهن النسوبة الرفيعة ، فتوقعان الذعر الشديد في المدرسة الداخلية . فما ان تمر السيدتان العجوزان حتى ترتجف الفتيات الصغيرات البائسات ويخفضن اعينهن .

وفوق هذا ، فقد كان ميسو دو روهان ، من غير ان يدري ، موضوع انتباه الطالبات واهتمامهن . وكان قد عُيِّن في تلك الفترة بالذات ، بانتظار رفعه الى كرسي الاسقفية ، نائباً لرئيس اساقفة باريس . وكان من عادته ان يكثر من المجيء الى الدير لينشد في اثناء الخدمات الدينية المقامة في معبد راهبات بيكبوس الصغير . ولم يكن في ميسور أيّ من الحبيسات الصغيرات ان تراه بسبب من الساترة الصوفية الغليظة ، ولكنه كان ذا صوت عذب ، ورقيق بعض الشيء ، فما انقضت برهة حتى أصبحن يعرفنه ويميزنه من سائر الاصوات . لقد كان فارساً من حاشية الملك . والى هذا فقد قيل انه كان شديد الحب للزينة ، وإث رأسه كان مكسوّاً بشعر كستنائي جميل مصقّف دوائر دوائر ، وانه كان يتخبط بنطاق عريض متوج رائع ، وإن ثوبه الكهنوتي كان على نحو ليس له في الاناقة ضريب . لقد شغل الى ابعد الحدود جميع هذه المحيلات الفتية التي لا تريد اعمار صاحباتها على السنة عشر ربيعاً . ان صوتاً ما لم ينفذ من الخارج الى قلب الدير ، ومع ذلك فقد تقصّت سنة نفذ فيها اليه صوت فلول او ناي . كان ذلك حدثاً ذا خطر ، ولا تزال طالبات ذلك العهد يذكرنه الى اليوم .

كان نايّاً يعزف عليه شخص ما في جوار الدير ، وكان ذلك الناي يعزف اللحن نفسه دائماً ، وهو لحن غدا اليوم نسباً منسياً : يا حبيبتى زيتولبا ، تعالي وتربّعي على عوش روحي ! وكن يسعنه مرتين او ثلاث مرات يومياً .

وانفقت الفتيات الصغيرات ساعات في الاستماع الى ذلك اللحن ؛ واضطربت الامهات الصوتيات ؛ وعصف الدوار بالرؤوس ؛ وهطلت

العقوبات تم طالاً . ودام ذلك عدة أشهر . وتدلّثت الفتيات كلهن ، قليلاً أو كثيراً ، بحبّ الموسيقى المجهول . فقد تخيلت كلّ منهن أنها زيتولبا . وكان صوت الناي يُقبل من ناحية شارع « دروا مور » . وكنّ على اتم الاستعداد لأن يقدّمن كل شيء ، لأن يضحّين بكل شيء ، لأن يجاولن كل شيء ، لكي يرحّبن ولو ثانية واحدة ليس غير - بل لكي يلمحنّ هذا « الشاب » الذي كان يعزف هذا العزف العذب على ذلك الناي ، والذي كان يتلاعب في الوقت نفسه ، من غير أن يدري ، بقلوبهنّ جميعاً . والواقع ان بعض الفتيات كن يهرين من باب خلفي ، ويصعدن الى الدور الثالث المطلّ على شارع « دروا مور » ، محاولات أن يرينه ، معرّضات أنفسهن لأيام بكاملها من العذاب . ولكن عبثاً . وذهبت إحداهن الى حدّ ان غدّ ذراعها فوق رأسها من خلال القضبان الحديدية وتلوّح بمنديلها الأبيض . وخطّت فتاتان خطوة أوسع في ميدان الجراءة . فقد وجدتا وسيلة للتسلق الى اعلى السطح ، فخطرتا بنفسيهما ، ووقفتا آخر الأمر الى رؤية « الشاب » . كان رجلاً عجوزاً مهاجراً ، مكفوف البصر مهتماً ، يعزف على الناي في عِلْيَتِهِ قنلاً للضجر .

## ٦

### الدير الصغير

كانت ضمن سور « بيكبوس الصغير » هذا ثلاثة أبنية متميّزة كل التميّز : الدير الكبير حيث تحيا الراهبات ، والمدرسة الداخلية حيث تنزل الطالبات ، وأخيراً ما كان يدعى الدير الصغير . وإنّا كان هذا بناء منفصلاً ذا حديقة ، تنقسم السكنى فيه عدة راهبات عجائز ينتسبن الى

رهبانيات مختلفة ، بقايا أديارٍ خربتْها الثورة ؛ مجموعة من كل الالوان ، السوداء ، والرمادية ، والبيضاء ، من مختلف الجماعات وجميع الاصناف الممكنة ؛ وهو ما نستطيع ان ندعوه ، اذا جاز مثل هذا التزاوج بين الكلمات ، ضرباً من « الدير اللابس ثوباً متعدد الالوان كثوب المهترج » .

فمنذ عهد الامبراطورية أجيّز بلبس هؤلاء العوانس البائسات ، المشتتات ، المشتتات ، أن يجسّدن مفزَعاً تحت أجنحة الراهبات البندكتيات - البرنارديات . وعيّنت الحكومة لهنّ جعالةً صغيرة ؛ ولقد استقبلتهن راهبات « بيكبوس الصغير » في لفة . وكان ذلك خليطاً عجيباً . وكانت كل منهنّ تتبّع نظامها الخاص . وفي بعض الاحيان ، كان يُجاز للطلّابات ، كنسليّة كبرى ، أن يقمن بزيارتهم ، حتى لقد احتفظت هذه الذواكر الغضة ، في جملة ما احتفظت به ، بذكري الأم باسيل الطاهرة ، والأم سكولاستيك الطاهرة ، والأم يعقوب .

ووجدت احدى هذه اللاجئات نفسها في بيتها تقريباً . كانت راهبة من راهبات « سانت أور » ؛ وكانت هي الراهبة الوحيدة التي عُثرت من بين المنتسبات الى تلك الرهبانية . وكانت دير راهبات « سانت أور » القديم يشغل في مطلع القرن الثامن عشر هذا البيت نفسه الذي امسى في ما بعد ملكاً لراهبات مارتن فيرغا البندكتيات . واخقّ أن هذه الراهبة الطاهرة - المعدّمة الى حد لم يكتفها من ان ترتدي لباس رهبانيّتها البهيّ ، وهو ثوب أبيض ذو وشاح قرمزي - كانت قد خلعت ، في تقوى ، على شخص خشيّ صغير كانت تربيه لرائداتها في رضا وارتياح . حتى اذا حضرته المنية أوصت به للدير . في عام ١٨٢٤ كان قد بقي من هذه الرهبانية راهبة واحدة ، اما اليوم فليس باقياً منها غير دمية .

وبالاضافة الى هؤلاء الالهات الفاضلات كانت بضع عجائز من نساء العالم الخارجي قد حصلن من الرئيسة على إذن يبيح لهنّ ، مثل مدام

آلبيرتين ، ان ينسكن في الدير الصغير . وكانت بين هؤلاء مدام  
بوفور دوتبول ، والمركيزة دوفرين . واخرى لم نكن نعرف في  
الدير إلا بالاضجة الهائلة التي اعتادت ان تحدثها وهي تنبسط . وكانت  
الطالبات يسينها مدام فاكارميني \* . . .

وحوالى سنة ١٨٢٠ او ١٨٢١ التمت مدام جينيليس ، التي كانت  
تحرر في ذلك العهد مجلة صغيرة تدعى « الجَسُور » ، الاذن باحتلال  
غرفة في دير بيكبوس الصغير . وأوصى دوق اورليان بقبولها . وضجّ  
القفير بالطين ، وارتعدت الاسماء الصوتيات كلهن . فقد سبق لمدام  
جينيليس ان ألقت عدة روايات ، ولكنها اعلنت انها كانت اول من  
يكمر هذه الروايات ، وبعد ذلك كانت قد انتهت الى مرحلة تقواها  
الضاربة . وساعدها الله ، وساعدها الامير ايضاً ، فدخلت .

وما هي الا ستة اشهر او ثمانية اشهر حتى غادرت الدير ، مبررةً  
ذلك بان الحديقة غير ظلية . واستبدّ الطرب بالراهبات . فعلى الرغم  
من بلوغها سن الشيخوخة فقد كانت لا تزال تعزف على القانون ، وفي  
براعة فائقة .

وعند مفادرتها الدير ، تركت طابعها في قَلْبِهَا . فقد كانت مدام  
جينيليس مؤمنةً بالخرافات ، مولعة باللغة اللاتينية . والواقع ان هاتين  
الكلمتين فقدّمان البنا صورةً جانبيةً حسنةً عنها . وبعد بضع سنوات ،  
كان لا يزال في ميسور المرء ان يرى هذه الابيات اللاتينية الحسنة الملصقة في  
خزانة صغيرة في قَلْبِهَا حيث كانت تحفظ اموالها وجواهرها . وإنما كتبت  
هذه الابيات بخطها ، وبجبر احمر ، على ورقة صفراء ، وكانت تؤمن  
بأن في مقدورها ان تطرد اللصوص وتروّعهم .

---

\* نحن الملاحظة ان لفظة Vacarmine في الفرنسية تفيد معنى الضجة والضوضاء  
والجلبة فكان الطالبات قد سمّين تلك الراهبة « السيدة ضجة » .

*Imparibus meritis pendent tria corpora ramis:  
Dismas et Gesmas , media est divina potestas ;  
Alta petit Dismas , infelix , infima , Gesma .  
Nos et res nostras conservet summa potestas .  
Hos versus dicas , ne tu furto tua perdas .*

وهذه الابيات التي ترقى الى القرن السادس تجعل المرء يتساءل ؛  
أكان اسما لصي\* 'جلجنة' \*\* « ديسماس » و « جيستاس » ، كما يعتقد  
الناس ، أم « ديسماس » و « جيستاس » ؟ وهذا الرمز الاخير  
للكلمة خليق به ان ينافي ما ادّعاء الفيكونت دو جيستاس ، في القرن  
الماضي ، من انه متعذر من اللص المشؤوم . و الفرق هذا فقد كانت  
الآيمان بأن هذه الابيات تضر وتنفع عقيدة "جوهريّة عند" رهبانية  
المضيفات ، او خادومات المرضى .

وكانت كنيسة الدير ، المشيدة على نحو يجعلها تفصل ، جهد الطاقة ،  
ما بين الدير الكبير والمدرسة الداخلية ، متعبداً مشتركاً ، طبعاً ،  
للمدرسة الداخلية والدير الكبير والدير الصغير جميعاً . وحتى الجمهور ،  
كان يُبَازَل له الدخول اليها من شبه منحصر صحي\* بنفتح على الشارع .  
ولكن كل شيء كان يُنظَّم على نحو يجعل من المتعذر على ايّ من  
اهل الدير رؤية وجه من الوجوه الخارجية . تخيل كنيسة نهيمن يد\*  
جبارة على جوقه المنشدات فيها ، وتلويا بحيث لا تشكل ، شأنها في  
الكنائس العادية ، امتداداً خلف المذبح ، ولكن شبه غرفة او كهف

\* « هناك ثلاثة اجسام تتدل باستحقاقات مختلفة ،

ديسماس وجيسماس ، وبينها السلطة الالهية ،

إن ديسماس يرتفع نحو الاعالي ، اما جيسماس فيهب الى الهاوية ،

فلتحتفظ السلطة الالهية علينا وعلى ممتلكاتنا .

ردّد هذه الابيات إذا أردت ان لا يسرق اللصوص اموالك . »

\*\* جلجنة ، أو موضع الججمة ، جبل قرب القدس ، صلب عليه يسوع المسيح .  
ولما جلجنة هما اللسان اللذان جُمع احدهما عن يمينه ، والآخر عن يساره ، وصلا  
معه .

مظلم الى يمين الكاهن ؛ تخيل هذه الغرفة وقد أوصدت بالستارة البالغ ارتفاعها سبعة اقدام والتي تحدثنا عنها آنفاً ، وكُدّس في ظل هذه الستارة ، وعلى كرامي خشية ، راهبات الجوقة الى اليسار ، والطالبات الى اليمين ، والراهبات القائمت بالاعمال اليدوية والراهبات المستجيدات في المؤخرة تَفَرُّ بفكرة ما عن راهبات «بيكبوس الصغير» حين يشهدن القداس . وكان هذا الكهف المدعو الجوقة ، يتصل بالدير من طريق مجاز ضيق . وكانت الكنيسة تستمد الضوء من الحديقة . وحين كانت الراهبات يشتركن في احتفالات دينية تفرض انظمتن عليهن الالتزام الصمت فيها ، كان الجمهور لا يحس بوجودهن إلا من خلال صوت المقاعد الكنسية المرتفعة حيناً ، المنخفضة حيناً آخر .

## ٧

### بعض الصور المظلمة في هذا الظلام

في مدى الست السنوات التي تفصل عام ١٨١٩ عن عام ١٨٢٥ كانت رئيسة «بيكبوس الصغير» هي الآنسة دو بلومور ، الذي كان اسمها الديني الأم إينوسانت . كانت من امرة مارغريت دو بلومور ، مؤلفة «سيو قديسي وهبانية القديسينوا . » وكان قد أعيد انتخابها للرئاسة . امرأة في نحو الستين ، قصيرة ، بدنية ، « تعني مثل القدر المصدوعة » كذلك تقول الرسالة التي سبق ان استشهدنا ببضعة أسطر منها . ولكنها كانت امرأة ممتازة ، وكانت الشخصية المبتهجة الوحيدة في الدير كله ، ومن أجل ذلك حظيت بأعظم الاحترام والاحلال .

وكانت الأم إينوسانت تشبه جدتها مارغريت ، مؤرخة الرهبانية



وعالمها . كانت حسنة الثقافة ، واسعة الاطلاع ، عالمة ، بارعة ، شديدة الشغف بالتاريخ ، محسوة باللاتينية ، متخمة باليونانية ، ملأى بالعبرية ، وراهماً أكثر منها راهبة .

وكانت نائبة الرئيسة راهبة اسبانية عجوزاً تكاد تكون مكفوفة البصر ، هي الام سينيريس .

وكانت ارفع الامهات الصوتيات ، مقاماً الأم سانت هونورين ، الحازنة ، والام سانت جيرترود ، معلمة الراهبات المستجدات الاولى ، والأم سان آنج ، المعلمة الثانية ، والأم « البشارة » ، القبة على الكنيسة ، والأم سان اوغوستين ، الممرضة ، وهي الحبيثة الوحيدة في الدير كله ؛ ثم الأم سانت ميشيل ( الآنسة غوفان ) وكانت غضة العود ذات صوت ساحر ؛ والأم ديزانج ( الآنسة دروييه ) التي كانت من قبل في دير « راهبات الرب » وفي « دير الكنز » بين « جيزور » و « مانبي » ؛ والأم سان جوزيف ( الآنسة دو كوغولودو ) ؛ والأم سانت أدبلايد ( الآنسة دو فيرين ) والأم « الرحمة » ( الآنسة دو سيفيوانت التي لم تستطع احتمال اسباب التفشف والامانة ) ؛ والأم « الرأفة » ( الآنسة دو لا ميلتيير التي قبلت في الستين من عمرها ، برغم النظام ، وكانت غنية جداً ؛ والأم « العناية الالهية » ( الآنسة دولودينيير ) ؛ والأم « مقدمة العذراء » ( الآنسة سيفويانزا ) التي كانت رئيسة في عام ١٨٤٧ ؛ واخيراً الأم سانت سيليني ( اخت المثال سيرانثي ) وقد اصببت بالجنون ؛ والام سانت شانثال ( الآنسة دو سوزون ) وقد اصببت بالجنون ايضاً .

وكان بين اكنوهم جمالاً ، ايضاً ، فتاة فاتنة في الثالثة والعشرين ، من جزيرة بوربون ، وكانت تتحدّر من سلالة الفارس روز . ولقد عرفها الناس في العالم الخارجي باسم الآنسة روز ، على حين دعت هي نفسها الأم « انتقال العذراء » .

وكانت الأم سانت ميشيل ، المكلفة بالانشاد والجوقة ، تفيد من

الطالبات ، بسرور ، في هذه المهام . كان من دأبها ان تأخذ سُلماً موسيقياً كاملاً منهن ، يعني سبع طالبات ، من سنّ العاشرة حتى السابعة عشرة ، متناسقات الاصوات والقامات ، وتدعوهم الى الانشاد واقتاتٍ ، ينظمن صفّ اتخذن مواقعهن فيه وفقاً للسنّ ، فهو يبدأ بالصغرى وينتهي بالكبرى . وكان ذلك يعرض على الانظار شيئاً اشبه بشبّابة من الفتيات الصغيرات ، ضرباً من مصفاةٍ حيّةٍ مصنوع من ملائكة .

وكانت الطالبات مُجَبِّناتٍ من بين الراهبات القامات بالأعمال البدوية ، بخاصة ، الاخت سانت اوفرازي ، والاخت سانت مارغريت ، والاخت سانت مارثا ، التي كانت مضطربة العقل ، والاخت سان مبشيل التي كان أنفها الطويل يُضحكهن .

وكان اولئك النسوة جميعاً لطيفاتٍ مع هؤلاء الفتيات جميعاً . كانت الراهبات قاسياتٍ على انفسهنّ لبس غير . فلم تكن النار تُضرمُ إلا في المدرسة الداخلية ؛ وكان الطعام المقدم في هذه المدرسة ، اذا ما قيس بطعام الدير ، شيئاً فافراً . والى هذا ، فقد كنّ ينعمن بألف ضربٍ من العناية . كل ما في الأمر أن الراهبة كانت اذا سرّت بها طفلة وألقت عليها النجعة ، اعتصمت بالصمت فلم تودّ على تحية الطالبة قط .

وأدت قاعدة الصمت هذه الى هذه النتيجة ، وهي ان الكلام انتزعَ ، في الدير كله ، من الكائنات الحية ومُنحَ للجهادات . ففي بعض الاحيان كان ناقوس الكنيسة هو الذي يتكلم ، وفي بعض الاحيان كان المتكلم هو جُلجل البستاني . وكان ثمة جرسٌ مرثانٌ جداً موضوعٌ الى جانب المرأة البوابة فهو يُسمع في ارجاء البيت كله . وكان هذا الجرس يُفصح بنبراته المتباينة ، التي كانت ضرباً من التلفراف المقتوي للصوت ، عن جميع أفعال الحياة المادية التي يتعبن القيام بها ، ويدعو الى غرفة الاستقبال ، عند الاقتضاء ، هذه او تلك من أهل الدير . فقد كان لكل شخص ولكل شيء دقته الخاصة . فدقة الرئيسة

واحد وواحد . ودقة نائبة الرئيسة واحد واثنان . وكانت ستة وخمسة  
 'تعلن بدء الدرس ، بحيث أن الطالبات كنّ لا يقطن لهن ذاهبات  
 الى الدرس ابدأ ، ولكن يقطن لهن ذاهبات الى ستة وخمسة . وكانت  
 اربعة واربعة هي دقة مدام دو جينليس الخاصة . وكانت تسع في  
 كثير من الاحيان . فتقول اللواتي لا يحببنّ القريب ابدأ . وهذا  
 هو الشيطان الرباعي . ، وكانت الدقات التسع عشرة تعلن حدثاً  
 خطيراً . إنه فتح باب الجزء المحرّم من الدير إلا على أهله - صفحة  
 حديدية مروّعة شائكة بالمزائج لا تدور على مفاصلها إلا امام رئيس  
 الاساقفة

فباستثنائه واستثناء البستاني ، كما قد ذكرنا ، لم يكن في ميسور  
 أيما رجل أن يدخل الى الدير . أما الطالبات فرأين رجلين آخرين :  
 اولهما المرشد ، الأب بانيس العجوز ، القبيح ، الذي كنّ يستعن بامتياز  
 النظر اليه أثناء الانشاد ، من خلال قضبان نافذة ما . والثاني معلم  
 الرسم ، ميسو آنسيو Anselme ، الذي تدعوه الرسالة التي اقتطفنا بضعة  
 أسطر منها ميسو آنسيو Ancios ، وتصفه بقولها إنه أحدب عجوز  
 راعب .

ونحن نرى أن جميع الرجال كانوا مختارين .  
 كذلك كان هذا الدير الغريب .

## ٨

### « بعد القلوب الحجارة » ❖

بعد أن رسمنا ملامح الدير الاخلاقية رسماً أولياً نرى ان من المفيد

• وقد ورد في الاصل ، باللاتينية هكذا : *Post Corda Lapides*

أن نقول بضع كلمات في هيئته المادية . ولقد كَوَّنَ الفارسي حتى الآن فكرةً ما عن ذلك .

كان دير « بيتي بيكبوس » سان انطون « يستغرق ، تقريباً ، كامل المربع المنحرف الكبير المشكّل من تقاطع شارع بولونسو ، وشارع « دروا مور » ، وشارع بيكبوس الصغير ، والزقاق المسدود المدعوّ في الحرائط القديمة شارع أوماربه . وكانت هذه الشوارع الأربعة تحيط بذلك المربع المنحرف مثل خندق من الخنادق . وكان الدير مؤلفاً من عدة أبنية وحديقة . وكانت البناية الرئيسية ، اذا ما اعتُبرتْ جملةً ، مجموعةً من المنشآت النغلة التي تبدّى ، إن نُظِرَ إليها نظرةً طائر ، أشبه شيء بمشقة مطروحة على الارض .

كانت ذراع المشقة الكبرى تمتدّ على طول شقة شارع « دروا مور » الواقعة ما بين شارع بيكبوس الصغير وشارع بولونسو . أما ذراعها الصغرى فكانت واجهةً عاليةً ، رماديةً ، قاسيةً ، مشبكةً تطلّ على شارع بيكبوس الصغير . وكان باب العربات ، رقم ٦٢ ، هو حدّها الاقصى . وحوالى منتصف هذه الواجهة كان الغبار والرماد قد بيّضا باباً عتيقاً منخفضاً مقنطراً نسجت العناكب خيوطها عليه ، ولم يكن ليفتح غير ساعة او ساعتين يوم الأحد وفي المناسبات النادرة حين يخرج من الدير جثمان راهبة . كان هو المدخل العمومي للكنيسة . وكان مرفق المشقة قاعةً مربعةً مُصْطَنَعٌ مكتباً ، وكانت الراهبات بسمينها « بيت المؤونة » . وفي الذراع الكبرى كانت قلاباً « الأسمات » و « الاخوات » والراهبات المستجدات . وفي الذراع الصغرى كانت المطابخ ، وقاعة الطعام ، مبطنّةٌ برواق الدير ، وكانت الكنيسة . وبين الباب رقم ٦٢ وزاوية زقاق أوماربه الموصد كانت المدرسة التي لم يكن في ميسور المرء ان يراها من الخارج . أما بقية المربع المنحرف فألفت الحديقة التي كانت أدنى من مستوى شارع بولونسو الى حدّ جعل

الجدران مرتفعة من الداخل أكثر من ارتفاعها من الخارج بكثير .  
وكان في وسط الحديقة ، المهدبة بعض الشيء ، وعند قمة رابية صغيرة ،  
شجرة شربين جميلة ، محددة الرأس مخروطية الشكل ، تنفصل عنها ،  
وكأنما تنفصل من نقطة الدائرة في 'توس' ، أربعة ممرات عريضة يتخللها  
ثمان ضيقة تمتد اثني اثنين بحيث كانت خريطة الممرات الهندسية  
خليقة بأن تشبه - لو كان السياج دائرياً - صليباً وضع على دولاب .  
وكانت الممرات ، المنبسطة كلها نحو جدران الحديقة غير المنتسقة ، ذات  
أطوال متباينة . وكانت تكتنفها شجيرات غنب الثعلب . وفي طرف  
الحديقة الاقصى امتد صف من شجرات الحور الضخام من خرائب الدير  
القديم القائمة عند زاوية شارع و دروا مور ، إلى نهاية الدير الصغير  
القائمة عند زاوية زقاق أوماربه . وأمام الدير الصغير كان ما يدعى  
الحديقة الصغيرة . أضيف الى هذا المجموع فناءً ، ومختلف ضروب الزوايا  
التي شكلتها عدة من الابنية المنفصلة ، وجدراناً كجدران السجون ،  
وصفاً طويلاً أسود من السطوح الممتدة في محاذاة الجانب الآخر من  
شارع بولونو والتي تشكل المنظر الوحيد والمكان المجاور الوحيد للذين  
'نظل' عليها المؤسسة ، وعندئذ نستطيع ان تكون فكرة كاملة عما كان  
عليه ، خمس واربعين سنة خلت ، دير بيكبوس الصغير الخاص بالراهبات  
البونارديات . لقد بُني هذا البيت المقدس على ارض ملعب للتنس حظي  
بشهرة واسعة ابتداءً من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر  
وكان يدعى و ملعب الشياطين الأحد عشر ألفاً .

والى هذا فقد كانت هذه الشوارع كلها من أقدم شوارع باريس .  
وهذا الاسمان ، و دروا مور ، و 'أوماربه' عتيقان جداً .  
والشوارعان اللذان يحملانها هما أشد عتقاً ايضاً . فقد كان زقاق أوماربه  
يدعى زقاق مونغو ؛ وكانت شارع و دروا مور ، يدعى شارع  
ال و إيفلانتييه ، لان الله فتح الازهار قبل ان يقطع الانسان

## قرن من الزمان في زي الراهبات

ما دمتنا نفصل القول في ما كان من قبل دير بيكبوس الصغير ، وما دمتنا قد جرونا على ان نفتح نافذة على هذا الملاذ المنعزل فأت الفاريه سوف يغفر لنا استطراد آخر غريباً عن موضوع هذا الكتاب ولكنه يميز ومفيد اذ يعلمنا أن لرواق الدير المسقوف نفسه شخصياته الغريبة الشاذة .

فقد كان في الدير الصغير راهبة في المئة من عمرها وفدت من دير فونتيغرو . والواقع انها كانت قبل الثورة من نساء المجتمع الرفيع . ولقد اكثرت من الكلام عن ميو ميرومسنيل ، وزير العدل في عهد الملك لويس السادس عشر ، وعن سيده ما ، تدعى الرئيسة دوبلا ، وكانت تعرفها معرفة جيدة . فقد كان مما يبهرها ويثير زهوها ان تسوق هذين الاسمين في كل مناسبة . وكانت تروي عجائب عن دير فونتيغرو ، وانه كان مثل مدينة من المدن ، وانه كان في داخله شوارع .

وكانت تتحدث بلهجة بيكاردييه أبهت الطالبات الداخليات . وكل عام ، كانت تجدد نذورها في أبة . وكان من دأبها ان تقول للكهنة عند حلقتها اليهين : « إن مونسينيور القديس فرانسوا أعطاه لمونسينيور القديس جوليان ، ومونسينيور القديس جوليان أعطاه لمونسينيور القديس

\* يحسن بالفارسي ان يسم ان كلمة إيفلانتيه Eglantier تعني النرجس ، وهو زهر ، وان كلمة « مور » Mur تعني الجدار ، وإنما تشاد الجدران من حجارة .

اوزيب ؛ ومونسينيور القديس اوزيب أعطاه لمونسينيور القديس بروكوب الخ . الخ ، وهكذا فاني اعطيك إياه ، يا أبت ! ، وعندئذ كانت الطالبات يضحكن ، لا في أردائهن كما يقولون ، ولكن في حُجُبِهِنَّ ، ضحكاتٍ صغيرة ساحرة مكبوححة كانت تحمل « الأمهات » على العبوس والتعطيب .

وذاث يوم كانت الراهبة المثوبة تروي بعض الحكايات . فقالت : إن الرهبان البرناوديين كانوا في أيام صباها لا يسمحون لفوسان الملك بأن يتقدموا عليهم في المجالس . كان قرن من الزمان يتكلم ، ولكنه كان القرن الثامن عشر . وتحدثت عن عادة الخور الاربع التي كانت شائعة في شامباتني وبرغوني قبل الثورة . فعين كانت شخصية كبيرة ، من مثل مارشال فرنسة ، او امير من الامراء ، او دوق من الدوقات ، او عضو في المجلس الاعلى ، يمر بمدينة من مدن بورغوني او شامباتني كانت هيئة المدينة تستقبله ، وتخطب بين يديه ، وتقدم اليه أربع كؤوس فضية صُبَّت فيها اربعة ضروب من الخمر . وكأف منقوشاً على الكأس الأولى : نحو الفود ؛ وعلى الثانية : نحو الاسد ؛ وعلى الثالثة : نحو الخروف ، وعلى الرابعة : نحو الخنزير ، وكانت هذه النقوش الاربعة تعبر عن درجات السُكَّر الاربعة المنحدرة : الاولى تلك التي تُنبج ، والثانية تلك التي تُهبج ، والثالثة تلك التي تُجبل ، والاخيرة تلك التي تجعل الشارب وحشياً .

وكان لهما في احدى الخزائن المقفلة شيء غريب كانت شديدة الهيام به . ولم يكن نظام دير فوتيفرو ليحظره . وكانت لا تروي هذا الشيء لاسرى ما . فقد كان من دأبها ان توصد الابواب على نفسها - وهو أمرٌ يُعجزه نظامها - وتختبئ كلما أرادت النظر إليه . حتى إذا سمعت وُفَع أقدام في الرواق أغلقت الخزانة أسرع ما تستطيع إغلقها بيديها الهرمتين . وما إن يتحدث إليها احد في ذلك حتى تعتم

بالصمت ، على الرغم من ولوعها بالكلام . وكان أكثر النسوة فضلاً  
ينقلبن خائبات أمام صحتها ، وأكثرهن إصراراً ينقلبن خائبات أمام غناها .  
وكان هذا ، أيضاً ، موضوع تعليق عند كل عاطلة عن العمل وكل من  
أصابها السأم في الدير . إذ ما الذي يمكن أن يكونه ذلك الشيء ،  
النفيس جداً ، السري جداً ، الذي كان كنز الراهبة المثوية هذه ؟ لا  
شك في أنه كتاب مقدس ما ، أو سبعة فريدة ، أو ذخيرة مثبتة .  
لقد تهنّ في مفازة من الأحداش والافتراضات . حتى إذا توفيت العجوز  
المسكينة هرعن إلى الخزانة بأسرع مما يقضي به العرف ، في ما يبدو ،  
وفتحنها . فوجدن موضوع فضولهن تحت نسج قطني ثلاثي مثل كأس  
مقدسة على شكل صحفة صغيرة . كانت ضعيفة من صجاف فينزا \*  
تمثل أحبة شرعن في الطيران وقد طاردهن غلمان صيادلة مسلحون  
بمخاقن ضخام . والمطاردة ملأى بالاياءات المضحكة والأوضاع المزلية .  
ولقد أنخن أحد الأحبة بالطعنات ، فهو يناضل ، وهو يجر جناحيه  
الصغيرين ، محاولاً أن يعاود الطيران ، ولكن الغلام الطافر مرحاً يطلق  
ضحكة شيطانية . المفزى : - الحب مهزوماً بالغص . وهذه الضحكة  
الفريبة جداً فوق ذلك ، والتي ربما كان لها شرف الإيحاء بفكرة ما إلى  
مولير ، كانت لا تزال موجودة في أيلول ، عام ١٨٩٥ . كانت معروضة  
للبيع في دكان من دكاكين السلع المستعملة في جادة بومارشيه .  
إن هذه العجوز الطيبة لم تكن ترغب في استقبال زائر يفد من العالم  
الخارجي لرؤيتها ، لأن غوفة الاستقبال - كما قالت - كانت مظلمة  
أكثر مما ينبغي .

---

\* مدينة إيطالية اشتهرت قديماً بصناعة الخزف .



## اصل « السجود السرمدى »

ومع ذلك فغرفة الاستقبال هذه التي تكاد أن تكون قَبْرية ، والتي حاولنا أن نعطي القارىء فكرة عنها ، مظهرٌ محليٌّ محضٌ لا نفع على مثله ، بالصراصة نفسها ، في الأديرة الأخرى . ففي دير شارع الـ « تامبل » ، على الحُصوص ، الذي كان ينتمي في الحق الى رهبانية أخرى ، استعِض عن المصارع السود بتائرٍ سمراء ، وكانت غرفة الاستقبال نفسها صالةً مبلطةً بالخشب ، محجوبةً نوافذُها بالشاش الموصلي الأبيض ، مزدانةً جدرانها بضروب من الصور ، ومنها رسم راهبةٍ بنيدكتيةٍ حسرت عن رأسها ، وباقات من الزهر ، بل ورأس رجل تركي أيضاً .

وإنما خضت في حديقة دير شارع الـ « تامبل » نفسها شجرة الكتناء الهندية تلك التي كانت تعدّ أكبر زميلاتها وأجملهن في فرنسا ، والتي اشتهرت عند شعب القرن الثامن عشر الطيب بأنها أمّ جميع شجرات الكتناء في المملكة .

وكما ذكرنا سابقاً ، كان يحتلّ دير الـ « تامبل » هذا راهباتُ السجود السرمدى البنيديكتيات ، وهن غير أولئك البنيديكتيات المنبثقات من « سيتو » . ورهبانية السجود السرمدى هذه ليست قديمة جداً ، فهي لا ترقى الى أكثر من مئتي عام . ففي سنة ١٦٤٩ دُنِس القربان المقدس مرتين متواليتين ، خلال بضعة أيام ، في اثنتين من كنائس باريس ، في كنيسة « سان سوليس » وكنيسة « سان جان آنغريف » - وهو خرق للقدسيات مروّع ونادرٌ أحدث هزة عنيفة في المدينة كلها . فأقام النائب لأسقفى رئيس دير « سان جيرمان دي بريه » مركباً دينياً مهيباً حشد

له كهانه جميعاً ، وقدس \* فيه سفير البابا . ولكن هذه الكفارة لم تكن كافية في نظر سيدتين نبيلتين هما مدام كورتين ، المركيزة دو بوك ، والكونتس دو شاتوفور . فهذا الانتهاك لحرمة « سر المذبح البالغ الجلال » رغم أنه عابر ، لم يبرح ذهني هاتين النسيتين القديستين ؛ ولقد بدا لهما أن لا سبيل الى أن يُكفّر عنه الا « بسجود سرمدي » في دير ما . فقدمتا كلتاهما ، الواحدة عام ١٦٥٢ ، والأخرى عام ١٦٥٣ ، هبات ضخمة الى الأم كاترين دو بار ، الملقبة بكاترين القربان المقدس ، وكانت راهبة بنيدكتية ، لكي تكتنأها من تأسيس دير تابع لرهبانية القديس بنوا ابتغاء تحقيق هذا الغرض التقوي . وانما منحت الأم كاترين دو بار الاجازة الأولى لانشاء هذه المؤسسة من لدن ميو دو ميتر رئيس دير « سان جيرمان » شرط « أن لا تُقبل فيها أي فتاة لا تحمل الى الدير دخلاً سنوياً قدره ثلاثمائة ليرة ، أي رأس مال مقداره ستة آلاف ليرة » . وبعد رئيس دير « سان جيرمان » ، أجاز الملك انشاء المؤسسة ببراءة خاصة . ثم ان مجلس المحاسبة والبرلمان أقرّا كلا من الاجازة الصادرة عن رئيس الدير والبراءة الملكية ، في عام ١٦٥٤ .

ذلك هو أصل الرهبانية البندكتية للسجود السرمدي للقربان المقدس ، في باريس ، وهذا هو تكريسها الشرعي . ولقد جدد البناء الذي احتله أول دير من أديرة هذه الرهبانية ، في شارع كاسيت ، بأموال مدام دو بوك ومدام دو شاتوفور .

وهذه الرهبانية ، كما نرى ، ينبغي أن لا يُخلط بينها وبين رهبانية البندكتيات الملقبات براهبات سيتو . لقد انبثقت من رئيس دير « سان جيرمان دو بويه » كما انبثقت « سيدات القلب المقدس » من الرئيس العام لليسوعيين ، و « راهبات المحبة » من الرئيس العام للتعاذاريين .

\* قدس الكاهن : أنام القديس .

وهي كذلك مختلفة كل الاختلاف عن راهبات دير « بيكوس الصغير » البرنارديات اللواتي استعرضنا حياتهن الداخلية من لحظة . ففي سنة ١٦٥٧ أجاز البابا الكسندر السابع لراهبات « بيكوس الصغير » البرنارديات - براءة خاصة - أن يارسن السجود المرمدي مثل راهبات القربان المقدس البينديكتيات . ولكن كلاً من الرهبانيتين ظلت ، مع ذلك ، محتفظة باستقلالها وشخصيتها .

## ١١

### نهاية « بيكوس الصغير »

منذ عودة أسرة بوربون الى العرش ، شرع دير « بيكوس الصغير » يذوي ويتلاشى . وكان ذلك جزءاً من موت الرهبانية العام ، تلك الرهبانية التي ولت بعد القرن الثامن عشر ، كما ولت جميع الرهبانيات الدينية . ان التأمل ، كالصلاة ، ضرورة من ضرورات الانسانية . ولكنه ، مثل أي شيء مسته الثورة ، سوف يتحول ويتغير ؛ وبدلاً من أن يكون معادياً للتقدم الاجتماعي سيصبح مؤاتياً له .

وأقفر دير « بيكوس الصغير » في مرة . وفي عام ١٨٤٠ كان الدير الصغير قد زال ، وكانت المدرسة الداخلية قد زالت أيضاً . لم يبق ثمة لا النسوة العجائز ، ولا الفتيات الصغيرات . كانت الأوليات قد قضينَ نحبن ، وكانت الأخريات قد مضينَ لسيهلن . \* *Volaverunt*

إن نظام « السجود المرمدي » قاس إلى درجة توقع الذعر في النفس . ويتقهقر النداء الرباني ، فلا تنضم إلى الرهبانية مجتندات جديدات . ففي سنة ١٨٤٥ كانت الرهبانية لا تزال قاذورة على ان تجمع من هنا

\* في اللاتينية : ومناها : لقد رجمن .

وهناك بعض الراهبات القائرات بالاعمال اليدوية ، ولكنها عجزت عن أن تفوز بأيّ من راهبات الأنشاد الجماعي . منذ اربعين عاماً كان عدد الراهبات مئة تقريباً ، ومنذ خمسة عشر عاماً لم يكن ثمة غير ثمان وعشرين . فكم يبلغ عددهن اليوم ؟ وفي عام ١٨٤٧ كانت رئيسة الدير شابة ، وهذا دليل على ان إمكانية الاختيار كانت محدودة . إنها كانت دون سنّ الاربعين . وكلما تناقص العدد ، تعاظم التعب . إن واجبات كلّ منهن تصبح اشدّ عسراً ؛ ومن ذلك الحين تقترب تحت ابصارهن ، تلك اللحظة التي لن يبقى فيها غير دزينة من الاكتاف الموجعة المتقوسّة للهوض بنظام القديس يدينا الثقل . إن العبء عنيد لا يعرف المرونة ، وإنه ليظلّ هو نفسه بالنسبة الى العدد القليل كما قد كان بالنسبة الى العدد الكثير . إنه يُبْهَظ ؛ إنه يسحق . وهكذا تَقْضِيْنَ نَحْبَهُنَّ . ومنذ أن كان مؤلف هذا الكتاب لا يزال يعيش في باريس ماتت اثنتان منهنّ ، احدهما كانت في الخامسة والعشرين والاخرى كانت في السادسة والعشرين . وهذه الاخيرة كان في ميورها أن تقول مع جوليا آليسيولا *Hic Jaco, vixi annos viginti et tres* وبسبب من هذا الانحطاط أقفل الدير عن تعليم البنات .

والحق انه لم يكن في ميورنا ان نجتاز هذا البيت المظلم المجهول ، فوق العاديّ ، من غير ان ندخل ونُدخل معنا اولئك الذين يرافقوننا والذين يصغون الينا ونحن نزوي - ولربما كان ذلك لفائدة بعضهم - قصة جان فالجان الكشيبة . لقد ألقينا نظرة على هذه الجماعة المفعمة بجلالها العتيقة التي تبدو اليوم بالغة الجِدَّة . إنها الحديقة المسوّرة . *Hortus conclusus* . ولقد تحدّثنا عن هذا الموطن الفريد في إسهاب مننقد ، ولكن في احترام ، بقدر ما يمكن التوفيق بين الاحترام والانتقاد على الاقل . إننا لا نفهم كل شيء ، ولكننا لا نُهِنُ شيئاً .

\* في اللاتينية ، ومعناها : هنا أقمت حيث عشت ثلاثاً وعشرين سنة .

فمن بعيدون عن تهلل جوزيف دو ميتر الذي يذهب الى حد تقديس الجلاّد بُعدنا عن سخرية فولتير الذي يذهب الى حد التهمك على تمثال المصلوب .

ولنقل ، بالمناسبة ، إن هذه مخالفة للمنطق يقع فيها فولتير . ذلك أن فولتير كان خليقاً به أن يدافع عن يسوع كما دافع عن كالا\* . وحتى عند أولئك الذين يُنكرون مرّ التجسّد اي شيء يمثله تمثال المصلوب ؟ إنه يمثل الحكيم مضرباً بدمائه .

إن الفكرة الدينية لتجناز ، في القرن التاسع عشر ، بأزمة . فنحن ننسى اشياء كثيرة بما تعلمناه ، وإنتا نحسن بذلك صنفاً شرط ان نتعلّم - ونحن ننسى امراً ما - شيئاً غيره . فليس من فراغ في القلب الانساني ! إن بعض الاشكال لتهدّم ، ومن الخير ان نُهدّم شرط ان يعقبا الانشاء .

وفي غضون ذلك فلندرس الاشياء التي زالت . إن من الضروري ان نفهمها ، ولو من أجل اجتنابها ليس غير . إن كل تزوير للماضي ينتحل اسماً ، وإن هذه المزورات مواءمة بأن تدعو نفسها المستقبل ، والحق ان ذلك الشبح - الذي هو الماضي - كثيراً ما يزور جواز سفره . فلنستعدّ للشرك . فلنأخذ حذرنا . ان للماضي وجهاً هو الحرافة ، وقناعاً هو الرياء . فلنشهّر الوجه ، ولنمزق القناع .

اما الأديرة فتجبهنا بمشكلة مركّبة : مشكلة حضارة ، وهذه تدينها ؛ ومشكلة حرية ، وهذه تحميها .

---

\* Jean Calas تاجر من تولوز اتهم خطأ بأنه قتل ابنه لكي يحول بينه وبين الارتداد عن البروتستانتية . وقد حكم علي البرلان قضي تحت دولاب التعذيب عام ١٧٦٢ . وقد اعبد اليه اعتباره سنة ١٧٦٥ بعد ان دافع فولتير عنه دفاعاً مثيراً .

## الكتاب السابع

# بَيْنَ هِلَالَيْنِ

١

### الدير بوصفه فكرة مجردة

هذا الكتاب مأساة بطلها الأول هو اللاتينية .  
أما بطلها الثاني فالإنسان .

واذ كان الأمر كذلك ، فقد تعين علينا ، حين وجدنا ديراً في طريقنا ، ان نلجّه . لماذا ؟ لأن الدير الذي عرفه الشرق كما عرفه الغرب ، وعرفته العصور القديمة كما عرفته العصور الحديثة ، وعرفته الوثنية كما عرفته البوذية ، وعرفه الاسلام كما عرفته النصرانية لا يعدو ان يكون جهازاً من الاجهزة البصرية التي يسلطها الانسان على

للانهاية .

وليس هذا هو الموطن المناسب لبسط بعض الآراء بطلاً مسهباً . ومع ذلك ، ففما تشبثت بتحفّظاتنا ، وبقصور التعبير عندنا ، بل وبسخطنا ايضاً تشبثاً قوياً ، يتعين علينا ان نقول إننا كلما وقعنا في الانسان ، على اللانهاية - سواء أحسن فهمها أم أسيء - استبدت بنا الاحترام على نحو لا إرادي . إن في الكنيس ، وفي المسجد ، وفي الهيكل الهندي أو الصيني ، وفي معبد الهنود الجر جانباً بغيضاً نغته ، وجانباً رقيقاً نعيم به . فباله موضوعاً يتفكّر فيه العقل ، وباله معدواً لا ينضب من مصادر التأمل ، انعكاسُ الله ذاك على الجداول الانساني !

## ٢

### الدير بوصفه واقعة تاريخية

من وجهة نظر التاريخ ، والعقل ، والحقيقة ، تقف الحياة الرهبانية موقف المتهم الذي دانت له المحكمة .

إن الاديرة ، حين تكثر في بلد من البلدان ، هي عُقَدُ تمرقل السير ، منشآتٌ معوقةٌ ، مراكز كسلٍ حيث ينبغي ان تقوم مراكز عمل . والمؤسسات الرهبانية تمثل بالنسبة الى المؤسسة الاجتماعية العظمى ما تمثله الطفيليات بالنسبة الى شجرة السندبان ، والتآليل بالنسبة الى الجسم البشري . ففي ازدهارها وسمها إفقار البلاد . واذا كان النظام الرهباني صالحاً في فجر الحضارة ، حين حارب الوحشية بالروحانية مخففاً من وطأتها ، فإنه مؤذٍ في الادوار التي تبلغ فيها الشعوب مبلغ الرجولة . والى هذا ، فعين يستوخي النظام الرهباني ويدخل في دور

التفسخ - وهو الدور الذي نراه فيه ، اليوم - يصبح مهلكاً للأسباب نفسها التي جعلته 'منجياً' في دور صفائه .

لقد كان للاعتراف في الأديار زمانه . فالصوامع برغم ما اسدته من فائدة في المرحلة الاولى من الحضارة الحديثة ، قد عاقت نمو هذه الحضارة ، وأضرّت بتطورها . والأديرة ، بوصفها مؤسسة ، وبوصفها طريقة من طرائق تنقيف البشر ، كانت صالحة في القرن العاشر ، وموضع خلاف في القرن الخامس عشر ، وإنما لبغيضة في القرن التاسع عشر . والحق ان 'جذام الحياة الرهبانية كاد يتأكّل حتى الهيكل العظمي' امتين عظيمتين ، الامة الايطالية والامة الاسبانية ، وكانت احدهما نور اوروبة والاخرى مجدها طوال قرون من الزمان . واذا كانت هائلت الامتان الماجدتان قد اتخذتا سبيلهما ، في عصرنا هذا ، الى الشفاء فالفضل في ذلك راجع الى علم حفظ الصحة \* السليم الحازم الذي وضعت قواعده عام ١٧٨٩ .

والدير - دير النساء العتيق ، بخاصة - كما كان يبدو حتى على عتبة هذا القرن ، في ايطالية ، والنمسا ، واسبانية ، ليس غير تخشّر من أشدّ تخشّرات القرون الوسطى عبوساً وإظلاماً . إنه في تلك البلدان نقطة التقاطع لضروب من المخاوف والاهوال . والدير الكاثوليكي ، على الحصر ، مليء بأشعة الموت السوداء .

ولكن الدير الأسباني أشدّ مائتة من سائر الأديار كلها . هناك ترتفع في الظلمة - تحت عقود ملأى بالضباب ، تحت قباب لا تكاد تبدو بسبب من العتمة - مذابح ضخمة مثل برج بابل ، سامقة كالكاندرانيات . هناك تتدلى من السلاسل في غمرة الظلام غنايل المعصوب ضخمة بيضاء . هناك تستلقي ، عارية على خشب الأبنوس ، غنايل المسيح عاجية هائلة ، دامية لا غضبة بالدم فحسب ، فظيعة بديعة ،

---

\* يقصد الثورة الفرنسية .



تمّ مرافقتها عن عظامها ، وتمّ عظام ركبها عن أغشيتها ، وتمّ جراحها عن لحمها ، وقد توجت بأسواك من فضة ، ونسرت بمسامير من ذهب ، وبدت على جباهها قطرات دم من باقوت أحمر ، وترقرقت في أعينها دموع من ألماس . إن اليواقيت وقطع الألماس لتبدو مبلّلة ، ولأنها لتجري الدموع ، هناك في الاجزاء الدنيا ووسط العتمة ، من مآقي مخلوقات محجّبات أخذت خواصرها ومزّقت بالانسجة الصوفية الفليضة ، وبالسباط ذوات الرؤوس الحديدية ، وسُحقت أنساؤها بمُحْصِر صغيرة مصنوعة من غصون الصفصاف ، وجُلّفت ركبها بالصلاة الموصولة . نسوة يحسبن أنفسهن زوجاتٍ . أشباح تنخيل أنها في عداد الطبقة العليا من الملائكة . أتفكر هاته النسوة ؟ لا . ألهنّ إرادة ؟ لا . هل يعشن ؟ لا . هل يعشن ؟ لا . لقد تحوّلت أعصابهنّ الى عظام ، ولقد تحوّلت عظامهن الى حجارة . إن حجابهن هو الليل منسوجاً . وإن كفّهن ، تحت ذلك الحجاب ، يشبه شيئاً لا سبيل الى وصفه : تنفّس الليل الفاجع ذاته . إن رئيسة الدير ، وهي هامة\* من الهامات ، تظهرهن وتروّعن . إن النقاء هناك ، مقطّبة كالحجّ الوجه . تلك هي أديرة أسبانية القديمة - مغاور للعبادة الرهيبة ، أبحار عذارى ، مواطن وحشية ضاربة .

كانت اسبانية الكاثوليكية رومانية أكثر من رومة نفسها . وكانت الدير الاسباني هو نموذج الدير الكاثوليكي . هناك ، كان الهواء عابقاً بروائح الشرق . وكان رئيس الاساقفة - د كبلر آغا ، \*\* السماء - يوصد بالحديد سراي الارواح هذه التي نذرت نفسها لله ، ويتجنس

\* الهامة روح الميت او القتل . وكان الرومان يعتقدون ان ارواح المجرمين واضرارهم تطوف تائهة في الارض لكي تروّع الأحياء . اما العرب فكانت تزعم ان روح القتل الذي لم يدرك بثأره تصبح هامة تتزوّد عند قبره بقول اسقولي اسقولي ، فاذا ادرك بثأره طارت .

\*\* تعبير تركي كان يطلق في عهد السليمان على رئيس الحصان السود .

عليها . كانت الراهبة هي محظية السلطان ، وكان الكاهن هو الحصى . كانت النسوة المولعات بالعبادة هنّ النسوة المختارات ، في أحلامهنّ ، وكنّ مُدَلِّهَاتِ المسيح . ففي الليل ، كان الفتى الجليل العماري ينزل عن الصليب ، ويصبح طرب القلبيّة المفرط . إن اسواراً عالية لتذود شواغل الحياة الواقعية جميعها عن « السلطنة » الصوفية التي تنظر الى « المصلوب » نظرتها الى « السلطان » . ذلك بأن نظرة واحدة الى الخارج تُعتبر خيانة من الحياة . لقد حل سجن الدير \* الأرضي محل الكيس الجلدي . فما كانوا يقذفون به ، في الشرق ، الى البحر ، كانوا يقذفون به ، في الغرب ، الى الأرض . ففي كلتا الناحيتين كانت بعض النساء يَلْتَمِصْنَ توجعاً : اللجة لهؤلاء ، والحفرة لأولئك . هنا المُتَعَرِّقات ، وهناك الموءودات . توازي مخيف !

وفي أيامنا هذه ، أمسى من دأب أنصار الماضي ، وقد عجّزوا عن انكار هذه الأشياء ، أن يتسموا لها . لقد صار زياً عندم ، وهي طريقة ملائمة وغريبة ، أن يكتبوا موحيات التاريخ ، وأن يدحضوا تعليقات الفلاسفة ، وأن يحذفوا جميع الحقائق البغيضة ، وجميع المسائل المظلمة . « موضوعات للهجاء » ، كذلك يقول البارعون . فيردد الحمقى : « الهجاء » . فجان جاك \* هجّاه ، وديدرو هجّاه ، وفولتير في دفاعه عن « كالا » ، و « لابار » \*\*\* ، و « سيرفين » \*\*\*\* هجّاه . ولست

---

\* في الأصل in pace وهو الاسم الذي يطلق على سجن الدير والغائم تحت الأرض حيث كانت تقبس الآلات حتى الموت . والتعبير لاتيني معناه « في سلام » .  
 \*\* بلصّد جان جاك روسو .

\*\*\* La Barre نيبيل فرنسي ( ١٧٤٧ - ١٧٦٦ ) اتهم بتشويه تمثال من قبايل الشعوب لصدر عليه الحكم بالموت ، فنُصِّل رأسه عن جسده ، ثم أُحرق رغم عدم شوعية الحاكم واستنكار الرأي العام . وقد دافع عنه فولتير وحاول أن يبيد اليه اعتباره ، بعد الموت ، ولكن عبثاً . ثم إن « المؤتمر الوطني » أعاد اليه هذا الاعتبار ( في ٢٥ برومير ، السنة الثامنة للجمهورية ) .

\*\*\*\* Sirven رجل بروتستانتي ( ١٧٠٦ - ١٧٦٤ ) حكم عليه برلمان تولوز بالموت بتهمة قتل ابنته لكي يحول بينها وبين اعتناق الكاثوليكية . ولكن دعاء مولير أدى الى إعادة اعتباره بعد خمس سنوات من إعدامه .

أدري من الذي اكتشف أخيراً أن ناسيت \* كان هجاء ، وأن نيرون كان ضحية ، وأن علينا من غير شك أن نشقق \* على هولوفيرن \*\* المسكين ذاك .

بيد أن الحقائق عنيدة ، وليس من اليسير التغلب عليها . فقد رأى مؤلف هذا الكتاب ، بعينه الانتين ، على نحو عشرين ميلاً من بروكسل ، غودجاً من القرون الوسطى ، هو في تناول كل انسان ، في دير فيلار - كوى السجون المظلمة المؤبدة في وسط المرج الذي كان في يوم من الأيام فيناء الدير ؛ كما رأى على ضفاف الد \* ديل ، أربعة محابس حجرية مظلمة ضيقة نصفها تحت الأرض ونصفها تحت الماء . تلك كانت سجوناً ديرية \*\*\* in-pace وفي كل من هذه المحابس بقية من باب حديدي ، ومرحاض ، ونافذة مقضبة بالحديد ، هي من الخارج على ارتفاع قدمين عن سطح النهر ومن الداخل على ارتفاع ستة أقدام عن سطح الأرض . ان أربعة أقدام من مياه النهر لتجري في محاذاة صفحة الجدار الخارجية . فالتربة المجاورة تظل مبللة أبداً . وهذه التربة المبللة هي القراش الوحيد الذي تملكه تزيعة ذلك السجن الديري . وفي أحد تلك المحابس لا يزال جزء من 'غل' حديدي ممتراً على الجدار . وفي محبس آخر كان في ميسور المرء أن يرى شبه صندوق مربع مصنوع من أربع صفائح من صوان هي أقصر من أن يستلقي فيها كائن بشري ، وأشد انخفاضاً من أن يقف فيها مستقيماً القائمة . هناك في داخل هذا الصندوق كانت توضع مخلوقة بشرية مثلنا ، ثم يوضع فوق رأسها غطاء من حجر . إنه هناك . إن في استطاعتك أن تراه . إن في استطاعتك

---

\* المؤرخ اللاتيني الشهير . وقد سبق التبريف به في الاجزاء الماضية .  
\*\* احد قواد ليوخنر ، وقد قتله « يهوديت » بأن دخلت الى خبائه وذبحته وهو قائم منقذة بذلك شبيها اليهودي .  
\*\*\* راجع الهامش الاول على الصفحة السابقة .

أن نلسه . هذه السجون الدورية ، هذه المحابس المظلمة ، هذه الرزات الحديدية ، هذه الأغلال التي تطوق الاعناق ، هذه الكوى العالية ، القائمة على مستوى مجرى النهر ، هذا الصندوق الحجري المعلق مثل القبر بغطاء صواني ، مع هذا الفارق وهو انّ الميت هنا كان كائناً حياً ، هذه التربة التي هي وحل ، هذا المرحاض ، هذه الجدران التي ترشح ... أوه ، بالها من ألسنة هجامة !

### ٣

## بأي شرط نستطيع ان نحترم الماضي

إن الحياة الرهبانية ، كما قد كانت في اسبانية ، وكما تبدو في التبت هي ، بالنسبة الى الحضارة ، ضربٌ من داء اللّ . انها توقف الحياة ، على الفور . إنها بكلمة واحدة ، تُخلي الديار من سكانها . والتوهم خصاص . وفي اوروبا كان التوهم آفة . أضف إلى هذا ، العنف الذي يُخَضِّع له الضمير في كثير من الاحيان ، والدعوات الاجبارية الى الحياة الرهبانية ، والنظام الاقطاعي المنكمي على الدبر ، وحق البكورية \* الذي يُفرغ في حياة التوهم فائض الامورة ، والفظائع الوحشية التي وصفناها اللحظة ، وسجون الاديرة ، والافواه الموصدة ، والأدمغة المسوّرة ، وكثيراً من المواهب الثمينة الملقاة في محابس النذور الرمادية ، وارتداء الثوب الرهباني للمرة الاولى ، ودفن النفوس وهي حية . أضف ضروب التعذيب الفردي هذه الى الحراب

\* اي حق الولد البكر في امتلاك جميع الميراث دون سائر اخوته .

الذي يصيب الحياة القومية ، وعندئذ تجد نفسك - كائناً من كنت - ترتعد لمشهد ثوب الراهب وحجاب الراهبة ، هذين الكفتين من أكفان الابتداء الانساني .

ومع ذلك ، ففي بعض النقاط وفي بعض المواطن ، على الرغم من الفلسفة ، وعلى الرغم من التقدم ، تستمر الروح الرهبانية في وضَعِ القرن التاسع عشر ؛ وإن انبعاثاً زهدياً غريباً ليُدْهش العالم المتمدت في هذه اللحظة . واصل ان اصرار المؤسسات الهرمة على البقاء الى الابد أشبه شيء . بعناد العطر الزنغ الذي يتشبث بشعرِكَ ، ودعوى السمكة الفاسدة التي 'نصرت' على ان تؤكل ، ولجاجة ثوب الطفل الذي يريد أن يكسو الرجل ، وحنان الجثث التي تعود لتعاني الأحياء !

إن الثوب ليهتف : « يا لكم من تآكرون للجميل ! لقد صُننكم في عهد ضعفكم فلماذا تتخلون عني الآن ؟ »

وإن السمكة لتقول : « لقد كنتُ ذات يوم في أحماق البحر ! »

وإن العطر ليصح : « لقد كنتُ وردةً من قبل ! »

وإن الجثة لتنتم : « لقد أحييتك ! »

وإن الدير ليقول : « لقد مدتكَ ! »

وليس لهذا كله غير جواب واحد : « في الماضي . »

فلأن نحلم بتخليد الاشياء الميتة وحكم الجنس البشري بالتعويض ، وأن نرجع العقائد المتهترة ، ونذهب صناديق ذخائر القديسين من جديد ، ونخصص اروقة الاديرة ثانية ، ونبارك صناديق بقايا اجساد القديسين ككرة اخرى ، ونجدد الحرافات ، ونعيد تغذية التعصب ، ونضع مقابض جديدة لمناضخ الماء المقدس والسيوف ، وننشيء الحياة الرهبانية والروح العسكرية من جديد ، ونؤمن بمخلص المجتمع البشري من طريق مضاعفة الطفيليات ، ونفرض الماضي على الحاضر - كل اولئك يبدو شيئاً غريباً . ومع ذلك فهناك أنصار لهذه النظريات . ولهؤلاء النظريين ،

وم رجال فكر في النواحي الاخرى ، طريقة بسيطة جداً : انهم  
يخلعون على الماضي طلاءً يدعونه النظام الاجتماعي ، والحق الاتسي ،  
والاخلاق ، والامرة ، واحترام الاسلاف ، والسلطة العريقة في القدم ،  
والثقائيد المقدسة ، والشرعية ، والدين . وهم ينطلقون هاتفين :  
« انتبهوا ! خذوا هذا ، ايها الناس الطيبون ! » وهذا الضرب من  
من المنطق كان مألوفاً عند القدماء . لقد مارسه عرفاؤهم . كانوا  
يفركون عجلة سوداء بالطباشير ، وبصيحون : « إنها بيضاء ! »

*Bos cretatus*

أما نحن فنوزع احترامنا هنا وهناك ، ولا نتعرض للماضي على  
الاطلاق شرط ان يُقر بأنه ميت . أما اذا أصر على الزعم بأنه حيّ  
فهندئذ نجاهه ونحاول ان نصرعه .

إن الحرافات ، والتطرف في التقوى ، والمرءاة في الدين ، والآراء  
المقبولة من غير تحقيق أشبه بأطياف الموتى . ومع ذلك فهي تثبت  
بالحياة . إن لها في كيائها الحيالي أسناناً وأظافر ، ويتعين علينا أن  
نشبك معها في القتال ، جسداً لجسد ، ونشن عليها الحرب ، وان  
نفعل ذلك من غير مهادة ؛ لأنه قد كُتب على الانسانية أن تصارع  
الأطياف صراعاً مرمردياً . وليس يسيراً على المرء أن يمسك بخناق  
الظل ، ويطرحه أرضاً .

إن ديراً في فرنسا ، في وَصَح القرن التاسع عشر ، هو مجمع من  
البُوم يواجه النهار . والدير ، متلبساً بجرم التشفّ المشهود ، وسط  
مدينة عام ١٧٨٩ وعام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٨ - رومة تتفتح أكمامها في  
باريس - لا يعدو ان يكون خطأ في تاريخ الحوادث *anachronisme* . وفي  
الايام العادية ، ليس على من يريد أن يزيل خطأ من أخطاء التأريخ ويمحو  
الا ان يحمله على تهجتي السنة المدونة على صفحته . ولكننا لسنا في  
ايام عادية على الاطلاق .

فلنقاتل .

فلنقاتل ، ولكن' فلنستيز . فشيبة الحقيقة أنها لا تعرف الافراط ابدأ . وما حاجتها الى الفلوس ؟ ان ثمة اشياء يجب ان 'تهدم' ، واشياء ينبغي أن يُسلط عليها النور وتدرس ليس غير . أيّ قوة هائلة ينطوي عليها النص الملائف الجدّي ! فلنجتنب ان نحمل النار حيث يكفي النور وحده .

واذن ، فما دمنّا في القرن التاسع عشر فنحن نقاوم الاعتكاف في الأديرة ، بوجه عام ، وعند كل أمة من الامم ، سواء في آسية او في اوروبة ، في الهند او في تركية . إن من يقول د الدير ، فكأنه قال د المستنقع . إن قابليتها للتعفن واضحة ؛ إن ركودها وبيل ؛ إن تخمرها يصيب الشعوب بالحُمى وينتهي بها الى المزال ؛ إن مضاعفتها خليفة بأن تصبح ضربة من ضربات المصريين . وليس في استطاعتنا ان نفكر ، من غير ان نرتعد ، بتلك الديار التي يتكاثر فيها د الفقراء ، *fakirs* والكهان البوذيين ، والنساك ، والرهبان اليونانيون ، والمرابطون ، والكهنة البوذيون السياميون ، والدرابيش تكاثراً مريعاً كمثل تكاثر الحشرات والموام .

حتى اذا قلنا هذا ، بقيت أمامنا المسألة الدينية . وهذه المسألة بعض الجوانب الخفية التي تكاد تكون رابعة ، فليُسمح لنا بأن نواجهها على نحو مباشر .

## ٤

### الدير من وجهة النظر المبدئية

يجمع الناس ويحيون حياة مشتركة . بأي حق ؟ بحق المشاركة .

انهم يوصدون الأبواب من دونهم . بأي حق ؟ بحق كل امرئ . في أن يفتح بابه أو يغلقة .

انهم لا يخرجون من محبسهم . بأي حق ؟ بحق الذهاب والمجيء . الذي ينطوي على حق المرء في البقاء في بيته .

وهناك ، في بيوتهم هذه ، ما الذي يفعلونه ؟

انهم يتحدثون في صوت خفيض ؛ انهم يسمرون أعينهم على الارض ؛ انهم يتخلون عن العالم ، عن المدن ، عن الملاذ الحسية ، عن المباح ، عن الاباطيل ، عن الحيلة ، عن المصلحة الذاتية . انهم يرتدون ألبسة من نسيج صوفي غليظ أو من نسيج قطني خشن . وليس يملك أي منهم متاعاً منها يكن . فمن كان منهم غنياً يسي لحظة دخوله الى الديرفقير . إنه يحب الجميع ما كان يملكه . ومن كان منهم نبيلًا أو شريفًا أو سيداً اقطاعياً ، كما يدعونه ، لا يلبث أن يتساوى مع من كان فلاحاً . إن القليلة هي هي بالنسبة اليهم جميعاً . انهم كلهم يقصون شعرهم على النمط الاكثريكي نفسه ، ويرتدون الثوب الاكثريكي نفسه ، ويأكلون لحبز الاسود نفسه ، ويفترشون الحشيشة نفسها ، ويدفنون في التربة نفسها . ان المسح نفسه لعل كل ظهر ، وان الحبل نفسه ليطوق كل خصر . فاذا كان النظام يقضي بأن يسير جميع الرهبان حفاة ، ساروا كلهم حفاة . وقد يكون بينهم أمير ؛ ولكن هذا الامير ظل مثلهم جميعاً . لم يعد ثمة القاب . وحتى أسماء الامر نفسها قد زالت . فهم لا يحملون غير الاسماء الصغيرة . انهم جميعاً يزحون تحت مساواة اسمائهم بالمعمودية . لقد أذابوا أسرة الجسد ، وأقاموا في مجتمعهم أسرة الروح . فليس لهم بعد أقرباء غير الجنس البشري كله . انهم يغيثون الفقراء ، ويضعون بالارض . وانهم يختارون اولئك الذين يتبعن عليهم أن يطيعوهم . وبناهي بعضهم بعضاً بقولهم : « أيها الاخ . »

وتعترضني قائلاً : « ولكن هذا هو الدين المثالي ! »



حسي أنه دير ممكن الوجود حتى آخذه بعين الاعتبار .  
ومن هنا جاز لي أن أتحدث عن أحد الأديار في الكتاب السابق ،  
باحترام . انني اذا تركت القرون الوسطى جانباً ، وتركنت آسية جانباً ،  
واعتبرت الامر من وجهة النظر الفلسفية الخالصة ، وراء ضرورات الجدل  
المقاتل ، وشرط أن تكون الأديار ارادية مئة بالمئة فلا تضم جدرانها  
غير نساك راغبين في هذا الضرب من الحياة ، فعندئذ لا أستطيع الا  
أن أنظر الى الجماعة الرهبانية في شيء من الاهتمام الجدي ، وفي بعض  
الاحيان بشيء من الاهتمام الناضج بالاحترام . فحيث توجد الجماعة  
الرهبانية فتمتة نظام حكم شعبي . وحيث يقوم نظام الحكم الشعبي فتمتة  
عدالة . ان الدير هو ثمرة هذه الصيغة : « المساواة ، الاخاء » . أوه ، ما  
أعظم الحرية ! وباله من نجل مجيد ! ان الحرية كافية لتحويل الدير  
الى جمهورية ! .

فلنتابع .

هؤلاء الرجال والنسوة الذين يعيشون ضمن هذه الجدران الأربعة  
ويرتدون الملابس الصوفية الحشنة السراء إنما ينعمون بالمساواة وينادي  
بعضهم بعضاً « ايها الاخ » ، « وأيتها الاخت » . هذا حسن . ولكن ،  
هل يعملون شيئاً آخر ؟

نعم .

ماذا ؟

إنهم يمدقون في الظلمة ؛ إنهم يركعون ؛ إنهم يضطون يداً الى يد .  
ما معنى ذلك ؟

## الصلاة

إنهم يصلّون .

لمن ؟

له .

الصلاة لله . أي شيء تعنيه هذه الكلمة ؟

أوجد لانهاية خارج ذواتنا ؟ وهل هذه اللانهاية مفردة ، فطرية ، سرمدية - وهي ذات ماهية بالضرورة ، لانها لانهاية ، ولأنه اذا كانت المادة تعوزها فعندئذ تكون محدودة ، وهي عاقلة بالضرورة ، لانها لانهاية ، ولأنه اذا اعوزها العقل فعندئذ تكون قاصرة ؟ هل نوظف هذه اللانهاية في نفوسنا فكرة الجوهر ، في حين أننا عاجزون عن ان ننسب الى انفسنا شيئاً غير فكرة الوجود ؟ وبكلمة اخرى ، أليست هي المطلق الذي لا نعدو نحن أن نكون منه بمثابة النسبي ؟

وفيا تقوم لانهاية خارج ذواتنا ، أليس ثمة من لانهاية في ذات نفوسنا ؟ وهاتان اللانهايتان ( ايّ مثنى راعب ا ) ألا تستقرّ احدهما فوق الاخرى ؟ ألا تقع اللانهاية الثانية تحت اللانهاية الاولى ، اذا جاز التعبير ؟ البست مرآة الاولى وانعكاسها ، وصداها : لجثة مشتركة المركز مع لجثة اخرى ؟ وهذه اللانهاية الثانية ، أهي عاقلة أيضاً ؟ أهي تفكر ! أهي تحبّ ؟ أها ارادة ؟ واذا كانت اللانهايتان عاقلتين فأن لكل منهما مبدأ 'مبدأ' ، وإن ثمة د أنا ، في اللانهاية العليا ، و د أنا ، في اللانهاية السفلى . ان ال د أنا ، السفلى هي النفس ، وان ال د أنا ، العليا هي الله .

وإقامتنا الاحتكاك ، من طريق التفكير ، بين اللانهاية السفلى

واللأنهاية العليا هي ما يدعى « الصلاة » .  
 ينبغي ان لا نطرح شيئاً من العقل الانساني . فالكبت شر . يجب  
 ان نُصلح ونحوّل . ان بعض مملكات الانسان موجهة نحو المجهول :  
 التفكير ، التأمل ، الصلاة . والمجهول اوقيانوس . ما الضير ؟ إنه  
 لبرة المجهول المغناطيسية . التفكير ، التأمل ، الصلاة - تلك هي اشارات  
 الأبرة الحفية الكبرى . فلنحترمها . الى اين توجه إشعاعات النفس المهيبة  
 هذه ؟ نحو الظلمة ؟ يعني نحو النور .  
 إن عظمة الديمقراطية تمثل في أنها لا تتكرر شيئاً انسانياً ولا  
 تتبرأ من شيء انساني . فعلى مقربة من حقوق الانسان ، او الى جانبها  
 على الاقل ، تقوم حقوق الروح .  
 أن نسحق ضروب التعصب وأن نجد اللانهاية - ذلك هو القانون .  
 حذار ان تقصّر أنفسنا على السجود تحت شجرة الخليفة ، وتأمل  
 أغصانها المألئ بالانجوم . إن علينا واجباً : أن نتقف النفس البشرية ، ان  
 ننصر الغز على العبيية ، أن نهم بما لا يُدرك وننبذ ما لا يتفق  
 مع العقل ، أن لا نسلّم بشيء لا تعليل له إلا ضمن دائرة الضرورة ،  
 ان نطهر الايمان ، ان نحو الحرافة عن وجه الدين ، وأن نزيل  
 الديدان عن جسم الرب !

## ٦

### خيرية الصلاة المطلقة

أما طرائق الصلاة فكلها صالحة ، شرط ان تكون مخلصة . اقلب  
 كتابك ظهراً لبطن وكن في اللانهاية .  
 نحن نعلم ان ثمة فلسفة تتكرر اللانهاية . ولكن ثمة ايضاً فلسفة

اخرى مصنفةً مَرَضِيّاً ، تُنكر وجود الشمس . هذه الفلسفة تدعى  
العمى .

ولأن نجعل من حاسة لا نملكها مصدراً للحقيقة غرباً من الجسارة  
الرائعة ينكشف عنه الرجل المكفوف .

والغريب في الامر هو الموقف المترفع ، الراشح بالشفقة ، الشاعر  
بالامتياز ، الذي تفقه هذه الفلسفة - التي تتلصص طريقها فلماً - من الفلسفة  
التي ترى الله . انها تحمل المرء على ان يفكر بمخلدٍ يصيح : و كم  
يشيرون شفقتي بمجدشهم عن الشمس !

نحن نعرف ان ثمة ملحدين مشاهير واقوياء . ولكن هؤلاء الرجال  
لبسوا في الواقع ، وقد أعيدوا الى الحقيقة بقوةهم نفسها ، واثقين كل  
الثقة من انهم ملحدون . ان المسألة ، في ما يتصل بهم ، لا تعدو  
ان تكون مسألة حدٍّ او تعزيف . وعلى اية حال ، فاذا كانوا لا  
يؤمنون بالله فانهم - لكونهم عقولاً ضخمة - ينهضون دليلاً على  
وجود الله .

انا نحيي ، فيهم ، الفلاسفة ، فيا نحن نخاصم فلسفتهم في غير ما  
هوادة .

فلنتابع .

وشيء آخر رائع ، هو سهولة تسوية كل شيء - وفقاً لارتياح المرء -  
من طريق الكلمات . والواقع ان مدرسة ميتافيزيكية شمالية 'مشرية'  
بعض الشيء بالضباب ، تخيلت انها احدثت ثورة في الادراك البشري  
عندما استعاضت عن كلمة 'قوة' بكلمة 'ارادة' .

ان قولك 'النبات يريد' بدلاً من 'النبات ينمو' خلق به أن  
يكون خصباً بالمعنى اذا اخفت : 'الكون يريد' . لماذا ؟ لأن  
هذا سوف ينبثق منه : النبات يريد ، اذن فأن له 'أنا' ؛ الكون  
يريد ، اذن فأن له 'الها' .

أما نحن ، الذين لا نرفض على نفي هذه المدرسة ، شيئاً ابتداءً *a priori* ، فإن التسليم بأن للنسب ارادة ، وهو ما تؤمن به هذه المدرسة ، يبدو أفسر من التسليم بأن للكون ارادة ، وهو ما يجعده هذه المدرسة .

ان انكار ارادة اللانهاية ، يعني انه ، لا يمكن ان يتم الا بشرط انكار اللانهاية نفسها . لقد اقننا البرهان على ذلك . وانكار اللانهاية يقود الى العدمية . ان كل شيء يصبح « مفهوماً من مفاهيم العقل » .

ومع العدمية يتعذر النقاش . لأن العدمي المنطقي يشك في ان 'محاوره موجود ، وليس واثقاً كل الثقة من أنه هو نفسه موجود . ومن وجهة نظره ، من الجائز ان لا يكون هو نفسه ، في نظر نفسه ، غير « مفهوم من مفاهيم عقله » .

بيد انه لا يدرك البتة أنه يعرف جملةً بكل ما انكره بمجرد تلفظه بهذه الكلمة : العقل .  
والخلاصة ، فإنه ما من سبيل تظل مفتوحة للعقل حين يأخذ المرء بفلسفة تجعل كل شيء ينتهي الى نتيجة واحدة ، هي مقطع « لا » المفرد .

وليس لـ « لا » غير جواب واحد هو : « نعم » .  
ليس للعدمية مدى .

وليس ثمة عدم . فالصفر لا وجود له . وكل شيء هو شيء . لا شيء هو لا شيء .

والانسان يحيا بالاثبات اكثر مما يحيا بالجيز .  
بيد أن النظر ولفت النظر لا يكفيان . فالفلسفة يجب ان تكون طاقة . يجب أن يكون جهدها وغايتها السمو بالجنس البشري . ينبغي

ان يدخل سقراط في آدم وينتهي ماركوس اوريليوس \* . وبكلية اخرى ، أن يُطلع من إنسان المتعة إنسان الحكمة ، وأن يحول جنة هذين الى كلية . إن العلم ينبغي ان يكون ودياً . المتعة ! يا لها من غاية بائسة ، ويا لها من مطبخ مهزول ! ان البهيمة تنعم بالمتعة . التفكير ، ذلك هو انتصار النفس الحقيقي . فتقديم التفكير الى ظمأ الناس ، وإعطاء الجميع فكرة الله بوصفها إكسيرا ، والمواخاة عندهم ما بين الضمير والعلم ، وجعلهم أناساً مستقيمين بهذا الجمع العجيب - تلك هي مهمة الفلسفة الحقيقية . ان الاخلاق هي الحقيقة متفتحة الأكام . وان التأمل يقود الى العمل . والمطلق ينبغي ان يكون عملياً . والمثل الأعلى ينبغي ان يُجعل هواه وطعاماً وشراباً للعقل الانساني . والمثل الاعلى له وحده الحق في ان يقول : تناولوا ، هذا هو لحي ، وهذا هو دمي . والحكمة تناول مقدس . وانما على هذا الشرط تكف عن ان تكون حياً عقياً للعلم لكي تصبح الوسيطة الوحيدة والعليا لجمع شمل الانسانية ؛ لقد ارتقت من مستوى الفلسفة الى مستوى الدين . والفلسفة ينبغي ان لا تكون مجرد برج مراقبة ، منشأ على الالغاز ، ابتغاء التحديق اليها منه ، في دعة ، من غير ما نتيجة سوى ارواء الفضول .

أما نحن فنرجيه بسط افكارنا الى مناسبة اخرى مكتفين بالقول اننا لا نفهم ، لا الانسان كنقطة ابتداء ، ولا التقدم بوصفه هدفاً ، من غير هاتين القوتين اللتين هما المحركان الأعظمان : الايمان والحب . التقدم هو الهدف ، والمثل الاعلى هو الصورة الأصلية . وما المثل الأعلى ؟ انه الله .

---

\* امبراطور روماني ( ١٢١ - ١٨١ ب . م ) وقد اقر النظام في الامبراطورية ، وحسن حالة البيد الارقاء ، وادى خدمة جليلة الى القانون المدني . واشتهر هذا الامبراطور بالحكمة والاعتدال وحب الفلسفة والأدب .

المثل الأعلى ، المطلّق ، الكمال ، اللانهاية - كل هذه لا تعدو ان تكون مترادفات .

## ٧

### احتياطات يجب ان تُتخذ في اللوم

ان على التاريخ والفلسفة واجبات سرمدية هي ، في الوقت نفسه ، واجبات بسيطة : أن يقاوما « قيافا » \* أسقفاً ، ودراكون \*\* قاضياً ، وترعاليون منشريعاً ، وتيباريوس \*\*\* امبراطوراً . وهذا واضح ، مباشر ، صاف ، لا لبس فيه ولا غموض . ولكن الحق في العيش المعتزل ، برغم أضراره ومساوئه ، يجب ان يُثبت ويُدرّس في عناية . فالرهبانية مشكلة انسانية .

اننا حين نتحدث عن الأديرة ، تلك المواطن الغارقة في الخطأ ولكن على براءة ، وفي الضلال ولكن على حُسن نية ، وفي الجهل ولكن على تقانٍ ، وفي العذاب ولكن على استشهاد - إننا حين نتحدث عن هذه الاديرة ينبغي ان نقول ، دائماً تقريباً ، « نعم ، و » لا ، .  
الديرُ تناقضٌ - فغايتة الخلاص ، ووسيلته التضحية . الدير هو اعلى مراتب الانانية مؤدية الى اسمى مراتب إنكار الذات .  
تخلّ عن العرش لكي تتولى مقاليد الحكم - ذلك في ما يبدو هو

---

\* Catphe الكاهن اليهودي الذي حكم على يسوع ، واضطهد الرسل .  
\*\* Dracon احد الاراخنة والمترعين الابنيين ، وكانت أحكامه قاسية الى درجة أنها كثبت ، في ما زعموا ، بالدم . ( اواخر القرن السابع قبل الميلاد )  
\*\*\* Tibère تيباريوس الاول ، ثاني الاباطرة الرومان ( ٤٢ ق . م - ٣٧ م ) وكان رجلاً قديراً ولكنه شديد القسوة كثير الشكوك .

شعار الحياة الرهبانية .

في الدير ، يتألم المرء لكي يبتهج . إنه يسحب حوالةً على الموت .  
إنه يحسمُ النور السماوي في الليل الارضي . في الدير ، تُرفض جهنم  
بوصفها ثمناً يُدفع مقدماً ابتغاء الفوز بيرات السماء الموعود .

ان اصطناع الحجاب او الثوب الرهباني انتحارٌ تعوّض اللانهاية من  
يُقدم عليه .

والذي يبدو لنا أن السخرية ينبغي أن تُطرح حين يُعالج موضوعٌ  
مثل هذا . ان كل ما يتصل به جديّ ، طيّبهٌ وخبيثهٌ على حدّ  
سواء .

ان الرجل الصالح يزوي ما بين عينيه ، ولكنه لا يينسم ابداً  
ابتسامة شريرة . نحن نستطيع ان نفهم الغضب ، ولكننا لا نستطيع  
أن نفهم اللؤم .

## ٨

### الايمان — القانون

بقيتْ بضع كلمات اخرى .

نحن نلوم الكنيسة حين تكون مشبعةً بالمسكائد . نحن نؤدري  
الروحي حين يقسو على الزمني . ولكننا نعظم ، في كل مكان ،  
الرجل المستغرق في التأمل .

نحن نتحني احتراماً للرجل الراكع .

الأيمان ضرورة انسانية ، والويل لمن لا يؤمن بشيء .

والمرء لا يكون عاطلاً عن العمل لأنه مستغرق في التفكير . ان

ثمة جهداً منظوراً ، وجهداً غير منظور .



والتأمل جهد . والتفكير عمل .  
ان الاذرع المتصالة تشغل ، وان الايدي المطبقة تعمل . وان  
التحديق الى السماء كدح .  
لقد سلخ طاليس أربع سنوات جامداً لا يتحرك . لقد انشأ  
فلسفة .

وعندنا أن الرهبان ليسوا متبطلين ، وأن الحبساء ليسوا كسالى .  
ان التفكير في « الظلمة » هو شيء جدي .  
ومن غير ان ننقض البتة ما قلناه اللحظة ، نعتقد أن تذكر القبر  
على نحو موصول مناسبٌ للآحياء . وفي هذه النقطة يتفق الكاهن  
والفيلسوف : ينبغي ان نموت . ان الأب « لا تراب » ، يجب  
« هوراس » .

ان مزج المرء حياته بشيء من منول القبر هو شريعة الرجل  
الحكيم ، وشريعة الناسك . فمن هذه الجهة يجنح الناسك والحكيم نحو  
مركز مشترك .

ان ثمة تقدماً مادياً ؛ نحن نرغب في ذلك . وان ثمة ، ايضاً ،  
عظمة اخلاقية ؛ ونحن نقشب بذلك .  
إن العقول الطائشة الرعناء تقول :

— « ايّ فائدة لهذه الوجوه الجامدة حيال سرّ الكون ؟ اي  
خدمة تؤدّي ؟ اي شيء تعلمه ؟ »

وأسفاه ! في حضرة تلك الظلمة التي تكتنفنا وتربص بنا ، غير  
عالمين ما الذي سيفعله بنا تبدُّد الاشياء جميعاً ، نجيب : « جائز ان  
لا يكون ثمة عملٌ اسمى من ذلك الذي تقوم به هذه النفوس » .  
ونضيف : « وجائز ان لا يكون ثمة جهد اكثر نفعاً » .  
إن اولئك الذين يصلّون دائماً ضروريون لاولئك الذين لا يصلّون  
ابداً .

وعندنا ان قوام المسألة كلها رهنٌ بمقدار التفكير الذي يسترج  
بالصلاة .

إن « لا يثبت » ، مصلياً ، لشيء عظيم . وإن فولتير ، عابداً ،  
لشيء جميل . *\* Deo crexist Voltaire*

نحن للدين ضد الأديان .

نحن من أولئك الذين يؤمنون بحقارة الادعية والصلوات ، وبسوء  
الصلاة .

والى هذا ، ففي هذه اللحظة التي نجتازها ، وهي لحظة لن تطبع  
القرن التاسع عشر ، لحسن الحظ ، بطابعها ، وفي هذه الساعة الحافلة  
بكثير من الناس المنخفضة جباههم انخفاضاً كبيراً والمرتفعة نفوسهم  
ارتفاعاً يسيراً والمستغرقين بأشياء المادة المختصرة المشوثة ، يبدو جميع  
الذين نقوا انفسهم بأنفسهم موقرين في نظرنا . إن الدير تخلص .  
والتضحية بالنفس حتى حين يساء توجيهها ، تظل هي التضحية بالنفس .  
ولأن يجعل المرء من خطأ قاسٍ واجباً مفروضاً عليه - هذا الصنيع  
له عظمتة الخاصة .

ولو قد نظرنا الى المألة في ذاتها ، وعرضناها على محك الحقيقة حتى  
نقتلها من نواحيها جميعاً بحثاً مجرداً تزجاً اذن لوجدنا ان للدير ، ولدير  
النساء بخاصة - لأن المرأة في مجتمعنا هي التي تتحمل القسط الاعظم من  
الآلام ، وفي منفى الدير هذا عنصر احتجاج - بعض الجلال من  
غير شك .

هذا الوجود الرهباني الكاليج المظلم الذي رسمنا بعض ملامحه ليس هو  
الحياة ، لانه ليس الحرية ، وليس هو القبر لأنه ليس الكمال . إنه  
ذلك الموطن الفريد الذي نلجج من احدى ناحيتيه وكأننا على قمة جبل  
عالٍ ، الهوة التي نحن فيها ، ونلجج من الاخرى الهوة التي سوف

« في اللاتينية ، وتعني : « الرب حرك فولتير الى الثورة » .

نصير اليها . انه تخم ضيق كثير الضباب يفصل ما بين  
 عالين يضيه كلامهما ويُظلمانه في آنٍ معاً ، حيث يتّرج شعاع الحياة  
 الواهن بشعاع الموت المبهم . إنه غسق القبر .  
 أما نحن الذين لا نؤمن بما تؤمن به هاته النساء ولكن نعيش ،  
 مثلهن ، بالايان فلا نستطيع ان ننظر ، من غير ضرب من الذعر  
 الرفيق الورع ، ومن غير ضرب من للشفقة المفعمة بالحد ، الى هاته  
 الكائنات المتفانيات ، الراجفات ولكن الواثقات من انفسهن - تلك  
 النفوس المتضعة ولكن الجليّة ، التي تجرؤ على العيش على تخم اللغز  
 الاعظم نفسه ، منتظرات بين العالم الموحد دونهن والساء التي لما  
 'نفتح لهن' ، ملفّات نحو الضياء الذي لا يربّنه وليس لهن من العادة  
 غير التفكير في انهن يعرفن ابن هو ، وقد وُجّهت آمالهن نحو الهاوية  
 ونحو المجهول ، وسُمرت أعينهن على الظلمة الجامدة ، راكعات ،  
 مذعورات ، ذاهلات ، مرتعدات ، نصف مرفوعات في بعض الاحيان  
 بنبضات الأبدية العميقة .

## الكتاب الثامن

### المقابر تأخذ ما يُقَدَّم إليها

١

وهو يعالج طريقة الدخول الى الدير

الى هذا البيت بالذات كان جان فالجان قد « هبط من السماء » ، كما قال فوشلوفان .

كان قد اجتاز جدار الحديقة عند زاوية شارع بولنسو . وكانت تلك الترنيبة الملائكية التي سمعها في جوف الليل هي صلاة السَّحَر تزدحم الراهبات ؛ وكانت تلك القاعة التي لمحا في الظلام هي الكنيسة ، وكان ذلك الطيف الذي رآه ممدداً على الارض هو الراهبة المستغفرة ، وكان ذلك الجبل الذي أدهشه صوته على نحو غريب جداً هو جبل البستاني

المشود الى ركة الأب فوشوفان .

وحين وُضعت كوزيت في الفراش ، كان جان فالجان وفوشوفان قد احتسبا ، كما رأينا ، زجاجة من خمر وأكلا قطعة من جبن أمام نار ملتهبة . وإذا كانت كوزيت قد شغلت الفراش الأوحده في الكوخ ، فقد انطرح كل منها على حزمة من قشّ . وقبل ان يغضب جان فالجان عينيه كان قد قال : « يجب ان أبقي منذ اليوم ، هنا . » وكانت بعض هذه الكلمات تطارد بعضها الآخر ، في رأس فوشوفان ، طوال الليل .

وفي الحق ، ان أياً منها لم يكن قد استسلم للرقاد . فأما جان فالجان ، فقد عَلمَ عَلمَ اليقين - وقد استشعر ان أمره قد اقتضح ، وان جافير بطارده - أنه هالك هو وكوزيت اذا ما رجعا الى المدينة . ومنذ ان قذفت به تلك الريح الجديدة التي هبت عليه ، الى هذا الدير لم يَطْفُ في ذهن جان فالجان غير خاطر واحد : أن يبقى هناك . والواقع ان هذا الدير كان ، لرجلٍ في مثل وضعه الشقي ، آمنَ مكانٍ وأخطر مكانٍ في وقت معاً . كان اخطر مكانٍ لأنه محظورٌ على الرجال دخولُه . فاذا ما اكتشف جان فالجان فيه يُقبض عليه بالجرم المشهود وعندئذ لا يكون عليه إلا ان يخطو خطوةً واحدة من الدير الى السجن . وكان آمنَ مكانٍ ، لأنه اذا وفّق الى الفوز بأذن يميز له البقاء هناك ، فمن ذا الذي سوف يُقبل الى ذلك المكان بجناً عنه ؟ إن العيش في موطنٍ يمتنع على الناس هو السلامة عينها . وأما فوشوفان فكان يقدح زناد الفكر . لقد بدأ بأن قرر أنه لا يفهم شيئاً من الأمر . كيف تأتّى لسيو مادلين ان يفدّ الى هناك برغم هذه الجدران كلها ؟ إن جدران الدير ليس من اليسير تجاوزها . وكيف اتفق أن كان يصطحب طفلة ؟ إن المرء لا يتسلق جداراً شديداً الانحدار وبين يديه طفلة . من هذه الطفلة ؟ من أين أقبلت كلاهما ؟

فمنذ ان دخل فوشلوفان الدير ، لم يسمع ايما حديث عن موتتروي سور مير ، ولم يعرف شيئاً بما كان قد حدث . وكانت تغلب على بحيا الأب مادلين سبياً لا تشجع على طرح الاسئلة ؛ وفوق هذا ، فقد قال فوشلوفان مخاطباً نفسه : « إن المرء لا يستجوب قديساً . » وكانت مسيو مادلين قد احتفظ ، عنده ، باعتبارها كله . غير ان البستاني اعتقد ان في ميسوره ان يستنتج ، من بعض الكلمات التي نددت من جات فالجان ، ان من الجائز ان تكون الازمة قد انتهت بمسيو مادلين الى الافلاس ، وان يكون دائئوه يلاحقونه ، او ان يكون قد تورط في قضية سياسية فهو يلتبس مفزغاً محتجى فيه ؛ وهو ما لم 'يحزن فوشلوفان ، البتة ، الذي كان مثل كثير من فلاحينا الشالين ذا قلب يونابرتي عريق . واذا كان مسيو مادلين يبتغي الاختباء فقد اتخذ من الدير مفزغاً له ، وكان من الطبيعي ان يرغب في البقاء هناك . ولكن الشيء الذي لم يجد له تفسيراً ، والذي كان فوشلوفان يعاود النظر فيه ويحطّم في حله رأسه هو ان يكون مسيو مادلين هنا ، وان تكون هذه الفتاة الصغيرة معه . لقد رأهما فوشلوفان ؛ لقد لمسها ؛ لقد تحدث اليها ؛ ومع ذلك فإنه لم يصدق هذا . كان لغز من الالغاز قد اتخذ سبيله الى كوخ فوشلوفان . وكان فوشلوفان يحبط في غمرة من الظنون والأحداث ، ولكنه لم يرَ على نحو واضح غير هذا : لقد أنقذ مسيو مادلين حياتي . ولقد كانت هذه الواقعة اليقينية الوحيدة كافية ، فاذا هي تمهله على ان يحزم أمره . وقال في ذات نفسه : « لقد جاء دوري الآن . » واطاف في وجدانه : « إن مسيو مادلين لم يفكر طويلاً الى هذا الحد عندما كان الموقف يقتضيه ان يُقيم نفسه تحت العربة لكي يسحبني من هناك . » ووطن العزم على ان يتخذ مسيو مادلين .

ومع ذلك ، فقد طرح على نفسه عدة اسئلة وأجاب عنها عدة أجوبة : « بعد الذي أسداه اليّ من معروف ، أبتعن عليّ ان أنقذه

ولو كان لصاً من اللصوص ؟ - « سيان . » - « واذا كانت  
سفاكاً ، فهل ينبغي لي أن انقذه ؟ - « سيان . » - « وبما أنه  
قديس ، فهل سأنقذه ؟ - « سيان . »

ولكنّ ابقائه في الدير هو المشكل الأكبر ! ولم ينكص فوشلوفان  
أمام هذه المحاولة التي توسك ان تكون ومية . الواقع ان هذا الفلاح  
البيكاردي المسكين ، الذي لم يكن لديه سلّم غير تقانيه واستعداده  
للعمل الصالح وقليل من الذكاء الريفيّ القديم الموضوع هذه المرة في  
خدمة غرض كريم ، أقدم على تسلق مستحيلات الدير ، ومنعدرات  
نظام القديس بينوا الوعة . فقد كان فوشلوفان رجلاً عجوزاً سلخ حياته  
كلها أنانياً ، حتى اذا بلغ أرذل العمر ، أعرج عاجزاً ، ولم يعد له  
من أرب في الحياة وجد متعة في أن يكون معترفاً بالجميل . واذا لمح  
بمحمّدة تغربه بالنهوض بها اندفع نحوها ، مثل رجل يرى في متناوله  
على عتبة الموت ، كأساً من خير جيدة لم يذق مثلها قط من قبل ،  
فهو يكرعها في خَم . وفي استطاعتنا ان نضيف ان الهواء الذي تنشقّه  
طوال سنوات عدة في هذا الدير كان قد حطّم شخصيته ، وقدم اليه  
آخر الامر ، صلاً صالحاً ضرورياً له .

وصاغ قراره : أن يتنذّر نفسه لانقاذ ميو مادلين .

لقد وصفناه المعطة بقولنا انه فلاح بيكارديّ مسكين . ان هذا  
الوصف صحيح ، ولكنه ناقص . وفي هذه المرحلة التي انتهينا اليها من  
القصة أمسى من الخير أن نتعرّف الى فوشلوفان تعرّفاً أوثق . كانت  
فلاحاً ، ولكنه كان قبل ذلك كاتباً عدلاً ، وهو ما اضاف الى ذكائه  
حذاقة ، والى سذاجته ألمعية . حتى اذا اخفق في اعماله لأسباب مختلفة ،  
هبط من كاتب عدل الى سائق عربة وعامل . ولكنه كان قد احتفظ ،  
برغم اللثائم وضربات السياط الضرورية للخيال في ما يبدو ، بشيء من  
شبهة الكاتب العدل في نفسه . كان لا يخطئه في تصريف الاعمال ،

وكان 'بحسن الحديث' ، وهو شيء نادر في القرية . وكان الفلاحون الآخرون يقولون : انه يتحدث مثل رجل ذي قبة ، تقريباً . والواقع ان فوشلوفان كان من ذلك الضرب الذي دعته معجبة القرن الماضي الخفيفة الماجنة « نصف بورجوازي ، نصف وافي » ، والذي ألصق عليه الاستعارات المأبطة من القصر الى الكوخ ، في خزائن دفاة النسب ، هذه البطاقات : « نصف فظ » ، نصف متحدث - فلفل وملح » . وكان فوشلوفان ، برغم ان القدر ابتلاه كثيراً ، وأبلاه كثيراً حتى أمسى أشبه بنفس هرمة باثة تهرأت خيوط نسيجها ، كان رجلاً سريعاً الى الانفعال ، ذا قلب مطاوع ، وهي خصلة ثينة تحول بين المرء وبين ان يكون شريفاً في يوم من الايام . وكانت عيوبه ونواحي ضعفه ، اذ كان له نصيب منها ، سطحية غير ذات خطر . واخيراً ، فقد كانت طلعته من ذلك الضرب الذي يلفت انتباه المراقب . فلم يكن في ذلك الوجه العجوز ايّ من تلك التجاعيد البشعة ، التي تكون في أعلى الجبين والتي ترم عن الحبث أو البله .

وعند انبلاج الفجر ، وبعد ان رأى في المنام أحلاماً هائلة ، فتح فوشلوفان عينيه ، فأبصر مسيو مادلين جالساً على كومة قشّة ، رانياً الى كوزيت المستسلمة للرقاد . ونهض فوشلوفان نصف نهضة ، وقال :  
- « والآن وقد أصبحت هنا ، ما السبيل التي تعترق انتهاجها للدخول ؟ »

لقد لخص هذا السؤال الموقف كله ، وأيقظ جان فالجان من تفكيره الخالم .

. وتشاور الرجلان . فقال فوشلوفان :

- « قبل كل شيء » ، انك لن تضع قدماً خارج هذه الفرقة . لا أنت ولا الطفلة الصغيرة . ان خطوة واحدة في الحديقة تعني هلاكنا .  
- « هذا صحيح . »



واستأنف فوشوفان حديثه :

- « مسيو مادلين ، لقد وصلت في وقت جيد جداً ، أعني في وقت مميّ جداً . ان احدى هاته الراهبات مريضة على نحو خطر . من أجل ذلك تجد أنهم لا ينظرون كثيراً الى حاجتنا . لا شك في انها 'تختصر' . انهم يتلون صلوات الاربعة ساعة . والجماعة كلها في قلق وارتيابك . ان ذلك يستأثر باهتمامهم . فالمرأة الموشكة على الرحيل هي قديسة . والواقع ، أننا جميعاً قديسون هنا . كل ما بينهنّ وبينني من فرق هو انهن يلقن : « قليّتنا » ، في حين اقول أنا : « كوخني » . انهم يعترّضن اداء صلاة الاحتضار ، ثم صلاة الموت . اننا سوف نكون آمنين اليوم ، في هذا المكان . ولكنني لست ادري ما الذي سيجعله البنا القديس . »

فلاحظ جان فالجان :

- « ومع ذلك ، فهذا الكوخ قائمٌ تحت زاوية الجدار . انه محبوب بضرب من البناء الحربي . ان ثمة اشجاراً . انهم لا يستطيعون ان يربّثوه من الدبر . »

- « وانا اضيف ان الراهبات لا يقتربن منه البتة . »

فقال جان فالجان :

- « حسناً ؟ »

وكانت علامة الاستفهام التي تبعت تلك الكلمة تعني : يبدو لي ان في استطاعتنا ان نطلّ نخبّئين هنا . وكان جواب فوشوفان عن علامة الاستفهام هذه ان قال :

- « هناك الفتيات الصغيرات . »

فسأله جان فالجان :

- « أية فتيات صغيرات ؟ »

ولم يكده فوشوفان يفتح فيه لبشرح الكلمات التي نطق بها منذ لحظة

حتى نسمع الناقوس يقرع قرعة واحدة .  
وقال :

« لقد ماتت الراهبة . هوذا الناقوس ينعها . »  
وأشار الى جان فالجان بأن يصفي .  
وقرع الناقوس مرة ثانية .

« انه النعمي » ، يا مسيو مادلين . ان الناقوس سوف يقرع مرة  
كل دقيقة ، طوال اربع وعشرين ساعة ، حتى يغادر الجبان الكنيسة .  
وفي العطل ، لا نكاد الكرة تجري الى هنا حتى يندفعن برغم الأنظمة  
ويبعثن عنها مبعثرات كل ثمي . إن هاته الملائكة الفاتنات شياطين  
حقاً . »

فتساءل جان فالجان :

« من ؟ »

« الفتيات الصغيرات . سوف يُكتشف أمرك في وقت قريب .  
انهن سوف يصعن : « ماذا ؟ رجل ؟ » ولكن ليس ثمة خطر ،  
اليوم . لن نعطي الفتيات عطلة . سوف يخصص النهار كله للصلاة .  
أنت تسمع الناقوس . دقة واحدة كل دقيقة ، كما قلت لك . انه النعمي . »  
« لقد فهمت » ، ايها الاب فوشلوفان . هناك طالبات داخلات . »

وفكر جان فالجان في ما بينه وبين نفسه :

« هنا ، اذن ، تستطيع كوزيت ان تتلقى العلم ايضاً . »  
وهتف فوشلوفان :

« وحقّ الاله ! لو رأتك الفتيات الصغيرات ! اي صبيحة  
سوف يطلقن حين تقع أعينهن عليك ! وبأية سرعة سوف يزلن فراراً .  
فلأن يكون المرء ، هنا ، رجلاً ، شبه شيء بالطاعون . ألا ترى  
كيف شدّدن الى رجلي جلجلاً وكأنني وحش ضار ؟ »  
وفكر جان فالجان أعمق فأعق . وتمتم :

- « الدبر سوف ينقذنا . »

ثم رفع صوته :

- « نعم ، الصعوبة هي في البقاء . »

فقال فوشلوفان :

- « لا . انها في الخروج . »

وأحس جان فالجان بالدم يجري بارداً في عروقه .

- « في الخروج ؟ »

- « اجل يا ميسو مادلين ، لكي تدخل ينبغي ان تخرج . »

وبعد ان انتظر احدى قرعات الناقوس حتى تلاشى ، استأنف

فوشلوفان حديثه :

- « ليس من الخير ان يجيئك ههنا على هذا الشكل . من أين

أقبلت ؟ اما انا فأعتقد انك سقطت من السماء ، لأنني أعرفك . وأما

الراهبات فسوف يعتقدن أنك دخلت من الباب . »

وفجأة سمعا قرعاً ممتعاً من ناقوس آخر .

فقال فوشلوفان :

- « اوه ! هذا الناقوس يدعو الأمهات الصوتيات . انهن يذهبن

الى مجلس الراهبات . ذلك انهن يعتقدن مجلساً كلما مات شخصٌ ما . انها

لم تمت مع الفجر . والناس انما يموتون عادة ، مع الفجر . ولكن ألا

نستطيع ان نخرج من حيث دخلت ؟ دعنا نرى . انا لا استجوبك ،

ولكن من اين دخلت ؟ »

وشعب وجه جان فالجان . كان في مجرد التفكير بالهبوط من جديد

الى ذلك الشارع الرهيب ما اوقع الرعدة في اوصاله . أخرج من غابة

ملاى بالأفغار ، ثم تخيل ، بعد ان نجوت بنفسك ، ان صديقاً لك

ينصحك بالعودة ! وتخيل جان فالجان ان رجال البوليس كلهم لا يزالون

يجوبون الشوارع ، وأن الشرطة تترقب به ، وان العسس في كل مكان ،

وَأَنْ قَبَضَاتٍ رَهْبِيَّةٍ تَمْتَدُّ لِلْأَخْذِ بِخَنَافِهِ . وَلَعَلَّ جَافِيَرٍ أَنْ يَكُونَ فِي زَاوِيَةِ  
الْمُفْرَقِ . ،

فَقَالَ :

- « مُسْتَحِيلٌ . إِفْتَرَضْتُ أَنِّي هَبَطْتُ مِنَ السَّمَاءِ . ،

فَأَجَابَهُ فَوْشُلُوفَانُ :

- « آه ! أَنَا أَصْدَقُ ذَلِكَ ، أَنَا أَصْدَقُ ذَلِكَ . لَا دَاعِيَّ إِلَى أَنْ

تُخْبِرَنِي . لَا بَدَّ أَنْ اللَّهُ قَدْ أَخَذَ بِيَدِكَ ، لَكِي يَرَى إِلَيْكَ عَنْ كُتُبٍ ،  
ثُمَّ أَفْلَتَكَ . كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّهُ كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَضَعَكَ فِي دَيْرٍ لِلرِّجَالِ .

لَقَدْ أَخْطَأَ . اسْمِعْ ، النَّاقُوسُ يُبْقِرُ مَرَّةً أُخْرَى . هَذَا تَنْبِيْهُ لِلْبُؤَابِ  
لَكِي يَذْهَبُ إِلَى الْبَلَدِيَّةِ وَيَحِيطُ رِجَالَهَا عِلْمًا بِالْحَادِثِ ، لَكِي يَذْهَبُوا وَيُعْلَمُوا

طَبِيبُ الْأَمْوَاتِ فَيُجِيبُهُ وَيَتَحَقَّقُ مِنْ أَنْ تَمُوتَ امْرَأَةٌ مَيِّتَةً ، وَهَذِهِ كُلُّهَا  
طُقُوسٌ خَاصَّةٌ بِالْوَفَاةِ ، وَهَؤُلَاءِ السِّدَاتُ الطَّبِيبَاتُ لَا يَرْجِعْنَ بِهَذِهِ الزِّيَارَةِ

كَثِيرًا ، فَالْأَطْبَاءُ لَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ . أَنَّهُمْ يَرْفَعُونَ الْحِجَابَ ، بَلْ أَنَّهُمْ  
يَرْفَعُونَ شَيْئًا آخَرَ ، فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ . وَلَكِنْ مَا أَمْرُ مَا أَعْلَمُنَ

الطَّبِيبَ ، هَذِهِ الْمَرَّةُ ! فَمَا الْقِصَّةُ ، يَا تَرَى ؟ أَنْ صَغِيرَتَكَ لَا تَزَالُ نَائِمَةً .  
مَا أَسْمَا ؟ ،

- « كُوزْبِت . ،

- « أَهِيَ بِنْتُكَ ، يَعْنِي أَنَّكَ جَدُّهَا ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ ،

- « نَعَمْ . ،

- « وَأَنْ الْحُرُوجَ مِنْ هُنَا سَهْلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا . أَنْ عِنْدِي بَابًا خَاصًّا يَـ

يَنْفَتَحُ عَلَى الْفَنَاءِ . سَوْفَ أَقْرَعُهُ . فَيَنْفَتَحُ الْبُؤَابُ . وَلَسَوْفَ أَهْمَلُ سَلْفِي  
عَلَى ظَهْرِي ، وَفِي جَوْفِهَا الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ . وَلَسَوْفَ أَخْرَجُ . الْآبَ فَوْشُلُوفَانَ

يُخْرِجُ حَامِلًا سَلْتَهُ ، هَذَا كُلُّهُ هَيِّنٌ . وَلَسَوْفَ تَطْلُبُ أَنْتَ إِلَى الْفَتَاةِ الصَّغِيرَةِ  
أَنْ تَلْتَزِمَ السَّكِينَةَ . وَلَسَوْفَ تَكُونُ مُحْجُوبَةً بِغَطَاءٍ . وَلَسَوْفَ أَتْرَكُهَا

بِأَمْرٍ مَا أَسْتَطِيعُ ، عِنْدَ صَدِيقَةٍ لِي طَبِيبَةٍ عَجُوزٍ ، بَالِغَةٍ خَضِرٌ وَفَاكِهِةٌ ،

في شارع الطريق الأخضر ، وهذه الصديقة صماء ، وعندها سرير صغير . وسوف اصرخ في اذن بائنة الحضر والفاكهة أنها ابنة اخ لي ، وأسلمنا ان نحافظ عليها حتى يوم غد . ثم ان الفتاة الصغيرة سوف ترجع معك ، لاني سوف اودها اليك . يجب ان يتم هذا . ولكن كيف السبيل الى الخروج من هنا ؟ ، وهز جان فالجان رأسه .

- « لا تدع احداً يراني ؛ هذا كل شيء » ، ايها الاب فوشلوفان . ابحت عن وسيلة ما لآخراجي انا ايضاً ، مثل كوزيت ، في ستة او تحت غطاء .

وحك فوشلوفان أذني بأصبع الوسطى من يده اليسرى ، وهي علامة على الارتباك الشديد .

والهاما قرع الناقوس ، سرة ثالثة ، بعض الألمان .

وقال فوشلوفان :

- « هوذا طبيب الأموات يمضي لسبيله . لقد وآها ، وفور أنها ميتة . هذا حسن . وجن يؤثر الطبيب على الجواز الموصل الى الجنة يبحث متعهدو مواكب الدفن بتابوت . فاذا كانت « أمأ » كفتتها « الامهات » . واذا كانت « أختاً » كفتتها « الأخوات » . حتى اذا تم ذلك دفنت المسامير في النعش . ان هذا جزء من عملي كبستاني . فالبستاني ضرب من حمار القبور . انهم يضعنها في غرفة منخفضة في الكنيسة المتصلة بالشارع ، حيث لا يستطيع رجل ما أن يدخل ، باستثناء طبيب الموتى . أنا لا أعد نفسي وحمة النعش رجلاً . وفي تلك الغرفة أدق المسامير في النعش . ويقبل حمة النعش وبأخذونها ، ويعمل السائق سوطه ! هكذا يذهبن الى الجنة . انهم يجيئون بصندوق ليس فيه شيء ، ثم يعودون به وفي داخله شيء . فلك هي حقيقة

وشعّ خيط من خيوط الشمس المشرقة ، على وجه كوزيت النائمة التي بدت - وقد فتحت فيها نصف فتحة على نحو حالم - وكأنها ملاك يعبّ الضياء عباً . كان جان فالجان ينظر إليها . انه ما عاد بصغي الى فوشلوفان .

ولكن عدم الاصفاء ليس سبباً كافياً للصمت . وهكذا واصل البستاني المعجوز الصالح لغوّه المعاد ، في نؤدة وهدوء :

- ولقد أعدّ الجدث في مقبرة فوجيرار . ويدّعون أن مقبرة فوجيرار هذه سوف تلقى . انها مقبرة عتيقة ، لا تنسجم مع الانظمة ، ولا ترتدي اللباس الموحد ، ولسوف تحال الى التقاعد . أنا آسف من أجل ذلك ، لانها مقبرة ملائكة . ان لي صديقاً هناك ، هو الأب ميتين ، حفار القبور . وللراهابات في هذا الدبر امتياز يخولهن الحق في أن يحملن الى تلك المقبرة عندما يبط الليل . ان ثمة أمراً صادراً عن مديرية الشرطة ، خاصاً بهنّ . ولكن أي شيء قد حدث منذ أمس ! لقد توفيت الأم كروسييفكيون والأب مادلين ...

فقال جان فالجان مبتسماً ابتسامة محزونة :

- « قد دُفن . »

ورجع فوشلوفان الكلمة .

- « يا الهي ، لو قضيت حياتك كلها هنا اذن لكان ذلك دفناً

حقيقياً . »

وقرّع الناقوس للمرة الرابعة . فسارع فوشلوفان الى نزح واقية ركبته ذات الجلبجل عن المسار المعلقة به ، وأعاد شداها حول ركبته .

- « الناقوس يدعوني ، أنا ، هذه المرة . ان الام الرئيسة محتاجة

اليّ . حسن ، أنا أخزّ نفسي بلسان ابزيمي . مسيو مادلين ، لا

تتحرك ؛ انتظري . هناك شيء جديد . وإذا كنتَ جائئاً فهي ذي الحمر ،  
والجُبْز ، والجبن . »

وغادر الكوخ وهو يقول :

« لقد جئت ا لقد جئت ا »

ورآه جان فالجان يجتاز الحديقة مسرعاً ، على قدر ما تسمح له  
رجله العرجاء بذلك ، ناظراً في الوقت نفسه الى بطيخاته نظراً جانبيّاً .  
وبعد عشر دقائق ، او اقلّ ، قرع الاب فوشلوفان - الذي كان  
جلجله يحمل الراهبات على الفرار فيما هو يتقدم - أحدَ الابواب قرعاً  
رفيقاً ، فأجابه صوت عذب : « الى الابد ا الى الابد ا » ، يعني :

« ادخل . »

كان ذلك الباب هو باب غرفة الاستقبال ، المخصص للبستاني يستعمله  
حين يحتم الموقف الاتصال به . وكانت غرفة الاستقبال هذه ملاصقة  
لقاعة مجلس الراهبات . كانت الرئيسة جالسة على الكرسي الواحد ،  
في غرفة الاستقبال ، تنتظر فوشلوفان .

## ٢

### فوشلوفان يواجه الصعوبة

ان سباه قلعة رزينة تميز ، في ساعات الحرج ، بعض الطابع وبعض  
المهن ، وتميز بمخافة رجال الدين وجماعة الرهبان . ولحظة دخل  
فوشلوفان غرفة الاستقبال ، كانت آية الممّ المزدوجة تلك تطبع محبا  
رئيسة الدير الآتية « دو بلومور » الفاتنة الواسعة الملم - الأمّ  
اينوسانت التي كانت مبتهجة الفؤاد عادة .  
وانحنى البستاني بتحية جازعة ، ووقف عند عتبة القليّة . كانت

الرئيسة تُعبرَ حبات سبحتها تحت إبهامها ، فما إن رأتَه حتى رفعتَ عينيها وقالت :

« آه ! هذا أنت ، أها الاب فوفان . »

كان هذا الاختصار مألوفاً في الدير .

وانحنى البستاني كرة أخرى .

« أها الاب فوفان ، لقد دعوتك . »

« ها أنا ذا ، ابنتها الأم الموقرة . »

« أريد ان اتحدث معك . »

فقال فوشولوفان في جراءة اوقعت الرعب في نفسه هو :

« وأنا ، من ناحيتي ، عندي شيء أقوله للأم الموقرة جداً . »

ونظرت الرئيسة اليه :

« آه ، عندك ما تُسر به اليّ . »

« عندي توسّل . »

« حسناً ، ما هو ؟ »

كان الرجل الطيب فوشولوفان ، الكاتب العدل السابق ، ينتمي الى ذلك الضرب من الفلاحين الذين لا يعترجهم القلق والاضطراب ابداً . إن مزيجاً معيناً من الجهل والبراعة ليؤلف قوة ؛ انك لا ترتاب فيه ، وإنه ليستحوذ عليك . ففي أقلّ من سنتين سلخهما فوشولوفان في الدير ووفّق الى ان يحقق نجاحاً في مجتمع الراهبات ذاك . كان وحده دائماً . وحتى فيما كان يُعنى بمجديقه لم يكن لديه في الاعم الاغلب ما يعمله غير أن يكون فضولياً . واذا كان على مبعدةٍ من جميع هاته النسوة الغاديات الراحات فقليلاً ما كان يرى أمامه غير ظلالٍ مرفوفة . وبفضل حسن الانتباه ونفاذ البصيرة نجح في أن يكو هذه الاطياف كلها رداءً من اللحم ، فاذا جهّلاً الموتى أحياء في نظره . كان أشبه بأصمّ اكتسب بصرهُ حديثاً ، وبأعمى غداً سممه مرهفاً . لقد أفرغ همتَه في استكناه



المعاني التي تنطوي عليها مختلف دقات النفوس ، فوفّق الى ذلك حتى لم يعد في ذلك الدير الغامض الصوت شيء محبباً عنه . لقد نطق ابو المول هذا ، مثيراً ، مفرغاً اسراره كافة في أذنيه . واذ عرف فوشلوفان كل شيء ، فقد اخفى كل شيء . كان ذلك هو فته . لقد حسب الدير كله أبه ؛ وتلك ميزة عظيمة في الدين . و د الامهات ، كن يقمن وزناً لفوشلوفان . كان أخرس قادر المثال . وكان يرحي بالثقة . والى هذا ، فقد كان نظامياً ، ولم يكن ليغادر الدير البتة ، إلا اذا دعت الى ذلك حاجة ملحوظة من حاجات الحديقة والبستان . وكانت هذا السلوك الرصين موضع اعجاب الراهبات . ومع ذلك فقد اطلع على أسرار وجلين اثنين : بواب الدير ، الذي كان يعرف غرائب غرفة الاستقبال ، وحفّار القبور ، الذي كان يعرف فرائد الجبّانة . وعلى هذا النحو فقد كان يملك ضوءاً مزدوجاً ، في ما يتصل بهانه الراهبات . فأما احدهما فمسلط على حياتهن ، وأما الآخر فمسلط على ممانهن . ولكنه لم يسه استعمال ذلك . وكانت جماعة الراهبات شديدة الولوع به . هرم ، اعرج ، لا يرى شيئاً . ولعله ان يكون اصمّ بعض الشيء - يا لها من سجايا وافرة ! إن من العسير إخلال امريء ما محلّه .

وفي مثل ثقة الرجل الشاعر بأنه موضع التقدير ، القى الرجل الطيب في حضرة الرئيسة الموقرة خطاباً ريفياً مطوّلاً جداً ، عميقاً جداً . لقد أسهب في الكلام على عمره ، وعلى أسقامه ، وعلى عبء السنين الذي أمسى منذ اليوم مزدوج الوطأة عليه ، وعلى مطالب عمله المتزايدة ، وعلى اتساع الحديقة ، وعلى الليالي التي يتعبّن عليه أن يسليها - شأنه الليلة البارحة مثلاً - حين اضطر الى ان يبسط 'حضر القصب' على مساكب البطيخ من جرّاء القمر . واخيراً ختم كلامه بقوله إن له أخاً ( وهنا اجفلت رئيسة الدير ) ، أخاً ليس شائباً ( واجفلت الرئيسة إجمالة ثانية ، ولكنها راسخة ) وإن في استطاعة هذا الاخ ان يأتي -

إذا كان ذلك مرغوباً فيه - وبعيش معه ويمد اليه يد المساعدة ، وإنه كان بستانياً ممتازاً ، وإن الجماعة تستطيع ان تتوقع منه خدمات افضل من تلك التي يؤديها هو اليها ؛ على حين أنه ، إذا لم يُلحَقْ اخوه بالدير ، فسوف يضطر هو - بوصفه الاكبر سنّاً ، وقد استشعر الشيخوخة والعجز عن النهوض بعبء العمل - الى مغادرة الدير ، آسفاً لذلك أعظم الاسف ، وإن لاختيه بنتاً صغيرة سوف تصعبه ، وسوف يكون في ميسورها ان تنشأ تحت راية الله في الدير ، ولعلها ان تصح - فمن يدوي ؟ - في يوم من الايام ، راهبة .

حتى اذا انتهى ، كفت الرئيسة عن إمرار حبات السبعة من خلال اصابعها ، وقالت :

- « هل نستطيع ، من الآن حتى المساء ، أن نحصل على قضيب حديدي قوي ؟ »

- « لأي غرض ؟ »

- « لكي نتخذ منه 'مُخْتَلًا' . »

فأجابها فوشلوفان :

- « نعم ، اينها الأم الموقرة . »

ونفضت الرئيسة ، من غير ان تضيف كلمة واحدة ، ومضت الى الغرفة التالية التي كانت قاعة مجلس الراهبات حيث كانت الامهات الصوتيات مجتمعاتٍ في اغلب الظن . وبقي فوشلوفان وحيداً .

### ٣

## الأم اينوسانت

وانقضى ربع ساعة تقريباً . ورجعت الرئيسة وجلست على الكرسي

من جديد .

وبدا كلُّ منهما مستغرقاً في التفكير . وها نحن ننقل هنا ، احسن ما نستطيع النقل ، ذلك الحوار الذي تلا :

- « أيها الأب فوقان ؟ »

- « ايها الام الموقرة ؟ »

- « انت تعرف الكنيسة جيداً ؟ »

- « إن لي قصصاً صغيراً هناك أسمع منه للقداس والخدمات

الدينية . »

- « وهل دعناك امالك الى ان ندخل في يوم من الايام الجزء

الحاص بالجرقة ؟ »

- « مرة او ثلاث مرات . »

- « إن ثمة حبراً بنبني ان يُرفع . »

- « أمر ثقيل ؟ »

- « إنها البلاطة الموضوعة الى جانب المذبح . »

- « الحبر الذي يغطّي الكهيف ؟ »

- « نعم . »

- « هذه مناسبة تهض دليلاً على ان من الخير ان يكون هنا

رُجلان . »

- « الأمّ صعود ، القوة مثل الرجال ، سوف تساعدك . »

- « مهما بلغت المرأة من القوة تظلّ اضعف من ان تضاهي الرجل . »

- « ليس عندها غير امرأة واحدة لتساعدك . وكلُّ يعمل على قدر

طاقته . إن المعلم مائبيون يعطينا اربعمئة وسبع عشرة رسالة من

القديس برنارد ، في حين يعطينا ميرونوس هورستبوس ثلاثمئة وسبعاً

وستين لبس غير ، ولكن هذا لا يدعوني الى احتقار ميرونوس

هورستبوس . »

- « وانا كذلك . »
- « إن قيمة كل منا تقاس بمقدار ممله بالنسبة الى قوته . إن  
الدير ليس مصنوعاً للفن . »
- « والمرأة ليست رجلاً . إن اخي هو القوي ! »
- « والى هذا فسوف يكون عندك 'مخل' . »
- « هذا هو المفتاح الوحيد الذي يناسب ذلك للغرب من الابواب . »
- « هناك حلقة في الحبر . »
- « ولسوف أرمي المحل من خلالي . »
- « ولقد أقيم الحبر بطريقة تجعله يدور على محور . »
- « حسن جداً ، اينها الأم الموقرة . سوف أفتح الكهيف . »
- « والامهات الاربع المرتلات سوف يساعدنك . »
- « وبعد أن يُفتح الكهيف ؟ »
- « يجب ان يُفلق من جديد . »
- « أهذا كل شيء ؟ »
- « لا . »
- « أصدرى اليّ اوارك ، اينها الأم الموقرة جداً . »
- « فوفان ، إن لنا ثقة فيك . »
- « انا هنا لكي أعمل كل شيء . »
- « ولكي تسكت عن كل شيء . »
- « نعم ، اينها الأم الموقرة . »
- « وحين يُفتح الكهيف ... »
- « أغلقه من جديد . »
- « ولكن قبل ... »
- « ماذا ، أينها الام الموقرة ؟ »
- « يجب ان يُنزل شيء الى هناك . »

وراء الصمت . وبعد اختلاجه من شفتيها الصغيرة بدت اشبه  
بالتردد ، أضافت الرئيسة :

- « ايها الأب فوفان ؟ »
- « ايها الأم الموقرة ؟ »
- « انت تعلم ان احدى « الامهات » توفيت هذا الصباح . »
- « لا . »
- « انت لم تسمع النافوس اذن ؟ »
- « إن المرء لا يسمع شيئاً في أقصى الحديقة . »
- « حقاً ؟ »
- « لاني لا أتبين دقة الجرس الخاصة بي إلا بشقّ النفس . »
- « لقد ماتت مع الفجر . »
- « وإلى هذا ، فان الريح لم تهبّ صوبي ، هذا الصباح . »
- « إنما الامّ كروسييفكيون . احدى الطوباويات . »
- وصمتت رئيسة الدبر ، وحركت شفتيها لحظةً وكأنها تصلي صلاة  
ذهنية ، ثم استأنفت كلامها :
- « منذ ثلاث سنوات ، ولجرت رؤيتها الأمّ كروسييفكيون ،  
وجعت امرأةً بَنَحِينِيَّة \* الى الطريق القويم . »
- « آه ، أجل . أنا أسمع النعمي الآن ، ايها الأمّ الموقرة . »
- « لقد حملتها الامهات الى حجرة الموتى ، المزدية الى الكنيسة . »
- « ادري . »
- « ليس في استطاعة رجل غيوك ان يدخل الى تلك الحجرة ،  
ولا يجوز له أن يفعل . انتبه جيداً . فسوف يكون من المستغرب أن  
يُرى رجلٌ داخلاً الى حجرة الموتى ! »

---

\* Janséniste من اتباع يفتيوس Jansénius اللاهوتي الاسياني ( ١٥٨٥ - ١٦٢٨ )  
وكان له آراء خاصة في النعمة وحرية الارادة اثارَت عليه تامة للكنيسة الكاثوليكية .

- « في الأغلب ! »
- « هيه ؟ »
- « في الأغلب ! »
- « ماذا تقول ؟ »
- « أقول في الاغلب . »
- « اغلب من ماذا ؟ »
- « ابتها الأم الموقرة . انا لا أقول اغلب من ماذا . ألا أقول في الاغلب . »

- « لست أفهمك . »
- « لماذا تقول في الاغلب ؟ »
- « لكي أقول كما تقولين ، ابتها الأم الموقرة . »
- « ولكنني لم أقل في الأغلب . »
- « انتِ لم تقوليها . ولكنني قلتها لكي أقول كما تقولين . »
- وأعلنت الساعة التاسعة .
- فقالت الرئيسة :

- « في الساعة التاسعة من الصباح ، وفي كل ساعة ، الحمد والسجود لقران المذبح الأقدس . »
- فقال فوشلوفان :
- « آمين ! »

- ودقّت الساعة في الوقت المناسب . لقد وضعت حدّاً للنقاش حول « في الاغلب » تلك . ولولا ذلك لكان من الجائز ان لا توفّق الرئيسة وفوشلوفان الى الخروج من تلك الورطة أبد الدهر .
- ومسح فوشلوفان جبينه .
- وغنمت الرئيسة ثمةً قليلةً قصيرةً اخرى ، لعلها مقدسة ، ثم رفعت صوتها :

- « كانت الأم كروسيفسكيون تودّ الناس ، في حياتها ، الى طريق الدين القويم . وفي ممانها ، سوف تجتوح العجائب . »  
 - « إنها سوف تقفل ! » كذلك اجاب فوشلوفان ، مصحّحاً خطوته ، باذلاً جهداً لكي لا يخطئ . كرة اخرى . »  
 - « أما الأب فوفان ، لقد بوركت جماعة الدير بفضل الأم كروسيفسكيون . ولا ريب في أنه لم يقيّض<sup>١</sup> لجميع الناس أن يموتوا مثل الكاردينال دو بيروول وهو يتلو القدّاس الطاهر ، وان يلفظ نفسه الأخير وهو ينطق بهذه الكلمات : *Hanc igitur oblationem* \* . ولكن من غير أن تنعم الام كروسيفسكيون بهذه السعادة كلها ، فقد حظيت بميّنة<sup>٢</sup> نفيسة . لقد احتفظت بوعيا حتى النهاية . لقد تحدثت<sup>٣</sup> اليها ، ثم تحدثت<sup>٤</sup> الى الملائكة . لقد اصدرت اوامرها الاخيرة اليها . ولو كانت لك إيمان<sup>٥</sup> أكبر بعض الشيء ، ولو كان في ميسورك ان تدخل الى قليتها اذن لشقّت<sup>٦</sup> رجلك بجمرد<sup>٧</sup> لها . لقد ابتسمت<sup>٨</sup> . ولقد شعرت<sup>٩</sup> بأنها تعود الى الحياة بالرب . كان ثمة شيء من الجنة في تلك الميّنة . »  
 وحسب فوشلوفان أنه كان يصفي الى صلاة ، فقال :

- « آمين ! »

- « أما الأب فوفان ، يجب ان تنقذ رغبات الموتى . »  
 وأحصت الرتبة بضع حبات من سبحتها ، وكان فوشلوفان صامتاً . ثم تابعت :

- « لقد استشرت<sup>١٠</sup> في هذه المسألة عدداً من الاكليركيين العاملين في خدمة الرب ، المنصرفين الى اداء المهام الكهنوتية في نجاح كبير . »  
 - « ايها الأم الموقرة ، ان المرء يسمع النعي<sup>١١</sup> هنا أحسن مما يسمعه في الحديقة بكثير . »

- « وفرق هذا ، فأنها اكثر من ميّنة . إنها قديسة . »

« صارة لانيية تردد عند الشروع في القداس . ومناعها مقدمة القربان . »

- « مثلك ، أيتها الأم الموقرة . »
- « لقد نأمت في نعشها منذ عشرين عاماً ، بأذن خاص من أبينا المقدس ييوس السابع . »
- « ذلك الذي توجّج الامة .... بئوتايوت . »
- وبالنسبة الى رجل حاذق مثل فوشوفان كانت الذكرى مشؤومة .
- واغلب الظن ان الرئيسة ، المستغرقة في تفكيرها ، لم تسمع .
- رواصلت كلامها :
- « اها الأب فوفان ؟ »
- « أيتها الأم الموقرة . »
- « لقد رغب القديس ديودوروس ، رئيس اساقفة كبادوسية ، في ان لا تُكتب على قبره غير هذه الكلمة *Acorus* \* ، وهي تعني دودة من ديدان التراب . وتُنفذت تلك الرغبة . هل هذا صحيح ؟ »
- « أجل ، أيتها الأم الموقرة . »
- « وميزوكان المبارك ، رئيس دير آكيلا ، رغب في ان يدفن تحت المشنقة . وقد نفذت تلك الرغبة . »
- « هذا صحيح . »
- « والقديس تيرانس ، أسقف بور ، عند مصب نهر الدوفير ، في البحر ، رغب في ان تُحفَر على قبره العلامة التي تُوضع على قبور قنة آبائهم أو امهاتهم ، رجاء ان يصدق المسافرون على قبره . وتُنفذت تلك الرغبة . إن علينا ان نطيع الموتى . »
- « ليكن ذلك . »
- « إن جثمان برنارد غويدونيس ، المولود في فرقة قرب د روش آباي ، قد نُحِلَّ - بناء على رغبته ، وبرغم معارضة ملك قشتالة - الى كنيسة الدومينيكيين في ليسوج ، على حين ان برنارد غويدونيس

« عنة او سومة .



- كان اسقف ثوري في اسبانية . هل يستطيع احد انكار ذلك ؟ ،
- « لا ، ايها الأم الموقرة . »
- « لقد أثبت ذلك بلاتنايت دو لا فوس . »
- وأمرت بضع حبات اخرى تحت أصابعها في صمت . ثم استأنفت حديثها :
- « ايها الاب فوفان ، ان الأم كروسيفكيون سوف تدفن في النعش الذي ثامت فيه منذ عشرين سنة . »
- « هذا صحيح . »
- « إنه استمرار في النوم . »
- « سوف اضطر الى ان استرها في ذلك النعش اذن ؟ »
- « أجل . »
- « وسوف نضع نعش الدفتان جانباً . »
- « نعماً . »
- « أنا تحت تصرف جماعة الدير الموقرة جداً . »
- « إن الامهات الاربع المرتلات سوف يساعدنك . »
- « لدقة المسامير في النعش ؟ أنا لست محتاجاً اليهن . »
- « لا ، لأنزال النعش . »
- « الى ابنه ؟ »
- « الى الكهيف . »
- « ايّ كهيف ؟ »
- « الذي تحت المذبح . »
- وأجفل فوشلوفان :
- « الكهيف الذي تحت المذبح ! »
- « تحت المذبح . »
- « ولكن ... »

- « سوف يكون لديك قضيب حديدي . »
- « اجل ، ولكن ... »
- « وسوف ترفع الحجر بالتضيق بواسطة الحلقة . »
- « ولكن ... »
- « يجب ان نطيع الموتى . لقد كانت أمنية الأم كروسيفكسيون ان تدفن في الكهف الذي تحت مذبح الكنيسة - لا أن نذهب الى التربة غير الطاهرة - وان تبقى بعد المئات حيث حلت في الحياة . لقد طلبت ذلك ، يعني لقد اصدت أسرها بذلك . »
- « ولكن هذا محظور . »
- « لقد حظروا البشر ، وأمر به الله . »
- « واذا اكتشف ذلك ؟ »
- « إن لنا ثقة فيك . »
- « اوه ، من فاجئني ، انا مثل حجر من حجارة جدارك . »
- « لقد اجتمع مجلس الراهبات . ولقد قررت الامهات الصونيات ، اللواتي شاورهن كرهة اخرى ، واللواتي يتذاكرن الان ، ان تدفن الام كروسيفكسيون ، وفقاً لرغبتها ، في نعشها تحت مذبحنا . نحيل أياها الاب فوقان الوضع اذا ما اجترحت العجائب من هنا ! ايّ مجد في الرب ستعظم به جماعة الدير ! ان المعجزات تنبثق من القبور . »
- « ولكن ، ايها الأم الموقرة ، واذا أقبل شرطي مفوض الصحة ؟ ... »
- « لقد قاوم القديس يينوا الثاني ، في مسألة الدفن ، فلسطين بوجوثاتوس \* . »
- « ومع ذلك ، فإن مفوض الشرطة ... »

---

\* هو قسطنطين الرابع ، امبراطور الامبراطورية البيزنطية الشرقية ( ٦٤٨-٦٨٥ )

- « وإن كونودمير ، أحد الملوك الألمان السبعة الذين دخلوا وغالوا ، في عهد الامبراطور كونستانس ، اعترف في صراحة بحقّ الرهبان في ان يُدفنوا على الطريقة الدينية ، يعني تحت المذبح . »
- « ولكن مفتش الشرطة ... »
- « ان العالم ليس شيئاً أمام الصليب . ولقد أوصى مارتن ، الرئيس العام الحادي عشر للرهبانية القرطوسية ، أتباعه بهذه الوصية :

*Stat crux dum evolvitur orbis*

- « آمين ! » كذلك قال فوشلوفان ، وهو رابط الجأش في التعبير عن نفسه على هذا النحو كلما سمع شيئاً من الكلام اللاتيني .
- ان جماعة من المستمعين ، مهما يكن عدد افرادها ضئيلاً ، لتُرضي من سلخ فترة طريفة من الزمان وهو معتمٍ بالصمت . فيوم غادر الخطيب جيناستوراس السجّنة ، مفعم الصدر بذخيرة مكبونة من البراهين ذوات الحدين والافيسة المنطقية ، وقف عند أول شجرة التقاه ، وخطب فيها ، وبذل جهداً كبيراً لاقناعها . كذلك نهضت الرئيسة ، الحاضمة عادة لسد من الصمت ، بعد أن وجدت في خزانها فائضاً ، وهفت بمثل ثروة سدّ فتح بابه :

- « ان الى يميني بينوا ، والى شمالي بونارد . من هو بونارد ؟ هو أول رئيس لدير كليرفو . و « فونتسان » في بورغونني بلد مبارك لانه كان مسقط رأسه . كان اسم أبيه تيسلين ، وكان اسم أمه آليت . لقد بدأ في « سيتو » وانتهى الى « كليرفو » . لقد أسند اليه رئاسة الدير اسقف « شالون سور ساوون » غيوم دو شامبو . كان له سبعة تلميذ ، ولقة أسس مئة وستين ديراً . لقد أفحم آيتار في مجمع صان ، عام ١١٤٠ ، و « بيير دو برّزي » وتلميذه هـنوي ، وجماعة أخرى من الضالين تُعرف بـ « الرسولين » . لقد ألقم « آرنو

. في اللاتينية ومنامها : الصليب ثابت لا يتزعزع ، والدنيا تدور دورانها .

دو بريس ، حجرآ ، وصق الراهب رالف ، ذابح اليهود ، ورس  
عام ١١٤٨ بجمع ريس ، وحمل الكنيسة على أن تدين « جيلبرت دو  
لابوريه ، أسقف بواتيه ، وحملها على أن تدين « إيون دو لينوال » ،  
وأصلح ما بين الامراء ، ونصح الملك لويس الفتي \* ، وقدم المشورة  
لبابا أوجين الثالث ، ونظّم « الهيكل » ، ودعا الى الحرب الصليبية ،  
واجترح متين وخمين عجيبة في حياته ، تمّ له منها تسع وثلاثون في  
يوم واحد . ومن هو بينوا ؟ انه بطريرك مونت كاسينو ؛ انه المؤسس  
الثاني « لآقداسة الدورية » ؛ انه باسيل \*\* الغرب . لقد أنجبت رهبانته  
أربعين بابا ، ومثي كاردينال ، وخمين بطريركاً ، وألفاً وستة رئيس أساقفة ،  
وأربعة آلاف وستة أسقف ، وأربعة أباطرة ، واثنى عشرة امبراطورة ،  
وسة وأربعين ملكاً ، واجدى وأربعين ملكة ، وثلاثة  
آلاف وستة قديس معلني القداسة ، ولا تزال قائمة منذ  
الف واربعمئة سنة . القديس برنارد من ناحية ، وشرطي اللجنة  
الصحية من ناحية ! القديس بينوا من ناحية ، ومفتش الصحة من ناحية !  
الدولة ؛ دائرة الطرق العمومية ؛ الانظمة الجنائية ؛ القوانين ؛  
الادارة ؛ هل ندرك هذه الاشياء ؟ إن كل امرئ لتثور تأثيره حين  
يرى الى الطريقة التي 'نعامل' بها . لئنهم يجرموننا حتى من حقنا في ان  
نقدّم رفاتنا الى يسوع المسيح ! إن لجنتك الصحية هي من اختراعات  
الثورة . يجب ان يخضع الله لمفوض الشرطة ؛ ذلك هو منطق هذا  
العصر . إصمت يا فوقان ! »

ولم يستثمر فوشلوفان الارتياح ، تحت وابل هذا التأنيب . وتابعت  
الرئيسة كلامها :

---

\* Louis le Jeune هو لويس السابع وقد حكم فرنسا من عام ١١٣٧-١١٨٠  
\*\* القديس باسيل ابو الكنيسة اليونانية ( ٣٢٩ - ٣٧٩ ) والمقصود انه بالنسبة  
الى الغرب بمثابة باسيل بالنسبة الى الكنيسة اليونانية ، الشرقية .

— « إن حقّ الدّير في الدفن لا يمكن ان يشك فيه احدٌ . وليس  
 ثمة من يُنكره غير المتعصّين والضالّين . نحن نحيا في عصر بلبلة فظيعة .  
 فالناس يجهلون ما ينبغي لهم ان يعملوه ، ويعلمون ما ينبغي لهم ان  
 يجهلوه . انهم أجيال ملحدون . وهناك في هذا العصر اناس لا يميزون  
 بين القديس برنارد العظيم وبرنارد المأموف بـ « برنارد الكاثوليك الفقراء » ،  
 وهو أحد الرهبان الصالحين من اهل القرن الثالث عشر . وآخرون  
 يحدّثون الى حدّ يجعلهم يقارنون ما بين دكة المشقة التي أعدم بها لويس  
 السادس عشر وصليب يسوع المسيح . إن لويس السادس عشر لم يكن  
 غير ملك . فلنحدّث الله إذن ! لم يبقَ ثمة لا مستقيسون ولا زانثون .  
 لأنهم يعرفون اسم فولتير ، ولكنهم لا يعرفون اسم « سيزار دو بوس » \*  
 ومع ذلك فسيزار دو بوس طوباويّ سعيد وفولتير شقيّ منكود  
 الحظّ . ورئيس الاساقفة الاخير نفسه ، كاردينال بيرغفور ، لم يعرف  
 ان شارل دو غوندرين قد خلّف بيرول ، وان فرانسوا بورغوان قد  
 خلّف غوندرين ، وأن جان فرانسوا سينو قد خلّف بورغوان ،  
 وان الاب « دو سانت مارثا » قد خلّف جان فرانسوا سينو .  
 والناس يعرفون اسم الاب « كوتون » ، لا لأنه كان أحد الثلاثة الذين  
 عملوا في تأسيس رهبانية الـ « أوراتوار » ، ولكن لأنه كان موضوع  
 تجديف للملك الهوغونوتي \*\* هنري الرابع . وإذا كانت القديس فرانسوا  
 دو سال قريباً الى نفوس ابناء هذا العالم فلأنه قد غشّ في القمار . ثم  
 إن الناس يهاجون الدين . لماذا ؟ لانه كان ثمة كهان أشرار ، لاث  
 ساغيتير ، اسقف غابّ ، كان أخاً لسالون ، اسقف امبيرون ، ولأن

\* Cinar de Bus مؤسس « رهبانية إخوة العبيدة الميحية » ( ١٥٤٤-١٦٠٧ )  
 وقد تراه بعد أن سلخ صدر شبابه متضاماً في اللذات والشهوات .  
 \*\* الهوغونوت لفظ يطلق على البروتستانت الفرنسيين .

كلاهما قد اتبع « مامون » \* وما الذي يمكن ان ينتج عن هذا ؟ هل يمنع ذلك مارتن التوري من ان يكون قديساً ومن ان يقدم نصف رداؤه الى احد الفقراء ؟ إنهم يضطهدون القديسين . إن الناس ليغمضون أعينهم عن الحق . لقد غدت الظلمة شيئاً مألوفاً . وأشد الوحوش ضراوة هي الوحوش المكفوفة البصر . ان احداً لا يفكر في جهنم تفكيراً جدياً . اوه ! يا للشعب الشرير ! إن « بامم الملك » تعني اليوم « باسم الثورة » . ولم يعد الناس يعرفون لا حقوق الاحياء ولا حقوق الاموات . ولقد غدا الموت على نحو مقدس أمراً محظوراً . كما غدا القبر مسألة مدنية . وهذا شيء رهيب ! لقد كتب القديس لير الثاني رسالتين مسهبتين ، الاولى الى « بيبو نوتير » والثانية الى ملك القوط الغربيين لكي يدفع ويسفّه ، في المسائل المتصلة بالموت ، سلطة الأكسرخوس \*\* وسيادة الأمبراطور العليا . ولقد قاوم غوثيه أحقف سالون ، في هذه القضية ، اوتون دوق بورغونني . ولقد سلم القضاء القديما بهذا . وفي العهود الماضية كنا نصوت في مجلس الرهبانيات حتى على المسائل الزمنية . وكان رئيس دير سيتو ، وهو مقدّم الرهبانية ، مستشاراً وراثياً لبرلمان بورغونني . إننا نفعل بوثانا ما نجعل لنا . أليس جثمان القديس بينوا نفسه في فرنه في دير فلوري المعروف بدير « سان بينوا سور لوار » برغم انه مات في مونت كاسينو بايطالية ، يوم السبت الواقع في الحادي والعشرين من شهر آذار عام ٥٤٣ ؟ إن هذا كله لا يقبل الجدل . أنا امقت جماعة المرتلين ؛ انا اكره رؤساء الاديرة ؛ انا أبغض المراهقة ، ولكني احقد اكثر على أيما شخص يُثبت لي خلاف ما قلت . وليس عليك إلا ان تقرأ « آرنول ويون » ،

---

\* « الله المال عند الاشوريين . وقد أطلق هذا الاسم في « الكتاب المقدس » على شيطان المال خصراً ، وعلى الشيطان بصورة عامة ايضاً .  
 \*\* نائب امبراطور القسطنطينية في ايطالية أو في افريقية .

و « غابرييل بوسلين » ، و « تريتيم » ، و « موروليكوس » ،  
و « دوم لوقا داشري » .

وأخذت رئيسة الدير نفساً ، ثم التفتت نحو فوشلوفان :

- « ايها الاب فوفان ، هل مُحييت المسألة ؟ »

- « لقد مُحييت ، ايها الام الموقرة . »

- « هل استطيع انت اتكل عليك ؟ »

- « سوف امتثل امرك . »

- « حسن . »

- « إني أفتاني في خدمة الدير كل التفاني . »

- « لقد غدا واضحاً انك سوف تُفلسق النعش . إن الأخوات

سوف يحمله الى الكنيسة . وسوف تُتلى صلاة الميت . وبعد ذلك

يرجعن الى الدير . وبين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل سوف تأتي

انت ومعك الضبيب الحديدي . ان كل شيء سوف يُصنع في سرية

كاملة . ولن يكون في الكنيسة غير « الأمهات » الاربع المرتلات ،

والأم « صعود » ، وأنت . »

- « والاخت التي ستكون في المركز ؟ »

- « إنها لن تلتفت . »

- « ولكنها سوف تسمع . »

- « انها لن تصغي . والى هذا ، فان ما يعرفه الدير لا يعرفه

العالم . »

وران الصمت لحظة . ثم استأنفت الرئيسة كلامها :

- « سوف تنزع جلجلك . لا داعي الى أن تلمح الاخت التي في

المركز أنك هناك . »

- « أيتها الام الموقرة ؟ »

- « ماذا أيها الاب فوفان ؟ »

« سوف يفرم بها اليوم ، في الساعة الرابعة . لقد قُرع الناقوس الذي يدعو طبيب الموتى الى المجيء . ولكنك لا تسمع ايأاً من دقات الناقوس ، اذن ؟ »

« أنا لا أنتبه الا لدقاته الخاصة بي . »

« هذا حسن أها الاب فوفان . »

« أيتها الأم الموقرة ، سوف أحتاج الى محل يبلغ طوله ستة أقدام على الأقل . »

« من أين ستأتي به ؟ »

« حيث تكثر التوافذ المشبكة تكثر القضبان الحديدية . انت عندي كومة من الحداث العتيقة في مؤخرة الحديقة . »

« قبل منتصف الليل بثلاثة أرباع الساعة . لا تنس . »

« أيتها الام الموقرة ؟ »

« ماذا ؟ »

« اذا احتجت الى القيام بأي عمل آخر مثل هذا ، في المستقبل ،

فان أخي قوي جداً . انه تركي . \* »

« سوف تقوم بذلك بأمرع ما يمكن . »

« أنا لا أستطيع أن أسرع . انا عاجز . من أجل ذلك طلبتُ أن

يكون لي مساعد . اني اعرج . »

« العرج ليس جريمة ؛ انه قد يكون بركة . ان الامبراطور

هنري الثاني الذي قاتل غريغوري ، البابا الزائف ، واعد بينوا الثامن

الى الكرسي الرسولي كان له لقبان ( surnoms ) : القديس ، والاعرج . »

فغمغم فوشلوفان الذي كان ثقيل السمع ، في الواقع ، بعض الشيء :

---

\* يطلق لفظ « التركي » في الفرنسية على الرجل القوي جداً .



- « ان معطفين (surtouts) اثنين شيء عظيم ! » \*

- « ايها الاب فوفان ، يحيل اليّ ، وقد فكرت في ذلك ، اننا سوف نحتاج الى ساعة كاملة . وهذا ليس بالشيء الكثير . كن قرب المذبح العالي ، حاملاً القضيبة الحديدي ، في الساعة الحادية عشرة . إن الصلاة ستبدأ عند منتصف الليل . وينبغي ان يتمّ كل شيء قبل ذلك بربع ساعة او يزيد . »

- « سوف اعمل كل ما يثبت غيرتي على جماعة الدير . لقد تفاهنا على ما يلي : سوف اذق المسامير في النعش . وعند الساعة الحادية عشرة تماماً سوف اكون في الكنيسة . وسوف تكون الامهات المرتلات هناك ، وكذلك ستكون الأم « صعود » هناك . لو كان ثمة رجلان لكان افضل . ولكن لا بأس ! سوف يكون معي غحلي . سوف نفتح الكهيف ، وننزل النعش ، ثم نعلق الكهيف من جديد . وبعد ذلك لن يكون ثمة اثر لا بما شيء . ان الحكومة لن ترتاب في شيء . ابتها الأم الموقرة ، اهذا كل ما هنالك ؟ »

- « لا . »

- « وماذا بقي بعد ، اذن ؟ »

- « بقي التابوت الفارغ . »

وران الصمت . وفكر فوشلوفان . وفكرت الرثيصة .

- « ايها الاب فوفان ، ما الذي سوف نعمله بالنعش ؟ »

- « سوف ندسه في التراب . »

- « فارغاً ؟ »

وران الصمت ككرة اخرى . واوماً فوشلوفان بيده اليسرى تلك

---

\* وضعنا اللفظ الفرنسي بعد كلمتي « لقبان » surnoms « و«مطفين» surtouts حتى يلاحظ القارئ السبب الذي جعل فوشلوفان يهتم بهذا الجواب . ذلك انه ظن أن رثيصة الدير قالت surtouts لا surnoms .

الايادة الخاصة التي تطرد سؤالاً بغيضاً .

- « ايها الام الموقرة ، سوف استمر النعش في الغرفة السفلى من الكنيسة . وليس في استطاعة احد غيري ان يدخل الى هناك ، وسوف اغطي النعش بالكفن . »

- « اجل ، ولكن حَمَلَة النعش سوف يلاحظون من غير شك ، حين يضعونه في عربة الموتى ، وحين ينزلونه الى القبر ، ان ليس في داخله شيء . »

فهتف فوشلوفان :

- « آه ، يا للشئ ... ! »

وشرعت الرئيسة ترسم اشارة الصليب على صدرها ، وحدقت الى البستاني . لقد علقت « ... طان » \* في حلقومه .

وسارع الى التفكير بوسيلة تنسيها ذلك التجديف .

- « ايها الام الموقرة ، سوف اضع بعض التراب في النعش . إن ذلك سيجعله ثقيلاً وكان فيه جثائناً . »

- « انت على صواب . التراب لا يختلف عن الانسان في شيء . واذن ف سوف تسوي مسألة النعش الفارغ ؟ »

- « سوف ادير الامر . »

واستعاد وجه الرئيسة صفاءه ، وكان حتى تلك اللحظة مضطرباً مكفهرآ . واومأت اليه ايامة رئيس يسترّح مرؤوساً . فتقدّم فوشلوفان نحو الباب ، وفيما هو يغادر الغرفة رفعت الرئيسة صوتها في رفق :

- « ايها الاب فوقان ، انا راضية عنك . غداً بعد الدفن ، جئني بأخيك ، وقل له ان يصطحب ابنته . »

---

\* وهي البقية الباقية من كلمة « شيطان » .

## حيث يظهر جان فالجان بمظهر من قرأ اوستين كاستيليجو تماماً

ان خطوات الاعرج اشبه شيء بنظرات الاعور ؛ إنها لا تنتهي الى غايتها في سرعة . وإلى هذا فقد كان فوشلوفان مرتبكاً . لقد احتاج الى ربع ساعة تقريباً للعودة الى كوخه في الحديقة . كانت كوزيت يقظ . وكان جان فالجان قد اجلسها قرب النار . لحظة دخل فوشلوفان ، كان جان فالجان يُربح سلة البستاني معلقة على الجدار ، ويقول لها :

- « أصفي الي جيداً ، يا صغيرتي كوزيت . يجب ان نغادر هذا البيت ولكن سوف نعود ، وسوف نكون سعيدين هنا . ان الرجل الطيب الذي هنا سيتفكك على ظهره . وسوف تنتظريني في منزل احدى السيدات . إني سأعود وأصطحبك . وفوق كل شيء ، اذا كنت لا تريد ان تستردك تينارديه الزوجة ، فيجب عليك ان تكوني مطيعة ، وان لا تقولي شيئاً . »

واومات كوزيت برأسها وقد غلبت عليها الكآبة .

وحين سمع جان فالجان صوت فُتَح فوشلوفان الباب التفت وقال :

- « خير ؟ »

فقال فوشلوفان :

- « لقد سُوي كل شيء ، ولم يبق شيء . لقد حصلت على اذن بادخالك ، ولكن قبل ان ادخلك يتعين علي ان اخرجك . هنا المشكلة . أما الصغيرة فأمرها هين . »

- « سوف تخرجها ؟ »

-- « وهل ستلزم الصمت ؟ »

- « انا وائق من ذلك . »  
 - « ولكن انت ، ايها الاب مادلين ؟ »  
 وبعد صمت مشوب بالقلق ، هتف فوشلوفان :  
 - « ولكن لماذا لا تخرج من حيث دخلت ؟ »  
 فاكفى جان فالجان بأن أجابه ، شأنه من قبل :  
 - « مستحيل . »

وغمغم فوشلوفان ، مخاطباً نفسه اكثر منه مخاطباً جان فالجان :  
 - « هناك شيء آخر يقضّ مضجعي . لقد قلت لاني سوف أضع  
 هناك بعض التراب . ولكني أعتقد أن وضع التراب فيه بدلاً من  
 الجنة ، لن يجعله يبدو وكأن فيه جحناً حقاً . ان هذا العمل لن  
 ينبج . ان التراب سوف يجف . انه سوف يتحرك . وعندئذ يشعر  
 الرجال به . أتقهم ، ايها الاب مادلين ؟ ان الحكومة سوف تكتشف  
 الامر . »

وحدث جان فالجان اليه ، وظن انه كان يهذي .  
 واستأنف فوشلوفان حديثه :

- « ما السبيل ، بحقّ الشئ... طان ، الى خروجك من هنا ؟  
 لأن هذا كله يجب ان يتمّ غداً . غداً ، سوف أدخلك الى هنا . ان  
 الرئيسة تنتظرك . »

ثم أوضح لجان فالجان ان ذلك كان مكافأة له ، هو فوشلوفان ،  
 على خدمة يؤديها الى الجماعة . وان مهمته تقتضيه ، في جملة ما تقتضيه ،  
 أن يشارك في اعمال الدفن ، وأن يدقّ المسمير في النعش ، وأن  
 يساعد حفار القبور في الجبّانة . وأن الراهبة التي توفيت ذلك الصباح  
 أوصت بأن تدفن في النعش الذي كانت قد اتخذت منه فراشاً ، وأن  
 توارى الثرى في الكهيف الغام تحت مذبح الكنيسة . وأن أنظمة  
 الشرطة تحظر ذلك ، ولكنها كانت واحدة من هاتيك الراحمات

اللاواني لا يُردّ لمنّ أمر . وان رئيسة الدير والامهات الصونيات اعترمن  
 إنفاذ رغبة الفقيدة . وأن لأمّ الحكومة المبلّ ! وأنه هو ، فوشلوفان ،  
 سوف يسرّ النعش في القليّة ، ويرفع الحجر في الكنيسة ، ويُنزل  
 الجثمان الى الكهيف . وأنّ الرئيسة سوف تكافئه على ذلك بأنّ  
 تُدخل أخاه الى الدير ، بوصفه بستانياً ، وابنة أخيه بوصفها طالبة  
 داخلية . وأن أخاه كان مسيو مادلين ، وان ابنة أخيه كانت كوزيت .  
 وأنّ الرئيسة قالت له ان يجيء بأخيه صباح غدٍ ، بعد ان يتمّ الدفن  
 الكاذب في المقبرة . ولكنه لا يستطيع ان يجيء بمسيو مادلين من  
 الخارج ، اذا لم يكن مسيو مادلين في الخارج . وان تلك كانت هي  
 الصعوبة الأولى . وأنه كانت ثمة ، بعد ، عقبة اخرى : النعش الفارغ . ،  
 فسأله جان فالجان :

« وما النعش الفارغ ؟ »

فأجابه فوشلوفان :

« نعش الادارة . »

« ايّ نعش ؟ واية ادارة ؟ »

« حين تموت راهبة ، يأتي طبيب البلدية ويقول : لقد ماتت

راهبة . وتبعث الحكومة بنعش . وفي اليوم التالي ترسل عربة موتى ،

وبعض الحسنة ليأخذوا النعش وينقلوه الى المقبرة . ويُقبل حمة النعش

لينقلوه . فلا يكون في داخله شيء . »

« ضع شيئاً في داخله . »

« مَنْ ؟ شخصاً ميتاً ؟ ليس عندي ايّ ميت . »

« لا . »

« ماذا اذن ؟ »

« شخصاً حياً . »

« أي شخص حيّ ؟ »

فقال جان فالجان :

- « أنا . »

فوثب فوشلوفان - الذي كان قد جلس - وكانت حُقة بارود قد انفجرت تحت كرسيه .

- « انت ! »

- « ولمَ لا ؟ »

وانفجرت شفتا جان فالجان عن احدى تلك الالبسامات النادرة التي طَفَّتْ على بحياه مثل وميض في سماء شتاء .

-- « انت تعرف ، يا فوشلوفان ، انك قلت : ان الأم كروسيفكسيون قد ماتت . واني اضفت : والاب مادلين قد دُفن . ذلك ما سيكون . »

- « آه ، حسن . أنت تهزل . أنت لا تتحدث جاداً . »

- « جاداً الى ابعد الحدود . يجب ان اخرج من هنا . »

- « من غير ريب . »

- « ولقد قلت لك ان تبحث عن سلة وغطاء لي انا ايضاً . »

- « ثم ماذا ؟ »

- « ستكون السلة من خشب الصنوبر ، وسيكون الغطاء من

فماش أسود . »

- « قبل كل شيء ، احب ان اصصح الكلام فأقول : من قماش

ابيض . إن الراهبات يدفنن بالبياض . »

- « حسن ، من قماش ابيض . »

-- « انت لستَ مثل سائر الرجال ، ايها الاب مادلين . »

وكان في رؤية فوشلوفان هذه الحيل التي لم تكن غير مخترعات سجن الاشغال الشاقة ، الضاربة المتهورة - نقول كان في رؤية هذه الحيل نبتت وسط الاشياء الآمنة التي تحيط به وتخرج بما كان يدعو غطيّة

الدير النافذة ، ما اوقع في ذات نفسه انشداهاً أشبه بانشداه عابر سبيل  
يرى زُمج ماء \* بصطاد في ساقية شارع « سان دونيز » .

وتابع جان فالجان :

- « المقصود ان اخرج من هنا من غير ان يراني احد . هذه وسيلة .  
ولكن ، قبل كل شيء ، أعلمني . كيف يجري ذلك ؟ ابن هذا  
النعش ؟ »

- « النعش الفارغ ؟ »

- « نعم . »

- « تحت . في ما يدعى حجرة الموتى . إنه فوق صقالتين وتحت  
الكفن . »

- « ما طول النعش ؟ »

- « ستة أقدام . »

- « وما هي حجرة الموتى هذه ؟ »

- « إنها حجرة في الدور الاسفل ذات نافذة مقضبة تطل على  
الحديقة ، وتوصد من الخارج بمصراع وبابين ؛ احدهما يؤدي الى الدير ،  
والاخر يؤدي الى الكنيسة . »

- « أية كنيسة ؟ »

- « الكنيسة التي على الشارع . الكنيسة التي يدخل اليها كل  
انسان . »

- « اعندك مفتاحا هذين البابين ؟ »

- « لا . عندي مفتاح الباب المؤدي الى الدير . أما مفتاح الباب  
المؤدي الى الكنيسة فهو مع البواب . »

- « ومنى يفتح البواب ذلك الباب ؟ »

- « حين يقبل الحمكة لنقل النعش ، ليس غير . وما يكاد  
النعش يخرج حتى يُغلق الباب من جديد . »

« goeland وهو طائر بحري ابيض اللون . »

- « ومن الذي يدق الماسير في النعش ؟ »  
 - « انا . »  
 - « ومن يغطيه بالقماش ؟ »  
 - « انا . »  
 - « هل انت وحدك . »  
 - « ليس ثمة رجل آخر - غير طبيب الشرطة - يستطيع ان يدخل الى حجرة الموتى . بل إن ذلك مكتوب على الجدار نفسه . »  
 - « هل تستطيع الليلة بعد ان ينام كل امرئ في الدبر ان تخبئني في تلك الحجرة ؟ »  
 - « لا . ولكنني استطيع ان اخبئك في حجرة مظلمة تؤدي الى حجرة الموتى حيث أحفظ بأدواتي الخاصة بالدفن . إنها حجرة انا حارسها وحامل مفتاحها . »  
 - « ومنى ستقبل عربة الموتى لنقل النعش غداً ؟ »  
 - « حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر . إن الدفن سوف يتم في مقبرة فوجيرار ، قبيل المساء . إنها ليست قرية جداً . »  
 - « سوف ابقى مختبئاً في حجرة ادواتك طول الليل وطول النهار . ومساءلة الطعام ؟ سوف أحس بالجوع . »  
 - « اني سأحمل اليك ما تأكله . »  
 - « وفي استطاعتك ان تأتي وتوصد النعش علي ، بالماسير ، في الساعة الثانية . »  
 - « وأجفل فوشلوفان واخذ يقضض عظام اصابعه . »  
 - « ولكن هذا مستحيل ! »  
 - « ودع عنك ذلك . كل ما عليك ان تفعله هو ان تتناول مطرقة وتدق بعض الماسير في لوح خشبي . »  
 - « ونحن نكرر هنا ان ما بدا غريباً لم يُسمع بمثله عند فوشلوفان »



كان يسيراً عند جان فالجان . فقد سبق ان وجد جان فالجان نفسه في مآزق أسوأ . وكل من دخل السجن يعرف ذلك الفن الذي يمكن صاحبه من ان ينكسح وفقاً لابعاد المكان الذي يلجأ اليه ابتغاء الهرب . والسجين عرضة للفرار ، كما ان المريض عرضة للأزمة التي تشفيه او تصرعه . والفرار شفاء . واي شيء لا يحتمله المرء لكي يشفى ؟ ولأن 'ندق' عليه المسامير ، ويُحتمَل في صندوق كما يُحمل الطرد ، ولأن يعيش فترة طويلة في علبة ، ويجد الهواء حياً . لا هواء ، ويقتصد في التنفس ساعات بكاملها ، ويعرف كيف يحتنق من غير ان يموت - ذلك كان جزءاً من مواهب جان فالجان الكالحة .

وانى هذا فان نعثاً ينطوي على كائن حيّ ، تلك الحيلة التي ابتدعتها خلية المحكوم عليه بالاستغلال الشاقة ، هو حيلة امبراطورية ايضاً . فاذا كان لنا أن نصدق الراهب اوستين كاسيلييجو كانت هذه هي الوسيلة التي اصطنعها شارل الخامس - وقد رغب بعد تنازله عن العرش في ان يرى « لا بلومب » للمرة الاخيرة - لكي يجيء بها الى دير « سان جوست » ثم يُخرجها منه .

وهنف فوشلوفان وقد تاب الى رثده :

- « والتنفس ، كيف تستطيع ان تحلّ عقده ؟ »

- « سوف اتنفس . »

-- « في ذلك الصندوق ؟ ان مجرد التفكير بهذا يعطيني اختناقاً . »

-- « لا ريب في ان عندك مخزراً . وفي استطاعتك ان تحدث

بعض الثقوب ، حوالى الفم ، وهنا وهناك . وفي استطاعتك ان تسمّر

النفس من غير ان تشدّ الارح العلوي شداً محكماً . »

-- « حسن ! واذا اتفق ان سعلت او عطست ؟ »

- « إن الماروب لا يسعل ولا يعطس بحال من الاحوال . »

قال جان فالجان ذلك ثم أضاف :

- « ايها الاب فوشلوفان ، يجب ان اقرر : إما ان أداكم هنا ، وإما ان ارتضي الخروج بعربة الموتى . »

لقد لاحظ الناس جميعاً ولوع الهررة بالوقوف عند الابواب نصف المغافة والتردد امامها . ومن منا لم يسبق له ان قال مرة ما : « لماذا لا تدخلين ؟ » . وثمة اناس ينزعون هم ايضاً ، حين تفتح الفرصة لهم بعض الشيء ، الى أن يظلموا مترددين بين قرارين اثنين ، معرضين انفسهم بذلك الى ان يُسحقوا بيد القَدَر الذي يُوصِد الفرصة إِبْصَاداً مفاجئاً . والواقع أن المبالغين في التروي ، برغم انهم هررة ، بل لانهم هررة ، كثيراً ما يتعرضون للخطر اكثر من الجسورين . ولقد كان فوشلوفان من اصحاب هذه الطبيعة المترددة . ومع ذلك فأن رباطة جأش جان فالجان أعدته بالرغم منه . فغمغم :

- « هذا صحيح . ليس هناك طريقة اخرى . »

واستأنف جان فالجان كلامه :

- « الشيء الوحيد الذي يقلقني هو ذلك الذي سوف يجري في المقبرة . »

فهنف فوشلوفان :

- « ذلك هو الشيء الذي لا يقلقني على وجه الضبط . إذا كنت واثقاً من إخراج نفسك من النعش ، فسوف اكون واثقاً من إخراجك من القبر . فحفار القبور سكتير ، وصديق من اصدقائي . إنه الاب ميتين . ابنٌ عجوزٌ من ابناء الكرمه العجوز . إن حفار القبور يضع الموتى في الجذث ، وأنا أضع حفار القبور في جبي . سأقول لك ما الذي سوف يحدث . إننا سوف نصل قبل الغسق بقليل ، قبل ان تغلق ابواب المقبرة بثلاثة ارباع الساعة . وسوف تمضي عربة الموتى الى القبر . وسوف أنبهما : تلك هي مهتي . وسيكون في جبي مطرقة وازميل ، وبعض الكلابات . وتقف عربة الموتى ، وبشد الحمة

وثاق نعشك بجبل ، وبزلونك الى الحفرة . ويسلو الكاهن الصلوات ، ويرسم إشارة الصليب ، وينضح الماء المقدس ، ويمضي لسبيله . وأبقى وحدي مع الاب ميتين . إنه صديقي ، اقول لك . وثمة واحد من امرين : إما ان يكون سكران ، وإما ان لا يكون سكران . فإذا لم يكن سكران ، فسوف اقول له : « تعال واشرب كأساً قبل ان تغلق حانة السفرجلة الطيبة ابوابها » . واذهب به ، وأسكره . إن الاب ميتين لا يحتاج إسكاره الى وقت طويل ، فهو ابدأ في سبيله الى السكر . وأضعه تحت الطاولة ، وأنتزع بطاقته لكي اعود بها الى المقبرة ، وأرجع بدونه . ولن يكون لك بعداً أيأمل مع غيري . وإذا كان سكران ، فسوف أقول له : أغرب من هنا ، سوف أقوم بعملك . ويمضي لسبيله ، وعندئذ أخرجك من الحفرة .

وبسط جان فالجان يده ، فطرح فوشلوفان نفسه عليها في دفقة ريفية من التفاني المؤثر .

— « اتفقنا ، أيها الاب فوشلوفان . كل شيء سوف يجري على ما يرام . »

وقال فوشلوفان ، في ما بينه وبين نفسه :  
— « شرط ان لا يخل شيء . وبإلفظاعة ذلك الاختلال لو حدث ! »

## ٥

ليس يكفي ان تكون سكيراً

لكي تكون مخلاًداً

وفي اليوم التالي ، فبا كانت الشمس تجنح للغروب ، رفع عابرو

السبل المتناثرون في « بولفار دو مين » قبعاتهم لدث مرور عربية موتى عتيقة الزيّ ، مزدانة برؤوس المنية ، وعظام الساق ، والدموع . وفي عربية الموتى تلك كان نعش مغطى بغطاء ابيض مختال فوقه صليب اسود ضخم أشبه ما يكون بمومياء هائلة تتدلى ذراعها على جانبيها . وكانت تتبع هذه العربية عربية مجللة بالجوخ كان باستطاعة المرء ان يلح فيها كاهناً يرتدي قميصاً من قصان الاكليروس النوقية ، وغلاماً من غلمان الجوقة يرتدي بنطلوناً قصيراً احمر . وعن يمين عربية الموتى وشمالها مشى حاملان من حملة النعوش في ملابسهم الرمادية الموحدة ذات الحواشي السوداء ، وفي المؤخرة كان رجل عجوز في ثياب العمال يتقدم في خطى عرجاء . لقد مضى الموكب في اتجاه مقبرة فوجيوار .

وكان في مبسور النظارة ان يروا مقبض مطرقة ، وشفره لزميل خاص بالحديد البارد ، ومقبضين مزدوجين لزوج من الكلابات ، وقد أطلعت رؤوسها من جيب ذلك الرجل .

كانت مقبرة فوجيوار نسيجاً وحدها بين مقابر باريس . كانت لها تقاليد خاصة ، كما كان لها بابها الخاص بالعربات ، وبويعها النفل الذي كان عجائز الحيّ المثبتون بالكلمات العتيقة يدعونه باب الفرسان وباب المشاة . وكانت راهبات « بيكوس الصغير » البرفاريات البنيديكتيات قد حصلن ، كما قلنا سابقاً ، على الحق في ان يُدفن هنالك في زاوية منفردة ، وتحت جناح الظلام ، باعتبار ان هذه الارض كانت من قبل ملكاً لرهباتيتهن . واذ حُتِم ذلك على حفاري القبور بأن يعملوا في المقبرة مساءً - أيام الصيف - وليلاً - أيام الشتاء - فقد أخضعوا لنظام فريد . كانت مقابر باريس توحد ابوابها ، في ذلك العهد ، عند الغيب ، واذ كانت اوامر البلدية هي التي قضت بذلك الاجراء ، فقد خضعت له مقبرة فوجيوار مثل سائر المقابر . وكان باب الفرسان وباب المشاة متجاورين مقبضين بالحديد ، وكان في جوارهما

سرادق بناء المهندس المعاري بيرونيه حيث يقطن بواب المقبرة . واذن فقد كان هذان البابان الحديديان يدوران ، في تصلب ، على رزاتهما لحظة تتوارى الشمس خلف قبة الأتقاليد . ولو قد تخلّف في تلك اللحظة احد حفاري القبور في المدفن اذن لكنت بطاقته المهنية الصادرة عن ادارة المواكب الجنائزية هي سبيله الاوحد الى الخروج . وكان في شبّاك البواب ضرب من علة البريد ، فكان حفار القبور يلقي بطاقته في هذه العلة ، فيسمعها البواب تسقط ، فيجذب الجبل ، فينتفع باب المشاة . فاذا اتفق ان كان حفار القبور غير حامل بطاقته فعندئذ يذكر اسمه ، فينهض البواب من فراشه - ذلك انه قد يكون نائماً في بعض الاحيان - ويجاول التحقق من هوية حفار القبور ، ويفتح الباب بالفتاح . وهكذا يخرج حفار القبور ، ولكن بعد ان يدفع غرامة مقدارها خمسة عشر فرنكاً .

والواقع ان هذه المقبرة ، بفرائدها الخارجية على القاعدة ، عطّلت تناغم الادارة واتساقها . ولقد ألغيت بعد سنة ١٨٣٠ بقليل . وإنما خلفتها مقبرة مونبارناس ، المعروفة بمقبرة الشرق ، وورثت عنها تلك الحانة الشهيرة الهاذية لمقبرة فوجيوار ، والتي تعلوها سرجلة رُسمت على صفيحة - فهي "تطل" من ناحية على موائد الشارين ، وتطل من ناحية أخرى على القبور - والتي تحمل هذا الاسم : السفوحلة الطيبة .

وكانت مقبرة فوجيوار ما يمكن أن ندعوه مقبرة عفة . لقد أخفى عليها الدهر ، فاعفن يفرزوها ، والرياحين تفارقها . وكان الاثرياء من المواطنين قليلاً ما يرغبون في ان يدفنوا في فوجيوار ، فقد كانت روائح الفقر تفوح منها . أما مقبرة الأب لاشيز فرائعة جداً ! فلأن "ندفن" في مقبرة الأب لاشيز اشبه شيء بامتلاك أثاث مصنوع من خشب البلاذر أو الماهوغاني . إن ذلك لينم عن الاناقة . لقد كانت مقبرة فوجيوار حظيرة ذات جلال منسقة على طريقة الحدائق الفرنسية

القديسة . برّات مستقيمة ، وشجرات بَقَس \* ، وشجرات سَندروس \*\* ،  
وشجرات شرابة الراعي ، وقبور عتيقة تحت شجرات طقسوس \*\*\*  
هرمة ، وعشب فارغ الطول . وكان الليل رهيباً جداً هناك . كانت  
قمة ظلال تقبض الصدر الى حد بعيد .

ولم تكن الشمس قد غربت عندما دخلت عربة الموتى ذات القطاء  
الابيض والصليب الاسود شارعَ مقبرة فوجيرار . ولم يكن الرجل  
الاعرج الذي يتبعها غير فوشلوفان .

وكان دفن الأم كروسيغكيون في الكهف الذي تحت المذبح  
واخراج كوزيت من المكان ، وادخال جان فالجان الى حجرة الموتى -  
كان ذلك كله قد أتمّ من غير ما عائق ومن غير ان يسه الاخفاق .  
ونحب ان نقول ، بالمناسبة ، ان دفن الأم كروسيغكيون تحت  
مذبح الدير هو ، في اعتقادنا ، شيء عرضي يمكن اغتفاره ، في كثير  
من البسر . واحد من تلك الاخطاء الشبيهة بواجب من الواجبات .  
لقد قامت الراهبات به ، لا من غير قلق فمضب ، ولكن في ضمير  
مصفق ايضاً . فما يدعى «الحكومة» لا يمدو ، في الدير ، ان  
يكون تدخلاً في السلطة ، تدخلاً هو أبداً موضع الشك . الانظمة  
اولاً ؛ اما القانون ، فسوف نرى . أما الناس ، ضعوا ما شئتم من  
القوانين ، ولكن احتفظوا بها لانفسكم . إن المكوس التي تُدفع  
الى قيصر ليست مجال من الاحوال غير البقية الباقية من المكوس التي  
تُقدّم الى الله . فالأمير ليس شيئاً في حضرة المبدأ .

وعرج فوشلوفان خلف عربة الموتى ، في ارتياح عظيم . كانت  
مؤامراته التوأمان ، وإحداهما مع الراهبات والاخرى مع مسيو مادلين ،

---

\* البقس Buis شجر كالآس ورقاً وجباً تُتخذ منه الحائق والابواب لمئاته .

\*\* ضرب من الصنوبريات دائم الخضرة . ( Thuya ) .

\*\*\* ضرب من الرو او الشربين ( ile ) .

الاولى للدير والثانية ضد الدير ، قد نبحثنا على حد سواء . والواقع ان  
مكتبة جان فالجان كانت من ذلك الضرب الجبار الذي يُعدي .  
فلم يبق عند فوشلوفان اياما شك في النجاح . أما الاشياء التي ما يزال  
من الضروري القيام بها فلم تكن ذات خطر . فلقد أسكر عشر مرات ،  
خلال سنتين ، حفار القبور الطيب الأب ميقين ، وهو رجل بدين  
ساذج . لقد كان يعث بالأب ميقين عبثاً . كان يفعل به ما يشاء . كان  
يصنف له شعره وفقاً لارادته وهواه . وكان ميقين يرى من خلال  
عيني فوشلوفان . كانت سلامة فوشلوفان كاملة .

ولحظة دخلت الجنازة الشارع المؤدي الى المقبرة نظر فوشلوفان مبتهج  
الصدر الى عربة الموتى ، وفرك يديه الضخمتين قائلاً في صوت خفيض :  
- « هي ذي مهزلة ! »

وفجأة وقفت عربة الموتى . لقد انتهت الجنازة الى الباب . وكانت  
من الضروري أن تُبرَز إجازة الدفن . ونهاى الدفنان مع بواب  
المقبرة . وفي اثناء هذه الحادثة ، التي تسبب دائماً تأخراً يستغرق دقيقة  
او دقيقتين ، أقبل رجل مجهول ووضع نفسه خلف عربة الموتى ، الى  
جانب فوشلوفان . كان اشبه بمامل من العمال يرتدي كساءً طويلاً ذا  
جيوب واسعة ، ويميل تحت ذراعه معولاً .  
ونظر فوشلوفان الى هذا الرجل المجهول .

وسأله :

- « من انت ؟ »

فأجاب الرجل :

- « حفار القبور . »

ولو قد اصابته قذيفة مدفع رجلاً في صدره فلم تقص عليه ، اذن  
لكان يحياه اشبه بحيات فوشلوفان في تلك اللحظة .

- « حفار القبور ؟ »

« نعم . »

« انت ! »

« انا . »

« إن حفار القبور هو الأب ميتين . »

« لقد كان . »

« كيف ! لقد كان ؟ »

« أقدم مات . »

كان فوشلوفان مستعداً لكل شيء ، ما خلا هذا : أن يكون في استطاعة حفار القبور أن يموت . ومع ذلك ، فهذا صحيح . إن حفاري القبور أنفسهم يموتون . لأنهم بالانصباب على حفر القبور للناس يحفرون قبورهم الخاصة .

ولم يحرف فوشلوفان جواباً . إنه لم يجد ، إلا بشقّ النفس ، القوة التي تكنته من أن يتلجلج :

« ولكن هذا غير ممكن ! »

« هذا هو الواقع . »

فكرر في ذهنه :

« ولكن حفار القبور هو الأب ميتين . »

« بعد نابوليون ، لويس الثامن عشر . وبعد ميتين ، غريبيه .

أما الفلاح ، إن اسمي غريبيه . »

وغلب الشحوب على وجه فوشلوفان . وحدث الى غريبيه .

كان رجلاً طويلاً القامة ، مهزولاً ، أزرق ضارباً الى السواد ،

مأنمياً بكل ما في الكلمة من معنى . كانت تبدو عليه سيما طبيب افقر فأسمى حفار قبور .

وانفجر فوشلوفان ضاحكاً :

« آه ! يا لها من احداث مضحكة ! لقد مات الاب ميتين .

الاب ميتين الصغير قد مات ، ولكن فليحيى الاب لونيوار الصغير !



أتدري ما هو الأب لـونوار الصغير ؟ إنه كوز الصهباء التي يباع 'نمن' للغالون منها بستة سو. إنه كوز 'سورين' . يا سلام ! 'سورين' ، باريسية حقيقية . وهكذا ، فقد مات ميتين العجوز ! أنا محزون عليه . كان فتىً طروباً . ولكن أنت أيضاً ، أنت فتىً طروب . أليس كذلك ، أيها الرفيق ؟ سوف نخفي ونشرب شيئاً من الخمر معاً . سوف نخفي في الحال .

وأجاب الرجل :

- 'لقد درست' . لقد تخرّجت . أنا لم اشرب الخمر في حياتي قط . كانت عربة الموتى قد انطلقت . وكانت تندرج على مجاز المقبرة الرئيسي الضيق . كان فوشلوفان قد نبأطاً ، لقد عرج من القلق أكثر مما عرج من عاهته .

ومشى حفار القبور أمامه .

وحدث فوشلوفان ، كرة أخرى ، الى غريبه غير المنتظر . لقد كان واحداً من أولئك الناس الذين يبدوون ، رغم قوتهم ، سيوئاً ، والذين هم ، برغم هزائمهم ، على قوة بالغة .

وصاح فوشلوفان :

- 'أيها الرفيق !

واستدار الرجل .

- 'أنا حفار قبور الدير .

فقال الرجل :

- 'زميلي .

وادرِك فوشلوفان ، الحاد الذكاء برغم أميته ، أنه يراجه شخصاً رهيماً ، محدثاً بارعاً .

وغمغم :

- « هكذا اذن . لقد مات الاب ميتين . »
- فأجاب الرجل :
- « تماماً . لقد راجع الرب الرحيم لائحة سندات المستحقة الأداء .
- كان الدور دور الاب ميتين . وهكذا توفي الاب ميتين . »
- فردد فوشلوفان على نحو آلي :
- « الرب الرحيم . »
- فقال الرجل في سلطان :
- « الرب الرحيم . ما يدعوه الفلاسفة الأب الأزلي . وما يدعوه
- اليعاقبة الكائن الأسمى . »
- فتلجلج فوشلوفان :
- « ألن نتعارف ؟ »
- « لقد تم ذلك . أنت فلاح ، وأنا باريبي . »
- « لن نتعارف إلا حين نخمسي الحُر معاً . فمن يفرغ كأسه
- يُفرغ قلبه . تعال واشرب معي . انت لا تستطيع ان ترفض . »
- « العمل أولاً . »
- فقال فوشلوفان في ذات نفسه :
- « لقد هلكْتُ . »
- وكان الآن على بضع قصبات ، لبس غير ، من المجاز المؤدي الى
- زاوية الراهبات .
- ولم يلبح حفار القبور :
- « اما الفلاح ، إن لي سبعة اولاد صفار يجب ان أطعمهم .
- وإذ كانوا مضطربين الى ان يأكلوا فلاني مضطرب الى ان لا اشرب . »
- ثم اضاف في ارتياح رجل جدّي ينكلم في زهو وادعاء :
- « إن جوهم عدو ظمأي . »
- واستدارت عربة الموتى حول شجرة مرو ضخمة ، وفارقت المجاز

الرئيسي ، وسلكت مجازاً صغيراً ، ودخلت الجزء المشجر من المقبرة ، وتوارت وسط أحد الادغال . وكان ذلك يؤذن بأن القبر أمسى جيداً قريب . وخفف فوشلوفان من سرعة خطوه ، ولكنه لم يتطع ان يخفف من سرعة خطو العربة . ومن حسن الطالع ان التربة الحوارة ، المنداة بأمطار الشتاء ، دَيقَتْ بالعجلات ، فجعلت جَربها ثقيلاً .  
واقترَب فوشلوفان من حفار القبور .

ونغم :

« ان عندهم خمره أرجانتويْ فاخرة جداً . »

فتابع الرجل :

« اهاا الريفي ، أنا ما كان ينبغي لي ان اكون حفار قبور . لقد كان ابي بواباً في برتانيه . وكان بعدني للحياة الادبية . ولكنه كان سميء الحظ . لقد ضارب في البورصة ففصر ، وكان عليّ ان أتخلى عن حرفة الكتابة ، ومع ذلك ، فانا لا ازال كاتباً عموماً . »  
فأجاب فوشلوفان ، متعلقاً بهذه القشة على وَهنها :

« ولكنك لستَ حفار القبور اذن ؟ »

« إن احداًهما لا تتنافى مع الاخرى ؛ انا اجمع بين الوظائف . »  
ولم يفهم فوشلوفان هذا التعبير الأخير .  
وقال :

« دعنا نذهب ، ونشرب . »

وهنا لا بدّ من ملاحظة : إن فوشلوفان ، برغم قلقه الشديد ، اقترح معاقرة بنت الحان ولكنه لم يوضح امراً واحداً : مَنْ الذي سيدفع ؟

كان من عادة فوشلوفان ان يقترح ، وكان من عادة الأب ميتين ان يدفع . وواضح ان دعوة الى الشراب قد نشأت عن الحالة الجديدة التي اوجدها حفار القبور الجديد ، وهي دعوة يتعيّن عليه القيام بها ،

ولكن البستاني العجوز ترك أسر الوفاء بالدين ، عن نعد طبعاً ،  
غامضاً يكتنفه الظلام . إن فوشلوفان ، برغم ما كان يساوره من  
اضطراب ، لم يكثر بمألة الدفع .

وتابع حفار القبور كلامه ، في ابتسامة من يستشعر الامتياز :  
- « يجب ان نعيش . لقد رضيت ان أخلف الاب ميتين .  
فعين 'يشرف المرء على إنهاء دراسته يصبح فيلسوفاً . لقد أخفت الى  
عمل اليد حمل الذراع . إن عندي دكان كتابتي الصغير في شارع سيفر ،  
هل تعلم ؟ في سوق المظلات . ان جميع طاهيات الصليب الاحمر ،  
يقدن الى . إني أحررهن ، على عجل ، رسائلهن القرامبية الى  
عشاقهن . في الصباح اكتب رسائل الحب ، وفي المساء أحفر القبور .  
هكذا هي الحياة ، ايها الرجل الريفى . »

وتقدمت عربة الموتى . وتلفت فوشلوفان ، وقد بلغ اقصى غاية القلق ،  
الى بين والى شمال ، والى امام والى وراء . كانت قطرات ضخام من  
العرق تتعدت من جبينه .

وتابع حفار القبور حديثه :

- « ومع ذلك فليس في ميسور المرء ان يخدم سيدتين . يجب ان  
اختر إما القلم وإما المعول . إن المعول يؤذي يدي . »  
ووقفت عربة الموتى .

وترجل غلام الجوقة من العربة المجلجلة بالجوخ ، وتبعه الكاهن .  
وارتقت عجلة أمامية من عجلات عربة الموتى كومة من التراب ،  
وولي خلفها قبر فاغر القم .

وكرر فوشلوفان في كتابة باللغة :

- « هي ذي مهزلة ! »

## بين اربعة الواح

من كان في النعش ؟ نحن ندري . جان فالجان .  
كان جان فالجان قد وثب الاشياء بحيث يستطيع ان يجبا في النعش  
وينفخ بعض الشيء .

وقضاً عن ذلك فعجيب الى أي مدى يستطيع الضمير المطمئن أن  
يوقع السكينة في النفس . كان التدبير الذي بيّنه جان فالجان قد نُفِذَ ،  
ونفذ في نجاح ، منذ الليلة البارحة . كان يتكل ، مثل فوشلوفان ،  
على الأب مبتلين . ولم يساوره وبب في النتيجة ، البتة . إن أيا حالة  
لم تبلغ قط من الحرج ما بلغت هذه الحالة ، وإن الهدوء لم يكن قط  
أكثر كمالاً .

كانت ألواح النعش الاربعة ترفر ضرباً من الأمن الفظيع . لقد بدا  
وكان شيئاً من راحة الاموات قد تسرب الى سكينة جان فالجان .  
ومن باطن ذلك النعش كان في ميسوره ان يسابع ، ولقد تابع ،  
مختلف مراحل المأساة الرهيبة التي كان يمثلها مع الموت .

فما إن اتم فوشلوفان تسير اللوح الاعلى حتى استشعر جان فالجان  
ان الحيلة قد رفعوه ، وأن العربدة قد أنشأت ، بعد ذلك تجري به . حتى  
إذا خفت الارتجاجات استشعر انه انتقل من البلاط المرصوف الى الارض  
الموطأة ؛ يعني أنه غادر الشوارع وانتهى الى الجادات . \* ومن خلال  
ضجة خافتة قدر انهم يعبرون جسر اوسترليتز . وعندما وقفت العربدة  
اول مرة ، أدرك انهم دخلوا المقبرة . وعندما وقفت كرة ثانية ، قال  
في ذات نفسه : « هوذا القبر » .

« جمع جادة وهي « البولفار » .

وأحسن بأيدٍ تسارع الى الامساك بالنعش ، ثم أحسن باحتكاك مبحوح فوق الألواح . فاستنتج ان ذلك جبل كانوا يطوقون به النعش لكي ينزلوه الى الخفرة .

ثم انه استشعر ضرباً من الدّوار .

لعل حملة النعش وحفار القبور قد امالوا النعش وانزلوا مقدّمه قبل مؤخره . واستعاد وعيه كاملاً حين امسى في وضع أفقي ، جامداً عديم الحركة . كان قد مس " القعر " .  
وأحسن بقشعريرة .

وارتفع صوت فوهه مثلوباً مهيباً . وسمع بضغ كلمات لاتينية لم يفهمها ، تلفظ في بطنه مكتنه من ان يلتقطها واحدة إثر اخرى :

• *Qui dormiunt in terrae pulvere, evigilabunt ;  
alii in vitam aeternam, et alii in  
opprobrium , ut videant semper*

فقال صوت طفل :

— *De profundis .* \*\*

وأردف الصوت الوقور :

— *Requiem aeternam dona ei, Domine .* \*\*\*

فأجاب صوت الطفل :

— *Et lux perpetua luceat ei* \*\*\*\*

وسمع فوق الروح الذي يغطيه شيئاً مثل تساقط الرذاذ الرفيق .  
واغلب الظن ان ذلك كان الماء المقدس .  
وقال في ذات نفسه :

---

• الذين يترقدون في تراب الارض ويسكنون هناك ، بعضهم يعيش في الحياة الابدية وبعضهم في المذاب المليم .

• من الاصنام .

• فامنحهم الراحة الابدية ، ايها السيد .

• ونورك سرمدي .

-- و سوف ينتهي ذلك عما قريب . اصبر فترة اخرى قصيرة . ان الكاهن على وشك ان يمضي . وان فوشلوفان سوف يقود ميتين الى الحانة . انهم سيفارقوني . ثم يرجع فوشلوفان وحيداً . ولـ سوف اخرج . ان ذلك سيستغرق ساعة او يزيد .  
واردف الصوت الوقور :

-- *Requiescat in pace* . \*

وقال صوت الطفل :

-- *Amen* . \*\*

وسمع جان فالجان ، 'مرهماً اذنه ، صدى' أمبه بصدى الاقدام المتراجعة .

وقال في ذات نفسه :

- ' و انهم ينصرفون . لقد امسيت' وحدي . ' و فجأة سمع فوق رأسه صوتاً بدا له وكأنه قصف الرعد . كان ملء مسحة من التراب يسقط على النعش . وسقط ملء مسحة آخر . وسدّ احد الثقوب التي كان ينفس منها . وسقط ملء مسحة ثالث . ثم ملء مسحة رابع . ان ثمة اشياء أقوى من اقوى رجل . وأنمي على جان فالجان .

---

\* ارتدوا لي سلام .

\*\* آمين .

حيث سنكتشف اصل قولهم :

لا تضع بطاقتك ٥

فلننظر ما الذي حدث فوق النمش الذي ضم جات فالجان بين جنياته .

حين مضت عربة الموتى لسيبلها ، وامتنى الكاهن وغلام الجوفة من العربة وانصرفا ، بصراً فوشلوفات - الذي لم يرفع عينه قط عن حفار القبور - بهذا الحفار ينحني ويتناول مسحاته التي كانت مفروزة على نحو مستقيم في ركام التراب .

وهنا اتخذ فوشلوفات قراراً ربيعاً .

لقد أقنع نفسه ما بين الحفرة والحفار ، وقال مصالباً ذراعيه :

- « سوف أدفع أنا ثمنها ! »

فعدّد إلى حفار القبور ، في دهش ، واجاب :

- « ماذا ؟ أيها الفلاح ؟ »

فكرر فوشلوفان :

- « سوف أدفع أنا ثمنها ! »

- « ثمن ماذا ؟ »

- « الجر . »

- « أبة خمر ؟ »

- « خمر الآرجانتوني »

- « ابن خمر الآرجانتوني هذه ؟ »

---

« يقولون في الفرنسية : أضع البطاقة perdre la carte بمعنى : اضرب . »



- د في حانة الفرجلة الطيبة .

فقال حفار القبور :

- د اذهب الى الشيطان !

وقذف النعش بملء مسحاة من التراب .

ورجع النعش صدىً غائراً . واستشر فوشلوفان أنه يتروح ، وكاد

يهوي الى القبر . وفي صوت اخذ يترج به اختناق الحشجة ، صاح :

- د تعال ، ايها الرفيق ، قبل ان تغلق حانة الفرجلة الطيبة

أبوابها !

ورفع حفار القبور ملء مسحاة آخر من التراب . وتابع فوشلوفان :

- د سوف ادفنك .

وأمسك بحفار القبور من ذراعه .

- د اسمع ، ايها الرفيق . أنا حفار القبور في هذا الدبر ، ولقد

جئتُ لأساعدك . إنها مهمة نستطيع ان نقوم بها ليلاً . دعنا نشرب

كأساً من الخمر أولاً .

وفيما هو يتحدث ، وفيما هو يتعلق يائساً بهذا الجهد الملح ، تسام

في تشاؤم : د وحتى لو شرب ! أوافق أنا من ان السكر سوف

يتبعته ؟

وقال حفار القبور :

- د ايها الرفيق ، اذا لم يكن من ذلك بدّ فاني اوافق . سوف

نشرب . ولكن بعد إتمام العمل ، لا قبله على الاطلاق .

وحرك مسحاته من جديد . وأمسك فوشلوفان به .

- د إنها خمر أرجانتوي التي يُباع ثمن الغالون منها بستة سو !

فقال حفار القبور :

-- د آه ، هكذا . إنك بملء . دينغ دونغ ، دينغ دونغ ؛ انت

لا تعرف أن تقول شيئاً غير هذا . اذهب ، وانصرف الى عملك .

وقذف ببلء المسحاة الثاني .  
وكان فوشلوفان قد بلغ تلك النقطة التي لا يعرف المرء فيها أي شيء يقول .

وأعاد كرة أخرى :

- « اوه ! تعال ، واشرب كأساً ، ما دمتُ أنا الذي سأدفع . »  
فقال حفار القبور :

- « بعد أن نضع الطفل في المهد . »

وقذف ببلء المسحاة الثالث .

ثم غرز المسحاة في التراب ، وأضاف :

- « أترى ؟ سوف يكون الجو بارداً ، الليلة ، وسوف تصبح

المبثة في إثرنا اذا زرعتها هناك من غير ان نغطيها جيداً . »

وفي هذه اللحظة ، وفيما كان حفار القبور يُنقل مسحاته بالتراب ،

انحنى انحناءً شديداً ، ففغر جيب كسائه فاه .

واستقرت عين فوشلوفان الذاهلة استقراً آلياً على هذا الجيب ،

وظلت مسخرة هناك .

ولم تكن الشمس قد توارت خلف الافق ، وكان لا يزال ثمة ضوء

كافٍ لرؤية شيء ابيض في الجيب الفاجر فاه .

والنمع كامل البرق الذي يمكن لعين فلاح بيكاردي ان تنطوي

عليه ، في أحد قتي فوشلوفان . كانت فكرة جديدة قد خطرت له .

ومن غير ان يلح به حفار القبور ، الذي كان منهمكاً بمسحاته الملأى

بالتراب ، دس يده من وراء في ذلك الجيب ، واستل منه الشيء

الابيض الذي احتواه .

وقذف حفار القبور ببلء المسحاة الرابع الى اللحد .

وفيما كان يستدير ليأخذ الخامس تساءل فوشلوفان وهو ينظر اليه في

هدوء عميق :

- « بالنسبة ، هل تحمل بطاقتك ايها الصديق الجديد ؟ »  
وتوقف حفار القبور :

- « اية بطاقة ؟ »

- « الشمس على وشك المغيب . »

- « حسن . دعه \* يضع قلنسوة الليل . »

-- « سوف يُغلّقى باب المقبرة . »

- « حسن . ثم ماذا ؟ »

- « هل تحمل بطاقتك ؟ »

فقال حفار القبور :

- « آه ، بطاقتي ! »

وبحث في جيبه .

حتى اذا لم يجد فيه شيئاً ، بحث في جيبه الآخر . ثم إنه انتقل الى  
جيب صدرته ، فنقب فيه ، ثم جعل داخل جيبه الآخر خارجة .  
وقال :

- « لا ! لا ! أنا لا أحمل بطاقتي . لا شك في أني نسبتها . »

فقال فوشلوفان :

- « خمسة عشر فرنكاً غرامة . »

وغدا لون حفار القبور أخضر . إن الأخضر هو لون الشحوب عند  
اصحاب البشرة الزرقاء الضاربة الى السواد .

وصاح :

- « اوه ، يا الهي الطيب الرحيم ، ايّ مجنون أنا ! خمسة عشر

فرنكاً غرامة ! »

فقال فوشلوفان :

- « ثلاث قطع من ذوات المئة سو . »

---

\* يقصد « الطفل » أي الدين .

وأقلت حفار القبور مسحاته .

كان دور فوشلوفان قد جاء .

وقال فوشلوفان :

- « تعال ، تعال ، ايها المجنّد الجديد ، لا داعي للباس . ليس  
ثمة ما يحملك على ان تقتل نفسك وتصبح طعاماً للديدان . إن خمسة  
عشر فرنكاً هي خمسة عشر فرنكاً ، والى هذا فقد تكون غير قادر  
على دفعها . أنا عاملٌ عتيق ، وانت عامل جديد . انا أعرف جميع  
حيل الصنعة ، وأشراكها ، ومنعطفاتها ، والثوائتها . ولسوف أقدم  
إليك نصيحة صديق . إن ثمة شيئاً واضحاً ليس غير ، هو ان الشمس  
في سبيلها الى المغيّب ، وان المقبرة سوف تغلق بعد خمس دقائق . »  
فاجاب حفار القبور :

- « هذا صحيح . »

- « وخمس دقائق لا تكفيك لطمس القبر ، فهو مميّث كالشيطان .  
من اجل ذلك ارى ان نخرج من هنا قبل ان يُغلق الباب . »

- « انت على صواب . »

- « وفي هذه الحال ستدفع خمسة عشر فرنكاً غرامة . »

- « خمسة عشر فرنكاً ! »

- « ولكن لديك متسعاً من الوقت ... اين تقطن ؟ »

- « على بُعد خطوتين من باب المدينة . على مسيرة خمس عشرة  
دقيقة ؟ رقم ٨٧ شارع فوجيوار . »

- « سوف يكون لديك متسع من الوقت اذا قررت في الحال . »

- « هذا صحيح . »

- « وما تكاد تجتاز الباب حتى تعدو الى البيت ، وتجيء ببطاقتك ،  
وترجع الى هنا ، فيدخلك البواب من جديد . وحين تسمي البطاقة في  
يدك لا يبقى ثمة داعٍ الى ان تدفع شيئاً . وعندئذ تستطيع ان تدفن

صاحبك الميت \* . وسوف ابقى أنا هنا ، فأحرسه وبنا تعود ، لكي  
لا يولي فراراً . »

- « أنا مدين لك بحياتي ، ايها الفلاح . »  
فقال فوشلوفان :

- « أغرب ، إذن ، أسرع ! »  
وصافحه حفار القبور ، وقد غلبته هزة من عرفان الجليل ، وأطلق  
ساقيه للريح .

وحين توارى حفار القبور وسط الأدغال ، أصغى فوشلوفان حتى  
تلاشى وقع قدميه ، وعندئذ انحنى فوق القبر ، ونادى في صوت  
مهموس :

- « ايها الاب مادلين . »

فلم يقع على جواب .  
وارتعد فوشلوفان . وتدهرج نحو القبر ، ولا نقول هبط ، وطرح  
نفسه على مقدم النعش ، وصاح :

- « أأنت هناك ؟ »

ولكن الصمت كان يسود النعش .  
وتناول فوشلوفان إزميله ومطرقته - وقد كاد يعجز عن التنفس  
بسبب من الرعدة - واقتلع اللوح اللغوي . كان في ميسوره ان يرى  
وجه جان فالجان في النعش ، وكانت عيناه مغمضتين ، ولونه شاحباً .  
وقبّ شعر فوشلوفان . ونهض واقفاً . ثم قابل مولياً ظهره بجانب  
القبر ، مستعداً لان يسقط فوق النعش . ونظر الى جان فالجان .  
كان جان فالجان يرقد هناك شديداً المشحوب ، عديم الحركة .  
وتتم فوشلوفان في صوت خفيض كأنه همس :

---

\* واضح ان هذه مقطعة من مقطعات فوشلوفان ، كاد ان يفضح بها السر كله .  
وكان ينبغي ان يقول : ان تدفن الميتة ...

- « لقد مات . »

ثم تصدّر ، وصالب ذراعية في عنف بالغٍ حتى لقد رنت قبضته المفلتان فوق كتفيه ، وصاح :

- « تلك هي الطريقة التي انتقذه بها ! »

ثم إن العجوز المسكين شرع ينتحب ، موجّهاً الكلام الى نفسه في صوت مرتفع ، لأن من الخطأ أن نعتقد أن مخاطبة المرء نفسه ليست شيئاً طبيعياً . إن الانفعالات القوية كثيراً ما تتكلم بصوت عالٍ .

- « إنها غلظة الاب ميتين . لماذا مات ، الجنون ؟ اي فائدة كانت له في ان يَنفَقَ \* في هذه اللحظة ، حين لم يكن احد يتوقع ذلك ؟ إنه هو الذي قتل مير مادلين . الاب مادلين ! انه في النعش . لقد استقر هنا . انتهى كل شيء . والان ، اي معنى لهذا كله ؟ آه يا الهي ! لقد مات ! أجل ، وبنته الصغيرة ما الذي سأمه بها ؟ أي شيء ستقوله بائعة الفاكهة ؟ ان يموت رجل مثل هذا ميتة مثل هذه ! ايها السماء ، أمكن هذا ؟ حين افكر انه اقعم نفسه تحت عرقي !... ايها الاب مادلين ! ايها الاب مادلين ! رحمتك يا رب ، لقد اخشنت ! لقد قلت له ذلك ولكنه لم يجب ان يصدقني . والآن ، هوذا حمل ظريف ! لقد مات ! مات هذا الرجل الطيب ؛ مات اطيب رجل خلقه الرب الطيب ! وبنته الصغيرة ؟ انا لن ارجع الى هناك بعد . سوف أبقى هنا . انا لا استطيع ان افكر اني قمت بعمل كهذا ! يكفي ان نكون شيخين هرمين حتى نكون معنوين هرمين . ولكن قبل كل شيء ، كيف استطاع ان يدخل الى الدبر ؟ من هنا بدأت . مثل هذه الامور يجب ان لا تُعمل . ايها الاب مادلين ! ايها الاب مادلين ! ايها الاب مادلين ! مسيو مادلين ! مسيو مادلين ! ايها السيد العمدة ! انه لا يسمعي . أخرج نفسك من هنا ، الان ، اذا شئت . »

\* نق : مات . وهي تعطين في الكلام على البهائم بخاصة .

وانشأ يقطع شعره .  
وعلى مسافة ما من خلال الاشجار ، سَيع صريرٌ حادّ . كان باب  
المقبرة يوصد .

وانحنى فوشلوفان مرة اخرى ، فوق جان فالجان ، ولكنه اراد  
ضيأة الى الوراء بأقصى ما يُستطاع الاندفاع التراجعيّ في قبر من القبور .  
كانت عينا جان فالجان مفتوحتين ، وكان يحدّق اليه .  
إن مشاهدة الموت لمروعة ، ولكن مشاهدة بمت مفاجيء لا تقلّ  
عن ذلك ترويعاً . وأمسى فوشلوفان ساحباً مثولجاً كالخجاعة ، ذاهلاً  
مضطرباً النفس بهذه الانفعالات القوية كلها ، غيرَ عالم ما إذا كان امام  
حيٍّ ام امام ميت ، محدّقاً الى جان فالجان المحدث ، بدوّره ،  
اليه .

وقال جان فالجان :

- « كنتُ نائمًا . »

ونفض جان فالجان متخذاً وضعاً قاعداً .

وركع فوشلوفان على ركبتيه .

- « آوه ، ايها العذراء الطيبة ! كم قد روّعني ! »

ثم نهض وصاح :

- « شكراً لك ، ايها الأب مادلين ! »

كان قد أعغمي على جان فالجان ، ليس غير . حتى اذا استنشق  
الهواء الطلق ثاب الى رشده .

ان البهجة صنو الذعر . ولقد وجد فوشلوفان في استعادة رشده  
مثل ذلك العمر الذي وجده جان فالجان تقريباً .

- « واذن فانت لم تمت ! آه ما اعظم ذكائك ! لقد ناديتك

بصوت مرتفع الى حد جعلك تعود الى صوابك . وحين رأيتك مغض  
العينين ، قلت : « حسن ، هوذا قد اختنق . وكنت على وشك أن أُمسي

مجنوناً .. مجنوناً حقيقياً ذا صدرة كصدرات المعترهين الفتيبة الضيقة .  
ولقد كان جديراً بهم ان يدخلوني الى بيستر \* . ما الذي كنت تريدني ان  
اعمل لو انك مت ؟ وفناتك الصغيرة ! كانت بائعة الفاكهة خليفة بأن لا  
تفهم شيئاً من ذلك ! طفلة نُلقي فجأة في حضنها ، ثم يموت جدها !  
يا لها من قصة ! وحق قديسي السماء كلهم ، يا لها من قصة ! آه !  
واكتنك حي - هذا خير ما في المسألة . »

فقال جان فالجان :

« أنا أحسن بالبرد . »

وكان في هذه الكلمات ما اعاد فوشلوفان إعادة تأمة الى واقع  
الاشياء . الذي كان ملحاً . ولئلا استشعر هذان الرجلان من غير  
ان يدريا ، حتى بعد ان تابا الى رشدكما ، احتياجاً فريداً وقلقاً داخلياً  
عجيباً لم يكونا غير الانشده المشؤم الذي أوقعه المكان في نفسيهما .  
وقال فوشلوفان :

« فلنخرج من هنا في الحال . »

وأفهم يده في جيبه ، وأخرج قارورة كان قد تزود بها وقال :

« ولكن خذ نقطة من هذه ، أولاً ! »

وأنت القارورة ما كان الهواء الطلق قد بدأه . وتناول جان فالجان  
جرعة من العرق ، واستشعر انه استعاد قواه بكاملها .

وخرج من النعش ، وساعد فوشلوفان على تسمير اللوح العلوي  
من جديد .

وما أنقضت ثلاث دقائق حتى كانا خارج القبر .

واطمأنت نفس فوشلوفان بعد ذلك . وأخذ بأسباب التمهّل . كانت  
المقبرة موصدة . ولم يكن ثمة خوف من ان يعود غريبه حفار

---

\* مأوى شرير للمجانز والمجانين كان في قرية بيستر ، وقد سبق التعريف به  
في جزء ماس .



القبور . كان « الجند الجديد » في منزله منهمكاً في البحث عن بطاقته ، وما كان محتملاً ان يعثر عليها ، لأنها كانت في جيب فوشلوفان . واذا لم يكن يحمل بطاقته تلك فليس في ميسوره ان يرجع الى المقبرة . وتناول فوشلوفان المسحاة ، وتناول جان فالجان المعول ودفنهما النعش الفارغ معاً .

وحين طفح القبر ، قال فوشلوفان لجان فالجان :  
« تعال ، فلنذهب . سوف أحفظ أنا بالمسحاة ، وسوف تحتفظ انت بالمعول » .

وهبط الليل .

ووجد جان فالجان بعض العُسر في الحركة والمشي . كان التصلب قد اصابه في ذلك النعش ، وكان قد امسى ، الى حد ما ، جثة هامدة . لقد استبدت به «عَسَمُ» \* الموت في ذلك الصندوق الخشبي الضيق . وكان يتعين عليه ، بمعنى من المعاني ، أن يذيب نفسه من القبر .

وقال فوشلوفان :

« انت خدر . ومن أسفٍ أني معوجّ الساقين ، والا لكاف في ميسورنا ان نعدو بعض الشيء . . »  
فأجاب جان فالجان :

« لا بأس . ان يضع خطوات خليقة » بأن تعيد الى رجليّ مرونتهما . »

وارتدّا سالكين الممرات التي سلكتها عربة الموتى من قبل . حتى اذا انتبيا الى الباب الموصد والى مقر البواب ألقى فوشلوفان بطاقة حفار القبور ، وكان يحملها في يده ، الى العلبة ، فجذب البواب الحبل

---

\* العَسَمُ : يس في مفصل الرسغ تعوجّ منه اليد والقدم .

ففتح الباب وخرجا .

وقال فوشلوفان :

... و ما احسن ما يسير كل شيء ! أية فكرة بارعة هذه التي طلعت بها ، ايها الاب مادلين !

واجتازا حاجز فوجيرار على أيسر نحو في العالم . ففي ضواحي مقبرة من المقابر يقوم الممول والمسحاة مقام جواز السفر . كان شارع فوجيرار مقفراً .

وقال فوشلوفان ، فيما كان يتقدم رافعاً بصره الى البيوت :

... و ايها الاب مادلين ، ان عينيك احسن من عيني . ايها

رقم ٨٧ ؟

فقال جان فالجان :

- « ها هو ذا بعينه . »

واردف فوشلوفان :

- « ليس في الشارع احد . أعطني الممول ، وانتظري دقيقتين . »

ودخل فوشلوفان المنزل رقم ٨٧ ، وصعد الى اعلى السلم ، تقوده الغريزة التي تقود الفقير ، دائماً ، الى العلية ، وقرع - في الظلام - باب غرفة قائمة تحت السقف . وأجاب بصوت :

- « أدخل . »

كان صوت غريبه .

وفتح فوشلوفان الباب . كان منزل حفار القبور ، شأن منازل الموزين جميعاً ، بيتاً حقيراً غير مؤثث ولكنه مزدحم بالاشياء المبعثرة منها وهناك . كان صندوق أمتعة من ضرب ما - ولعله ان يكون نعشاً - يقوم مقام خزانة ذات ادراج ؛ وحشية من قش مقام سرير ؛ وإزاء للزبدة مقام حوض ماء ؛ وكانت ارض الغرفة تقوم مقام الكراسي والطاولة . وفي احدى الزوايا ، على خرقة كانت من قبل

مزقة بالية من سجادة ، تكدست ارضا مهزولة وجمهرة من الأولاد ؛  
 وكان كل ما في هذا المأوى البائس يحمل آثار بلبلة حديثة العهد . لقد  
 كان في ميسور المرء ان يزعم ان زلزالاً وقع ثمة « لشخص واحد » .  
 كانت اغطية الآنية مبعثرة ، والسياب البالية متناثرة ، والابريق  
 مكسوراً ، والأم تبكي ، والاطفال يترجعون في أغلب الظن من اثر  
 الضرب . كان كل شيء يؤذن بأن المكان قد خضع منذ قريب لتفتيش  
 عنيد مكثف . كان واضحاً ان حفار القبور انهك في البحث عن  
 بطاقته انهاكاً ضارباً وحمل كل ما في العلبة الحفيرة ، من الابريق الى  
 زوجته ، مسؤولية ضياعه . كان اليأس يرين على عيانه .

ولكن فوشلوفان كان يتعجل الوصول الى نهاية مغامرته تمجلاً جملة  
 لا يلاحظ هذا الجانب المظلم من انتصاره .

لقد دخل وقال :

« اني أحمل اليك مسحاتك وممولك . »

ونظر غريبه الىه في انشده :

« ماذا ؟ هذا انت ، ايا الفلاح ؟ »

« وغداً صباحاً ، سوف تجد بطاقتك عند بواب المقبرة . »

ووضع الممول والمسحة على الارض .

وتساءل غريبه :

« ما معنى ذلك كله ؟ »

« هذا يعني انك سمعت لبطاقتك بأن تنقط من جيبيك ؛ اني

وجدتها على الارض عندما ذهبت ؛ اني دفنت الجثة ؛ اني ودمت

القبور ؛ اني أتممت مهنتك ؛ أن البواب سوف يعطيك بطاقتك ؛ أنك

لن تضطر الى دفع خمسة عشر فرنكاً . هذا ما يعنيه ذلك كله ، ايا

المجتهد الجديد . »

فصاح غريبه ، في ذهول :

- وشكراً ، أيها الربيفي . في المرة القادمة سوف ادفع انماغن الحُر .

## ٨

### استجواب ناجح

بعد ساعة ، وفي جوف الليل البهيم ، وقف رجلان وطفلة فجاء رغم ٦٢ ، شارع بيكبوس الصغير . ورفع اكبر الرجلين سنّاً قارعةً الباب وخفّفه .

كانوا فوشلوفان ، وجان فالجان ، وكوزيت .  
وكان الرجلان قد انطلقا التماساً لكوزيت في دكان بائنة الفاكهة بشارع « الطريق الاخضر » حيث كان فوشلوفان قد وضعها الليلة البارحة . وكانت كوزيت قد سلخت تلك الساعات الاربع والعشرين منسائلةً عن معنى ذلك ، ومرتدةً في صمت . لقد ارتجفت الى درجة ذادت عن عينيها الدمع . إنها لم تذق طعاماً البتة ، ولم تم البتة . وكانت بائنة الفاكهة الفاضلة قد وجهت اليها مئة سؤال وسؤال من غير ان تنوز من الجواب باكثر من نظرة كثيفة لا تتغير على الاطلاق . فقد حرصت كوزيت على ان لا يندّ منها شيء مما سمعته ورأته منذ يومين . كانت قد حزرت أن ازمة قد نشأت . واستشعرت ، في قرارة نفسها ، أن عليها « أن تكون عاقلة » . ومن ذا الذي لم يعرف الاثر الأرفع الذي تنطوي عليه هذه الكلمات الثلاث مهموساً بها ، يجرس معين ، في أذن كائن صغير مروّع : « حذّروا أن تتكلم ! » ، إن الخوف أخرس . والى هذا ، فليس ثمة من يصون السرّ مثل طفل صغير .  
بيد أنها ما إن وقع بصرها كرة أخرى - بعد هذه الساعات الاربع والعشرين الفاجعة - على جان فالجان حتى اطلقت صيحة فرح .

كان في ميسور أنما ارىء مشغول البال ان يستشفّ فيها ، اذا ما سمعها ،  
نجاة من هاوية .

كان فوشلوفان من اهل الدير ، وكان يعرف كلمات السرّ . كانت  
الابواب كلها تفتح في وجهه .  
وكذلك 'حلت تلك المشكلة المزدوجة والمروّعة : مشكلة الخروج  
ثم الدخول من جديد .

وفتح البوابُ - وكان قد تلقى الأوامر - البوّيبَ الجاني الذي  
يصل ما بين الفناء والحديقة ، والذي كان لا يزال في ميسور المرء ان  
يراه ، منذ عشرين سنة ، من جانب الشارع ، في الجدار القائم في  
اقصى الفناء تجاه باب العربات . واجاز البواب لثلاثة جميعاً ان  
يدخلوا من هذا البوّيب ، ومن هناك شخصوا الى غرفة الاستقبال  
الداخلية الخاصة حيث تلقى فوشلوفان ، الليلة البارحة ، اوامر رئيسة  
الدير .

كانت الرئيسة تنتظرهم والسجدة في بدنها . وكانت احدى  
الامهات الصوتيات واقفة قربها 'مدلة' الحجاب . ولقد اضاءت شمعة  
كنوم غرفة الاستقبال ، او لعلها بدبت وكأنها تنيرها .  
وتأملت الرئيسة جان فالجان . وليس شيء اقدر على الدرس - من  
عين مغضوذة .

ثم إنها تقدّمت الى سؤاله :

- « أنت اخوه ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

- « نعم ، اينها الأم الموقرة . »

- « ما اسمك ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

- « أولتيم فوشلوفان . »  
لقد كان له اخ متوفى يدعى اولتيم .  
- « من اي جزء من البلاد أنت ؟ »  
فأجاب فوشلوفان :  
- « من بيكوبيني ، قرب آميان . »  
- « ما صرك ؟ »  
فأجاب فوشلوفان :  
- « خمسون سنة . »  
- « وما صنعتك ؟ »  
فأجاب فوشلوفان :  
- « بستاني . »  
- « هل أنت مسيحي صالح ؟ »  
فأجاب فوشلوفان :  
- « كل افراد اسرتنا هم كذلك . »  
- « أهذه هي فتاتك الصغيرة ؟ »  
فأجاب فوشلوفان :  
- « نعم . ابنتها الأم الموقرة . »  
- « ألنت أبوها ؟ »  
فأجاب فوشلوفان :  
- « جدّها . »  
وقالت الأم للرئيسة في صوت كالهمس :  
- « لأنه يجيب اجابة حسنة . »  
ولم يكن جان فالجان قد نطق بكلمة ما .  
وأنعمت الرئيسة النظر الى كوزيت ؛ ثم أسرت في أذن الأم  
الصوتية :

- « سوف تغدو بشعة . »

وفي صوت خفيض جداً تحدثت الأمان ، بضع دقائق ، في زاوية من زوايا غرفة الاستقبال ، ثم التفتت الرئيسة وقالت :

- « أيها الأب فوقان ، سوف تُعطى وافية رُكْبٍ أخرى ذات جليل . نحن نحتاج الآن الى اثنين . »

وهكذا سُمِع ، في الصباح التالي ، جليجلان يرتان في الجنينة . ولم تنالك الراهبات أن يرغمن إحدى زوايا «حُبَّيْن» . لقد رأين رجلين يخفزان جنباً الى جنب ، في أقصى الحديقة ، تحت الاشجار : فوقان وشخصاً آخر .

حدث ضخم ! وقُطِعَ جبل الصمت الى حدّ القول :

- « إنه يستائي مساعد ! »

واضافت الأمهات للصوتيات :

- « إنه أخو الأب فوقان . »

والواقع ان جان فالجان قُلت عمله على نحو نظامي . لقد حُمِّلَ وافية الرُكْبِ الجديدة والجليل . ومن ذلك الحين أمسى موظفاً رسمياً . وكان يُعرف باسم أولتيم فوشلوفان .

وكان أقوى الاسباب التي قرّرت قبول كوزيت ملاحظة الرئيسة : سوف تغدو بشعة .

وما إن لفظت الرئيسة هذا الحدس حتى ضمرت كوزيت بمودتها وافسحت لها مكاناً في المدرسة الداخلية بوصفها طالبة مجانية .

وليس ثمة شيء غير منطقي ، البتة ، في ذلك .

وعبثاً تنقص المرباة عن الأديرة . فالنساء يَعِينْنَ طَلَعَاتِهِنَّ . والفتيات اللواتي يعرفن أنهن جيلات لا يترهبن عن رضا وطيب نفس . واذ كانت النزعة الى الحياة الرهبانية متناسبةً تناسباً عكسياً مع الجمال ، فطبيعي ان يُعقد الأمل على التقيحات اكثر مما يُعقد على المليحات . ومن هنا ذلك الولوع

الشديد بالفتيات البشعات .

ورفعت هذه المسألة كلها من معنوية فوشلوفان الطيب العجوز . كان قد أحرز نصراً مثلثاً - في عيني جان فالجان بعد ان انقذه وآواه ، وعند حفار القبور ، غريبه ، الذي قال : لقد خلصني من دفع الغرامة ، وفي الدير الذي استطاع بفضل - من طريق الاحتفاظ بنعش الأم كروسيفكسيون تحت المذبح - ان يجتنب قيصر ، ويُرضي الرب . كان ثمة نعش ينطوي على جثان في د بيكبوس الصغير ، ، ونعش من غير جثان في مقبرة فوجيرار . لقد انتهكت حرمة النظام العام من غير ريب ، ولكن احداً لم يلح ذلك . اما الدير فكان عرفانه جميل فوشلوفان عبقراً . لقد غدا فوشلوفان أحسن الحدم ، وأعلى البستانيين . فعندما قام رئيس الاساقفة بزيارته التالية للدير قصّت الرئيسة الحادثة على سامع عظمت من باب الاعتراف ، من ناحية ، ومن باب الاعتزاز من ناحية . حتى اذا غادر رئيس الاساقفة الدير أسراً بذلك ، في إطرار ، في أذن مسيو دو لاثيل ، معرف الشقيق الثاني من أشقاء الملك ، الذي اصبح في ما بعد رئيس اساقفة ريمس وكاردينالاً . وانطلق هذا التناء على فوشلوفان والاعجاب به الى ابعد من ذلك ، اذ بلغ رومة نفسها . ولقد وقعت تحت عيني مذكرة وجهها البابا المتربع على الكرسي الرسولي آنذاك ، ليو الثاني عشر ، الى احد انسابه ، السفير البابوي في باريس ، الذي كان يدعى مثله ديلاً جانفا . لقد انطوت على هذه السطور : د يبدو ان ثمة في احد اديرة باريس ، بستانياً ممتازاً ذا قداسة ، يدعى فوفان . ، ولم يبلغ فوشلوفان في كوخه شي من هذه الشهرة التي نمت له . لقد واصل نطعم بطيخانه واقتلاع الاعشاب الضارة من حولها وتنظيفها ، من غير ان يعي امتيازاه وقداسته اقل الوعي . إنه لم يستشعر مجده اكثر مما يستشعر مجده اي ثور من ثيران دورهام أو دو سوري نُشِر صورته في مجلة د لندن للإسترايتد



نيوز ، وقد كُتِبَ تحتها : الثور الذي فال الجائزة في معوض  
الماشية .

## ٩

### الخاتمة

وفي الدير ، واصلت كوزيت صمتها .  
لقد اعتقدت ، على نحو طبيعي جداً ، انها بنت جان فالجان . والى  
هذا ، فقد كانت لا تعرف شيئاً . ومن هنا لم يكن في ميسورها ان  
تبوح بشيء . وعلى أية حال ، فقد كان خليقاً بها ، حتى لو عرفت ،  
ان لا تتكلم . فليس ثمة ما يعود الاطفال للصمت ، كما سبق أن قلنا ،  
مثل الشقاء . فقد لقيت كوزيت من البلاء قدراً جعلها تخشى كل شيء .  
حتى الكلام ، حتى التنفّس . فكم من مرة اسقطت كلمة واحدة وابلاً  
من الاذى على رأسها ! وكانت قد بدأت ، وما كادت ، تستنشق الطمأنينة  
منذ ان وافقت جان فالجان . وسرعان ما ألفت حياة الدير . ومع ذلك  
فقد ظلت تمحّن الى كاترين ، ولكنها لم تجرؤ على التصريح بذلك . بيد  
انها قالت لجان فالجان ذات يوم :

— « أبت ، لو كنت عارفة ، لملتئها معي . »

وكان على كوزيت ، وقد أصبحت طالبة داخلية في الدير ، أن  
ترتدي ملابس الطالبات . ووفّق جان فالجان الى إقناع جماعة الدير  
بأن يُعطوه الثياب التي اطّرحتها . كانت هي الثياب الحدادية نفسها  
التي جاءها بها لترتديها يوم فارقت تيناردييه وزوجته . ولم يكن البلى  
قد أصابها . ولفتّ جان فالجان هذه الثياب ، وأضاف اليها الجورب  
الصوفي والحدّاء ، ومقداراً وافراً من الكافور وغيره من ضروب

الطبيب التي تكثر في الأديرة ، ثم وضعها في حقيبة صغيرة 'وفتق الى الحصول عليها . ووضع هذه الحقيبة على كرسي قرب فراشه ، وحرص على الاحتفاظ بمفتاحها في جيبه .  
وسأله كوزيت ذات يوم :

- « أبت ، ما هذا الصندوق الذي تفوح منه هذه الرائحة الزكية جداً ؟ »  
وكوفي الأب فوشلوفان - الى جانب هذا المجد الذي وصفنا ، والذي لم يكن يعبه ، على صنيعه الحسن . لقد أوقع عمله ذلك السعادة في قلبه ، أولاً ، وخففت عنه وطأة الشغل ، بعد ان تقاسمه مع جان فالجان . واذ كان شديد الولوج بالتبغ فقد وجد في هذه الزمالة الجديدة نفعاً من ناحية اخرى . لقد اخذ ثلاثة اضعاف نصيبه القديم من التبغ ، وعلى نحو اكثر شراهة الى حد بعيد ، ما دام مسير مادلين هو الذي كان يدفع الثمن .

ولم تتبن الراهبات اسم أوليم . لقد دعرن جان فالجان فوفان الآخر .

ولو قد كان لهاته النسوة القدسيات عين كعين جافير ، افن للاحظن ، على مرّ الأيام ، أن فوشلوفان الاكبر سنّاً ، فوشلوفان المجهوز ، العاجز ، الأعرج ، كان هو الذي يرجع الى الخارج كلما قضت مصلحة الحديقة بذلك ، لا الرجل الآخر بحال من الاحوال . ولكن سواء اكانت الاعين المهددة ابداً الى الله عاجزة عن التجسس ، أم كانت منهكة على نحو موصول في مراقبة بعضها بعضاً ، فانهن لم يلاحظن شيئاً البتة .

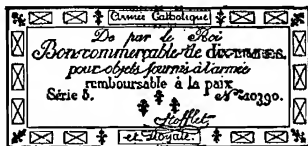
وأياً ما كان ، فقد ارتاح جان فالجان الى الاعتصام بالمدوء والسكينة . وراقب جافير الحيّ شهراً أو يزيد .

كان الدير بالنسبة الى جان فالجان أشبه بجزيرة تحيط بها اللجج . ومن ذلك الحين أمست هذه الجدران الاربعة هي العالم عنده . فضمتها

كان في ميسوره ان يرى السماء الى حدّ يوقع الطائنة في نفسه ،  
وكوزيت الى حدّ يُنتج فزاده .

لقد استهلّ ، من جديد ، حياةً صعبة جداً .

وعاش مع فوشلوفان المعجز في الكوخ الذي في أقصى الجنيّة . وكان  
هذا المأوى الحفير ، المبنيّ من حطام الجبس ، والذي كان لا يزال قائماً  
عام ١٨٤٥ ، يتألف كما نذكر ، من ثلاث غرف كلها عارية فليس فيها  
غير الجدران . وكان فوشلوفان قد ضغط على مسبو مادلين حتى أقنعه ،  
بعد معارضة عنيفة ، بالتزول في الغرفة الرئيسية منها . وكان يزّين  
جدار هذه الغرفة بالإضافة الى المسارين المحصّنين لتعليق الرُكبة والسلة  
الكبيرة ، نموذج " ملكي " من الاوراق النقدية الصادرة عام ٩٣ ،  
والمصقّة فوق الموقد ، والتي تقدّم هنا صورة طبق الاصل عنها :



كانت هذه الورقة النقدية التي أصدرت في فاندبي قد ستمرتها على  
الجدار يدُ البستاني السابق - وهو احد المتربين القدماء على الجمهورية -  
الذي توفي في الدير فخلّفه فوشلوفان .

وعمل جان فالجان كل يوم في الحديقة ، وكان عظيم الفناء هناك .  
كان من قبل مشدّب أغصان ، فانقلب الى بستاني عن رضا وطيب  
خاطر . والقراء يذكرون أنه كان يعرف جميع ضروب الوصفات

والاسرار الخاصة بالزراعة . ولقد أفاد من ذلك في عمله الجديد . كانت جميع شجرات الحديقة ، تقريباً ، شجرات برية . فلحقها وجعلها 'تعطي ثمرأً ممتازاً' .

وأجيز لكوزيت أن تفيدَ عليه كل يوم ، وتقضي ساعةً معه . وإذا كانت الراهبات مكتئبات ، وإذا كان هو لطيفاً ، فقد قارنت الطفلة ما بينه وبينهن ، وهامت به هياماً شديداً . ففي الساعة المعينة ، من كل يوم ، كانت تهرع الى الكوخ . حتى اذا دخلت ذلك المأوى العتيق ملأته بالجنة . لقد تهلل جان فالجان ، وأحسّ بعادته تتعاطم بسبب من السعادة التي أضفها على كوزيت . والواقع ان للبهجة التي تدخلها الى قلوب الناس هذه الخاصة الساحرة ، وهي أنها - وهي السني لا تعرف للنعسان مثل أيّ انعكاس آخر - ترتجع الينا اكثر اشراقاً من ذي قبل . وفي ساعات العطلة ، كان جان فالجان يراقبها - من بعيد - تلعب وتعدو ، وكان في ميسوره ان يميز ضحكها من ضحك رفيقاتها جميعاً .

ذلك بأن كوزيت عرفت الضحك الآن .

وحقاً بحيثاً كوزيت تغير بعض الشيء . كان الطابع الكئيب قد زال . فالضحك شمس . إنه يطرد الشتاء من الوجه البشري .

وهكذا غدت كوزيت ، وهي التي لم تكن جميلة في يوم من الايام ، فاتنةً من ناحية اخرى . كانت تقبل اشياء صغيرة معقولة بصوتها اللطيف العذب .

حتى اذا انتهت العطلة ، وفارقه كوزيت ، كان من دأب جان فالجان ان يراقب نوافذ غرفة صفها . أما في الليل ، فكان ينهض من فراشه ، ويلقي نظرة على نوافذ المجمع الذي كانت تنام فيه .

إن فقه طرائقه . فقد أسهم الدير ، كما أسهمت كوزيت ، في تثبيت محل الاسقف وإكاله في نفس جان فالجان . وليس في استنطاعة المرء ان

'ينكر ان وجهاً من أوجه الفضيلة ينتهي الى الغرور . وعند تلك النقطة تمتد جسر بناء الشيطان . ولقد كان جان فاجان ، في ما يبدو ، من غير أن يستشعر ذلك ، على مقربة من وجه الفضيلة ذاك عينه ، ومن ذلك الجسر عينه ، حين قذفت العناية الالهية به الى دير بيكبوس الصغير . كان خليقاً به ، ما دام لا يقارن نفسه إلا بالاسقف ، أن يجد نفسه غير كفؤ ، وان يظل متواضعاً . ولكنه بدأ ، منذ فترة من الزمان ، يقارن ما بينه وبين سائر الناس ، ومن هنا راح الغرور يُطلع رأسه في نفسه . ومن يدري ؟ لعله كان خليقاً بأن ينتهي الى الارتداد ، تدريجياً ، نحو البغض .

لقد أوقفه الدير عند هذا المنحدر .

كان هذا هو ثاني موطن من مواطن الأمر 'قدّر له ان يراه . ففي شبابه ، في ما كان بالنسبة اليه بدء الحياة ، وبعد ذلك ، منذ فترة قريبة جداً ، رأى موطناً آخر ، موطناً رهيباً ، موطناً فظيماً كانت ضروب القسوة التي ينطوي عليها تبدو له دائماً جوار العدالة ، وجريمة القانون . والآن ، بعد ان رأى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، رأى الدير . وإذا فكّر انه كان في ما مضى جزءاً من سجن الأشغالين ، وانه امسى لليوم ، اذا جاز التعبير ، شاهداً في الدير فقد قابل ما بينهما ، في تأملاته ، بقلق شديد .

وفي بعض الاحيان كان يتكىء على مسجانه ، ويهبط شيئاً بعد شيء معارج الاحلام اللولية التي ليس لها قرار .

لقد تذكّر رفاقه القدماء ، ومبلغ ما كانوا يعانونه من برؤس . كانوا ينهضون منذ الضحى ، ويكدهون حتى يهبط الليل . وما كان يُسمح لهم بالنوم الا نادراً . كانوا ينامون على سرر عسكرية ، ولم يكن ليجاز هم ان يتخذوا غير حشائبا تبلغ سماكتها إنشدين ليس غير ، في قاعات ما كانت تدفأ الا في أشهر الشتاء القارسة . كانوا يلبسون أردية حمراء ،

وكانوا يُعْطَوْنَ ، تَكْرِماً ، وتلطفاً ، بنطلوناً من نسيج قتيّ حين يبلغ القبط أسنّه ، ورقعة مربعة من نسيج صوفي يضعونها على ظهورهم في أيام الزمهرير . لم يكن عندهم خمر يحدسونها ، ولا لحم يأكلونه الا يوم يساقون الى عمل « شاق فوق العادة » . لقد عاشوا من غير أسماء - فهم لا يميزون إلا بالارقام ، وقد حوّلوا بمعنى ما الى أصفار - مطرقي الأبصار ، خافضي الاصوات ، حليقي الرؤوس ، تحت العصي ، وفي حاة العار .

ثم ارتدّت افكاره الى الكائنات اللواتي كنّ أمام عينيه .

لقد عاشت هذه الكائنات ، ايضاً حليقات الرؤوس ، مطرقات الابصار ، مكبوحات الأصوات . انهن لم يتمرغن في حاة العار ولكن كن محوطات بسخریات العالم . ان ظهورهن لم تتقّع من هراوة السجان ، ولكن اكتافهن كانت مزقة بالكفارة التي تُنْزَلُ كل منهن بنفسها . واحماؤهن ايضاً قد زالت من بين أسماء الناس ، فهنّ بعثن الآن بنعوت كالحة ليس غير . انهن لا يأكلن اللحم أبداً ولا يشربن الخمر أبداً . وكثيراً ما يقين حتى المساء من غير طعام . انهن لم يكنّ يلبسن اردية حمراء ، ولكنّ أكفاناً سوداء من صوفٍ ، غليظٍ في الصيف ، رقيقٍ في الشتاء ، غير فادرات على أن يزدنها او ينقصن منها ؛ غير مالكات حتى حق استبدال معطف من الصوف بثوب من القطن او ثوب من القطن بمعطف من الصوف ، تبعاً للفصول . وطوال ستة اشهر كن يرتدين قمصاناً من انجبة صوفية غليظة تورثنهن ضروباً من الحمى . وكنّ يسكنّ لا في قاعات تدفأ أيام الزمهرير فحسب ، ولكن في قلايا لا توقد النار فيها البتة . وكن يسنن على حشايا تبلغ مماكتها إنشئين ، ولكن على التبن . وفوق هذا فلم يكنّ ليُسمح لهن حتى بالنوم . فما إن يُسْمَنَ كدح النهار ، ويرزحن تحت وطأة النعاس ، حتى يُدْعَوْنَ كل ليلة - لحظة تكون الواحدة منهن قد بدأت تستسلم للرقاد وأوقعت في جسدها قليلاً

من الدفء - الى الاستيقاظ ، فينهضن ويجتمعن للصلاة في كنيسة مثالوجة مظلمة ، حيث تمس رُكبهن الارض الحجرية .

وفي بعض الأيام كان يتعين على كل من هاته المخلوقات ، واحدة اثر الاخرى ، ان تظل اثنتي عشرة ساعة متعاقبات راكمة على البلاط ، او مكتبة على وجهها متصالية الذراعين .

لقد كان اولئك رجالاً ؟ اما هؤلاء ففساء . ما الذي فعله اولئك الرجال ؟ لقد سرقوا ، واغضبوا ، وسلبوا ، وقتلوا ، وسفكوا الدماء . كانوا قطاع طرق ، ومزورين ، ومسممين ، ومحرقين ، وقتلة ، ومريقي دم آباءهم وامهاتهم . وما الذي فعلته هاته النسوة ؟ لهن لم يفعلن شيئاً .

في ناحية ، كانت السرقة ، والغدر ، والخديعة ، والعنف ، والفسق ، والقتل ، وكل ضرب من ضروب تدنيس القدسيات ، وكل صنف من صنوف انتهاك الحرمات . وفي الناحية الاخرى لم يكن غير شيء واحد : البرامة . -

البرامة الكاملة التي تكاد ترتفع ، في انتقال مقدس ، الى الاعالي ، فهي لا تزال مشدودة الى الارض بالفضيلة ، ولكنها توسك ان تمس السقاء بالقداسة .

في ناحية ، كان الاعتراف بالجرائم يُرسل في صوت مهموس . وفي الناحية الاخرى كان يُعترف بالخطايا جهاراً . ويا لها من جرائم ! ويا لها من خطايا !

وفي ناحية كانت أنجرة عفتة ، وفي الاخرى كان الطيب الذي يمتنع على الوصف . في ناحية كان الطاعون الاخلاقي ، المراقب ليلاً ونهاراً ، المسلطة عليه افواه المدافع ، المفترس ضحاياه في بطنه . وفي الاخرى ، كانت الارواح كلها تتعائق عناقاً عفيفاً على منشق الاشعاع نفسه . هناك الظلمات ؛ وهنا الظل ، ولكنه ظل مقعم بالنور ، النور المغمم بالاشعة

المتوهجة .

موطنان من مواطن العبودية . ولكنّ في اولهما اعتاقاً ممكناً ،  
فهناك نصبّ العيون ابدأً حدّ قانوني ، ثم هناك الفرار . اما في ثانيهما  
فليس غير الخلود ، وليس من أمل ، عند أقصى حدود المستقبل ، سوى  
شعاع الحرية الذي يدعوه الناس الموت .

في الموطن الأول ، كان الامر يُصدّدون بالاغلال فحسب . وفي  
الموطن الثاني كنّ يصدّدن بالايان لبس غير .

ما الذي نشأ عن الموطن الأول ؟ لعنة هائلة ، وصرير الأسنان ،  
والكراهية ، والحباثة اليائسة ، وصرخة غيظ في وجه المجتمع البشري ،  
وسخرية من السماء .

وما الذي نشأ عن الموطن الثاني ؟ البركة والحبّ .

وفي هذين الموطنين ، المتشابهين جدّاً المختلفين جدّاً ، كان هذان  
الضربان من الخلوقات ، الشديدة التباين ، يقومان بالعمل نفسه :  
التكفير .

وفهم جان فالجان احسن الفهم تكفير الفئة الاولى ؛ التكفير الشخصي ؛  
التكفير من اجل النفس . ولكنه لم يفهم تكفير الفئة الاخرى ، تكفير  
هذه الخلوقات المنزهات عن اللوم ، المعصومات عن الدنس . وسأل  
نفسه في ارتعاد : « التكفير عن ماذا ؟ أيّ تكفير هذا ؟ »

فأجابه صوت في وجدانه يقول : « انه أقدس ضروب الجود  
الانساني ، التكفير من اجل الآخرين . »

وهنا نحتفظ بنظريتنا جميعاً . فلننا غير قاصٍ من القصّاص . وإنّا  
نقول ما نقوله من وجهة نظر جان فالجان ، ونعبّر عن انطباعاته  
بمجرد تعبير .

كانت نصبّ عينيّ القيمة العليا لانكار الذات ، قنّة الفضيلة الاكثر  
سموّاً ؛ والبراءة الغافرة للناس آثامهم المكفّرة عنها بالنيابة عنهم ؛



والعبودية محزنة ؛ والعذاب مقبولاً ؛ والعقوبة والشقاء وقد ألحت في طلبهما نفوس لم تأثم ، لكي تشجي منهما نفوساً آتية ؛ وحب الإنسانية فانياً في حب الله ولكنه باقٍ هناك متميزاً متضرعاً ؛ وكائنات ضعيفات لطيفات تحمل كل عذاب أولئك الذين أزلت العقوبة بهم ، وتحفظ رغم ذلك بابتسامة أولئك الذين فازوا بالمكافأة .

وتذكر أنه تجرباً على الشكوى !

وكان كثيراً ما ينهض من فراشه ، في جوف الليل ، ليصفي الى الانشاد الشكور المنطلق من حناجر هاته المخلوقات البرية ، المثقلة بضروب القوة . ولقد استشر الدم يجري بارداً في عروقه حين فكّر ان أولئك المعاقين بحق لا يرفعون اصواتهم نحو السماء أبداً إلا لكي يجدفوا ؛ وانه هو - برغم شقائه كله - قد هزّ 'جمع كفه في وجه الرب' !

وشيء آخر غريب جعله يعم في التفكير والتأمل وكأنه وحيّ همّت به في أذنه العناية الإلهية نفسها : إن تسوّر الجدران ، واجتياز الأسبجة ، والمخاطرة بالحياة حتى الموت ، والصعود العسير المذلّ ، جميع هذه الجهود التي بذلها في سبيل الخروج من موطن التكفير الاول هي بعينها التي بذلها من اجل الدخول الى موطن التكفير الثاني . أياكون هذا رمزاً على قدره ؟

لقد كان هذا البيت سجناً ايضاً ، وكان يشبه شيئاً كثيراً ذلك المأوى الآخر الذي فرّ منه ؛ ومع ذلك فلم يتخيّل قط من قبل شيئاً مثله .

لقد بهرّ كرهة أخرى بالابواب والنوافذ الملتصبة ، وبالزجاج ، وبالقضبان الحديدية . ولكن لتعبس من ؟ الملائكة .

وهذه الجدران السامقة التي وآها في ما مضى تطوّق أنهاراً ، أمسى يراها ، اليوم ، تطوّق محلاتاً .

كان موطن تكفير ، لا موطن فصاص . ومع ذلك فقد كان اكثر جهامة ، واكثر كآبة ، واكثر قسوة ، من الموطن الآخر . كانت ظهور هؤلاء العذارى محنية في خشونة دونها الخشونة التي 'حنيت بها ظهور المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . كانت ربيع باردة عنيفة ، الريح التي جعلت شبابه مثلوجاً ، تخرق الخندق المحصن بالحديد ، وتكبل العقبان . ولكن رجاً أشدّ لذعاً واكثر وحشية هبت على قفص الحمام . لماذا ؟

حين فكرت في هذه الاشياء تراجع كل ما كان يعتلج في ذاته أمام سرّ السمّ هذا .

وفي هذه التأملات ، تلاشى الغرور . لقد عاد الى نفسه مرةً ومرة . لقد استشعر حقارته البالغة . وسفح الدمع في كثير من الاحيان . كان كلّ ما دخل حياته ، منذ ستة أشهر ، قد رده نحو وصايا الاستغف القدسية ؛ كوزيت بالحبّ ، والدير بالخشوع .

وبعض الاحيان ، حين يهبط الليل عند الغسق ، في تلك الساعة التي تغفر فيها الحديقة ، كان يُرى راکماً وسط المجاز المهادي للكنيسة ، أمام النافذة التي نظر من خلالها ليلة وصوله ، متجهاً الى حيث كانت الاخوت المستغفرة ساجدة مصلية على ما يعلم . وهكذا صلى راکماً امام هذه الاخوت .

لقد بدا وكأنه لا يجرؤ على الركوع امام الله مباشرة . ولم يلبث كل ما حوله : هذه الحديقة المطمّنة ، هذه الرياحين العاطرة ، هؤلاء الاطفال الصائحون صيحات البهجة ، هاته النسوة الوقورات البسيطات ، هذا الدير الصامت - لم يلبث كل هذا ان داخل كيانه كله تدريجياً . شيئاً بعد شيء . تكونت نفسه من صمت مثل هذا الدير ، ومن عطر مثل هذه الرياحين ، ومن طمأنينة مثل هذه الحديقة ، ومن بساطة مثل هاته النسوة ، ومن بهجة مثل هؤلاء الاطفال . ثم فكر ان يبتين من

بيوت الله قد استقبله ، على التعاقب ، في لحظتي حياته المصيبتين :  
الاول حين أوصد في وجهه كل باب ونبذه المجتمع البشري ؛ والثاني  
حين طارده المجتمع البشري من جديد وفقر سجنُ الاشغال الشاقة فمه  
لابتلاءه . وانه لولا الاول لتودى في مهاوي الجريمة كرة اخرى ،  
ولولا الثاني لتودى في مهاوي العقاب .  
وذاب فؤاده كله اعترافاً بالجميل ، وتعلق بأهداب الحب اكثر فأكثر .  
وانقضت على هذا النحو عدة سنوات . وكبرت كوزيت .



## فهرست القسم الثاني : « كوزيت »

### المسكتاب الاول : واترلو

ص

١	ما الذي تلتقيه وانت هبل من نيفيل	٧
٢	هوغومون	١٠
٣	١٨ حزيران ، ١٨١٥	٢٠
٤	A	٢٤
٥	« الشيء المظلم » في الممارك	٢٧
٦	الساعة الرابعة بعد الظهر	٣٢
٧	نابوليون تطلق انجيا	٣٦
٨	الامبراطور يوجه سؤالاً الى الدليل لاکوست	٤٥
٩	ما لم يكن مترقماً	٤٩
١٠	نجد « مون سان جان »	٥٥
١١	دليل رديمه لنابوليون ودليل جيد لبولوف	٦٢
١٢	الحرس	٦٥
١٤	التسكبة	٦٧
١٤	الربيع الاخير	٧٠
١٥	كامبرون	٧٢
١٦	كم بارة في القيرة ؟	٧٦
١٧	أبنيبي لنا ان نستحسن واترلو ؟	٨٤
١٨	تسكة الحق الاظمي	٨٦
١٩	ساحة المركبة ليلاً	٩١

## الكتاب الثاني : الدارعة « اوريون »

ص	
١٠١	١ . رقم ٢٤٦٠١ يصبح رقم ٩٤٣٠ . . . . .
١٠٥	٢ . حيث تقرأ بيتين من الشعر لهما من عمل الشيطان . . . . .
	٣ . وفيه يظهر ان سلسلة الطوق الحديدي لا بد . . . . .
	ان تكون قد خضعت لعمل إعدادي ما لكي . . . . .
١١٢	تتكسر على هذا النحو بفربة مطرقة . . . . .

## الكتاب الثالث : الوفاء بالعهد المقطوع للراحلة

١٢٤	١ . مسألة المياه في مونفيرماي . . . . .
١٢٩	٢ . رحمان يكتملان . . . . .
١٣٦	٣ . يجب ان يشرب الرجال الخمر وأن تشرب الخيل الماء . . . . .
١٤٠	٤ . دخول دعبة الى المسرح . . . . .
١٤٧	٥ . الصنيرة فريسة الوحدة . . . . .
١٥٤	٦ . وهو ما قد ينهض دليلاً على ذلك بولاتروويل . . . . .
١٦١	٧ : كوزيت مع المجهول جنباً الى جنب ، وفي غمرة الظلام . . . . .
١٦٦	٨ . ما أبغض ان تضيف فقيراً ربما كان غنياً . . . . .
١٩١	٩ . تيناوديه يناور . . . . .
٢٠٣	١٠ . من يلتبس الأحسن قد يقع على الاسوأ . . . . .
٢١٠	١١ . رقم ٩٤٣٠ يظهر كرة اخرى وكوزيت تربحه في اليانصيب . . . . .

## الكتاب الرابع : بيت غوربو العتيق

٢١٣	١ . الاستاذ غوربو . . . . .
٢٢٢	٢ . عشّ البوم ودخلة . . . . .
٢٢٤	٣ . بؤسان يتزجان فيولدان سعادة . . . . .
٢٣٠	٤ . ملاحظات المتأجرة الرئيسية . . . . .
	٥ . قطعة نقدية من فئة الخطة فرنكات . . . . .
٢٣٣	تقع على الارض فتحدث ضجة . . . . .

## الكتاب الخامس : المطاردة السوداء تحتاج الى كلاب قنص صامتة

٢٣٨	١ . خطوط المتراجية المتمرجة . . . . .
-----	---------------------------------------

- ٢ . من حسن الطالع ان في ميسور المرات  
ان تجاوز جسر امستريتز . . . . . ٢٤٣  
٣ . انظر مخطط باريس عام ١٧٢٧ . . . . . ٢٤٥  
٤ . جان فالجان يلتمس في الظلام سبيله الى النجاة . . . . . ٢٥٠  
٥ . وهو ما كان متقدراً لو ان الثوار اعاضت بالغاز . . . . . ٢٥٣  
٦ . بدء أحجية . . . . . ٢٥٨  
٧ . الأحجية تستمر . . . . . ٢٦٢  
٨ . الاحجية تنتقد . . . . . ٢٦٥  
٩ . الرجل ذو الجبل . . . . . ٢٦٨  
١٠ . وفي يتضح كيف أضع جافير الطريدة . . . . . ٢٧٤

### الكتاب السادس : بيكبوس الصغير

- ١ . شارع بيكبوس الصغير ، رقم ٦٢ . . . . . ٢٩١  
٢ . راهبات الطاعة لمارتي فيرغا . . . . . ٢٩٦  
٣ . ضروب من القدوة والصرامة . . . . . ٣٠٦  
٤ . مباحج . . . . . ٣٠٨  
٥ . شواغل . . . . . ٣١٣  
٦ . الدير الصغير . . . . . ٣٢٠  
٧ . بعض الصور المظلمة في هذا الظلام . . . . . ٣٢٤  
٨ . « بند القلوب الحجارة » . . . . . ٣٢٧  
٩ . قرن من الزمان في زيّ الراهبات . . . . . ٣٣٠  
١٠ . أصل « السجود السرمدى » . . . . . ٣٣٣  
١١ . نهاية « بيكبوس الصغير » . . . . . ٣٣٥

### الكتاب السابع : بين هلالين

- ١ . الدير بوصفه فكرة مجردة . . . . . ٣٣٨  
٢ . الدير بوصفه واقعة تاريخية . . . . . ٣٣٩  
٣ . بأي شرط نستطيع ان نحترم الماضي . . . . . ٣٤٤  
٤ . الدير من وجهة النظر المبدئية . . . . . ٣٤٧  
٥ . الصلاة . . . . . ٣٥٠

٣٥١	٦ . تجربة الصلاة المطلقة . . . . .
٣٥٥	٧ . احتياطات يجب أن تنخذ في اليوم . . . . .
٣٥٦	٨ . الايمان - القانون . . . . .

### الكتاب الثامن : المقابر تأخذ ما يُقدّم اليها

٣٦٠	١ . وهو يمالج طريقة الدخول الى القبر . . . . .
٣٧١	٢ . غوشولان يواجه الصعوبة . . . . .
٣٧٤	٣ . الأم ابترصانت . . . . .
	٤ . حيث يظهر جان فالجان يظهر من فرأ . . . . .
٣٩١	٥ . اوسن كاستيليجو ظاماً . . . . .
	٥ . ليس يكفى ان تكون مكبراً . . . . .
٣٩٩	٥ . لكي تكون عذلاً . . . . .
٤٠٩	٦ . بين اربعة الواح . . . . .
٤١٢	٧ . حيث نكتشف اصل قولهم : لا تضع بطاقتك . . . . .
٤٢٤	٧ . استجواب فاجع . . . . .
٤٢٩	٩ . الحاشية . . . . .



## قالوا ...

● « ... وكان آخر ما أتحدثنا به « قصة مدينتين » لشارلز ديكنز . فما هالك منها ضحامة في حجبها ، ولا مشقة في تذليل أو ابدها . بل آليت على نفسك ان تنقلها « كاملة غير منقوصة » ، فأحسنت بذلك الى نفسك ، والى العربية ، والى ديكنز . وكنت اميناً في عملك منتهى الامانة . فلا تحوير ولا تزوير كما هي الحال مع الكثيرين من المترجمين . وكنت حذقاً ولبقاً في تغلبك على القصص من التعابير والمصطلحات الانكليزية ثم في خلعتك على الترجمة كلها حلة عربية محكمة النسيج ، لطيفة التفاصيل ، مشرقة اللون ...

وها انك منصرف في هذه الايام الى ترجمة « البؤساء » لميفو في نصها الكامل . وهو عمل ضخم ، ولكنه ضروري . اذ من الحيف ان لا يعرف العرب تلك الرواية الشهيرة الا في ترجمة حافظ ابراهيم المدسوخة . ولست اعرف من هو اقدر منك على إنصاف الرواية وصاحبها لدى القاريء العربي ... »

## يسكتنا - ميخائيل نعيمة

● « ... والذي يعجبني في ترجمة البعلبكي هو انه قد يفتش عن الكلمة الملائمة بالفتيلة والسراج ، واذا لم يجدها فوراً صبر عليها حتى تأتي . فمن فائته مطالعة الآثار الادبية بلغتها الأم يمكنه ان يعتمد على ترجمة منير فهي اقرب ما

يُترجم اليوم الى الأصل. قلت « اقرب » لان لكل لغة حلاوتها وطعمها ولونها. أما سلامة عبارته فقد تكون ، لا بل هي ، اسلم تعبير عن الفكرة الاجنبية التي ينقلها الاستاذ الى العربية، فلا حشو ولا ثثرة، بل امانة كلية في التأدية ...»

بيروت، « المجالس المصورة » - مارون عبود

● «... اذا كان للمؤلف فضل فللمترجم في اعتقادي فضلان ! لانه متى اراد القيام بالترجمة كما يجب تحتم عليه ان يكون المؤلف عينه من جهة ثم ان يكون هو نفسه من جهة ثانية ... هذه الفكرة خطرت لي غيباً قراءتي لترجمة كتاب « الشيخ والبحر » فقد أعجبتُ بالتعريب اعجاباً يفوق اعجابي بالقصة . ومنذ ذلك الحين بدأت ارافق صديقي الاستاذ منير البعلبكي في ما ينتج من ترجمات ، واصبحت اقرأ بالعربية ما كنت اقرأه من ادب الانكليز والالمان والروس والاميركان . ثم اعدت النظر في بعض ما كان منير البعلبكي قد ترجمه قبل « الشيخ والبحر » مما فاتني الاطلاع عليه ، فزاد يقيني بأن الترجمة ايضاً من الفنون العالية ما دام عنصر التعب فيها جلياً بمقدار ما هو في الشعر والموسيقى ...»

بيروت - « جريدة الجريدة » - رفيق الماعوف

● «... انت كاتب تربطك بكرامة التعبير ومسؤولية الفكر اسباب واعية، ومن هنا كانت امانتك في الترجمة ، وانت رجل واعٍ لوظيفة الفكر والفن في المرحلة الراهنة من مراحل قوميتنا العربية ، ومن هنا فانت تختار ترجمتك بما يتلاءم مع حاجات الوجدان العربي والذهن العربي على السواء ، مما يساعد على خلق الفرد الواعي لوجوده ، لمشكلاته الحقيقية ، لأبعاد ماضيه وحاضره ومستقبله ...»

القاهرة - رجاء النقاش

● «... اما الأستاذ منير فأن رأيي في انتاجه الرائع هو رأي كل منصف يتذوق ويميز الغث من السمين . إن ترجماته أشبه بالهضاب الوطيدة الشائعة ، بناءً ولغة وفكرة » ، الى جانب غبار من الترجمات تثيره اقلام لو عرفت قدرها لتلهذت طويلاً على انتاج الأستاذ منير قبل أن تخطّ بجملة عربية او تمسك بزمام فكرة ... »

حلب - سليمان العيسى

● «... ولا يكفي منير البعلبكي بمجرد الترجمة ولكن يضيف اليها من الحواشي والتعليقات والشروح ما يرتفع بجهد الى حيث يغدو مشاوة فعلية في التأليف وليس مجرد نقل من لغة الى لغة فحسب . وهو بهذه الهوامش الكثيرة جداً التي تنتشر في كل صفحة من صفحات الكتاب تقريباً انما ييسر للقاري العربي ان لا تقوته صغيرة ولا كبيرة من الاسماء والاماكن والحوادث التي في الكتاب ... وجهد البحث والتنقيب مضافاً اليه جهد الترجمة والمقارنة بين النسخة الفرنسية والنسخة الانكليزية هو الذي أعنيه بالمشاوة الفعلية في التأليف ... »

عمان - « جريدة فلسطين » ، عيسى الناعوري

● «... حري بنا اذن ان نكبر في المترجم هذا الدأب الموصول وان نقدّر له فضله في تعريف القاري العربي الى شوامخ القصص العالمي التي كان أحدثها ترجمة « الشيخ والبحر » لارنت همنغواي ترجمة تكاد ان تكون كاملة بامانتها وصفائها وتلك الروعة التي اضافها المترجم على اسلوبه ، وما كنت لأقع على مثلها في ترجمة الكتاب نفسه الى اللغة الفرنسية ! »

بيروت - « جريدة الحياة » ، ابن يقطان

انتهى المجلد الثاني  
وبليه المجلد الثالث

٢٤٧ / ١٠ / ٥٥ / ٢٠٠٠